الخطيب المؤثر وفن الوصول إليه

وكتبه

أ.د. محمود الحفناوي الأنصاري

أستاذ مشارك في الجامعة الإسلامية - بروكسيل - غرب أفريقيا

عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه وجميع المسلمين

دار الأمل
للطبع والنشر والتوزيع

الخطيب المؤثر وفن الوصول إليه

أ.د. محمود الحفناوي الأنصاري

دار الأمل
للطبع والنشر والتوزيع

الخطيب المؤثر

وفن الوصول إليه

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

رقم الإيداع

٢٠١٩/٣٥٣٣م

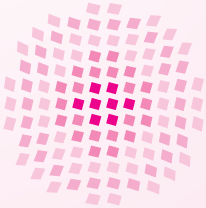

دار الأمل

صناعةُ فكر ومنارةُ وعي

Daralamal2014@gmail.com

الجـــــوال : 6 0100028216

الخطيب المؤثر
وفن الوصول إليه

وكتبه

أ. د. محمود الحفناوي الأنصاري

أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية - بروكسل - غرب أفريقيا

عفا الله عنه، وعن والديه، ومشايخه،

وزوجاته، وأبنائه، وطلابه

alhefnawy200022@gmail.com

دار الأمل

صناعةُ فكر ومنارةُ وعي

Daralamal2014@gmail.com

الجـــــوال : 6 0100028216

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فارس المنبر

★حتى يكونَ حديثُك عامِرًا له أنداء وأفياء.. وظلال وأبعاد..

★وحتى يكونَ كلامُك مؤنسًا ممتعًا.. منعشًا مشوقًا..

★وحتى يكونَ قولُك مطربًا مغريًا.. خفيفًا شائعًا..

★وحتى يكونَ أسلوبُك لطيفًا شريفًا.. باسمًا مبهجًا..

★وحتى يكونَ موضوعُك عليه طلاوة.. وله حلاوة.. وفيه نضارة..

★وحتى تؤثرَ في الآخرين فتبْذُرَ فيهم التفاهمَ والتكاتفَ.. فتجني التضامنَ والتعاون..

★وحتى تكونَ كذلك بل أكثر.. انطلق معي أخي المميَّز المبدع في هذه السطورِ حتى نجولَ ونصولَ ونتعلمَ مهارةَ المبدعين المتميزين (أنت بالطبع أحدهم) مهارةَ العظماء.. وصنعةَ الأبطالِ.. مهارةَ الإلقاءِ الفعَّالِ المثمرِ على دراسةٍ منهجيةٍ تُركِّزُ على الجوانبِ العمليةِ أكثر.. وهذا الكتاب يمثل خطوة من خطوات النهوض بالخطيب ورسالته.

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله لا نحصي ثناء عليه كما أثنى على نفسه. فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، له الحمد كالذي نقول وخيرًا مما نقول وله الحمد أن هدانا لحمده، وعرفنا به، ونسأله تعالى أن يرزقنا الإيمان به، والثبات على الإيمان حتى نلقاه.

والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة، الذي بلّغ البلاغ المبين، وأدى الأمانة كاملة، وكان العبد الكامل لسيده ومولاه، والرسول الكامل، والنبي المبجل والمكرم والإمام فصلوات الله عليه وسلامه. وبعد.

فقد نفدت الطبعة الأولى من كتابي **(الخطيب المؤثر وفن الوصول إليه)** الذي يحتاجه كل خطيب، من معرض الكتاب الدولي بالقاهرة لعام ٢٠١٩م بعد صدوره مباشرة، وهذا بفضل الله ومنته وكرمه وجوده.

وقد رغب إليّ الكثيرون ممن قرءوه وانتفعوا به، من الخطباء وطلبة العلم الشرعي، وغيرهم من طلاب المعرفة، من طباعته مرة أخرى.

وقد رأيت أن تجيء هذه الطبعة الثانية -كما هي سنة الله في التطور والارتقاء- مشتملة على مزيد من التحقيقات، ومن الإضافات التي لا يستغني عنها الخطباء الذين نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد عملت في هذه الطبعة عن سابقتيها بتدارك الأخطاء المطبعية واللغوية، وتخريج الأحاديث والآثارالواردة في الكتاب والحكم عليها، وتقديم وتأخير ما يجب تقديمه وتأخيره من الفصول.

هذا وأسأل المولى تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يكتب له القبول في الأرض، وأن يصل لكل خطيب مسلم في ربوع الأرض، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الكاتب والخطيب والقاريء والناشر وجميع المسلمين. آمين

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أ. د. محمود الحفناوي الأنصاري

أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية - بروكسل - غرب أفريقيا

عفا الله عنه، وعن والديه، ومشايخه،

وزوجاته، وأبنائه، وطلابه

alhefnawy200022@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على خاتمِ الأنبياءِ وإمامِ المرسلين سيِّدنا ومولانا رسول الله محمد وعلى أهله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإنَّ الخطابةَ من أهمِّ وسائل تبليغ الفِكَرِ للآخرين وأسرعها سبيلًا إلى أسماعهم وعقولهم خلال تجمُّعاتهم في المحافلِ والمنتدياتِ ومناسباتِ اللّقاءِ الجماعيّ المختلفة.

كان لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منبر واحد مصنوع من الخشب، ليس فيه براعة النقش ولا روعة الفن، دعا الأمة منه؛ فلبَّت الدنيا واستجاب العالم وتغير وجه الأرض وأشرقت بعد ظلماتها وعماها بنور ربها من خلال دعوة نبيِّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واليوم تملك الأمة أكثر من مائة ألف منبر أو يزيد في أنحاء المعمورة، أكثرها مزخرف منقوش، تفنن في تشييده أهل العمارة وعباقرة الفن، تحوي المكبرات والإذاعات التي تحمل الصوت إلى آفاق البلاد؛ فيسمع خطباؤها الملايين ورغم ذلك كله فلا نلمس لها أثرًا في إصلاح ولا توجيهًا للأمة ولا علاجًا للانحرافات والأمراض إلا ما رحم الله!، والجواب: فتش عن أهل المنابر الحق.

نعم إن المنبر إذا أُحسن استغلاله والاستفادة منه وتوجيهه كان له أعظم الأثر في الأمة لما يمثله من مهابة ومكانة في حس كثير من المسلمين.

وإصلاح المنبر لا يكون بزخرفته وتشييده، وإنما يكون بالنهوض به وإصلاح من يرتقيه، وهو الخطيب.

ويكون بتبصير الخطيب برسالته ودوره وأثره، ويكون بإشعاره بمكانة الثغر الذي يقف عليه، وتحذيره من أن تؤتى الأمة من قِبَلِهِ، ويكون بتكاتف الأمة ولاةً وعلماءَ ودعاةً ومصلحين وخطباءَ وعامةً، وبتكاتف هؤلاء جميعًا وجهودهم للنهوض بالخطبة والخطيب من خلال الدراسات الشرعية التي تُعنى بذلك، ومن خلال إنشاء المعاهد والجامعات التي تُخرِّج الخطباء النجباء.

ومن خلال تنظيم الدورات التدريبية، والمؤتمرات الدورية، والتناصح بين الأئمة والعلماء والخطباء، وتبادل التجارب والخبرات.

كما يكون بالعمل على تحقيق كفاية الخطباء، وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم، وتوفير حرية الصدع بالكلمة دون خوف أو ضرر.

وهذا الكتاب يمثل خطوة من خطوات النهوض بالخطيب ورسالته.

ولكن لا يخفى أن هذا الكتاب وغيره لا ينشئ خطيبًا مفوهًا ومتحدثًا مؤثرًا، فهو لا يجعل من العييِّ فصيحًا، ولكنه نبراس ومنار يستضيء به صاحب الموهبة والاستعداد، ومعين ينمي الموهبة ويتعهدها، فلا يخفى عليك أن السراج المنير لا يستفيد منه غير البصير، بل إن أرسطو واضع كتاب الخطابة لم يكن خطيبًا، بل قال فيه الجاحظ: «إنه كان بكيء اللسان»، أي قَلَّ كلامُه خِلْقَةً.

ونظرًا لتعرُّض هذا الفنِّ اللِّسانيّ، والنَّمط القوليّ في أيّامنا هذه لاضطراباتٍ وخللٍ، وتصدى غيرِ أهلِه له، وممارسته بصيغٍ ملتويةٍ، ومظاهرَ هشَّةٍ، باتَ من

الضرورةِ بمكانٍ أن يوضعَ بين أيدي سالكيه ما يدلُّهم على طريقتِه الصحيحةِ، وصيغتِه الأدائيَّةِ الحسنةِ، وخصائصِه الهامَّةِ التي تُمكِّن مَنْ فَقِهها والتَزَمها من إرتقاء ذِروتَه، وبلوغ غايتَه، حتى يصبح من الخطباءِ الناجحين، والمتحدِّثين المؤثِّرين، والمبلِّغين اللَّامعين.

إنما نُريد من هذا الكتاب أن نُقوِّمَ به الخطباءَ، ونَصلَ بهم إلى أعلى مستوى في فنِّ الخطابةِ والإلقاءِ، ونصلَ بالخطيبِ إلى درجةِ الإتقان في هذا الفنِ، ونُحسِّنَ من مستوى الخطيبِ، ونصل إلى الخطيب المؤثر.

الخطيب المؤثر هو: الذي يفهم الإسلام بشموله، وجميع محتوياته، من عبادات وآداب ومعاملات وعقائد وأخلاق وتشريعات.

فما أحوجنا اليوم إلى من يفهم الإسلام ويحسن عرضه.

فكثيرًا ما تأتي الإساءة من قبل الذين لا يفهمون الإسلام، وفي الوقت نفسه لا يحسنون عرضه على المسلمين، ولا على غيرهم.

الخطيب المؤثر هو الذي: يحدد الظاهرة التي يريد أن يتناولها، فيعيش معها سحابة النهار وجزءًا من الليل، فيستغرق جل همه ومحتوى فكره مدندنًا حولها، ومصغيًا إليها، حتى إذا غمرت عقله وسرت في شرايينه، تحرك قلمه الدافئ يحفر أفكارًا، حتى إذا وقف على المنبر فاسترجع ما كتب كان مصيبًا في حسن الأداء، وعمق الربط بين الفكرة والتي تليها، دون أن ينسى استمالة القلوب، وتهييج المشاعر، وإيقاظ الوجدان.

الخطيب المؤثر هو: ذلك الإعلامي الذي يعرف أخبار أُمَّته، فيقوم بإعدادها وتبسيطها، وصياغة عرضها إلى خليط من الناس مختلفي المنهل والمشرب.

الخطيب المؤثر: محب ودود، يَأْلف ويُؤْلف، فلا يعزل نفسه عن الناس، بل يسأل عنهم، ويغشَى مجالسهم، ويبارك أفراحهم، ويواسي جراحهم.

الخطيب المؤثر: له في القلوب مكانة، ولدى النفوس منزلة؛ لأنه عنصر من عناصر الخير والنماء.

الخطيب المؤثر هو: من يدرك آلام أمته وآمالها، فيخفف الآلام، ويمسح الجراح، ويهون الداء، وينفث في الآمال لينتشي ويرتقي بها نحو آفاق رحبة عالية.

الخطيب المؤثر هو: ينبوع متدفق من الخير والعطاء؛ لأنه يحب ويعطي عن أريحية ورضى، لا سِيَّما وأن الشفقة على الخلق إحدى سماته وصفاته، يرى المنكر فلا يسكت عليه، ويصوغه في قالب خطابي تربوي مؤثر، يوقظ الوسنان، ويروي الظمآن، ويؤنس الرجفان، ويقود العميان إلى دروب الحق وميادين المعرفة.

الخطيب المؤثر هو: من يعلم أنه من سكان الأرض، وليس من سكان زحل، فيكون واقعيًّا منطقيًّا ويتكلم عن بيئة الحاضرين، ويعش واقعهم ومجتمعهم، ويتذكر أن لكل مقام مقالا، ولكل حادثة حديثًا.

الخطيب المؤثر: لا يقل أهمية عن المقاتل في صدر الجيش، يذود عن أمته بروحه؛ لأنه يحمي عقائدها من الدخن والدخل.

الخطيب المؤثر هو: لسان أمته المعبر، وترجمانها المؤثر، وقلبها النابض، وشريانها المتدفق، بل هو روح جديدة تسرى في نبضاتها وشرايينها وأبنيتها وكل مؤسساتها.

الخطيب المؤثر: مرجع للمرضى والزَّمنَى والعطشى وذي الحاجة والدَّيْن.

الخطيب المؤثر: يستلهم الحَدَث ليربي به تلك الجموع الغفيرة التي قَدِمَت إليه، وانساقت له، ورغبت فيه، فلا يمكن أن يمر حدث على الخطيب الناجح دون حسّ تربوي مؤثر، أو موعظة بليغة، أو ربط جيد بالآخرة، أو استنفار وبعث بالأمل بامتداد أنفاس الحياة، والتهوين من أمر الدنيا.

أيها الخطيب المؤثر: هناك فرقٌ بين من يؤدي واجبَ الخطابةِ الذي إذا قام به بعضهم سقطَ عن الآخرين، والخطيبِ المؤثر الذي يتعلمُ فنونَ الخطابةِ، فيكون مبدعًا في إلقائِه، جديرًا بمكانِه، يستحوذُ على جمهورِه، يؤمنُ برسالتِه، يقدمُ للناسِ رسالةً عظيمةً من خلالِ مِنْبرِه، فيهذبُ أخلاقَهُم، ويُقَوِّمُ سلوكَهُم، ويهديهم إلى سواءِ السبيلِ بإذن اللهِ تعالى.

إن هذا الموضوع رسالةٌ عظيمةٌ، لها هدفٌ عظيمٌ، ودورٌ دعوي مهمٌ جِدًّا، لابُدَّ أن ننتبهَ لهذا الفَنِّ، فنتعلَّمه، ونخصصُ له الوقتَ والطلبةَ من الذين يحبونه ويجيدونه.

عملي في الكتاب

هذا وقد رتبت الكتاب على النحو التالي:

مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب:

الباب الأول: وفيه الفصول الآتية:

الفصل الأول: مقدِّمة لغويَّة.

- المبحث الأول: التعريف اللغوي للخطابة.
- المبحث الثاني: فوائد الخطابة.
- المبحث الثالث: طرق تحصيل الخطابة.
- المبحث الرابع: مقصود الخطيب من الخطبة

الفصل الثاني: لمحة تاريخية.

- المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي.
  - المطلب الأول: مكانة الخطيب عند العرب والجاهليين.
  - المطلب الثاني: أنواع الخطابة العربية قبل الإسلام.
- المبحث الثاني: الخطابة في العصر الإسلامي.
  - المطلب الأول: أنواع الخُطب في هذا العصر.
  - المطلب الثاني: أشهر خطباء الإسلام في الصدر الأول.
  - المطلب الثالث: الخطابة بعد عصر الخلافة الراشدة حتى مشارف العصر الحديث.
  - المطلب الرابع: الخطابة في العصر الحديث.

الفصل الثالث: أهمية المنبر وفارسه.

الفصل الرابع: الخطبة.

- المبحث الأول: الخطبة وأشهرها خطبة الجمعة.
- المبحث الثاني: أهمية خطبة الجمعة.
- المبحث الثالث: خصائص خطبة الجمعة.
- المبحث الرابع: بعض الأحكام الشرعية الخاصة بخطبة الجمعة.

الباب الثاني: أقسام الخطبة، وفيه الفصول الآتية:

الفصل الأول: الخطبة وفيها عدة مباحث:

- المبحث الأول: المقدّمة.
- المبحث الثاني: الموضوع
- المبحث الثالث: الخاتمة.

الفصل الثاني: الأسلوب، وفيه مباحث:

- المبحث الأول تعريفه، أثره وأهميته، خصائصه.
- المبحث الثاني: وسائل الأُسلوب.
- المبحث الثالث: أنواع الأسلوب.
- المبحث الرابع: سُبل تقوية الأسلوب الخطابي.

الفصل الثالث: الاستشهاد، وفيه مباحث:

- المبحث الأول: تعريفه.
- المبحث الثاني: أهميَّته ومكانته.
- المبحث الثالث: شروط الشاهد.

المبحث الرابع: أنواع الاستشهاد.

الباب الثالث: الخطيب، وفيه الفصول الآتية:

الفصل الأول: تعريف الخطيب ومكانته، وفيه مبحثان.

المبحث الأول: تعريف الخطيب.

المبحث الثاني: مكانة الخطيب ومنزلته.

الفصل الثاني: المقومات العقلية للخطيب، وفيه مباحث:

المبحث الأول: حبه لأداء رسالته، وإقباله عليها بشغف.

المبحث الثاني: عنايته بالثقافة والمعرفة في جميع فروعها.

المبحث الثالث: معرفة قواعد وأصول الخطابة.

الفصل الثالث: صفات الخطيب، وفيه مباحث.

المبحث الأول: صفات الخطيب.

المبحث الثاني: عُدَّة الخطيب.

المبحث الثالث: فهرسة مصادر الخطب.

المبحث الرابع: إلى كلِّ خطيب.

المبحث الخامس: مكتبة الخطيب.

الفصل الرابع: مباحث مهمة.

المبحث الأول: الخطبة بين الإبداع والتقليد.

المبحث الثاني: موضوع الخطبة بين التكرار والتجديد.

المبحث الثالث: الخطبة بين التطويل والتقصير.

- المبحث الرابع: الارتجال.
- المبحث الخامس: الإعداد.

الخاتمة، فهرسة المصادر، فهرس المراجع

هذا البحثُ غيضٌ من فيضٍ، وقطرةٌ من غيثٍ في هذا الموضوعِ، أريدُ منه أن ينتبهَ الإخوةُ إلى هذا الفَنِّ ويقدروا له قدرَه، ويعظموا له أمرَه.

ولا أدعي الكمال، فالكمالُ للهِ وحدَه، فهو عملٌ إنساني ليس لي فيه كبير جهد غير الجمع والترتيب؛ لذلك قد يردُ الخطأُ والسهو والتقصير، فمن وجدَ خيرًا واستفادَ منه فليدعُ لي، ومن وجدَ خطأً فلينصحني ويرسل لي به، لكي نصححه.

وأسألُ اللهَ سبحانه الإخلاصَ والقبولَ والتوفيقَ والسدادَ، وأسأل الله سبحانه أن يكتب له القبولَ في الأرض، وأن يغفرَ لي فيه الخطأَ والسهو والذللَ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

أ. د. محمود الحفناوي الأنصاري

أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية - بروكسل - غرب أفريقيا

عفا الله عنه، وعن والديه، ومشايخه،

وزوجاته، وأبنائه، وطلابه

alhefnawy200022@gmail.com

تمهيد

ومضات البدء

أيها الخطيب المؤثر: حتى يكونَ حديثُك عامِرًا له أنداء وأفياء... وظلال وأبعاد... وحتى يكونَ كلامُك مؤنسًا ممتعًا.. منعشًا مشوقًا.. وحتى يكونَ قولُك مطربًا مغريًا.. خفيفًا شائعًا.. وحتى يكونَ أسلوبُك لطيفًا شريفًا.. باسمًا مبهجًا.. وحتى يكونَ موضوعُك عليه طلاوة.. وله حلاوة.. وفيه نضارة.. وحتى تؤثرَ في الآخرين فتبْذُرَ فيهم التفاهمَ والتكاتفَ.. فتجني التضامنَ والتعاون..

وحتى تكونَ كذلك بل أكثر.. انطلق معي أخي المميَّز المبدع في هذه السطور نجولُ ونصولُ ونتعلمُ مهارةَ المبدعين المميَّزين «أنت بالطبع أحدهم» مهارةَ العظماء.. وصنعةَ الأبطالِ.. مهارةَ الإلقاءِ الفعّالِ المثمرِ على دراسةٍ منهجيةٍ تُركِّزُ على الجوانبِ العمليةِ أكثر.. وبعد أن تستمتعَ بهذا الموضوعِ، وتُنزلَ ما تعلمتَه على واقعِك وتُمارسَ وتُجرِّبَ وتُحاولَ مرةً وأخرى وثالثةً، حتى تتقنَ وتتجاوزَ حدودَ الإبداع، ستعلم مدى ما كنت تحتاجه إلى هذه المهارةِ المهمةِ، بل واللازمة للجميع، والتي من خلالها ستتعلم الكثير من المهارات، وستذكرُ مباشرةً قول (دوسكو درو موند) حين قال: «لو قُدِّرَ لي أن أفقدَ كل مواهبي وملكاتي، وكان لي حق الاختيار في أن احتفظَ بواحدةٍ فقط..فلن أتردد في أن تكونَ هذه هي القدرة على التحدثِ؛ لأنني من خلالِها أستطيعُ أن أستعيدَ البقيةَ بسرعَة».

وستشعرُ من خلالِ ممارستك الدائمة للإلقاء دائما بقول الخطيبِ المشهورِ (زج زجلر): «سواء رضينا أم أبينا.. فإن الذين يُحسنون الحديثَ أمامَ الناسِ يُعدهم الآخرونَ أكثرَ ذكاء.. وأنَّ لديهم مهاراتٍ قياديةٍ مميزةٍ عن غيرهم».

إذن أخي هي ليست مهارة عادية، بل منها السحر والبيان، وكما في صحيح البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قدم رجلان من المشرق فخطبا فعَجِبَ الناسُ لبيانهما فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من البيان لسحرًا**»[١].

(١) رواه البخاري كتاب النكاح، باب الخطبة، برقم (٤٨٥١).

خطباءُ لامعين

نُريدُ الخطيبَ الذي يخلبُ الألبابَ، ويهزُّ القلوبَ، ويملكُ المشاعرَ، نعم هناك علماء وقضاة ودعاة؛ ولكن لم نلقْ خطيبًا بمعنى هذه الكلمة، إلا الواحد والاثنين والثلاثة، مع ملاحظات.

من الخطيبُ الذي نُسَلِّمُ له نفوسَنا ليُصقِعَها ويُطوِّعَها ويهديها إلى سواءِ السبيل؟

من الخطيبُ الذي يمكنُ أن يسكبَ في قلوبِنا الحياةَ والتأثيرَ والإقناعَ؟

من الخطيبُ الذي يصلُ بصوتِه إلى ضمائِرنا، فيجتثُّ منها الخواطرَ الخاطئةَ، والأفكارَ المغلوطةَ، ويصلُ بحجتِه إلى قلوبِنا فيقتلعُ منها هواجسَ السوءِ، ووساوسَ الشيطانِ؟

لقد سمعنا عن عشراتِ الخطباءِ المسلمين وغيرِ المسلمين، شرقيين وغربيين، تركوا في أممِهم أثرًا بيِّنًا بخطبِهم ومواعظِهم؛ ولكن هل تحسُ منهم أحدًا، أو تسمعُ لهم ركزا؟

كل هذا الخلق غروٌ وأنا منهم ... فاترك تفاصيل الجمل

رأينا على المنابرِ من يقرأُ صحفًا اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلا، يسردُها علينا سردًا بلا تأثير، ولا جاذبية، ولا أداء، ولا حرارة، ولا ظل، ولا طل.

ورأينا من يغطي وجهَه بأوراقِ عند الإلقاءِ، فهو محجوبُ عن الناسِ طيلةَ الخطبة، يريدُ أن ينتهي من هذه الأوراقِ ليلقي عن نفسِه تبعة هذه الخطبة.

وهناك من يخطبُ فيتلعثمُ من شدةِ الخوفِ، ويرتبك من الخجلِ والوجلِ، يكادُ إذا صعد المنبرَ أن يولي فرارًا ويمتلئ رعبًا.

فمن هؤلاء من يحسنُ الإلقاء والأداء؛ ولَكَنَّهُ ضحل المادة بخيل في عطائِه ومحصولِه، فكأنَّه، ما قال شيئًا، وفيهم صاحبُ الحجةِ والبرهانِ المطلعُ على كنوزِ الميراث، وذخائرِ العلومِ؛ ولَكَنَّهُ باردٌ، في صوتِه خيوط النّعاس ومقدمات الكرى.

وأظن أن الخطابةَ ليست جمعًا لأطرافِ الموضوعِ بلا فصاحة، وأداء وإلقاء وتأثير، وليست صوتًا صاخبًا بلا حجة وإقناع وجاذبية.

إن الخطابةَ قلبٌ شجاعٌ، ولسانٌ فصيحٌ، ومادةٌ حيةٌ، وذاكرةٌ واعيةٌ، وبديهةٌ لّماحةٌ، وإشارةٌ موحيةٌ، ونبرةٌ فخمةٌ، وأداءٌ خلابٌ، وحجةٌ بالغةٌ، ونفسٌ متوثبةٌ مجنّحةٌ، وهي استيلاءٌ على المشاعرِ، وامتلاكٌ للعواطفِ، وقدرةٌ على جذبِ النفوسِ، وفكرٌ لا اعوجاجَ فيه، ونفسٌ صحيحةٌ من الأدواء، وشخصيةٌ قديرةٌ متألقةٌ، وبرهانٌ يقذفُ به على الباطلِ والزيفِ فيدمغُه.

كيف تخاطب الناس؟

نحن بحاجةٍ إلى مِرانٍ طويلٍ على خطابِ الناسِ، ودُرْبَةٍ واسعةٍ على الإلقاءِ والتأثيرِ، تقومُ بها مؤسساتٌ ومدارسُ وجامعاتٌ تُعنى بهذه الجوانبِ عنايةً فائقةً؛ ولكن لا يوجدُ ذلك.

إن الجموعَ فقيرةٌ إلى خطيبٍ مفوَّهٍ، تصلُ كلماتُه إلى الأعماقِ، ولكل نبأٍ مستقرُ، وإن دعاةَ الفضيلةِ بحاجةٍ إلى معرفةِ الطريقِ إلى القلوبِ، والسبلِ إلى النفوسِ، بقراءةِ مكامنِ التأثيرِ، والاطلاعِ على أسرارِ الجذبِ والإقناعِ، إن الخطبةَ جمعيةٌ من المواهبِ والقدراتِ تجتمعُ في شخصٍ واحدٍ، يملكُ ناصيةَ البيانِ، وزمامَ الفصاحةِ، والتميزَ في الإقناعِ.

يقولون إن الخطيبَ الملهمَ الفصيحَ يجدُ الناسُ في صوتِه وأدائِه وعرضِه متعةً، لا يجدونها في مشاهدةِ الحدائقِ الغنَّاءِ، أو سماعِ خريرِ الجداولِ، وهمسِ النسيمِ، وهديلِ الحمامِ.

وسيدُ الخطباءِ وأنبلُ العظماءِ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أراد بيان ذلك فعليه أن يطالعَ في خطبِه، وكلماتِه، وأحاديثِه، ليجدَ البيانَ في أبهى صورةٍ، والفصاحةَ في أوجِ عليائها، وكذلك خلفاؤه الراشدون، وجمعٌ من السلفِ الصالحِ، كابن عباس، وابن الزبير، رضوان الله عليهم، ومعاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعبد الملك بن مروان، ومن بعدهم كأبي جعفرٍ المنصورِ والمأمون وكثيرين لا يحصون عددًا.

والقاسمُ المشتركُ بين الخطباءِ جميعًا هو: «القدرة في الاستيلاء على المشاعر وامتلاك العواطف والاستحواذ على النفوس».

هناك قطعةٌ من البيانِ يقولها شخصٌ فلا تقع موقعها، ولا تتجاوز صوتَ قائِلِها، وهي في نفسها بديعة باهرة، ويلقي هذه القطعة شخصٌ آخر فيوصلها إلى نفوسِ السامعين، فيخاطبُ الأغوار والأعماق، ويهبط إلى القرارِ، والكلامُ هو هو، ولكن شتان ما بين الخطيبين.

المبادئ الحقَّة تقوم في غالبِ أحوالِها وأجملِ أطوارِها على أيدي خطباءَ لُسُن، زرعُ الفضائلِ واقتلاعُ الرذائلِ فنٌّ يقدمُه الخطباءُ، إشعالُ الحروبِ، والزحف إلى الموتِ، واحتساءِ المنيةِ ينسجها خطيبٌ مؤثرٌ، إسكات غضب النفوسِ، وإطفاءُ الثائرةِ، وقتلُ الأحقادِ، وبتر الضغائن، يطلع بها خطيب نابغة.

لماذا لا يكون الخطيبُ مشبوبَ العاطفةِ، عارمَ الفطنةِ، جياشَ الخاطرِ، ملهبَ الإحساس، متقجَ الضميرِ، لماحَ الإشارةِ، خاطفًا للأضواءِ، حي البديهة، هادر الصوتِ، ساحرَ الأداءِ، حلو المراد، قوي البيان، غزيرَ المادة؟

وما أقل اجتماع هذه المواهب في شخصٍ، إن حسُنَ الإعدادُ ضَعُفَ الإلقاء، وإن انقدحت البديهةً ارتبك اللسان، وإن جنحت الروحُ خفق الصوتُ.

الدعوة تحتاج إلى اللسان المعبر

دعا موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ربه فقال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٧، ٢٨]، إن اللسان المعبر الفصيح يفعل في القلوبِ فعل الساحر، ولذلك قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(١).

اللسانُ الفصيحُ: هو الذي يخلبُ الألبابَ، ويسري أثرُهُ في أعماقِ النفوسِ، ويخاطبُ الوجدانَ.

اللسانُ الفصيحُ: آلةٌ طيعةٌ يمتلكها الخطيبُ الفذُّ القديرُ، يصوغُ بها هالاتٍ من المعانين، ويرسمُ بها حالات موحية من البيان.

اللسانُ الفصيحُ: هو الذي يقدمُ الحروفَ للسامعِ سليمةً من العيوبِ، وصحيحةً في مخارجِها، صادقةً في جرسِها، أخاذةً في إيقاعِها، ينطقُ الكلماتِ بلا عجمة ولا تعثر، بعيدًا عن الارتباكِ، والالتواءِ، والبرودِ.

اللسانُ البليغُ: يدفعُ بالحججِ، ويفلجُ بالبراهين، وتنهالُ منه الجملُ طليقةً هادرةً.

لسانٌ فخمٌ وفيه جاذبية، قويٌّ وفيه أسر، صارخٌ وفيه سحر، نافذٌ وفيه حلاوة وطلاوة.

اللسانُ الفصيحُ: كالسيفِ البتارِ يجلو الشبه، ويقطعُ خيوطَ الأوهامِ، ويفصمُ عرى الباطل.

(١) رواه البخاري كتاب النكاح، باب الخطبة، برقم (٤٨٥١).

يقول الله تعالى لرسوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣]، وهذا واجبُ الداعية أن يُبدعَ في مقالِه، ويحُسِّنَ من لفظِه، ويُصلحَ من لسانِه.

إن العِيَّ مرضٌ في اللسانِ، يذهبُ رونقه، وبهاءةَ مُضَائِه، فلا يكادُ يبين، ولابد من شحذِ اللسانِ بالدُّربةِ والمِرانِ، والتقويمِ، والتهذيبِ، وإمرارِ المحفوظاتِ والمقطوعاتِ عليه كثيرًا.

إن سرَّ نباهةِ الخطيبِ في لسانِه، الذي يُسْعِفُه في الأزماتِ، وينقذه في الورطاتِ.

يزمجرُ به في الجموعِ، فله في الحشودِ جلجلةُ الرعودِ، وهديرَ السيولِ، وقصفَ الصواعقِ، وجلبةُ الريحِ الهوجاءِ، التي لا تلوي على شيء.

يتدفقُ بالجملِ، والعباراتِ في نسقٍ جميلٍ، وفي نظامٍ بديعٍ بلا ركاكةٍ أو برودةٍ أو ثقل، يملأُ الآذانَ مخافةً، والقلبَ هيبةً، والمكانَ حضورًا، بل يأسرُ المشاعرَ أسرًا، فإمَّا منًّا بعدُ، وإمَّا فِداءً.

الباب الأول

مقدِّمة لغويَّة، ولمحة تارخية

وفيه عدة فصول:

★ **الفصل الأول: مقدِّمة لغويَّة**

وفيه عدة مباحث:

★ **المبحث الأول:** التعريف اللغوي للخطابة

★ **المبحث الثاني:** فوائدها

★ **المبحث الثالث:** طرق تحصيل الخطابة

★ **المبحث الرابع:** مقصود الخطيب من الخطبة

الفصل الأول

مقدِّمة لغويَّة، ولمحة تاريخية

ويشمل:

المبحث الأول

التعريف اللغوي للخطابة

ننطلق في الحديث عن الخطبة من تعريفها، وهو أسلوب تقليدي عهدناه في دراسة كل علم، لأنَّه باب الدخول إلى رحابه، وبداية الانطلاق إلى أصوله وفروعه ومسائله وشُعَبِه. وإذا كان التعريف يقتضي ذكر الشيء بخواصه الميزة وصفاته المحدّدة بحيث لا يدخل معه غيره فقبل الشروع في الحديث عن (الخُطبة والخطيب) نودُّ أن نتعرَّف المعنى اللُّغوي لمادَّة (خَطَبَ) ومشتقّاتها.

فإذا رجعنا إلى معاجم اللُّغة العربيَّة وقواميسها فسنجد أنَّ مادَّة (خَطَبَ) تدلُّ على معنَيَيْن أصليين هما: الطَّلَب، والمواجهة بالكلام.

فَأَمَّا دلالتها على الطلب: فقد جاء في «أساس البلاغة» للزمخشريِّ: من المجاز: فلان يخطُب عمل كذا: يطلُبه[١].

وأمَّا دلالتها على المواجهة بالكلام: فقد جاء في «أساس البلاغة»[٢] أيضًا: خاطبَه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام. وجاء في «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهانيِّ: الخَطْب والمخاطبة والتخاطُب: المراجعة في الكلام[٣].

(١) أساس البلاغة للزمخشري (١/ ٢٢٩).
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص٢٨٦).

والخَطْب: الأمر العظيم الذي يكثُر فيه التخاطب، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ [طه:٩٥]، وقال: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر:٥٧]، [الذاريات:٣١].

ومن خلال هذين المعنيَيْن اللَّذين دَلَّت عليهما مادَّة (خَطَبَ) نفهم ما يلي: أنَّ (الخَطابة): مصدر على وزن (فَعَّالة) نحو: كَرامة ونَباهة: معناه القيام بفعل المواجهة بالكلام مع طلب الإصغاء. وأنّ (الخُطْبَة): اسم للكلام الذي يتكلَّم به الخطيب، فهي الألفاظ المنثورة التي يواجه بها المتكلِّم جمهورًا من الناس. وتُسمّى أيضًا (خِطابًا) فنقول: ألقى فلانٌ خُطْبةً وخِطابا. وأنَّ (الخطيب): هو الذي يقوم بفعل الخطابة، ويُحسن الخُطبة فقد جاء في «القاموس المحيط»: ورجل خطيب: حسن الخُطبة.

وجاء في «المفردات» للراغب الأصفهانيّ: ويُقال من الخُطبة خاطب وخطيب[١].

تعريف الخطابة: هي علم معرفةِ طُرُق أداء الكلام ونقلِ الأفكار إلى عقول السامعين وأحاسيسهم بصورة مخصوصة، وصفات معينة مع قصد التأثير والإقناع.

وحسبها شرفًا أنها وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليه أجمعين، ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين، وعظماء الملوك وكبار الساسة.

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص٢٨٦).

المبحث الثاني

فوائد الخطابة

للخطابة فوائد كثيرة منها ما ذكره أبو زهرة فقال[١]:

١) هي التي تعرف صاحبها كيف يمتلك القلوب ويشتمل النفوس، ويحرك العواطف، ويهيج الخواطر نحو ما يريد، بنبراسها تستضيء موارد الدليل، وتتضح مصادر الحجة لإنقاذ كل أمر جليل، وإدراك كل غاية شريفة، قوانينها ترشد الطالب إلى مواضع الضعف وشعب السهو والزلل، فيقوى على دحض حجة المناظر، وتزيف سفسطة المكابر.

٢) هي التي تثير الحماسة في النفوس الفاترة، وتهدئ النفوس الثائرة.

٣) هي التي ترفع الحق، وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد الظلم.

٤) تهدي الضال إلى سواء السبيل.

٥) تفض النزاع، وتفض الخصومات.

٦) هي صوت المظلومين، ولسان الهداية.

(١) الخطابة لمحمد أبو زهرة (ص١٥).

المبحث الثالث

طرق تحصيل الخطابة

يستطيع مريد الخطابة تحصيلها بعدة طرق، منها:

١) الفطرة والاستعداد الغريزي، وهذا هو الأساس.

٢) معرفة الأصول والقوانين التي وضعها الحكماء.

٣) الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء ومصاقِع[١] الخطباء، ودراستها دراسة هدفها معرفة نواحي التأثير، وجهات الإقناع لها، ومتذوق لما فيها من متانة الأسلوب، وحسن العبارة، وجودة التفكير.

٤) الارتياض والاحتذاء، لأن الخطابة ملكة نفسية لا توجد مرة واحدة، بل لابد من الممارسة والمران الطويل لطالبها، كي تنمو مواهبه.

يذكر أن (ديسمنتيس) المشهور بالخطابة، كان قبل أن يعرفه أهل أسبانيا، رجلًا ضعيف البنية، خافت الصوت، ليس لحركته لباقة، ولا في لسانه طلاقة، فلما أعتزم الخطابة أخذ يُقَوِّي رنينته وحنجرته بالصياح على رؤوس الجبال، وعلى شواطئ البحار، ويرفع صوته فوق صخب الأمواج، وتغلب على عاهة النطق، بممارسة الكلام، وتعلم أصول اللباقة، ورشاقة الحركة بالوقوف أمام المرآة وهو يخطب، حتى صار كبير الخطباء في كل فنون الخطابة[٢].

---

(١) **مَصاقِعٌ**: لُسن قيل هو من رَفْعِ الصَّوْتِ وقيل يذهب في كل صُقْعٍ من الكلام أَي ناحية لسان العرب (٨/ ٢٠١).

(٢) كتاب الخطابة لأبي زهرة (ص٢٢).

المبحث الرابع

مقصود الخطيب من الخطبة

للخطيب مقاصد عدة من الخطبة، منها:

١) إنارة العقول وتنبيه الأذهان، وحملها على الإذعان، وذلك لا يتم إلا بالأدلة.

٢) التأثير في الأرواح، وضرب القلوب، وذلك يكون بتوخي الأدب في الخطيب.

٣) استمالة النفوس إلى ما يطلب منها بإثارة عواطفها، وذلك يكون بمعرفة الأهواء، والغرائز، والطرق التي تهدئ النفوس الثائرة، وتثير حماسة ذوي النفوس الفاترة.

الفصل الثاني

لمحة تاريخية

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: مكانة الخطيب عند العرب والجاهليين

المطلب الثاني: أنواع الخطابة العربية قبل الإسلام

المبحث الثاني: الخطابة في العصر الإسلامي

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: أنواع الخُطب فِي هذا العصر

المطلب الثاني: أشهر خطباء الإسلام فِي الصدر الأول

المطلب الثالث: الخطابة بعد عصر الخلافة الراشدة وإلى مشارف العصر الحديث

المطلب الرابع: الخطابة فِي العصر الحديث

الفصل الثاني

لمحة تاريخية

لا نريد هنا أن نستغرق في استعراض تاريخ الخطابة، والوقوف على مراحل نشوئها وتطوُّرها بصورة مفصلة؛ لأنَّ ذلك سوف يجعلنا نتحوَّل عن الغاية التي ابتغيناها من كتابة هذا الموضوع، وهي شرح أُصول الفنِّ الخطابيِّ.

لذلك سوف نكتفي بلمحة موجزة عن تاريخ الخطابة مقتصرين فيه على الخطابة العربيَّة.

فسوف يحتوي هذا الفصل على عدة مباحث، وفي كل مبحث عدة مطالب.

المبحث الأول

الخطابة في العصر الجاهلي

لم تكن الخطابة حديثة العهد في حياة العرب، بل كانت أصيلة فيهم كغيرهم من الجماعات الإنسانيَّة التي تلاحقت على سُكنى الأرض، وانتشرت في ربوعها.

إلَّا أنَّ الخطابة لم تحتلَّ عند العرب منزلة تساوي منزلة الشعر في حياتهم، لهذا لم تصل إلينا نصوص موثوقة تُقدِّم لنا صورةً واضحة عن تطور الخطابة العربيَّة قبل الإسلام.

ولكن رغم هذا فقد بلغَنا عن فنِّ الخطابة العربيَّة في العصر الجاهليِّ مبلغ لا بأس به في التعرُّف إلى الفنِّ الخطابيِّ عند العرب وإدراك بعض مظاهره.

وقبل أن نتحدث عن أنواع فِنِّ الخطابة العربيَّة قبل الإسلام، سنتكلم عن مكانة الخطيب وأثره في حياة قومه.

المطلب الأول: مكانة الخطيب عند العرب والجاهليين:

لمَّا كان الشِّعر ذا أثر فعَّال وكبير في الدِّفاع عن القبيلة ونشر مآثرها، وتفنيد دعوى أعدائها، وتحقير شأن خصومها، ورفع مكانتها بين القبائل، فقد كانت حاجة القبيلة إلى الشعراء أكثر من حاجتها إلى الخُطباء، لهذا فقد احتلَّ الشاعر في قومه مكانة هامَّة، ونزل عندهم منزلة الفارس الذي ينافح عن قبيلته ويحمى ذمارها[(١)]، وربَّما فاق الشاعر في نظر قومه الفرسان الشجعان، حتى ذُكِرَ أنَّهم كانوا إذا نبغ شاعر في إحدى قبائلهم جاءتها سائر القبائل تهنِّئها به، فكانت القبيلة تفتخر بكثرة عدد شعرائها كما تفتخر بزيادة عدد فرسانها، إلَّا أنَّ الخطابة رغم ضآلة افتقار القبيلة إليها بالنِّسبة إلى الشعر لم تكن مَرْكبًا مستباحا لكلِّ من يهواها مهما كانت منزلته في قومه، وإنما كانت مورد زعماء القبيلة وسادتها، ورؤساء القوم وكبارهم، وأرباب الفصاحة والبيان فيهم، خلافًا للشِّعْر الذي كان يرِد مواردَه كلُّ من ملك موهبتَه، وتمتَّع بالقدرة على نظمه، أيًّا كان شانه: زعيمًا في قبيلته كامرئ القَيْس، أو عبدًا مملوكًا كعنترة بن شدَّاد، فيتحصَّل لنا بهذا أنَّ الخطيب من حيث شخصيته أعلى منزلةً من الشاعر، وأنَّ الشاعر من حيث قوَّة تأثيره في حياة قومه أكثر أهميَّة من الخطيب.

---

(١) والذِّمار، ذِمار الرجل، وهو كل شيء يلزمُه حِمايتُه، والدفعُ عنه وإن ضيّعه لزمه اللَّومُ، تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (١٤/ ٣١٠).

فالشاعر لسان الدعاية لقبيلته بذكر مآثرها، ونشر أخبارها، وتمجيد وقائع حياتها، والخطيب لسانها الهادر في المحافل والمناسبات والمجامع، لهذا كانت القبيلة تنتخب للمناسبات المختلفة أكرم رجالها، وأنضجهم عقولًا، وأشرفهم منزلة فيها، نحو الخطبة التي ألقاها عبد المطلب جدُّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام سيف بن ذي يزن مهنئًا إيَّاه بتوليةِ مُلك اليَمْنْ، ولا تخفى علينا مكانة عبد المطلب في قومه وحكمته الرائدة في وعظهم وإرشادهم، هذا وإنَّ ما يُؤكد سمو كعب الخطيب في قومه ورفيع قدره في قبيلته إشادة الشُّعراء بالخطباء وجعل مدحهم والثناء عليهم سبيلًا إلى مدح القبيلة، والإشادة بمآثرها نحو قول عامر المحاربي في مديح قومه[١]:

وهم يدعمون القول في كل موطنٍ ... بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما[٢]

يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا ... إذا الكرب انسي الجِبس أن يتكلما[٣]

المطلب الثاني: أنواع الخطابة العربية قبل الإسلام:

لا نريد هنا استقصاء أنواع الخطابة العربية بالبحث العميق والتفصيل الدقيق؛ لأننا بصدد دراسة نقدية لأنواع الخطابة التي سادت في ذلك العصر.

وينبغي لنا أن ندرك أولًا أنَّ أنواع الخطابة العربية المختلفة كانت وليدة البيئة الجاهلية وظروفها الحيوية، فهي تعكس في ملامحها وخصائصها واقع نشأتها.

---

(١) المفضليّات، القصيدة (٩١).

(٢) كُظَّما: سكوتًا لا يتكلمون.

(٣) الجِبْس: الجبان.

ونذكر فيما يلي أهم هذه الأنواع الخطابية:

(١) خطب القتال والحضِّ على الأخذ بالثأر:

كخطبة هانئ بن قبيصة الشَّيبانيّ الشهيرة التي حَثَّ فيها قومه على قتال الفرس يوم (ذي قار)، والتي قال فيها: «يا معشر بكرٍ، هالِكٌ معذور خيرٌ من ناجٍ فَرور، إنَّ الحذر لا يُنَجِّي من القدر، وإنَّ الصبر من أسباب الظفر، المنيَّة ولا الدنيَّة، استقبال الموت خيرُ من استدباره، الطَّعن في ثغر النُحور أكرم منه في الأعجاز والظُّهور، يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بدٍّ». اهـ.[(١)].

(٢) خُطب الصلاح:

وهي التي يلقيها ذوو الحكمة وأصحاب الرأي والمنزلة في القوم لإصلاح ذات البين، ورأب الصدع بين القبائل المتناحرة، نحو الخطبة التي ألقاها قيس بن خارجة في الإصلاح بين عبس وذبيان إثر حرب داحس والغبراء التي استمرت أربعين عامًا.

وجاء أنَّهم قالوا له: ما عندك؟

فقال: عندي قِرى كلِّ نازل، ورضا كلِّ ساخط،وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع.

قالوا: فخطب يومًا إلى اللَّيْل، فما أعاد فيها كلمةً ولا معنىً[(٢)].

(٣) خُطب الوعظ والإرشاد:

ويلقي هذا الضرب من الخُطب عقلاء القوم، وأرباب الحكمة فيهم، وَذَوُو البصيرة والعلم والصلاح من رجالهم.

(١) الأمالي في لغة العرب لأبي على القالي (١/ ٩٢).
(٢) البيان والتبيين (١/ ١٢٢).

ومن أشهر خطبائهم في ذلك: قُسُّ بن ساعِدة الأياديّ، حيث كان يخطب في المواسم يعظ الناس ويرشدهم، ومن خطبه الشهيرة: تلك الخطبة التي رُوِيَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه سمعها من قُسّ يُلقيها على الناس في الموسم في سوق (عُكاظ) حيث جاء في الحديث: «رأيته بسوق عُكاظ على جَمَلٍ أورق، وهو يقول: (أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت...)»[(١)].

وجاء في نص خطبة: (أيُّها الناس، اجتمعوا، واسمعوا وعُوا، إنَّه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليل داجٍ[(٢)]، ونهار ساجٍ[(٣)]، وسماء ذات أبراج[(٤)] ونجوم تزهر[(٥)]، وبحار تزخر[(٦)] وجبال مُرساة[(٧)]، وأرض مُدحاة[(٨)]، وأنهار مجراة، إنَّ في السماء لخبَرًا، وإنَّ في الأرض لعِبرا، ما بال الناس

(١) قال ابن الجوزي: وهذا الحديث من جميع جهاته باطل قال أبو الفتح الازدي الحافظ: هو حديث موضوع لا أصل له، قال المصنف: قلت أما الطريق الاول فقال يحيى بن معين: محمد بن الحجاج كذاب خبيث، وقال أبو زرعة الرازي: أحاديثه موضوعة، وقال الدارقطني: كان يكذب، وأما الكلبى فقال زائدة وليث والسعدى: هو كذاب، وقال النسائي والدارقطني متروك الحديث، وقال ابن حبان وضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج إلى الاغراق في وصفه، وأما أبو صالح فقال ابن عدي لا أعلم أحدًا من المتقدمين رضيه ولعل أبو إسحاق دلسه ببعض أهل العلم، الموضوعات (١/ ٢١٤).

(٢) **داج:** مظلم.

(٣) **ساج:** ساكن هادئ.

(٤) **أبراج:** أركان.

(٥) **تزهر:** تضيء.

(٦) **تزخر:** تمتلئ.

(٧) **مرساة:** ثابتة.

(٨) **مدحاة:** مبسوطة.

يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر إيادٍ،أين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشِّداد؟

ألم يكونوا أكثر منكم مالًا وأطول آجالًا؟ طحنهم الدهر بكَلْكَله[١]، ومزقهم بتطاوله:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادِرْ[٢]
ورأيت قومي نحوه	يسعى الأصاغِرْ والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ	ولا من الباقين غابِرْ[٣]
أيقنت أنيّ لا محالة	حيث صار القوم صائر

(٤) خُطب الوفود:

وهي التي تُلقى في مجالس الملوك والأمراء تهنئةً لهم، أو تعزيةً، أو تعبيرًا عن ولائهم، أو دعاءً لتحقيق بعض مقاصدهم.

فمنها في التهنئة: خطبة عبد المطَّلِب أمام سيف بن ذي يَزَن حين استردَّ ملكه من الحبشة بعد انتصاره عليهم، قال فيها[٤]: إنَّ الله تعالى أيُّها الملك أَحَلَّكَ محلًا رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذِخًا[٥] شامخًا، وأَنْبَتَك منبتًا طابت أَرومته[٦]، وعزَّت

---

(١) **الكَلْكَل:** الصدر.
(٢) **المصادر:** جمع مصدر: وهو الرجوع من المورد بعد الشراب.
(٣) **غابر:** الماكث، الباقي.
(٤) العقد الفريد ٢/ ٢٤.
(٥) **الباذخ:** العالي.
(٦) **الأرومة:** الأصل.

جُرثومته[١]، وَنَبْلَ أصله، وبسَقَ[٢] فرعه، في أكرم معدِن، وأطيب موطن. فأنتَ أبيت اللَّعن رأسُ العرب وربيعُها الذي تُخصِب، وملكُها الذي تنقاد،وعَمُودُها الذي عليه العماد، ومعقِلُها الذي إليه يلجأ العباد، سلفك خيرُ سَلَف، وأنت لنا بعدهم خيرُ خَلَفُ، ولن يهلك مَنْ أنت خَلَفُه ولن يخمل من أنت سلفه.

نحن أيّها الملك أهل حرَمِ الله وذمَّته، وسَدَنة[٣] بيته، أشخصنا[٤] إليك الذي أنهجك لكشفك الكرب الذي فدحنا[٥]، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة[٦].

ومنها في التعزية: خطبة أكثم بن صيفي في تعزية عمرو بن هند ملك العرب بأخيه حيث جاء فيها: إنَّ أهل هذه الدار سَفْر[٧]، لا يحَلُّون عُقد الرَّحال إلاَّ في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن[٨] عنك ويدعك، واعلم أنّ الدنيا ثلاثة أيَّام، فأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة،، وصديق أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبة، وستسرع عنك رحلته، وغدٌ لا تدري من هو أهله، وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها، واعلم أنَّ أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطية، وشر من الشر فاعله.

(١) **الجرثومة:** الأصل.
(٢) **بسَقَ:** طال.
(٣) **سَدَنة البيت:** خَدمه.
(٤) **أشخصنا:** أحضرنا.
(٥) **فدحنا:** أفجعنا.
(٦) **المَرْزِئة:** المصيبة.
(٧) **السَّفر:** جمع سافر: وهو المرتحل.
(٨) **ظعن:** رحَل وغادر.

ومنها في الإشادة بين أيدي الملوك: خطبة عمرو بن معد يكرب الزبيدي التي ألقاها أمام كسرى ملك الفرس وجاء فيها[١]: «إنمَّا المرء بأصغَرَيْه: قلبه ولسانِه، فبلاغ المنطق الصَّواب، ومِلاك النُّجْعة[٢] الارتياد، وعَفُو الرأي خَيرْ من استِكْراه الفِكْرة، وتوقُّف الخِبْرة خير من اعتساف[٣] الحَيرْة، فاجتبِذْ[٤] طاعتنا بلفظك، واكتظم[٥] بادرتنا بحلمك، وَأَلِنْ لنا كنفك يَسْلُسْ لك قيادُنا، فَإِنَّا أُنَاس لم يُوقَّس[٦] صفاتنا قراع مناقير[٧] من أراد لنا قضما[٨]، ولكن منعنا حمانا من كُلِّ من رام لنا هضما[٩]».

(٥) خُطب النكاح:

كانت العادة عند العرب إذا أراد الرجل الزواج بامرأة تَقَدَّم عنه رجل من عشيرته إلى أهل المرأة يطلب يدها في خُطبة يلقيها أمامهم يُعَدَّد فيها صفات الرجل الراغب بابنتهم، وخصاله التي يتمتع بها ومكانته في قومه، ويبيِّن رغبته في الزواج بتلك المرأة.

وبعد أن ينهي خطبته يقوم رجل من أهل الفتاة، فيخطب خطبة قصيرة يجيبه فيها قبولا أو رفضًا.

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٨).
(٢) **النَّجْعة:** القَصْد والطَلَب. وقولهم: انتجع المكان، أي: قصده وتحول إليه.
(٣) **الاعتساف:** سار على غير هدي.
(٤) **اجتذ:** بمعني اجتذب.
(٥) **اكتظم:** المبالغة من كظم، أي: حبس نفسه ومنعها من الغضب.
(٦) **وقَّس:** الوقس: انتشار الجرب بالبدن، والمعنى هنا: لم يخدش، ولم يعب.
(٧) **قراع مناقير:** المنقار حديدة كالفأس ينقر بها. **والصفاة:** الصخرة الملساء.
(٨) **القَضْم:** أكل الشيء اليابس، وكسر الشيء بأطراف الأسنان.
(٩) خصائص الخطبة والخطيب (ص٢٣).

ومن هذا النوع خطبة أبي طالب عم النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي ألقاها أمام قوم السيدة خديجة الكبرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طالبًا يدها لسيدنا الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال فيها[١]:

الحمد لله الذي جعلنا من ذريَّةِ إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِئِ[٢] معدٍّ، وعنصر مُضر، وحرمًا آمنًا، وسُوَّاس[٣] حرمه، وجعلنا حُكام الناس، ثمَّ إنَّ ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله، لا يوازن به رجل شرفًا ونُبلًا وفضلًا، وإنْ كان في المال قُلٌّ، فإنَّ المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مستردَّة، وهو والله بعد هذا نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصَّداق (كذا)...اهـ.

فلمّا أتمَّ أبو طالب خطبته تَكَلَّم ورقة بن نوفل ابن عَمِّ خديجة يجيبه، فقال:

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلِّه، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، فاشْهَدُوا عليَّ معاشر قريش بأنيِّ قد زوَّجت خديجة بنت خُويلد من محمد بن عبد الله على كذا. اهـ.

وهناك أنواع أخرى لخطب العرب قبل الإسلام: كالمفاخرات، والمنافرات والمناسبات، ولكن ما ذكرناه كان أبرزها[٤].

---

(١) الوفا بتعريف فضائل المصطفى لابن الجوزي (١/ ٩٩).
(٢) **وضِئْضِئِ:** العنصر والأصل.
(٣) **سُوَّاس:** جمع سائس، وهو هنا: القائد ومدبر الأمر.
(٤) خصائص الخطبة والخطيب لنذير محمد مكتبي (ص٢٤).

المبحث الثاني

الخطابة في العصر الإسلامي

تقدَّم معنا أنّ الخطابة العربيَّة خضعت لمعطيات البيئة ومؤثِّراتها، ذلك لأنَّ الخطيب يستمدُّ لغته وأفكاره وتصوُّراته من واقع البيئة التي يعيش فيها، وهذه الظاهرة نلمسها واضحة في مختلف فنون الأدب العربيِّ، بل هي سِمة ظاهرة في كل فنَّ من فنون الأدب العالميِّ، وذهب كثير من نُقَّاد الأدب إلى أنَّه مرآة صادقة، تنعكس فيها مختلف جوانب البيئة وتطوُّراتها، فأيُّ تغيير يطرأ على بيئة الأدب يتجلَّى واضحًا فيه.

والخطابة أحد فنون اللِّسان ومظاهر البيان، فهي جزء من الأدب والثقافة الإنسَانية، فخضوعها للمؤثِّرات البيئيَّة ظاهرة طبيعية وقضيَّة مسلَّمٌ بها لا تخضع للنقاش. وقد أفاض علماء الأدب الإنسانيِّ ونُقَّاده في هذا الجانب خلال دراستهم لنشأة الأدب وتطوِّره، وأسهبوا فيه، ونحن نكتفي هنا بمجرَّد الإِشارة إلى ذلك، كي لا نخرج عن مسار موضوع هذا الكتاب.

لا يختلف اثنان في أنّ الإِسلام أحدث تغييرًا شاملًا في واقع البيئة الجاهليَّة، فقد نقل إلى العرب أفكارًا ومفاهيم جديدة، ومعتقدات وتصوُّرات خالف بها معظم عقائد الجاهليَّة وتصوُّراتها، فأرسى في نفوسهم مفهومَ الإيمان بالله وحده لا شريك له، ورسَّخ في قلوبهم عقيدة البعث والنُّشور، واستأصل المفاهيم الباطلة التي امتلأت بها أذهان الناس قبل الإسلام، وقضى على العادات والأعراف الفاسدة التي سادت حياتهم، وانطبعت عليها نفوسهم.

وهذا التغيير الشامل الذي أحدثه الإسلام في البيئة العربيّة انعكس بصورة واضحة على مختلف فنون الأدب العربيّ، شعرِه ونثرِه.

كانت الخطابة أكثر هذه الفنون اللِّسانيَّة تأثُّرًا بذلك التغيير، وذلك نظرًا لعناية الإسلام واهتمامه البالغ بها، إذِ اقتضت طبيعة دعوته ونشر كلمته اتخاذَها وسيلةً لتوصيل معارف الإسلام وعقائده وتصوُّراته إلى قلوب الناس وعقولهم،كان ذلك في اللَّحظة الأولى التي صدع فيها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بدعوته، وأنَّ الله سبحانه أرسله إليهم برسالة التوحيد.

وأصبحت الخطابة أحد شعائر الإسلام عندما فُرضت صلاة الجمعة، التي باتت الخُطبة فيها أحد أركانها، فلا تنعقد الجمعة على الصحيح إلا بها، فهي تؤدّى في الأسبوع مرّة واحدة في يوم معيَّن هو يوم الجمعة وفي وقت محدد، حيث يقوم إمام المسلمين قبل صلاة الجمعة، فيخطب بالناس خطبتها، يعظهم فيها ويذكِّرهم، ثم يصلِّي عقبها ركعتين إمامًا بمن خطب فيهم.

ولم تنحصر الخطابة الإسلاميَّة في خُطبة الجُمعة فقط، بل كانت المَنَصَّة التي ارتقاها الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لتوضيح مبادئ الإسلام وإرشاداته للناس، والأداة التي استخدمها قُوّاد المجاهدين لِحثِّ جنودهم على القتال، وبعث الحماسة في نفوسهم، وتأجيج عزائمهم ضدَّ عدوِّهم، كما كانت الوسيلة التي استعملها الخلفاء المسلمون وعُمّالهم في الأمصار لِيُبَيِّنُوا للناس عَبْرها خطَّة حكمهم، وطريقة سياستهم، وليتَّصلوا بهم كلَّما جدَّ جديد، أو طرأ طارئ من خيرٍ أو شرٍّ، مما ينبغي للمسلمين أن يُولُوه اهتمامًا واستعدادًا، كخطب أبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان وعليّ ومن جاء بعدهم من خلفاء المسلمين -رضي الله عنهم أجمعين-.

المطلب الأول: أنواع الخُطب في هذا العصر:

أبقى الإسلام على بعض أنواع الخُطب في الجاهليَّة بعد أَنْ هذَّبها ونقَّاها من شوائب الصفات والمعتقدات، وصبغها بصبغته، وأضاف إليها أنواعًا جديدة، فتكوَّنت منها مجموعة من الخطب تنوَّعت إلى ما يأتي:

(١) الخُطَب الدينيَّة:

وهي من أهمِّ أنواع الخطب وأوسعها شهرة؛ لأنَّها تدور في فلك الإسلام دعوةً إليه ونشرًا لقيمه ومبادئه، ويرتادها خلفاء المسلمين وعلماؤهم ودعاتهم، فهي كثيرة المنابر، عديدة المحافل، تلتقي الناس ويلتقونها في مناسبات شتَّى، وفي أوقات عِدَّة محدَّدة، فكلّما دعت الحاجة إليها انتصَب منبرها ليقف خطيبها على عواده واعظًا ومرشدًا ومعلِّمًا.

ولقد كانت ديْدَن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام وأهل الدعوة والإرشاد من بعدهم.

فإذا فترتْ همَّة الناس في طلب الآخرة، وخلدوا قليلًا إلى دعة العيش ونعيمه، جاءتهم تلك الخُطب منبِّهة واعظة، ليثوبوا إلى رشدهم، ويؤوبوا إلى ربِّهم، ويستعيدوا همتَّهم في طلب الآخرة، ويأخذوا حذرهم من مكر الدنيا وزينتها. وفي ذلك كان يقول الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخوَّلنا بالموعظة». وحسبنا من الأمثلة العمليَّة على هذه الظاهرة الخطابيَّة ما جاء في رواية في الصحيحين: بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أصحابه شيءٌ، فخطب، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذَا**

الْحَائِطِ وَأَنَا أُصَلِّي فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ» قَالَ فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ -قَالَ- غَطَّوْا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ[١].

وعند ما أتى رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر الثلاثة الذين اخذوا على أنفسهم عهودًا أن يقوم أحدهم الليل ولا يرقد، ويصوم الآخر النهار ولا يفطر، ولا يتزوَّج الثالث أبدًا، قام فركب المنبر وخطب الناس قائلًا: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٢].

وجاء في الصحيحين: استعمل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا من الأَزْدِ يُقال له: ابن اللُّتبيّة على الصدقة، فلمّا قدِم قال:هذا لكم، وهذا أُهدي إليَّ، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المِنْبَر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللهُ فَيَأْتِي فَيَقُولُ هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ وَاللهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِهِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ بَصُرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذُنِي»[٣].

فهذه الأمثلة وغيرها في سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوته يترجم بصورة عمليَّة حقيقة استشراء الخُطبة الدينيَّة في حياة المسلمين الأوائل، وهيمنتها على سائر أنواع الخطب.

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٦٦٠، رقم ٦٨٦٤)، ومسلم (٤/ ١٨٣٢، رقم ٢٣٥٩)

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٤٩، رقم ٤٧٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٢٥٩٧)، ومسلم رقم (٣٢/ ١٨٣٢).

وتنقسم الخطبة الدينيّة إلى قسمين:

أولًا خطب دينيَّة تتحدّد بأوقات معيَّنة أو ظروف طارئة، وهي ما يأتي:

خطبة الجمعة: وهي أعلاها وذروة سنامها، وتُلقى في كلِّ يوم جمعة عندما تزول الشمس عن خطِّ الاستواء، ويتمُّ فيها وعظ المسلمين، وحملهم على شرع الله، وردُّهم إلى دينه القويم.

خطبة العيد: وهي خطبة شُرِعت عقب صلاة عيد الفطر، في صبيحة اليوم الأوَّل من شوَّال بعد أن ترتفع الشمس قدر رمح من شروقها، وعقب صلاة عيد الأضحى كذلك، وسيأتي تفصيل الحديث عنها في حينه إن شاء الله.

خُطبة يوم عرفة: ويؤدِّيها إمام المسلمين في الحج، وموعدها بعد زوال الشمس عن خطِّ الاستواء يوم عرفة، وسيأتي الحديث عنها مفصَّلا في موطنه من هذا الكتاب بعون الله.

خطبة الكسوف والخسوف: وقد شُرِعت عند كسوف الشمس وخسوف القمر طلبًا لتجليتهما بعد صلاة ركعتين تعرفان باسمهما، وسيأتي تفصيل الحديث عنها أيضًا في موطنه من هذا الكتاب -بعون الله تعالى-.

خُطبة الاستسقاء: وقد شُرعت عند انحباس الأمطار وشحِّ المياه، طلبًا للسُّقْيَا بعد صلاة ركعتين، وسوف نذكر تفصيل الحديث عنها في موطنه آخر من هذا الكتاب - بعون الله تعالى -.

ثانيًا خُطَب دينيَّة مطلقة:

(١) خطب الوعظ والإرشاد:

وهذا النوع من الخطب لا يرتبط بوقت معَّين ولا بظروف محدَّدة، وإنَّما

تخضع لحاجة الناس في وعظهم وإرشادهم على اختلاف الأحوال، وتفاوت الظروف والدواعي، فغرضها إيقاظ الهمم، وتقوية العزائم، وَحَثُّ العباد على خدمة الله تعالى، والقيام بأمر دينه، وحسن عبادته على هدي منهجه الحقِّ، وصراطه المستقيم. ويُسمَّى هذا القسم من الخُطب الدينية: خُطب الوعظ والإرشاد، ومن أمهر فرسانه بعد الصحابة سيِّد التابعين في البصرة: الإمام الحسن البصريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) خُطَب الجهاد والحضِّ على القتال في سبيل الله سبحانه:

وهذا الضَّرْب من الخُطَب عرفه الجاهليُّون كما تقدَّم معنا إلَّا أنَّ الإسلام صبغة بصبغته، فبعد أن كان الباعث عليه تحريضَ المقاتلين على الأخذ بالثأر واستجابةً للعصبيَّة الجاهليّة، أصبح في الإسلام حثًّا للمسلمين على ردع الكافرين إعلاءً لكلمة الدّين وابتغاءً لإحدى الحسنين: إمّا النصر على أعداء الله وإعزاز لدينه، وإمّا الشهادة في سبيله والفوز بالجنَّة.

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوَّل من بدأ خُطب القتال في المسلمين، وذلك عندما قام يومَ بدر يحرِّض المؤمنين على القتال يقول لهم: «**قوموا إلى جنَّة عرضها السماوات والأرض، والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مُقْبِلًا غير مدبر إلَّا أدخله الله الجنَّة**»[(١)].

(٣) خُطَب المحافل والوفود:

وهذا الضرب من الخطب أيضًا قد عرفه الجاهليُّون، ومارسه كبارهم وذوو الحكمة والشأن منهم، وتقدَّمت الإشارة إليه، ولكنَّه اتخذ في الإسلام مظهرًا دينيًّا،

(١) صحيح مسلم برقم (١٩٠١).

واصطبغ بقيم الدّين الجديد ومعانيه السامية، حيث كانت وفود القبائل تأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعلن بين يديه دخولها في الإسلام، فكان يقوم أحد رجال الوفد خطيبًا بلسان قومه يعلن خلال كلمته مبايعته رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يأخذون لأنفسهم فيقف منهم في غضون ذلك خطيب بلسانهم سائلًا ومجيبًا.

(٤) خُطَب المنافرات والمفاخرات:

كان هذا الضرب من الخُطَب معروفًا قبل الإسلام، ولكنّه كان منصبغًا بصبغة الجاهليَّة الأولى روحًا وفكرًا وعاطفةً، ورُبّما كانت الضغائن والأحقاد بعض حوافزه، وكذلك العصبيَّة والاعتداد بالأنساب والمنزلة الاجتماعية والسياسيَّة، فلمَّا جاء الإسلام غيَّر اتجاهه عمّا كان عليه فجعله يجري في مضمار قيم الإسلام وأخلاقه واتجاهاته، وقلّص من حجم دائرته، وضيّق نطاقه، وأذابه في بُوتقة خُطب الوفود.

لمَّا دخل وفد بني تميم المسجد نادَوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء حُجراته (أن اخرج إلينا يا محمد) فآذى ذلك رَسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صياحهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك فَأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا قال: «**قد أَذِنْتُ لخطيبكم فليقل**» فقام عطارد بن حاجب فقال: «الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ، وهو أهله الذي جَعَلَنا أعزَّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدَّةً، فمن مثلنا في الناس؟ وإنّا نعرف بذلك، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا»[(١)].

(١) ذكره ابن هشام في السيرة في آخر غزوة تبوك عن ابن إسحاق، وكذلك رواه البيهقي في دلائل النبوة في باب الوفود بسنده إلى ابن إسحاق فذكره باللفظ المذكور، ورواه ابن مردويه في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق ثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

ثمّ جلس فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثابت بن قيس بن الشمّاس أخي بني الحارث بن الخزرج: «**قم فأجب الرَّجل في خطبته**» فقام ثابت، فقال: «الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيُّه علمه، ولم يك شيء قطّ إلا من فضله، ثمَّ كان من قدراته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولًا أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثمَّ دعا النَّاس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوو رحمه أكرم الناس حسبًا، وأحسن النّاس وجوهًا، وخير الناس فَعَالًا، ثمَّ كان أوّل الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعا إليه رسول الله نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم»[(١)].

(٥) الخُطَب السياسية:

بدأ هذا الضَّرْب من الخُطب إِثْر وفاة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقيام الخلافة الإسلامية، ويمكننا عدُّ الخطب التي أُلقيت في سقيفة بني ساعدة، باكورة الخُطَب السياسيَّة؛ لتناولها موضوع الحكم، والخلافة وولاية أمر المسلمين.

ثمّ بدأت صفتُه الرسميَّة من حين تولِّي سيِّدنا أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منصب الخلافة، حيث قام فركب المنبر ثمَّ خطب الناسَ يبيِّن لهم سيرته في الحكم، وَخُطَّته في سياستهم، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيُّها الناس قد

(١) تهذيب سيرة ابن هشام (٢٣٨).

وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فقوّموني، الصِّدْق أمانة، والكذب خيانة، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ له حقّه، والقويُّ عندي ضعيف حتى آخذ منه الحقّ -إن شاء الله تعالى-، لا يدع أَحدٌ منكم الجهاد، فإنَّه لا يدعه قوم إلَّا ضربهم الله بالذلِّ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله»[(١)].

(٦) خطبة النكاح:

تقدَّم معنا في فصل سابق أنَّ العرب قبل الإسلام مارسوا هذا الضَّرْب من الخُطب، فكان يتقدَّم من طرف الرجل الخاطب واحد من أهله، فيلقي خطبة يطلب فيها يد المرأة، ثم يقوم من جانب أهل المرأة مجيبٌ له قَبُولًا أو ردًّا، ولم يَطْرأ أيُّ تغيير على نمط خطبة النكاح في الإسلام عمّا كانت عليه في الجاهليّة؛ إلَّا أنَّ الإسلام أضفى عليها من الذكر والدعاء وروحه الطاهرة، وبقيت كما كانت من قبل يؤدّيها الخطباء وهم قعود، ويطيل الخاطب الطالب ويقصر المجيب، وتذكر فيها صفات الرجل الخطيب، والفتاة المخطوب وخصال قَوْمَيهما.

المطلب الثاني: أشهر خطباء الإسلام في الصدر الأول:

حظت الأمة بعددٍ كبيرٍ من الخطباء المفوَّهين، وكان على رأسهم بلا منازع سيِّدهم وإمامهم صاحب اللِّسان الساطع، والبيان اللامع واللَّهجة الصادقة، والحجَّة القاطعة والصوت المؤثّر، والفصاحة السامية والبلاغة العالية أفصح

(١) رواه الدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف وفي غرائب مالك من حديث فتيان بن أبي السمح حدثني مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر خطب فذكره..، أخرجه البيهقي (٦/ ٣٥٣، رقم ١٢٧٨٨)، ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبي بكر أخبرنا عبد الله بن موسى أنا هشام بن عروة أظنه عن أبيه قال لما ولي أبو بكر خطب فذكره...

العرب، وأبلغ من خطب، أشرف الأنبياء والمرسلين سيِّدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

إن البيان في لسان الإنسان من القيم الأخلاقيَّة التي يتمتَّع بها في حياته، فإذا كان فصيحًا بليغًا مُتكلِّمًا مؤثِّرًا، حاز صفة أخلاقيَّة كريمة يكون له بها فخر واعتزاز، ويستحقّ عليه المدح والثناء.

وإذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشهادة القرآن والواقع: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، فيعني ذلك أنَّ جميع المعاني الأخلاقيَّة السّامية تجمّعت في ذات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت صفاتٍ بارزةً في سلوكه، فَيُبنَى على ذلك أنَّ خُلُقَ البيان عنده في أرفع مستوياته، وهذه حقيقة ثابتة لا تقبل النقاش.

لهذا قال عن نفسه: «**أنا أفصح العرب بيد أني من قريش**»(١).

وقال: «**أوتيت جوامع الكلِم**»(٢).

ويكفينا أن نعلم أنَّ قومه وَهم أرباب الفصاحة والبيانَ كانوا يطمئنون أمام كلماته، ويخضعون لها أسماعهم، ويحسّون بما اتصف به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوَّة اللسان، وروعة البيان، فكان أصحابه الكرام يقولون عنه إذا خطب: «إِذَا خَطَبَ احمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ»(٣).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٣٥-٣٦) حديث (٥٤٣٧)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢١) فقال وفيه مبشر بن عبيد وهو متروك ا.هـ، ذكره القاضي عياض في الشفاء، وذكره السيوطي في «اللالئ المصنوعة...» وقال معناه صحيح ولا أصل له.

(٢) رواه أحمد في مسنده، وأخرجه العقيلي (٢/ ٢١، رقم ٤٣٧)، والضياء (١/ ٢١٥، رقم ١١٥). قال الهيثمي (١/ ١٨٢): رواه أبو يعلى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعفه أحمد وجماعة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ٤١٨) كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، الحديث (٨٦٧) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله.

ويقولـون عـن تأثير مواعظه الشريفـة: «وعظنا رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون...»[(١)].

ويأتي بعد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الخلفاء الأربعة فقد حازوا قصب السبق في قوّة خطابتهم، وروعة بلاغتهم، وذكروا أنَّ عليَّ بن أبي طالب كان أخطبهم، وكان ثابت بن قيس بن الشمّاس الأنصاري خطيب رسول الله الذي لا يُجارى، وقد تقدّم معنا ردّه على عُطارِد بن زُرارة التميميّ.

ومن خطباء الصحابة أيضًا: عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوّام، وعبد الله بن مسعود، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن الربيع، وسعد بن عبادة، والحُباب بن المنذر، وأبو عمرة الخطيب.

ومن خطباء القوّاد: خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقّاص، والمغيرة بن شعبة، ورِبْعيّ بن عامر.

هناك عدد كبير من الخطباء الذين أفرزتهم الدعوة الإسلامية، قد تضيق صفحات هذا الكتاب عن حصرهم والحديث عن خطابتهم.

المطلب الثالث: الخطابة بعد عصر الخلافة الراشدة وإلى مشارف العصر الحديث:

إذا تجاوزنا عصر الخلافة الراشدة، وعبرنا رحاب العصر الأموي فالعباسيّ فما بعدهما من العهود حتى نصل إلى مشارف العصر الحديث، فسوف نجد

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٦١١)، كتاب السنة: باب في لزوم السنة، حديث (٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٤)، كتاب العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث (٢٦٧٦)، وابن ماجة (١/ ١٥، ١٦)، المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث (٤) (١٢٦-١٢٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٨-٣٣)، والآجري في «الشريعة» (ص٤٦)، والطحاوي في «مشاكل الآثار» (٢/ ٦٩)، والحاكم (١/ ٩٥)، وابن حبان (٥- موارد)، والبيهقي (٦/ ٥٤١)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ١٨١)، من طرق عن العرباض بن سارية.

أَنَّ الفن الخطَابيَّ قد مَرَّ بأطوار عديدة، وخضع لكثير من المؤثرات الفكريَّة والسياسية، والاتجاهات الدينية، والثقافية التي ظهرت عبر تلك العهود، فبعد مقتل عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، اشتد النزاع بين المسلمين، ومرج أمرهم، وبدأ ظهور الفرق السياسية كالخوارج والشيعة، ودبَّ الصراع حول الخلافة بين هذه الفرق، وقامت في غضون ذلك الثورات ضدَّ الأمويين، كثورة ابن الزبير في الحجاز، وثورة الشيعة في الكوفة، وثورة الخوارج في العراق، وخاصّة الأزارفة الذين كانوا من أعنف فرقهم.

وثورة ابن الأشعث، وثورة ابن المهلب، وجرت عمليَّات إخماد تلك الثورات والقضاء عليها عبر معارك طاحنة، ذهب ضحيَّتها عدد كبير من الناس، وفي أتون هذه الصراعات والاضطرابات السياسيّة نشطت الخطبة السياسيَّة نشاطًا كبيرًا، واتسع نطاقها على صعيد الخلفاء، وَقُوَّادِ الثورات، وخطباء الفرق المتناحرة، وبرز من هؤلاء خطباء مفوَّهون أثرت خطبهم الرائعة معين التراث الخطابيّ، ونذكر منهم الحجَّاج بن يوسف الثقفيّ في خُطبته التي خطبها في أهل العراق، ومنها خطبته التي ألقاها في مسجد الكوفة عند ما دخل العراق واليًا عليها، فصعد المنبر وهو مُلثَّم بعمامة حمراء، ثمَّ كشف عن وجهه، فألقى على الناس خطبة سياسية بليغة، قال فيها: أمَا والله إنِّي لأحمل الشرَّ بحمله، وَآخُذُهُ بنعله، وأجزيه بمثله، وإنِّي لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإنّي لصاحبها، وإنيّ لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى تترقرق: قد شمرت عن ساقها فشمري.

ثم قال: إنِّي والله يا أهل العراق، ومعدن الشِّقاق والنِّفاق، ومساوي الأخلاق، لا يغمز جانبي كتغماز التين[١]، ولا يقعقع لي بالشِّنان[٢]، ولقد فُررت[٣] عن ذكاء، وفُتِّشت عن تجربة، وأجريت إلى الغاية القصوى، وإنَّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، ثمَّ عجم[٤] عيدانها فوجدني أمرَّها عودًا، وأشدها مكسرًا، فوجَّهني إليكم، ورماكم بي، فإنَّه قد طالما أوضعتم في الفتن، وسننتم سنن الغيِّ، وأيم الله لألحونكم لحو[٥] العصا، ولأفرعنّكم قرع المروءة[٦]، ولأعصبنّكم عصب السليمة[٧]، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٨]، أما والله لا أَعِدُ إلَّا وفّيت، ولا أخلق إلَّا فريت[٩].[١٠].

وأما الخُطب الدينية بأنواعها المختلفة وخاصَّة الوعظيَّة منها، فبقيت على نشاطها وقوَّتها، حيث كان الخلفاء والعلماء ودعاة الفرق الدينية يمارسونها ويستكثرون منها في المساجد والمحافل، ولقد حفظ لنا تراثنا الخطابيّ طائفة كبيرة من غُرر الخُطب الوعظية، كخطبة قطريّ بن الفجاءة في ذمِّ الدنيا، وخطب الحسن البصري، وخُطب عمر بن عبد العزيز، وخطب سائر خلفاء بني أمية

(١) **غمز التين:** جسّه ليعرف أناضج هو أم فِجٌّ.
(٢) **لا يقعقع لي بالشّنان:** أي: لا أخدع ولا أروع.
(٣) **فُرّ فلان:** جُرّب واختبر.
(٤) **عجم عيدانها:** اختبرها ليعلم صلابتها.
(٥) **لحا العصا لحْوًا:** قشرها.
(٦) **قرعه قرع المروءة:** أنزل به البلاء.
(٧) أي: لأجمعنكم ثمّ أضربكم ضرب الحجارة.
(٨) **غرائب الإبل:** جمع غريبة: النائية عن وطنها غير المأنوسة.
(٩) **أخلق:** أقدر. **أفري:** أقطع.
(١٠) العقد الفريد (٤/ ١٢٠-١٢١).

وبني العباس، وخطب شبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، وخالد بن صفوان، والربيع بن خُثيم وغيرهم.

ومن خطب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك قوله: «إنَّ لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا من دنياكم لآخرتكم التَّقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه وعقابه، فترهبوا وترغبوا، ولا يطولنَّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنَّه والله ما بسط أمل من لا يدري لعلَّه لا يصبح بعد إمسائه، أو يمسي بعد إصباحه، وَرُبَّمَا كانت بين ذلك خطوات المنايا وإنّما يطمئن إلى الدنيا من أمن عواقبها، فإنّ من يداوي من الدنيا كَلْمًا أصابت جراحه من ناحية أُخرى، فكيف يطمئن إليها، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفتي، وتظهر عليتي، وتبدو مسكنتي في يومٍ لا ينفع فيه إلَّا الحقُّ والصدق» ثمّ بكى وبكى الناس معه[(١)].

وذكر لنا التاريخ عبر تلك العهود ظهور أُسَرٍ عُرِفَتْ بخطبائها النابغين الذين امتطوا صهوان البيان، وجاءوا بأطيب ثمار اللّسان.

واشتهر من تلك الأسر:

(١) آل رقبة: وكان من أخطبهم مصقلة بن كرب بن رقبة، بل كان أخطب الناس زمن الحجاج.

(٢) آل الأهتم: وفي ذروة خطبائهم خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة.

(٣) آل العاص: ومن أشهر خطبائهم عمرو بن سعيد الأشدق، وابنه سعيد بن عمرو.

(١) العقد الفريد (٤ / ٩٢).

(٤) الرَّقاشيَّون: ومن كبار خطبائهم يزيد بن أبان الرقاشيّ، وابن أخيه الفضل بن عيسى.

ومن الأسر التي توارثت منصب الخطابة في أواخر تلك العهود: أسرة ابن دقيق العيد.

المطلب الرابع: الخطابة في العصر الحديث:

إذا رجعنا رحاب العصر الحديث، فسوف نجد الخطابة قد خضعت لمؤثرات هذا العصر، واستجابت لعوامل التطور فيه، وحدث فيها نقلة نوعية عمَّا كانت عليه من قبل، ويمكننا إجمال القول في ذلك بما يأتي: طرأ تغيير واضح على الأنواع الخطابية في ظل مؤثرات العصر الحديث، فانتاب الاضمحلال والذبول بعض هذه الأنواع، وتجرَّد بعضٌ آخر من صبغته التي كان عليها قبل ذلك، وتجلَّت مظاهر التطوير في قسم ثالث بصورةٍ واضحةٍ.

فقد تضاءل حجم خُطَبِ الجهاد والحضِّ على القتال، وذابت في جوف الخطب السياسية، وَأَقَامَتِ القرارات العسكرية البلاغات القتالية مقامها، ولم يعد لها وجود على نحو ما كانت عليه في العصور الماضية.

وحدث في الخطب السياسيّة تحويلُ شبهُ جذريٍّ من حيث أُسلوبها ومضمونها واتجاهاتها وصبغتها، فقد سادتها المصطلحات السياسيَّة المعاصرة، ووهنت لغتها، وانحسرت عنها الصبغة الدينيَّة، كما انحسرت عن خُطَب القتال ومالت إلى التطويل.

وأما خُطب المنافرات والمفاخرات، فقد اقتصرت على الأحزاب السياسيَّة وبعض الاتجاهات الفكريَّة، فراجت سوقها في أوساط أهل الفكر والسياسة

عبر معتركات الدفاع والدعاية، ولم تتجاوز حدودها الضيَّقة، خلافًا لما كانت عليه في العصور السابقة.

وكذلك خُطَب التهنئة والتعزية، فإنَّها بقيت في مسالكها المعروفة من حيث اتجاهها وخطوطها العريضة، إلَّا أنَّها اكتسبت إلى جانب ذلك صفات جديدة منها الصفة الجماهيريَّة، فقد كان الخطيب في الماضي يتوجَّه بتهنئته أو تعزيته لصاحب الشأن في ذلك، سواءً أكان ملكًا من الملوك أم عظيمًا من العظماء، وأمَّا في هذا العصر فقد أقيمت لها المنابر، واجتمع لها الناس، وحشد لها الخطباء، وخاصَّةً خُطَبَ التعزية، فإذا مات عظيم من عظماء الناس أو عالم من عالم من علمائهم، أُقيم له حَفْل تأبين في مجتمع كبير، وراح الخطباء يتعاورون اعتلاء منصَّة الخطابة، كلٌّ يتناول جانبًا من خصال تلك الشخصَّية الراحلة، فيتحدَّث عنها، ويذكر بعض آثارها وأعمالها، ويقدِّم خلال كلمته عزاءه لذوي تلك الشَّخْصِيَّة الراحلة وللناس جميعًا، ويخلِّل خطبته الموعظة والإرشاد حسب ما يستدعيه المقام.

وأمّا خطبة النكاح فلم تبقَ على صورتها المعهودة، وهي أن ينهض من جانب أهل الرجل خطيب طالب ومن جانب أهل المرأة خطيب مجيب بالقبول أو الرفض، وإنّما أصبحت تلقى بعد القبول في حشد من المحتفلين، آخذة صفة التهنئة للأُسرتَيْن المتصاهرتين، ويتعرَّض الخطيب أثناء خطبته لذكر صفات العروسين ومناقبهما وخصال أسرتيهما، ويجعل خطبته تدور حول موضوع معين يختاره لتلك المناسبة كحقوق الزوجين، وضرورة الزواج، وتربية الأولاد، والكسب الحلال، وغير ذلك من الموضوعات المناسب طرحها في هذا المقام.

وأمَّا الخُطب الدينِيَّة، فلقد غدت المجال الرَّحْب الذي انساب فيه الفنُّ الخطَابيُّ، وتجلَّت فيه مظاهر الإبداع والابتكار والتطوُّر والازدهار أكثر من غيره في حَقْل الأنواع الخطابيَّة، ويرجع ذلك إلى عدَّة عوامل ومن أهمِّها:

أولا: احتلالها مركزًا مقدسًا في الدِّين الإسلاميِّ الحنيف، حيث بات أحدَ مشاعره العباديَّة في أيَّام الجُمَع والأعياد والحجِّ فأكسبَها ذلك قوَّةً ونشاطًا واستمرارًا وذيوعًا نظرًا لاصطباغ الإسلام بهذه الظواهر، حيث غدا أوسع الأديان انتشارًا وأكثرها أتباعًا، إذ بلغ عدد المسلمين في هذا العصر كما تذكر أحدث الإحصائيَّات السُّكَّانِيَّة مليارًا وسبعمائة مليون مسلم، أيَّ أكثر من خمس سُكَّان الكرة الأرضيَّة.

ثانيًا: نشاط حركة تبليغ الإسلام، وانتشار أداته في مختلف بلاد العالم، حيث باتت الخطابة وسيلة التبليغ الواسعة التي استعملها أولئك الدعاة لتوضيح حقائق الإسلام، وتبيين معالمه الفذَّة للناس عبر محافلهم وتجمُّعاتهم ومراكز الدعوة الإسلامية المبثوثة في بلاد الشرق والغرب التي لا تفتر فيها الخطبة الإسلاميَّة عن الصدع في آفاق المستمعين إليها تذكيرًا وتعليمًا.

وفِي الجملة نقول:

لقد ازدهرت الخطبة الإسلامية في هذا العصر الحديث، وتألقت في سماء الفنِّ الخطابيِّ، واحتلت منزلة مرموقة في حقل الخطابة الإنسانيَّة.

الفصل الثالث

أهمية المنبر وفارسه

الفصل الثالث

أهمية المنبر وفارسه

أهمية المنبـــر:

المنـبرُ هـو: ضابـطُ الإيقاع للحيـاةِ اليومية والأسـبوعية في الأمَّـة العربية والإسـلامية، يهـدي الحائرين ويرشـدُ الضَّالين وينـيرُ درب السـالكين إلى ربِّ العالمين، يفرح لفرحِهم ويحزن لحزنهم، فرحهم فيما يرضي اللهَ ورسـولَه، حزنهم فيما يغضب اللهَ ورسولَه؛ لذلك كانت أهمية المنبر وقيمة فارسِه، إنَّ تألُّقَ المنابر في تحرُّرِها وتصدُّرِها وتجدُّدِها، تحـرُّرٌ يوافق الشَّرعَ، وتصدُّرٌ يوازي الواقع، وتجددٌ يواكـب الأحداث، منه ينطلـق التوجيه، وعليه ينجلي الدِّيـن، وتنتصر العقيدةُ، وبه يُحرس الشَّرفُ، وتُصان الحقوق، ويشعُّ النور، وعن طريقه يبزغ فجرُ الأمل، ويشرق صوتُ العمل، فتعلـو الهمة، وتقوى العزيمة، وتتغذى الإرادة، والمنابر تتنوع سياسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، ونركِّز هنا على منبر الجمعة.

نعم فرسان المنابر المخلِصون مشاعِلُ النور في أمَّةٍ طال عليها اللَّيْلُ، وطلائع الأمَل في أمَّةٍ تناثر فيها القنوط، وبوادر اليَقظة في أمَّة عمَّ فيها السُّبات، ومصابيحُ الحق في أمَّة غاب عنها النور، وينابيعُ الرَّحْمة في عالَمٍ أجدبتْ فيه الدُّنيا مِن رُسُل المودَّة واليقين، فلا يجوز لخطيبٍ أن يبخلَ بوقتِه أو جهده أو مالِه لربه ولدينه، بسبب دنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يَنكِحُها.

شـيِّدْ مستقبلًا لنفسـك بالعمل للإسلام تسـعد هنا وهناك، شَيِّدْ مستقبلًا لولـدِك يفخـر بـه عنـد ملاقـاة ربِّـه، أو ورِّثـه الطَّريـق يكـن لك دعـوةً صالحة

بعـدَ فِراقـك لهذه الدُّنيا الفانية، إذا كان الأمر كذلـك فالمنبر يحنُّ إليك إذا تركتَه، والجمهور يشتاق إليك إذا غبتَ عنه.

فارس المنبر القدير:

له زئير، وَمَنْطِقُهُ كالحريرِ، ولسانه كالسَّيْف الطَّرير، كأنَّ كلامه زلال، ونبعَه سلسال، تأتيه الحكمةُ في ارتجال، ويغلب بحجته في الحال، أسدٌ إذا صال أو جال، يأسر القلوب أسرًا، يطوع النفوس تطويعًا، ويسري بالأرواح إسراءً، يستعمر النفوس، ويحتلُّ القلوب، فيكتب على صفحاتها رسائلَ الحياة، ويرسم على لوحاتها طريق النجاة، فيها الآيةُ الآمرة، والموعظةُ الزاجرة، والقصة النادرة، والحجة الباهرة، تعيش معه في دنيا من الصور والألوان، وفي عالم من المشاهد والألحان، كأنَّك في إيوان، أو بستان، أو ديوان؛ إنَّ من أعظم المتع التي عاشها الصحابةُ عندما كانوا يسمعون من أحكمِ الحاكمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثم يلتفُّون حول أفصح الفصحاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان إذا تكلَّم مَلَكَ المشاعرَ، وإذا نظر أسر الضَّمائر، وإذا أشار استمال السَّرائر، فلا يريدون خلْفَه كلامَ خطيبٍ، ولا يحتاجون بعده شعرَ شاعرٍ، كأنه الفجرَ أشرق، والماء ترقرق، والنورَ في الأرواح ترفق، ثم درج خطباءُ الأمة على منوالِه، وخطوا بأقوالهم على أقواله، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب كأنه منذرُ جيشٍ، فأحسن الخطباء من جعل القرآن معينَه، وملأ بنور الحديثِ عينَه، وجعل البيانَ طريقَه، ثُمَّ أكثرَ من التدريب، وأخذ من كل فنٍّ بنصيب، فترى له من البراعة، ومن الجرأة والشجاعة، ما يخلبُ ألبابَ الجماعة، جمالًا في بيان، وحسنًا في إتقان، مع عذوبةِ لسان، وثبات جنان، وصَدَقَ من قال:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ وَتَكْبُرُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا

عِظَمُ المُهِمَّة:

أيها الفارسُ المسلم، اعلم أنَّك صاحب رسالةٍ عظيمة، ومهمةٍ جسيمة، وعليك أن تؤديَها بكل صدقٍ وإخلاص ابتغاءَ وجه الله تعالى، والتقرب إليه سبحانه بإصلاح النية وإخلاصِها، حتى ولو كانت تلك وظيفتك التي تقتاتُ منها؛ لأنَّ الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى.

فارس المنبر: يا مَنْ تحملتَ مسؤولية المنبر، كن قدوةً حسنةً قولًا وعملًا، وسلوكًا وهيئة وفي كلِّ شأنك، واعلم أنك مأجورٌ إن شاء الله تعالى على ذلك كله متى احتسبتَه عند الله تعالى وابتغيت به وجهَه، وتأكَّد أنَّ النَّاس ينظرون إلى سلوك الخطيب، ينبغي أن تتطابقَ أفعالك مع أقوالِك؛ لأنَّ التزام الخطيب بأحكام الإسلام بوجه عام، وتطبيقه لما يدعو إليه في خطبته، يجعلُ كلامَه مقبولًا عند المستمعين، أمَّا مخالفة العملِ للقول، فإنه يجعل المستمعين لا يثقون بك، ولا يحترمون كلامَك، وصدق الله القائل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

فارس المنبر: يجب أنْ تسعى لإصلاح الفردِ وبناء المجتمع، ولا تنسَ أنَّ مهمتك تتمثل في الدَّعوة إلى الله تعالى بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، التي تفرض عليك تعليمَ النَّاس ما يجهلون، وتذكيرَهم ما ينسون، وتنبيهَهُم إلى ما يغفلون، تخاطبهم بما يوافقُ حالَهم؛ إذ إنَّ لكل مقامٍ مقالًا، ولكل مُناسبةٍ مجالًا، يلائم الحال ويصحح المآل، فلا يُخاطَبون بما لا يفهمون، ولا يُطرح عليهم ما لا يستوعبون،

وإلا كان فتنةً لهم، لما رُوي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أنت بمُحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلُغُهُ عقولُهم، إلا كان لبعضهم فتنةً»(١)؛ فاختر الموضوعَ بعنايةٍ فائقةٍ، وتلمَّس حاجاتِ المستمعين الذين جاؤوا لاستماعِ خطبتك، فأنت تدعو بالحسنى فعليك بحُسْنِ القَوْل، وليس هناك أحدٌ أحسن قولًا ممن حَمَلَ رايةَ الدَّعوة إلى الله تعالى، وإلى اتِّباع منهجه القويم، والالتزام بأحكام وتعاليم الدِّين الحنيف؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، واختيارُ موضوع الخطبة من واقعِ حياة النَّاس أفضل، ومناقشةُ المشكلات الاجتماعية ومحاولةُ وضع الحلول المناسبة لها واجبٌ يفرضه عليك تحملُك لهذه المسؤولية.

فارس المنبر: أنت الأذان النَّاطق بالحقِّ، وأنت الصوت المنذر في الخلق، لا تنسَ أنَّ الخطابة فَنٌّ لا يُجيده إلا مَن امتلك أدواتِه ومهاراته، وأنَّ على من اختارها أن يكون ذا موهبةٍ واستعدادٍ في هذا الشأن، وأنْ يكثرَ من التدرُّب عليها، وأن يكون واسعَ الاطلاع على العلوم المختلفة، والفنون والآداب، فسعةُ الاطلاع خيرُ معين للخطيب لأداء خطبته بقوةٍ وتأثيرٍ وفاعلية، كما أنَّ على الخطيب الاتصاف باللين والرفق والتلطف مع النَّاس؛ لأنَّ ذلك أدعى إلى استمالتِهم وإقناعهم، وأنْ يكون في المقابل حاضرَ البديهة، جيدَ الإعداد لموضوعات خُطبه، واثقًا من نفسِه، وأن يُحسن توظيفَها تبعًا لاختلاف الظُّروف والمُناسبات.

---

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١١) قال: حدثني أبو الطاهر وحرملة بن يحيى، قالا: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، فذكره. قلت: رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن مسعود مرسلة.

فارس المنبر: يا من تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر، اجتهد أنْ يأتيَ حديثُك في كلِّ خطبةٍ مناسبًا لظروف الزمان والمكان، فمعايشةُ الواقع أجدى وأنفع وأكثر قبولًا عند المستمعين، ولْيكنْ موضوعُ الخطبة عن القضايا الكلية دون التعمُّقِ في الجزئيات التي قد لا تؤدِّي إلى كثير نفعٍ وفائدةٍ للمستمعين.

فارس المنبر: إيَّاك والخوض في ما لا علمَ لك به من القضايا الشَّرعية أو الاجتماعية، أو غيرِها من القضايا الدِّينية أو الدنيوية، ولْيكن قولك وطرحك مبنيًّا على الحقائق والأدلة والبراهين حتى لا يزلَّ بك اللسان، أو تهوي بك القدمُ في ما لا يُحمد عقباه من القولِ بغير علمٍ أو التجنِّي في الخطاب أو نحو ذلك، واحرص على تبيين الأمور، والبُعد عما أشكل منها أو غمُض أو ترتَّب عليه مفسدة؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

فارس المنبر: تطرب القلوبُ بقولك الجميل المُدعَّم بالآيات البيِّنات، والأحاديث النبوية المختارات، والكلمات المأثورات عن الصَّالحين والصَّالحات، فليكنْ مطعمُك حلالًا، وتسلَّح بأفضل الخِلال، واحرص على براعة الاستهلال، واجتهد في فصاحة اللسان، وأتقن سلامة المخارج، وراعِ مهارةَ الإلقاء من تنويعٍ للأسلوب، وضربِ المثل، وجودةِ الاقتباس، ودقةِ الاستشهاد، وحُسن العرض؛ فإنَّ ذلك مما يُساعد على نجاح فارس المنبر في أداءِ رسالته

الدَّعوية والتربوية على الوجهِ الصحيح الذي يؤثِّر في المستمعين، ويأسر أفئدتهم، ويجذبهم إلى ما يقوله ويطرحه من موضوعات.

فارس المنبر: يا من ينظرُ إليك النَّاس قدوةً ومثلًا، احذر من بعض الصِّفات التي لا تليق بالخطيب المسلم، كالكبر والغرور، والإعجاب بالنفس، وتصيد أخطاء الآخرين، ونحو ذلك من الصِّفات التي قد تحبطُ الأجرَ، وتضيع الثَّواب وتفقد الثقة والعياذ بالله وإياك من التقعُّر في الكلام، أو التكلُّف في الخطاب، أو أنْ يراك النَّاس في مواقع الشُّبه والرِّيبة، فإنَّ ذلك مما يُفقد الخطيبَ صِدْقَهَ واحترامه عند الجمهور.

فارس المنبر: لكي تكون فارسًا وتظل كذلك حقِّقْ هذه الصفات في نفسك حتى تتحقق بإذن الله في غيرِك، اخترتها لك من كتاب (فلنبدأ بأنفسنا) للدكتور مجدي الهلالي:

- التجرد، ويشمل: تجريد القَصْد تجريد التوحيد تجريد المتابعة.
- تعظيم شعائر الله.
- التوكل على الله والرِّضا بقضائه.
- غِنَى النَّفس والقناعة.
- العِفَّة.
- التواضُع.
- الذِّلة على المؤمنين، والرحمة بهم.
- العزَّة على الكافرين، والشدة عليهم.
- حسن الخلق.
- كظم الغيظ.
- الأُخوَّة في الله.
- يعفو عمن ظلمه، ويُعطي من حرمه، ويصل من قَطَعه.

- الصبر.
- الحلم والأناة.
- الجهر بالحقِّ والارتباط به.
- الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر.
- محاسبةُ النَّفس وسوء الظَّن بها.
- استواء المدح والذم عنده.
- حفظ الحرُمات وعدم السخرية أو الاحتقار.
- الصِّدق.
- الجدية والهمة العالية.
- الجود والكرم.
- الورع.
- الاعتدال والتوازن.
- التضحية والجهاد في سبيل الله.
- الثبات علي الحق.
- الشجاعة.
- الحرص على ألَّا يُعْرَف.
- يسارع في الخيرات.
- المداومة على الاستغفار والتوبة.

وسوف يأتي التفصيل في بعض هذه الصفات في باب صفات الخطيب إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

الخطبة

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: الخطبة، وأشهرها خطبة الجمعة.

المبحث الثاني: أهمية خطبة الجمعة.

المبحث الثالث: خصائص خطبة الجمعة.

المبحث الرابع: بعض الأحكام الشرعية الخاصة بخطبة الجمعة.

المبحث الأول

الخطبة وأشهرها خطبة الجمعة

تعد خطبة الجمعة شعيرة من أهم شعائر الإسلام، فهي الدرس الأسبوعي المتكرر، وهي الإعلام الإسلامي المتميز والمتفرد.

شأنها عظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ، فهي ذكر الله، كما في الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وهي شعيرة تشهدها الملائكة مع المؤمنين كما في الحديث، وأداؤها قربة من أفضل القربات عند الله.

المبحث الثاني

أهمية خطبة الجمعة

خطبة الجمعة لها أثرها الكبير على الفرد والمجتمع، والكلمة التي يقولها الخطيب على المنبر لها ميزتها وأهميتها، ويمكن للخطيب الجيد أن يؤثر في واقع الناس وأن يضيف إليهم الكثير.

وأهمية الخطبة وآثارها تكمن فيما يأتي:

١- قيام الخطبة بنصيب ضخم في تثقيف الأمة، وترشيد نهضتها، ودعم كيانها المادي والأدبي، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد.

٢- تحريك العقول، وبعث الثقة في النفوس للدفاع عن فكرة معينة، أو النهوض بمهمة معينة.

٣- تُقَوِّي الإيمان، وترقق الأفئدة، وتزكي المشاعر، وتجعل الناس قريبين من ربهم وخالقهم سبحانه.

٤- تؤدي إلى تغيير الآراء والقناعات الفكرية الخاطئة.

٥- تفتح أبواب الأمل والتوبة في وجه العصاة والمذنبين.

٦- تساهم في تغيير العادات السيئة، وتُحْدِثُ أثرًا جيدًا في تحسين أخلاقيات الفرد والمجتمع.

٧- الخطابة من جملة ما ساعد على نشر الإسلام بين الناس، وكثيرًا ما توقّف فتح بلد أو حصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوة والقتال في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ[١].

(١) ينظر: الخطابة المنشور على موقع إمام المسجد: http://www.alimam.ws/ref

ولما كان للخطبة مثل هذا الأثر الكبير، فإن الخطيب اليوم أحوج ما يكون إلى مراجعة أدائه لهذه الشعيرة مراجعة تمكنه من الارتقاء بموضوع الخطبة ومستوى الخطيب، وصولًا إلى أن يكون الخطاب الإسلامي خطابًا متميزًا مرتبطًا بالأصل، قادرًا على استيعاب العصر، متدفقا بالعطاء والحيوية والتجدد دائمًا.

المبحث الثالث

خصائص خطبة الجمعة [١]

١- أنها تتم في جو مهيب خاشع، تتهيأ فيه النفوس للتلقي والاستماع.

٢- أنها تتميز بوجوب الإنصات إلى الخطيب. وعدم التشاغل عنه، وأن الناس يستمعون إليها امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ مما يفردها عن سائر الخطب، والمحاضرات، والندوات التي لا ينطبق عليها الحكم الشرعي نفسه.

٣- فيها يحتشد المسلمون على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم العلمية: المثقف والجاهل وطالب العلم والمتعلم والكبير والصغير. وهذا التنوع يفيد في تذليل العقبات التي تحول دون تنفيذ طرائق الإصلاح الاجتماعية، ويجعل الجميع يتحملون جزءا من المسئولية.

٤- هي المجال التعبدي والتثقيفي والتربوي والإيماني والاجتماعي المتاح للجميع.

٥- الاستمرارية والتكرار في كل أسبوع؛ ففي العام الواحد يستمع المصلي لاثنتين وخمسين خطبة، وهذا يمثل مساقا دراسيا متكاملا، فإذا أحسن الخطيب إعداده كانت آثاره جليلة، وثمراته عظيمة.

٦- الاتصال المباشر بين الخطيب والمخاطبين؛ الأمر الذي تفتقده كثير من الوسائل الأخرى، ولا ريب أن هذا الاتصال المباشر أعظم تأثيرًا في النفوس

(١) ينظر: حتى نستفيد من خطبة الجمعة، محمد عبد الله الدويش المنشور على موقع التعاوني، وخطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة، د. عبد الغني أحمد (ص١٩٢)، مصدر سابق.

لقراءة الإنسان من قريب الانفعالات العاطفية والوجدانية التي تحدث لدى الخطيب فيكون أكثر تأثرًا بها، ولما تحدثه المباشرة من المشافهة، والسؤال، والحياء، والمخاطبة.

٧- قيمتها المعنوية عند الناس وتأثيرها؛ ففي بحث عن أثر خطبة الجمعة أجري في مصر أفاد ٧٨٪ أنهم يتأثرون تأثرا دائما بما يقوله الخطيب، وذكر ٧١٪ أنهم يلتزمون دائما بما يقوله الخطيب.

المبحث الرابع

بعض الأحكام الشرعية

الخاصة بخطبة الجمعة[١]:

١- حكمها: الخطبة شرط لصحة الجمعة.

٢- أركانها: حمد الله تعالى والصلاة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والموعظة وهي: القصد من الخطبة وقراءة آية كاملة.

٣- شروط صحة الخطبة:

(أ) أن تقع في وقت الجمعة، ووقتها عند الجمهور هو وقت الظهر، يبدأ من بعد الزوال إلى دخول وقت العصر للأخبار في ذلك، وجريان العمل عليه.

(ب) أن تكون الخطبة قبل الصلاة.

(جـ) حضور جماعة تنعقد بهم الخطبة، على اختلاف بين الفقهاء في تحديد العدد.

(حـ) رفع الصوت بها، بحيث يسمع العدد المعتبر إن لم يعرض مانع.

(خـ) الموالاة بين أركان الخطبة، وبين الخطبتين، وبينهما وبين الصلاة.

(د) كونها بالعربية، تعبّدًا، للاتباع.

(ر) النية عند بعض الفقهاء.

---

(١) ينظر: الموسوعة الفقهية: (ج١٩) مصدر سابق وينظر: محاضرات في الخطبة والإلقاء د.عبد الله بن محمد المطوع.

٤- أبرز سنن الخطبة:

(أ) أن يخطب على منبر ونحوه.

(ب) السلام على الناس قبل الجلوس.

(جـ) الأذان والجلوس لسماعه.

(حـ) مواجهة الناس واستدبار القبلة.

(خـ) الاعتماد على سيف أو عصا أثناء الخطبة.

(د) تقصير الخطبتين، وكون الثانية أقصر من الأولى.

الباب الثاني

أقسام الخطبة

أقسام الخطبة، وفيه عدة فصول:

الفصل الأول: الخطبة، وفيها عدة مباحث:

المبحث الأول: المقدِّمة.

المبحث الثاني: الموضوع

المبحث الثالث: الخاتمة.

الفصل الثاني: الأسلوب، وفيه مباحث:

المبحث الأول: تعريفه، أثره وأهميته، خصائصه.

المبحث الثاني: وسائل الأُسلوب

المبحث الثالث: أنواع الأسلوب

المبحث الرابع: سُبل تقوية الأسلوب الخطابي

الفصل الثالث: الاستشهاد، وفيه مباحث:

المبحث الأول: تعريفه.

المبحث الثاني: أهميَّته ومكانته

المبحث الثالث: شروط الشاهد

المبحث الرابع: أنواع الإستشهاد

الفصل الأول

الخطبـــة

تنقسم الخطبة من حيث هيكلها إلى ثلاثة مباحث مرتبةٍ كما يأتي:

المبحث الأول: المقدِّمة.

المبحث الثاني: الموضوع

المبحث الثالث: الخاتمة.

ولابدَّ من الاستفاضة في الحديث عن هذه الأقسام ليتحصَّل منها إدراك كامل لهيكل الخطبة بتفاصيله.

المبحث الأول

المقدمة

وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: تعريف المقدمة:

هي مدخل يُمَهِّد فيه الخطيب للأفكار التي سيعرضها في خطبته، والمسائل التي سيعالجها خلال كلمته، ويتوخَّى بها جلب انتباه السامعين إلى ما سيلقيه إليهم من تلك الأفكار والمعاني.

وهي التي يستهل بها الخطيب خطبته، ويهيئ السامعين لسماعها، ويجذبهم بها إليه. ونجاح الخطيب فيها كفيل بالنجاح في بقية خطبته؛ إذ إن عسيرات الأمور بداياتها.

وهذه المقدمة هي الحمد والثناء على الله تعالى، والشهادتان والوصية بالتقوى، أحيانًا يقرأ بعض آيات التقوى التي في مقدمة الحاجة.

وكثيرٌ من الخطباء يبدأ خطبته بخطبة الحاجة ولا يغيرها أبدًا، وهي (إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره ..... إلخ).

وهذا مخالف لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يثبت فِيمَا أعلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبدأ كل خطب الجمعة بهذه المقدمة، بل هذه تسمى خطبة النكاح[(١)].

(١) أو البدء بخطبة الحاجة التي أكَّد عليها الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القيم «خطبة الحاجة التي كان رسول الله يعلمها لأصحابه»، طبع المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٠، وذكر الشيخ أن السلف كانوا يقدِّمونها بين يدي كتبهم، وفي شؤونهم كلِّها، والبعض يرى =

والخطيب المِصْقَعُ الفقيهُ: هو الذي يربط مقدمة الحمد والثناء بموضوع خطبته.

يقول مرشد الحيالي[١]:

مقدمة الخطبة: وهي المدخل والمفتاح للموضوع الذي سيختاره الخطيب، وهي عددٌ قليل من الفقرات التي يمكن من خلالها تقديم تلخيص لأهمِّ جوانب الموضوع، بحيث لا تشتِّت فكر المستمع، ولا بُدَّ أن تكون متناسبةً مع مضمون الخطبة، ومقدمة كل خطبة بحسب الموضوع، والهدف من المقدمة هو جلب انتباه الحاضرين إلى ما وراء المقدمة، وللمقدمة الأثر الفعَّال في نجاح الخطيب أو فشله، فإن كانت المقدمة بما حوته من ألفاظٍ ومعانٍ محكمةِ المبنى والمعنى، متينة الأسلوب، قوية التأثير، متضمِّنة للمقصود كان لها الأثر في تنبيه الحاضرين، وإيقاظ الغافلين، و بها يتمكَّن الخطيب الناجح من امتلاك زمام الأمر، ويأخذ بناصية الموقف، وهي بمثابة «الدينمو» المحرِّك لاستكمال الخطبة بهدوء وسكينة وثقة نفس. فمَن أراد أن يوفَّق لذلك فعليه مراعاة ما يلي فيها:

أولًا: أن تتضمَّن المقدِّمة ما يسمى عند علماء المعاني في علم البلاغة ببراعة الاستهلال، وحسن الابتداء، وقوة الافتتاح، وأدنى من ذلك حسن الاستهلال.

براعة الاستهلال: وهي أن يبتدئ الكلام بما يناسب المقصود والمضمون، وهي تقع في بداية الكلام وديباجته، والخطب تبدأ عادة بحمد الله، والصلاة على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الإشارة إلى الموضوع، ثم بخطابات عامَّة... وهكذا:

= أنه ليس بلازم البدء بها في كل خطبة؛ بدليل أنَّ خطبة الوداع لم ينقل أنه بدأها بخطبة الحاجة، انظر: «خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة»؛ د: عبد الغني مزهر، (ص٤١)، وقد أورد بعضَ الأدلَّة عن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في إسناد قوله.

(١) رابط الموضوع: http://www.alukah.net/sharia/0/8008/#ixzz30f8kwIvy.

«ولبراعة الاستهلال أثرها في تدعيم موقف الخطيب، وغرس الثقة في نفسه، ليتابع طرح موضوع خطبته بكمال القوة والثبات»[(١)] فإذا ما فاجأ الخطيب المستمعين ببراعة التقديم، استطاع متابعة حديثة بنشوة، وثقة عالية، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا الأسلوب في مطالع السور، وبداياتها، وتأمل قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات:١٥]، «ففي استفتاح قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بهذا السؤال الذي فيه تشويقٌ، وإثارةٌ لذهن السامع براعة استهلال»[(٢)]، مع قِصرَ الجملة، وقوة المعنى، وفيه فائدة في طرح القضية على صورة الاستفسار، أو السؤال، وقد سلك عامَّةُ العلماء والأدباء هذا الأسلوب في مؤلَّفاتهم وأدبياتهم، وذلك بوضع مقدِّمة أدبية بين يدي الموضوع.

ولكن يجب أن يراعى في براعة الاستهلال ما يلي:

(١) أن تتضمَّن الأساليب اللغوية والأدبية الواضحة السهلة، والابتعاد عن الألفاظ المعقَّدة والمبهمة[(٣)]، التي يغيب فهمها عن العوام، وكذا تجنُّب الألفاظ العامية؛ لأنها تعطي انطباعًا لدى الجمهور على سطحية الفهم لدى الخطيب، وعدم النضوج لديه، ولا بأس أحيانًا من استخدام عبارات جديدة؛ من أجل أن تحقِّق انسجامًا بين الخطيب والمستمع، ولكنَّ استعمالها يجب أن يكون بحذرٍ ودقَّة، وخاصَّة تلك التي تحتمل حقًّا وباطلًا؛ لأنها في بداية الخطبة ومفتاح الدخول للجمهور.

(١) انظر: خصائص الخطبة والخطيب لنذير محمد مكتبي، (ص٥٦).
(٢) مقال بعنوان «تأملات حول سورة طه»؛ للأخ: محمد العبادي، تجده على موقع أهل الحديث.
(٣) وذلك مثل الألفاظ التي يستعملها الصوفية في خطبهم ومواعظهم، والتي يصعب على العوامِّ فهمها، وبعض الخطباء غلب عليهم استعمال المصطلحات الفكرية، وكأنك تستمع لمحاضرة جامعية، أما الضعف اللغوي فحدِّث ولا حرج.

(٢) التنوُّع والتجديد في طريقة تناول الموضوع، وأسلوب الاستهلال، والابتعاد عن التكرار في مقدمة الخطبة؛ حتى لا تكون كأنها نسخة مكرَّرة «وبعض الخطباء يستهلُّ خطبته دائمًا بألفاظ معينة يلتزم بها في كل خطبة، حتى أصبحت محفوظة مكرَّرة لدى المصلِّين، تدعو إلى الملل والسأم»[(١)].

(٣) عند تلاوة الآيات ينبغي عدم عرضها بصورة نصِّيَّة أكاديمية، بل لابُدَّ من توضيح المعنى من خلال الإلقاء يعتمد على حسن الإلقاء عند الخطيب أو استخراج فوائدها ولو بشكل مختصر، كأن يقول الخطيب: «الحمد الذي جعل تقواه سببًا للفرج، ونزول الرزق، وحلول البركة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق:٢].

من روائع براعة الاستهلال ما نُقِل عن الإمام أحمد بن حنبل نوَّر الله ضريحه في ديباجة خطبته في الرَّدِّ على الجهمية حيث قال: «الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةً من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون مَن ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوْه! وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هَدَوه! فما أحسن أثرَهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم!... إلخ»[(٢)].

(١) انظر: «خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة»؛ د: عبد الغني مزهر (ص٤١)، ومن طريف ما يُذكَر أن رجلًا كان يذهب لصلاة الجمعة، فيرى أحد المصلين واقفًا عند الباب، وتكرَّر الأمر مرارًا فسأله عن السبب فقال: أنا منذ عشرين سنة أصلي في هذا المسجد، والخطيب يلتزم نفس الخطب حتى حفظتها، فلا أجد داعيًا لحضوري الخطبة، وإنما أصلِّي صلاة الجمعة فحسب!

(٢) مقدمة رسالة «الرد على الزنادقة»؛ لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل نوَّر الله ضريحه حقها أن تكتب بماء الذهب، والرسالة ثبتت نسبتها للإمام بما لا يدع شكًّا أو ريبًا في نفس أحد، انظر في الكلام عن ثبوت الكتاب: مقدمة «الرد على الزنادقة والجهمية»؛ تحقيق: دغش العجمي (ص٨٥).

ثانيًا: مراعاة الوقت: وهي من الأخطاء التي يقع فيها بعض الخطباء، فترى أحدهم يطيل المقدمة، وربما تفصيل ما تحدث عنه في موضوع الخطبة السابقة، فلا يدخل في صلب الموضوع إلا بعد أن تكون الأسماع قد سَئِمَتْ من الإصغاء إليه، ولسان حال المستمع يقول: أعطنا زبدة الموضوع، وأَرِحنا بالمقصود يرحمك الله؛ ولهذا يراعى في المقدمة «أن تكون مناسبة في الطول والقصر لزمن الخطبة، فالمقدمة تُعَادِل من ٥:٨٪ من زمن الخطبة؛ لأن الافتتاح يعني: لفت انتباه السامعين في القصد من الخطبة»[(١)]، والأفضل أن تكون المقدمة هي عُشْرْ الموضوع، فإذا تجاوزت الربع إلى النصف فقد تجاوز الحد المطلوب.

ثالثًا: التنبيه على موضوع الخطبة سلفًا: وهو ممَّا يريح المستمع من الاستنتاج، ويجعله وعاء وأرضًا خصبة لتلقِّي المعلومة، والأفضل أن يبدأ الخطيب بطرح الموضوع على شكل نقاط، أو مَحَاوِر، فيقول مثلًا: كلامنا يدور حول أهمية الصلاة في الإسلام في ثلاث مسائل: هي كذا...، أو يقول: خطبتنا اليوم هي حول العِبَر والعظات المستقاة من حادثة الإسراء والمعراج، أو يفهم الناس من مقدمة الخطبة بأن موضوعها هو كذا، كأن يقول: الحمد لله الذي جعل الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين...

رابعًا: من المفيد للخطيب أن يبدأ خطبته بما يجلب انتباه السامعين، من حادثة صادفها، أو قصة قرأها، أو خاطر انقدح في نفسه[(٢)]، وأن يكون الخطيب صاحب مهارة في تصيُّد المناسبات للتوجيه التربوي، وينوِّع في إيراد الحدث

(١) رسالة بعنوان «ضوابط في إلقاء الكلمات السريعة أو القصيرة المعروفة بـ(الخاطر)» موقع منابر الدعوة.

(٢) «أصول الدعوة»؛ د: عبد الكريم زيدان، (ص٣٤٣).

والمناسبة، كأن يقول: قرأتُ اليوم في الأخبار حدثًا أقلق مضجعي، وأثار اهتمامي...، أو يقول: في مثل هذا اليوم حدث أمر مهم جَلَل، وخَطْبٌ جسيم، لا زلنا نعاني آثاره إلى اليوم... ونحو ذلك، ثم يمضي بعدها مسترسلا في وعظه، ويقرن بين التبشير والإنذار، ويتخيَّر من الحوادث ما يكون محورًا لوعظه، ويخرج بعد العرض بحلٍّ لما استجدَّ من حوادث، وما يحلُّ بالمسلمين من بلاءٍ وضيق، ويذكِّرهم دائمًا بأن المخرج والنجاة من الوضع الراهن هو طاعة الله ورسوله.

خامسًا: مراعاة ما يسمَّى بهندسة الصوت، وأن تكون نبرات الصوت ملائمةً للحدث، والموقف، والحال، ففي مقدمة الخطبة يستوجب من الخطيب أن يبدأها بقراءة كالقراءة والتجويد، فإذا وصل إلى موضوع الخطبة رفع من صوته، وما بين مقدمة الخطبة وخاتمتها يكون صوته كالرسم البياني، يرفع ويخفض بحسب ما يلائم الموضوع، ومن الأخطاء في هذا الجانب أن يبدأ بعض الخطباء بصوت مرتفع، فلا يَصِل إلى الموضوع إلَّا وهو متعبٌ منهك القوى، فيفقد كثيرًا من قدراته الصوتية[1].

وسوف يكون هناك تفصيل عن نبرات الصوت في موضعها من هذا البحث - إن شاء الله تعالى -.

سادسًا: وبالنسبة لموضوع الخطبة يستحسن إذا كان الموضوع شائكًا، أو حسَّاسًا، أو تكلَّم به في مكان آخر فأوجب الانقسام عدم الدخول إليه مباشرة، أو التصريح به في المقدمة؛ بل لا بُدَّ من التدرُّج والتسلسل العقلي المنطقي؛ حتى

(١) بحثٌ رائع تجده على موقع الألوكة بعنوان «صوت الخطيب»؛ للشيخ إبراهيم الحقيل، تكلَّم حول أهمية الصوت، وما ينبغي للخطيب من مراعاة أمورٍ تتعلَّق بصوته عند الإلقاء، والهدي النبوي في ذلك، فراجعه إن شئت.

يصل إلى مطلوبه ومبتغاه، وهنا يعتمد على مهارة الخطيب وقدرته على معالجة المشكلة، بما يملكه من علم وحكمة: «وجملة الأمر: أن المَطْلَع هو أول ما يستأذن على السمع من الكلام، فإن كان حسنًا، رائقًا ظريفًا، مناسبًا للموضوع، أذن له السمع، وتطلَّعت إلي ما يورده الخطيب بعده، وحثَّها على الشوق إلى الآتي بإضافته إلى الماضي، وهذا سرُّ حسنِ الافتتاح»[(١)].

المطلب الثاني: أنواع المقدمة:

قد يستهل الخطيب خطبته بما يلي:

١- آية قرآنية مناسبة للموضوع، تحرِّك المشاعر، وتؤثر في نفوس المستمعين.

٢- حديث نبوي شريف، يستميل به القلوب، ويستقطب به العقول.

٣- حكمة مأثورة، يتخذها الخطيب مطيَّة للدخول في موضوعه.

٤- يذكر الفكرة التي يدور حولها موضوع خطبته، ويأتي بها موجزة مثيرة، منبهة للعقول، محركة للنفوس.

٥- يستهل خطبته بقصة قصيرة، يدخل من خلالها على فكرة موضوعة.

٦- يذكر المناسبة التي أعد لها خطبته.

المطلب الثالث: نماذج من مقدمات لخطب منبرية:

(١) مقدمة خطبة بعنوان: «إعداد النشء ليكونوا رجالًا»

«الحمد لله الذي خلقنا وسوَّانا، وعلى موائد برِّه وكرمه ربَّانا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، وأثنى عليه بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وعلى آله وصحبه الذين صلحت

(١) «فن الخطابة وإعداد الخطيب»؛ للشيخ العلامة: علي محفوظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٥٢).

قلوبهم، وتهذَّبت أخلاقهم، فدانت لهم مشارق الأرض ومغاربها، وكانوا هم من الفائزين الغالبين.

وبعد، فإنَّا سنتحدث إليكم في موضوع له شأنه وخطره في حياتنا الاجتماعية، ألا وهو إعداد النشء ليكونوا رجالًا كاملين ناهضين...»[(١)].

(٢) مقدمة خطبة بعنوان: «المحافظة على الصلاة والخشوع فيها»

«الحمد لله الذي أنزل الشريعة هدًى للناس ورحمةً، وجعلها طريقًا واضحًا إلى سعادة الدارين، والشكر له تعالى هدانا للإسلام، وفضَّلنا على جميع الأمم، وأشهد أن لا إله إلا الله أَعزَّ الطائعين، وأشهد أن سيدنا محمدًا أفضلُ المصلين، وإمام الخاشعين، اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، والحافظين لحدود الله.

أما بعد، فقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، عباد الله...»[(٢)].

(٣) مقدمة خطبة بعنوان: «جنة الخلد»

«الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين نزلًا، ويسر هم للأعمال الصالحة الموصلة إليها فلم يتخذوا سواها شغلًا، وسهل لهم طرقها فسلكوا السبيل الموصلة إليها ذلًا، وكمل لهم البشرى بكونهم خالدين فيها لا يبغون عنها حولًا.

---

(١) المصدر السابق: (ص١٣٧)، الفصل السادس، نماذج من محاضرات وخطب علمية، دينية اجتماعية، خلقية.

(٢) المصدر السابق: (ص١٦١)، الفصل السابع، نماذج من الخطب المنبرية بروح العصر.

الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا، وباعث الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

والحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل، وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل، وأفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته سبقت غضبه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

(٤) مقدمة خطبة بعنوان: «لبيك اللهم لبيك»

«الحمد لله الذي فرض على عباده الحجَّ إلى بيته الحرام، ورتب على ذلك جزيلَ الأجر ووافرَ الإنعام، أحمده سبحانه على الرخاء والنعماء.. وأشكره في السراء والضراء.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. شرع الشرائع وأحكم الأحكام.. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. أفضل من صلى وصام.. ووقف بالمشاعر وطاف بالبيت.. صلِّ الله وسلم وبارك عليه.. وعلى آله وصحبه الطيبين الكرام.. ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها.. وتألفت به القلوب بعد شتاتها.. وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار.. وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار.. واستجابت لدعوته القلوب طوعًا وإذعانا..وامتلأت بعد كفرها أمنًا وإيمانًا.. فجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء، وصلى عليه صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء، وسلم تسليما كثيرا».

المبحث الثاني

الموضـــوع

المطلب الأول: تعريف الموضوع:

هو المادَّة التي يبني عليها المتكلِّم حديثه، والأفكار التي يعالجها الخطيب في خطبته.

وهو الجزء الرئيسي في الخطبة، ويتضمن الأفكار والحجج ووجهات النظر وبه تتكامل الخطبة.. ومن الضروري مراعاة الوحدة الموضوعية في الخطبة؛ فلا خطبة بلا موضوع، ولا يسوغ أن تكون الخطبة خليطا متنافرا من القضايا والموضوعات ومليئة بالاستطرادات المناسبة وغير المناسبة.

المطلب الثاني: عنوان الموضوع:

هل اشتريت يومًا كتابًا بلا عنوان؟ أم هل قرأت يومًا مقالًا بلا عنوان؟ أم هل سمعت يومًا محاضرة بلا عنوان؟ أم هل سمعت خطبةً بلا عنوان؟.

فلماذا تخطب أنت خطبة جميلة وقوية ومؤثرة بلا عنوان؟.

فلا بد لكل خطبة من عنوان جذاب وقوي ومؤثر، وتكون أنت مميزًا به، ويكون عنوانًا خاصًا بك دون غيرك، فتبدع في اختياره، وتتفنن في اختراعه.

كيف أختار عنوانًا للخطبة؟

سؤال يدور في عقلك هذه اللحظة، إن اختيار العنوان من السهل اليسير: فليكن مثلا: آيةً من القرآن الكريم، أو جزءًا من آية، أو جزءًا من حديث نبويٍّ،

أو عنوان كتاب، أو عنوان باب في كتاب، أو عنوان بحث في كتاب، أو عنوان مقال، أو جملة في كتاب، أو في مقال، أو في بحث.

لهذا ينبغي أن يكون آخر ما تكتبه في الخطبة هو العنوان، كما سوف نبين – إن شاء الله تعالى – في بحث التحضير.

العنوان الجذاب:

تعلَّم هذه الأسرار الخفية في اختيار عنوانك:

١- اختر عنوانًا تحدد من خلاله الفكرة الرئيسية للموضوع دون إبراز الفرعيات.

٢- الأسلوب الاستفهامي يجلب التشويق دائمًا، مثل: (كيف تحضر موضوعًا؟).

٣- حاول أن لا تزيد عدد كلمات العنوان عن (ثلاث كلمات).

٤- استخدم الأعداد في عنوانك، فهي تجعله أكثر جمالًا مثل: «خماسية النجاح» وأخبرك بسرّ آخر في اختيار الأعداد، وهو أنَّ الأعداد الفردية هي أكثر جاذبية واستثارة للسامعين.

٥- دع عنوانك يبرز الفائدة الرئيسية التي يمكن جنيها من موضوعك:

فمثلًا: «كيف تجعل الناس يقرءون مواضيعك؟» أقوى من استعمالك لعنوان: «مهارات الاتصال الفعالة»، إن العناوين التي تبدأ بـ «كيف...» تعطي فكرة للناس أفضل وأوضح عما يمكن أن يستفيدوا منه.

٦- استعمل العناوين الثانوية والمختصرة لتكون تصورًا واضحًا ومؤثرًا عن الموضوع: لاحظ عنوانًا مثل «الجرح والتعديل» كيف ومتى تمارسه، لقد أصبح أكثر قوة بعد القيام بشرح المراد من العنوان الرئيسي.

٧- اخلق جَوًّا من الغموض: من الأساليب التي يمكنك استعمالها لإضفاء الاهتمام على موضوعك هو أن تترك الجمهور في حالة من التخمين حول الهدف من موضوعك.

٨- استعمل جملة في موضوعك لتكون عنوانًا له، لا بد أن يكون هناك جملة بليغة أو مهمة في موضوعك تصلح لتكون عنوانًا، استعملها؛ لأن الجمهور سيذكرونها أكثر.

٩- استعمل كلمات قوية: إن بعض الكلمات تتمتع بجاذبية خاصة لدى استعمالها في العناوين، مثل: أنت، كيف، جديد، من، الآن، فجأة، مدهش، معجزة، القوة، أسرار، مثير، سحري، التحدي، خطر.

١٠- اجعل العنوان هو آخر ما تكتبه، فاختياره أسهل آنذاك.

١١- ابتعد عن العنوان الذي يكون مكررًا ومشهورًا، واجعل فيه إبداعًا وحداثة.

المطلب الثالث: الاختيار:

يشتكي كثير من الخطباء من كيفية اختيار الموضوع، وبعضهم يُرجع سبب ذلك إلى ندرة الموضوعات التي يمكن أن يتناولها الخطيب وتناسب الكثير من الناس، ولا سيما أن الخطبة تتم كل أسبوع.

وأحسب أن السبب الرئيس لهذه النظرة عند الخطيب هي: قلة علمه، ومحدودية اطلاعه ومعلوماته، وضعف نظرته إلى واقع الناس.

وإلا فإن الخطبة لو كانت تتكرر يوميًّا لما استطاع الخطيب أن يعالج جميع الموضوعات التي يحتاجها الناس في هذا العصر المتغير، الذي ضعفت فيه الديانة في قلوب الناس، وكثرت معها الفتن، فهم يحتاجون إلى تقوية إيمانهم، وترسيخ عقيدتهم، وما تخللها من انحرافات من أقوال أو أفعال قد تناقضها بالكلية، أو تناقص كمالها؛ فالناس يحتاجون إلى تصحيح عباداتهم، ويحتاجون إلى بيان الحكم الشرعي في كثير من المعاملات والعادات التي تتجدد باستمرار، غير ما يفد إليهم من خارج مجتمعهم، ويحتاجون إلى الحث على مكارم الأخلاق والتنفير من مساوئها، وإلى ترقيق القلوب، والتذكير بالآخرة...، والموضوعات كثيرة جدًّا.

يجب على الخطيب أن يُراعي عند اختيار موضوع خطبته أمورًا ثلاثة، هي:

الأمر الأول: المناسبة:

للمناسَبة أثر كبير في تحديد المنطلق الرئيسيِّ لموضوع الخُطبة، لذا يجب على الخطيب أن يختار موضوع خطبته متَّفقًا بفكرته مع المناسبة التي أعدَّ خطبته من أجلها. وهذا أدعى إلى تفاعل الجمهور المستمع مع تلك الخطبة وإقباله على الأفكار والمعاني التي تتضمَّنها، فيستجيب لها عقله ويتأثَّر بها شعوره.

وأمَّا إذا تناول الخطيب موضوعًا لا يلتقي بالمناسبة التي اجتمع الناس لها، وينأى بفكرته عن أجوائها، فإنَّه لا يترك التأثير المناسب في نفوس المستمعين إليه، ولا يفي الجمهور حاجته، حيث أعدَّ نفسه لسماع خطبة تجعله يعيش معاني

المناسبة التي اجتمع من أجلها، ولكنَّه فُوجِئ بخُطبة أُخرى يدور موضوعها في غير فلك تلك المناسبة، وخاصَّةً إذا كان الموضوع يقف من تلك المناسبة، على طرف نقيض، كأن يتحدَّث الخطيب عن الموت في مناسبة نكاح. وكم من خطيب خالف في خطبته سبيل المناسبة التي اجتمع لها الناس، فعاد مادحه ذامًّا، ونفرت منه النُّفوس، وأعرضت عنه الأذهان، فلم يُرزَق مستمعًا، ولم يحقِّق منتفعًا.

أنواع المناسبات:

أولًا: مناسَبات طارئة:

كحدث يحصل في الحي أو البلد واشتهر وعرفه الناس؛ فهم ينتظرون من الخطيب رأيه فيما حدث، ومنها قضايا المسلمين أيضًا التي تشتعل بين حين وآخر: كقضايا فلسطين، والشيشان، وكوسوفا ونحوها، واليمن وليبيا وسوريا ومصر، وغيرها من بلاد المسلمين.

وينبغي للخطيب أن يعالج مثل هذه الموضوعات معالجة شرعية، تبين حجم القضية الحقيقي بلا مبالغة ولا تهوين، ومن ثَمَّ يبين موقف المسلم في هذه القضية، وما يجب عليه تجاهها، فلا يكفي مجرَّد عرضها.

ويلاحظ أن بعض الخطباء قد تطغى عليه الحماسة في ذلك؛ فيبالغ في الموضوع أو يكثر من تكراره، والحديث عنه على نمط واحد، وبأسلوب تمله النفوس، وهذا فيه مفاسد منها:

(١) فقدانه المصداقية، ولا سيما إذا انكشفت مبالغاته للناس، ومِنْ ثَمَّ يضعف أخذ الناس عنه، أو التأثر بما يقول؛ لأنهم عرفوا عنه المبالغة.

(٢) ملل الناس، وانصرافهم عن تلك القضية، وكما قيل: كثرة المساس تقلل الإحساس.

(٣) إن تركيزه على قضية معينة، وتكرار ذلك سيكون على حساب موضوعات وقضايا قد تكون لها أهمية أكثر من قضيته التي يكررها، وربما تكون أهم منها.

ثانيًا: مناسبات متكررة بتكرر الأعوام:

كرمضان والحج وعاشوراء، والتحذير من البدع المحدثة ونحوها.

وهذه المناسبات مريحة عند كثير من الخطباء؛ إذ لا يحتاجون إلى إعداد خطب جديدة في موضوعاتها، ولربما حفظ الناس خطبهم فيها من كثرة ترديدها، وأصابهم الملل منها. بيد أن هذه المناسبات تقلق من يهتمون بخطبهم، ويحبون التجديد في موضوعاتها، ويودون إفادة الناس بكل وسيلة ممكنة.

ولتلافي التكرار في كل عام يمكن تفتيت الموضوع الواحد إلى موضوعات عدة، في كل عام يطرق الخطيب منها موضوعًا وأضرب مثلًا لذلك؛ فبالمثال تتضح الصورة: دَرَجَ الخطباء في ثالث جمعة من رمضان على الحديث عن غزوة بدر الكبرى، ويقدمون لها بمقدمة عن نصر الله تعالى لعباده، وكون رمضان شهرًا للانتصارات والأمجاد، ويسردون عددًا من المعارك التي وقعت في رمضان، غزوة بدر، وفتح مكة، وعين جالوت، وفتح الأندلس ونحوها، ثم يخصصون الخطبة بكاملها عن غزوة بدر، وهكذا في كل عام.

ومن الممكن لتلافي التكرار جمع الغزوات والأحداث الكبرى التي وقعت في رمضان، واختيار واحدة منها في كل عام للحديث المفصل عنها. ويمكن تفتيت الغزوة الواحدة إلى عدة موضوعات أيضًا، في كل عام يطرق جانبًا جديدًا منها.

فغزوة بدر مثلًا يمكن إنشاء خطب عدة منها، كل واحدة تتناول جانبًا مختلفًا، فتكون مجموعة من الخطب موضوعاتها كالتالي:

(١) سرد أحداث الغزوة كما في كتب السير، وهذا يقوم به أكثر الخطباء كل عام.

(٢) وصف حال المسلمين قبل الغزوة (الهجرة المطاردة المحاصرة الضعف القلة الخوف).

وحالهم بعدها (ارتفاع معنوياتهم بالنصر عز الإسلام قوة المسلمين، رهبة اليهود والمنافقين).

(٣) وصف حال الفريقين المتقابلين: حال المؤمنين: (الدعاء، الحماس للقتال، بادر التضحية والفداء، التعلق بالله تعالى).

حال المشركين (الكبرياء، محادة الله ورسوله، الاعتداد بالنفس، الاغترار بالكثرة، ممارسة العصيان، شرب الخمر وغناء القينات، كما هو قول أبي جهل).

(٤) تأييد الله عَزَّوَجَلَّ لعبادة المؤمنين: (النعاس، المطر، قتال الملائكة معهم، وفيه عدة أحاديث صحيحة، الربط على قلوبهم، تقليل العدو في أعينهم) وخذلان الكافرين.

(٥) الحديث عن مصير المستكبرين حيال دعوة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ويكون صرعى بدر من المشركين نموذجًا على ذلك بذكر مجمل سيرتهم الكفرية وعنادهم، ثم ما جرى لهم، وفيه قصص مبكية من السيرة.

فهذه خمسة مواضيع، كل واحد منها يصلح أن يكون خطبة مستقلة، وهذه الموضوعات الخمسة في غزوة واحدة، ومن تدبر فيها أكثر استخرج موضوعات أخرى.

والكلام عن المولد النبوي مثلًا يمكن تقسيمه أيضًا إلى عدة موضوعات منها:

(١) بيان حقيقة محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنها تكون باتباعه لا بالابتداع، مع تقرير وجوب محبته من خلال نصوص الكتاب والسنة، وأقوال السلف الصالح، وبيان العلاقة بين محبته وتطبيق سنته، وهذا موضوع ثري جدًّا يمكن صنع خطب عدة فيها.

(٢) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي، وبيان أنه بدأ بعد القرون المفضلة في المائة الرابعة للهجرة على أيدي بني عبيد الباطنيين، وظل قرنين من الزمن لا يعرفه أهل السنة، حتى انتقل إليهم في المائة السادسة على يد شيخ صوفي استحسن هذه البدعة وتبناها، وبيان أن دوافع إحداث هذا الموضوع عند بني عبيد كانت فيما أحسب سياسية، ولم تكن بدافع محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآل بيته.

ومع أهمية هذا البيان التاريخي في كشف حقيقة هذه البدعة النكراء وتنفير الناس منها، فإنه قل من سمعناه من خطبائنا ومحاضرينا.

(٣) ذكر المخالفات الشرعية في احتفالات المولد، من الغلو في الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قد يصل إلى حد الشرك، إلى الأناشيد والأهاجيز الصوفية، إلى سائر المنكرات الأخرى: كالاختلاط في بعضها، وكونها تنشد على أنغام الموسيقى أو الدفوف.

(٤) التنبيه على أن الاشتغال بالبدعة يشغل عن السنة، وجعل المولد مثلًا لذلك، فما يصرف فيه من جهد ووقت ومال قد يصرف عن كثير من السنن؛ بل ربما صرف عن الفرائض، وكثير ممن يحتفلون بتلك الموالد تظهر عليهم مخالفات شرعية، ويعلم من سيرة بعضهم تضييعه للفرائض، فضلا عن المندوبات.

(٥) أخذ جانب من سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مولده أو بعثته أو غير ذلك، ثم التنبيه على بدعة الاحتفال بمثل هذه المناسبات، فهذه خمسة موضوعات كل واحد منها يصلح لأن يكون خطبة مستقلة.

والكلام عن عاشوراء يمكن استخراج موضوعات عدة منه أيضًا، ولا سيما أنه متعلق بقصة نجاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وغرق فرعون. وهي أكثر القصص ورودًا في القرآن، وفيها جوانب كثيرة يمكن أن تكون موضوعات، وفي نهاية كل خطبة منها يتم التنبيه على سُنِّية صيام يوم عاشوراء كذلك الحديث عن مراحل صوم عاشوراء، وأنه كان واجبًا، ثم نُسخ الوجوب إلى السُّنِّية بعد فرض رمضان، ثم في آخر سنة قصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخالفة اليهود، وأمر بصيام التاسع مع العاشر، وذكر فضل صيام هذا اليوم، وفضل شهر الله المحرم

وهكـذا يقال في بقية الموضوعات، تطـرح من جوانب متعددة، كل جانب

فيها يكون خطبة؛ مما يكون سببًا في إثراء المشروع الخطابي للأمة، وإفادة السامعين، والتجديد في الموضوعات التي يلقيها الخطيب[١].

الأمر الثاني: الجمهور المستمع:

يجب على المتحدث المتميز أن يتعرف على جمهوره، ما مدى أهمية هذا الموضوع لديهم؟ وما الذي يريدون معرفته؟ وما هي المشاكل التي تواجههم فيه؟ لأن القاعدة تقول: «شَكِّلْ حديثك حسب جمهورك».

وكذلك يجب على الملقي أن يعرف كم عدد الحضور التقريبي، فإن كان جمهور صغير (أقل من ٢٥) شخصًا فيعلم الملقي حينئذ أن الانتباه أكثر، فالأمثلة أكثر والأسئلة والمناقشات ستكون مباشرة مع الجمهور، وسيقوم الملقي المتميز بالاتصال بالجميع عن طريق العين.

أما إذا كان الجمهور كبيرًا أكثر من «٢٥ شخصًا» فسيحْدُثُ السَّرَحان والهمس مع الجار، والتشَتُّت في الانتباه، فعند ذلك يقوم الملقي بالربط والتلخيص، وتكرار النقاط المهمة ليحافظ على تركيز الجمهور وانتباهه، وكذلك مما يجب أن يعرفه الملقي قبل إلقائه: الوقت المتاح له، والمكان الذي سيلقي فيه، فإنهما سيساعدانه على القيام بمهمته.

ينبغي للخطيب حال انتخابه فكرة موضوع خطبته مراعاةُ الناس المستمعين إليه، فلا يصحُّ منه أن يطرُق موضوعًا لا يناسب ثقافتهم، ولا يتناسب مع ظروف أحوالهم.

(١) مجلة البيان، وموقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/aldawah/266.htm.

فإذا خطب في جمهور من عامَّة الناس وبوسطائهم، فليس من الحكمة أنْ يحدِّثهم عن النظريَّات العلميَّة والقواعد الفلسفيَّة.

وإذا مازج موضوع خطبته تلك الأفكار الفلسفيَّة والآراء التي تستعلي على عقول أولئك الناس، ويستعصى على أذهانهم فهم معانيها وإدراك مراميها، فسوف يُخفق في تحقيق النفع المناسب لهم، وتأمين الفائدة المطلوبة لأمثالهم، بل تجدهم يتمنَّون انتهاء خطبته سريعًا لكي يريحوا عقولهم من عناء تفكيرٍ غير مجدٍ، ويوفّرِّ على أذهانهم تعبَها في فهم ما يصعب فهمه على أمثالهم.

والخطيب الناجح هو الذي يخاطب الناس بما يعقلونه، ويُحدِّثهم بما يفهمونه، ويسوق إليهم من الأفكار والمعاني ما يناسب تفكيرهم، ويلتقي مستوى ثقافتهم وأمْزِجَتِهِمْ وأحاسيسِهم وانفعالاتِهم.

الأمر الثالث: الوقت:

يجب على الخطيب أن يراعي الوقت المحدَّد لخطبته والمناسب لموضوعه، وخاصَّة في المناسبة التي يتعاور فيها الصعودَ إلى منصَّة الخطابة خُطباء عدَّة، إذْ ينبغي للخطيب حينئذٍ أن يراعي الوقت بدقَّة لكي يفسح المجال لغيره من الخطباء المعَيَّنين، فيتجنَّب اختيار موضوع يفرض عليه التطويل، ولا يطرُق بحثًا لا يستطيع أن يؤدِّيه بتمامه في المدَّة المحددة له، وإنَّما يختار موضوعًا يتناسب مع الوقت المخصَّص له لكي يُؤَدِّيَهُ تامًّا، وبذلك يتحقَّق النفع للجمهور المستمع إليه. وأما إذا لم يختر الخطيب موضوعًا ينحصر إلقاؤه في الوقت المحدَّد له فسوف يقع في أحد أمرين: إمّا أن يهجم على وقت غيره ليتمكَّن من إلقاء موضوعه تامًّا دون نقصان،وإمَّا أن يتقيَّد بالوقت المخصَّص له، فيضطرَّه ذلك إلى ترك بعض فِقَرات موضوع خطبته فيخرج ناقصًا مبتورًا لا يُؤتي أُكلَه في نفوس المستمعين ولا يُحَقِّق مقصوده في قلوبهم وعقولهم.

وضع خطة لموضوعات الخطبة:

يستطيع الخطيب أن يضع لها مخططًا يسير عليه، ويشتمل هذا المخطط على موضوعات عدة، وفي فنون مختلفة، ومن فوائد ذلك:

(١) عدم حيرته في اختيار موضوع الخطبة، ولا سيما إذا ضاق الوقت عليه.

(٢) نضج الموضوعات التي يطرحها، إذ قد يمر عليه شهور وهو تدور في مخيلته، وكلما حصل ما يفيده فيها من مطالعاته وقراءاته قيَّده، أو استذكره.

(٣) سهولة بحثه عدة موضوعات، إذا كانت في فن واحد، وتوفير كثير من الوقت؛ فمثلا إذا كان في خطته خمسة موضوعات في العقيدة، فإن جلسته لبحثٍ واحدٍ منها كجلسته لبحثها كلها؛ إذ إن مصادرها واحدة، ومظانها متقاربة.

(٤) التنويع على المصلين وعدم إملالهم.

تقسيم موضوعات الخطب:

ويمكن تقسيم الموضوعات إلى أقسام كثيرة، يختار في كل جمعة منها قسمًا للحديث عن موضوع من موضوعاته، ومن تلك الأقسام:

١- **العقيدة وما يتعلق بها:** وفيها موضوعات كثيرة، وكل موضوع منها يمكن استخراج عدد من الخطب فيه. ومن طالع المطولات من كتب العقيدة تبين له ذلك.

٢- **العبادات:** وهي أيضًا باب واسع، وليس المعنى سرد الأحكام أو الإفتاء، ولكن المقصود تصحيح بعض الأخطاء فيها، وبيان فضائلها، والحث على المهجور منها.. وهكذا.

٣- **المعاملات:** وفيها موضوعات كثيرة أيضًا، ولا سيما أن كثيرًا من صورها يتجدد.

٤- نص من الكتاب أو السنة: فيختار آية أو سورة قصيرة أو حديثًا، ويذكر ما فيه من الفوائد مع ربطه بواقع الناس ومعاشهم، ولا يكون مجرد سرد للفوائد، وقد لاحظت أن لذلك أثرًا عظيمًا، حتى كأن الناس لأول مرة يستمعون إلى هذه السورة أو الآية، أو لأول مرة يسمعون هذا الحديث مع أنه مشهور، ولكن لأن فهمهم له كان خاطئًا، أو لأن الخطيب عرض لهم استنباطات جديدة، ومعان مفيدة لم يعلموها من قبل.

٥- الأخلاق والآداب: وهي باب طويل عريض، وفيه كتب متخصصة كثيرة، متقدمة ومتأخرة.

٦- من قصص القرآن والسنة: وهذا يمكن أن يلحق بفقرة (٤) ويمكن أن ينفصل عنها، ويكون هنا خاصًّا بالقصص، وما سبق ذكره في غير القصص.

٧- السِّيَر والتراجم: يختار شخصية بارزة، ويلقي الضوء على صاحبها، وأسباب بروزه واشتهاره، والاستفادة من أقواله وسيرته، سواء أَكَانَ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أم من التابعين لهم بإحسان، أم من العلماء المشاهير قديمًا وحديثًا.

٨- السيرة النبوية ومعارك الإسلام: يختار حديثًا أو معركة يتحدث عنها أو عن جانب منها، ويستخرج من ذلك الدروس والعبر.

٩- موضوعات فكرية: ويذكر فيه المستجدات من الأفكار والمصطلحات والأحداث وموقف الشرع منها: كالديمقراطية، والعلمانية والحداثة، والحضارة الغربية وموقف المسلم منها.

١٠- الفتن والملاحم وأشراط الساعة: وكل فتنة أو ملحمة أو علامة من علامات الساعة الكبرى صالحة لأن تكون خطبة مستقلة، بل ربما أكثر من خطبة، لغزارة ما فيها من نصوص ومعلومات شرعية.

١١- اليوم الآخر: وفيها من الموضوعات شيء كثير: الموت وسكراته، القبر ونعيمه وعذابه، الساعة وأشراطها، الصراط، القيامة وأحوالها من الميزان، والبعث، والحساب، والقنطرة، والحشر، كذلك: الجنة والنار، وفيهما موضوعات كثيرة: وصفهما، وصف أهلهما، أعمال أهلهما، الطريق الموصلة إليهما.

١٢- المواعظ والرقائق: وهو باب واسع أيضًا.

هذه بعض الموضوعات الكلية، ويمكن تقسيم كل موضوع منها إلى موضوعات جزئية في كل موضوع منها خطب كثيرة.

فالخطيب: إذا عمل هذا التقسيم، ورتبه في خطة محكمة؛ بحيث يتعرض في كل جمعة لموضوع من هذه الموضوعات استفاد الفوائد التي ذكرتها آنفًا، إضافة إلى أنه يعلم الناس مجمل الشريعة، ويطلعهم على ما يحتاجون إليه في معادهم ومعاشهم، ويريح نفسه بحصر ذهنه عن الاختيار في موضوع واحد، بدلًا من التشتت في موضوعات كثيرة.

والملاحظ أن كثيرًا من الخطباء ممن لا يراعون مثل هذا التقسيم والتنظيم تنحصر خطبهم في موضوعات قليلة.

ولربما أن بعضهم لم يتعرض لموضوع من هذه الموضوعات الكلية المهمة طيلة حياته الخطابية التي قد تمتد إلى عشرات السنوات، والسبب أن كثيرًا من الموضوعات قد تغيب عن باله إذا لم يكن لديه خطة مكتوبة يسير عليها.

ومن الملاحظ أيضًا: أن كثيرًا من الخطباء يطرح موضوعات عامة، لا يتأثر بها المصلون، ولا يتفاعلون معها، ولربما كانت معلوماتهم فيها أثرى من معلومات الخطيب؛ فمثلًا في الحديث عن القيامة وأحوالها تجد أن كثيرًا من الخطباء يريدون استيعاب يوم القيامة بأحواله، وما يجري فيه في خطبة واحدة.

وهذا غير ممكن، ويؤيدي إلى التطويل والتشعب والمشقة على السامعين، كما يؤدي إلى العمومية والسطحية في الطرح، وضعف المعالجة كم هو مشاهد. فيوم القيامة كألف سنة مما تعدون كما هو نص القرآن؛ فكيف يريد الخطيب أن يختزل الحديث عن أحداث ألف سنة في نصف ساعة أو أقل؟! لكن لو قسَّم أحواله وأهواله، وخصَّ كل حال منها بخطبة، لكان أعمق في طرحه ومعالجته، وأوسع في معلوماته، وأكثر فائدة وتأثيرًا في السامعين، وهكذا يقال في بقية الموضوعات.

تتابع الخطب في موضوع واحد وأثره:

يحلو لبعض الخطباء التركيز على موضوع من الموضوعات العامة، وعمل خطب كثيرة فيه تطرح تباعًا لفترة تطول أحيانًا وتمتد إلى سنوات، وتقصر أحيانًا بحسب ما عنده من مادة علمية في الموضوع الذي يطرحه.

وكثيرٌ ممن يختطَّ هذه الطريقة ينوه في آخر الخطبة بأنه سيكمل بقية الموضوع في الخطبة التالية، ويرى أصحاب هذا المسلك أنه مفيد من جوانب عدة:

(١) تشويق السامعين إلى الجمعة القادمة.

(٢) ربط موضوعات الخطب بعضها ببعض.

(٣) أن طرح موضوع كلي بهذا التسلسل أنفع للناس، فتكون الخطبة درسًا علميًّا إضافة إلى كونها خطبة، وأعرف من الخطباء من حصر خطبه في التفسير فقط سنوات عدة قد تزيد على عشر سنوات، وغيره حصرها في السيرة النبوية، وهكذا.

وبعضهم يأخذ جانبًا معينًا: كموضوع تربية الأولاد، أو أشراط الساعة، أو نحو ذلك، ويخطب فيه عشر خطب متتابعة أو أكثر، ثم ينتقل إلى موضوع آخر.

خطأ الجمود على مواضيع معينة:

والذي يظهر لي أن الجمود على فن من الفنون: كالتفسير، أو السيرة، أو على موضوع من الموضوعات؛ بحيث تكون الخطب فيه متوالية ليس حسنًا لما يلي:

١) أنه غير مأثور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم أقف فيما اطلعت عليه من سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: سنكمل في الخطبة القادمة، أو موضوع الخطبة القادمة كذا، أو كان يذكر موضوعات متوالية في فن واحد، بل المحفوظ من هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يذكر ما يحتاج الناس إليه، وما يُصْلِحُ شؤونهم، وهذا يكون متنوعًا في الغالب، لأن حاجات الناس مختلفة باختلاف أفهامهم واهتماماتهم وأعمالهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وكان يُعَلِّمُ أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض لهم أمر، وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته، فإذا رأى منهم ذا فاقةٍ وحاجةٍ أمرهم بالصدقةِ وحَضَّهم عليها[1].

(١) زاد المعاد (١/ ٤١١).

وقد يُعْتَرَضُ على هذا بأن أساليب الخطبة ووسائلها، والطريقة التي يختارها الخطيب اجتهادية، وليست توقيفية حتى يشترط أن يكون كل شيء فيها مأثورًا، وهذا محتمل، ولا سيما أن الفقهاء فيما أعلم لم يشترطوا تجنب ذلك في الخطبة لَمَّا ذكروا أركان وشروط الجمعة والخطبة.

وقد يجاب عن هذا الاعتراض بأن دواعيه موجودة على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يفعله، والقاعدة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا ترك شيئًا مع توافر دواعي العمل به عُلم أنه قصد تركه، ولعل الأمر واسع في هذه المسألة، ولها حظ كبير من الاجتهاد والنظر.

٢) أنه قد يؤدي إلى عكس ما أراده الخطيب من التشويق؛ لأنهم عرفوا الموضوع الذي سيخطب فيه سلفًا، والإنسان بطبعه يميل إلى اكتشاف المجهول، ويحب المفاجأة في مثل هذا الأمر.

٣) أن هذه الطريقة تُقيِّدُ الخطيب، وتجعله محصورًا في فن واحد على حساب فنون أخرى يحتاج الناس إليها.

٤) أن ما يستجد من أحداث يُربك خطة هذا النوع من الخطباء، فإما أن يخطبوا عما استجد، ويقطعوا سلسلتهم المتصلة في موضوع واحد، وإما أن يُهملوا ما يحدث، وهذا غير مقبول عند السامعين.

٥) أن من المصلين من لم يَحْضُرُوا الخطبة الماضية، وقد يكون فَهْمُ الخطبة الحاضرة مبنيًّا على حضور الماضية، فيقَلُّ انتفاع هؤلاء بالخطبة.

٦) أن الخطيب قد يعرض له عارض من سفر أو مرض أو نحوه، فلا يستطيع الخطابة وإكمال الموضوع الذي ابتدأه، فيكون الموضوع مبتورًا.

لهذه الأسباب وغيرها أرى أن تلك الطريقة ليست حسنة، خاصة في المساجد العامة التي في المدن، لكن لو كان المسجد خاصًا في مزرعة مثلًا أو قرية لا يحضر فيه غير أهلها؛ فإن كثيرًا من الملاحظات المذكورة آنفًا قد تقع. ومع ذلك فلا أجد ميلًا لتلك الطريقة؛ لأن الخطبة ليست درسًا، وبإمكان الخطيب أن يضع درسًا في مسجده، وتكون خطبه فيما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم.

وما من موضع يرى الخطيب أنه طويل ويرد تغطيته إلا ويستطيع تجزئته بطريقة أو أخرى؛ بحيث لا يحتاج إلى جعله موضوعات متتابعة.

وبكل حال فإن حرص الخطيب، وجدّه في اختيار موضوعات خطبه، واستفادته من خطبه، واستفادته من الخطباء الآخرين سيعينه في هذا المجال كثيرًا، كما أن اطلاع الخطيب، وغزارة علمه، واجتهاده في تحصيل العلم وطلبه، ومعرفته بأحوال الناس، وتلَمسُّ حاجاتهم، وقربه منهم، يجعله قريبًا من قلوبهم، عارفًا بهمومهم، قادرًا على معالجة مشاكلهم، في كل أسبوع يصعد درجات المنبر، ويخطب فيهم وهم له منصتون.

وإذا كان الخطيب كذلك فإن المصلين سيشتاقون إلى الجمعة، وينتظرون خطيبهم برغبة كبيرة، ويفرحون بإطلالته عليهم، مما يجعل الخطيب قريبًا من مستمعيه، وهذا حقيق بأن يجعل الخطبة تؤتي ثمارها، وتظهر فائدتها التي شرعت من أجلها.

المطلب الرابع: التحضير:

أيها الخطيب المِصْقَعُ: اعلم أن التحضير ينقسم إلى نوعين:

النوع الأول: التحضير الإيماني المعنوي، والثاني الكتابي المادي:

أولًا الإيماني المعنوي: وهو عبارة عن حالك مع ربك طوال الأسبوع، فعلى قدر عبادتك وطاعتك لله تعالى، ومحافظتك على الفرائض من الصلوات الخمسة، والواجبات من حقوق الله وحقوق العباد، والنوافل من السنن الرواتب وصيام النوافل والأذكار الموظفة، والمستحبات كان التوفيق، والشاهد كلما كنت محافظا على عمل اليوم والليلة، وتجنبت المعاصي والذنوب، كلما كنت موفقًا في تحضير الخطبة وأدائها، وكان التوفيق والسداد حليفك.

وهذا النوع من التحضير الإيماني سوف نتكلم عنه بإذن الله تعالى في صفات الخطيب، تحت عنوان «كن عبدًا ربانيًّا».

النوع الثاني من التحضير وهو: التحضير الكتابي المادي:

قبل تحضير الموضوع لابد من تحديد الهدف من الموضوع.

تحديد الهدف:

إن تحديد الهدف هو بمثابة الزبدة التي نستخرجها من الحليب عندما نحركه واللب من الجوز. الهدف من أي موضوع هو الفكرة التي تستطيع أن تصوغها بسطرين.. أما إذا كنت غير قادر على أن تكتب هدفك بجمل قصيرة وكلمات معدودة هذا يعني أن الهدف مازال غير واضح أمامك!!!

فالفلاح الذي يريد أن يحصد القمح يقوم في البداية بالحراثة والبذر والسقاية، ولكن لو سألته لماذا تقوم بذلك؟ يقول لك أريد أن أحصد القمح، فالحراثة والسقاية هي وسائل، والهدف منها هو القمح، وعلى الرغم من أن القمح هو الهدف. ومع ذلك كانت الحراثة والسقاية وسائل مهمة وضرورية للوصول إلى الهدف.

وكذلك فإن الأفكار المتوزعة في المقدمة وفي صلب الموضوع، واتباع الأساليب والكيفيات في فن الإلقاء والخطابة هي كذلك وسائل مهمة لتحقيق الأهداف.

الهدف هو الجواب للسؤال الذي يأتي بعد: «لماذا» ومن أجل أن تعرف ما تريد قوله لابد من وجود هدف.

ولكي يكون الهدف هدفًا حقيقيًّا لابد أن يكون متصفًا بما يلي:

(أ) الوضوح.
(ب) المشروعية.
(جـ) الدقة.
(د) أن يحقق مردودًا إيجابيًّا لك أو للمتلقي.
(هـ) أن يكون ممكنًا وليس مستحيلًا.
(و) أن ينسجم الهدف مع الموضوع.
(ز) أن تكون مقتنعًا ومؤمنًا بهدفك.

وإن تحديد الهدف بدقة ووضوح يجعلك تعرف ما يلزم وما لا يلزم، وبالتالي لن تحشر وتحشو موضوعًا بما لا يفيد ولا يخدم الهدف.

وإن تحديد الهدف يجعل أفكارك تنساب منك بكل سلاسة وإحكام.

وإن تحديد الهدف يجعلك تختار الأولويات في طرح الأفكار والفقرات بما يتناسب مع الهدف المراد.

أما الشخص الذي لا يحدد هدفه من حديثه.. ستراه يستطرد في الوقت الذي يتطلب التحديد والإيجاز والعكس، ويجعله يخوض بقضايا لا تنفع ولا تخدم مراده، وسيفيق على أنه أخذ يدخل بموضوعات وقضايا بعيدة كل البعد عن صلب الموضوع وهدفه، عندها سيتوه ويتيه المتلقين ولن يحصد من حديثه إلا السأم والملل ممن يسمعه.

وغالبًا ما يكون الهدف من أي حديث ما يلي:

(١) تقديم معلومات للمتلقين والمستمعين ليزدادوا معرفة بأمر ما... كان تعرفهم سيرة شخص أو حدث ما أو بلد ما وما شابه.

(٢) أن تعزز فكرة ما يعرفها المستمعون وذلك من خلال استخراج حكم واستنتاجات جديدة تؤكد وترسخ ما يعرفونه، وتعطيه أهمية أكثر. كأن تبين ضرر الزنا وسوءه أو الكذب أو تتحدث عن أهمية صلة الرحم...الخ.

(٣) تصحيح أفكار أو سلوكيات تعارضها البعض فتقدم رأيك لتقودهم معك ليصححوا ما يقومون به من أخطاء. مثل (من يقدم محاضرة لنقد نظرية دارون في التطور أو ما شابه).

(٤) إظهار وتقديم سبق معرفي وعلمي وإعلانه للناس.

والأهداف على ثلاثة أنواع:

(١) أهداف قصيرة المدى.

(٢) أهداف متوسطة المدى.

(٣) أهداف بعيدة المدى

أحيانًا يكون هناك هدف بعيد المدى ولكن للوصول إليه يحتاج أحدنا إلى مراحل عدة.. فيبدأ المحدث بحديث ذو هدف قصير المدى فإذا وصل مع المستمعين إليه انتقل إلى هدف أعلى منه وهو هدف متوسط المدى وبالتالي يكون ذلك تمهيد للوصول إلى الهدف بعيد المدى. وهناك أقصى الأهداف والغايات مثل الهدف هو إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ، فمثلًا نلاحظ أن القرآن الكريم عندما تحدث عن الخمر في البداية ذكر أن فيها إثم ومنافع للناس: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩]، وفي المرحلة الثانية قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، وفي النهاية قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:٩٠].

وأحيانًا المحاضر يبدأ بسلسلة محاضرات وفي كل محاضرة يبدأ بأهداف قصيرة للوصول إلى أهداف بعيدة وهذا ما يقوم به عادة المربون والمشرفون على تربية الإنسان نفسيًّا وأخلاقيًّا وروحيًّا كما يفعله أهل التصوف.

وللأسف أننا في أوقات كثيرة نتحدث بدون أي هدف فلماذا لا يكون لدينا أهداف صغيرة تخدم هدفًا مرحليًّا تصب أخيرًا في هدفنا الأخير.. من خلال ما سبق نستطيع أن نحدد الأهداف التي يمكن تحقيقها من خلال إلقائنا..فكيف يصوغ الملقي هدفه؟

صياغة الهـدف:

إليك هذه الطريقة العملية المجربة التي يذكرها الدكتور طارق السويدان في كتابه (فن الإلقاء الرائع) فيقول: (اكتب جملة من ٢٥ كلمة أو أقل تشرح

موضوع حديثك مرتبطًا بهدفك. وإذا كنت أنت غير واضح في هدفك فكيف يستطيع المستمع أن يتبين هذا الهدف؟)

فعملية الهدف تعد عملية سهلة وتجعل كل شيء بعدها ينساب سهلًا ويسيرًا فأبدأ بها أولًا وستجد كل شيءٍ بعدها سيغدو سلسًا؛ فلعل هدفك الرئيسي هو أن تعرّف الجمهور على شيءٍ جديدٍ، وتجعله يفكر فيه.. ويشعر به ويتذكره دائمًا.. فكيف ستصل لهدفك؟

فكر في ذلك جيدًا!!.

الخلاصة: لابد أن يكون لك هدفًا واضحًا من كل خطبة تلقيها على الجمهور.

كيف تحضر خطبة الجمعة؟

عند البدء في تحضير خطبة الجمعة، لابد من مراعاة التسلسل التالي، حتى تكون الخطبة محكمة ومنظمة.

الخطوة الأولى:

اطرح على نفسك السؤال التالي؛ ولتكن إجابته في كلمتين أو ثلاث: ماذا أريد أن أقول؟؟!

إن الإجابة المركزة على هذا السؤال، هي أساس خطبتك.

إجابة صحيحة: «وجوب صلاة الجماعة» أو «أهمية صلاة الجماعة»، فهناك فروقات دقيقة بين الموضوعين، فالخطيب الذي يرغب في الحديث عن وجوب صلاة الجماعة، سيتطرق إلى مناقشة الأدلة وتوضيحها وربما احتاج إلى الرد على شبهات المخالفين.

وأما الحديث عن أهمية صلاة الجماعة، فمختلف تمامًا من حيث الاستدلال والهدف. فالهدف من الموضوع الأول تحذير الناس وتخويفهم وتذكيرهم بأهمية الصلاة جماعة، وعاقبة من فرط في ذلك.

وأما الموضوع الثاني، فيعتمد على الترغيب وإثارة الهمم ورفعها.

والخطيب الذي لا يدرك الفرق بين الموضوعين، يخرج المصلون من مسجده وهم لا يدرون ماذا خطب صاحبهم؟!

إجابة خاطئة: أهمية الصلاة والتحذير من التهاون بها وبيان أن بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة والحرص على أمر الأبناء بها.

فهذه الإجابة من الخطيب، تدل بوضوح على عدم وضوح الرؤية لديه حول موضوع محدد.

لذا نؤكد أن الإجابة على السؤال لابد وأن تكون مختصرة ومحددة وعلى شكل عنوان، تسمى به الخطبة.

إذا الإجابة على السؤال الأول سوف يخرج منها: «عنوان الخطبة».

الخطوة الثانية:

لماذا هذا الموضوع؟! ما الدافع لطرح هذا الموضوع؟! ما الفائدة في طرح هذا الموضوع؟! وتعتبر هذه الخطوة أهم مراحل إعداد الخطبة على الإطلاق، فالإجابة الدقيقة المرتبة، ستكون بمثابة متن الخطبة وعناصرها الرئيسة، التي لابد من بحثها وتفصيلها.

وإذا لم تكن لديك إجابة مُفصلة ودقيقة، فتريث أيها الأخ الفاضل، فخطبتك قد تكون ركيكة، بعيدة عن الموضوعية والتناسق.

إجابة موفقة للسؤال السابق: لنفرض أن الخطيب اختار الحديث عن حكم ترك الصلاة؟! فيسأل نفسه: لماذا اخترت هذا الموضوع؟!

فتكون الإجابة:

١- لتهاون الناس في أداء هذا الركن العظيم من أركان الإسلام.

٢- لأن تارك الصلاة يكفر ويخرج عن دين الإسلام.

٣- لأن كفره يترتب عليه أحكام خاصة تحكم علاقته بمن حوله من الأقارب والأباعد من المسلمين.

٤- انتشار ظاهرة الإرجاء وتشجيع الكسالى والفسقة على المعاصي واقتراف المنكرات.

فهذه الأسباب الأربعة، أسباب قوية تدفعك لطرح هذه الموضوع. وستشكل العناصر الرئيسة لخطبتك.

فمثلًا السبب الأول: سيكون بمثابة الافتتاحية لخطبتك. فتستهل الخطبة ببيان أن الناس تهاونوا في أمر عظيم.

وأما السبب الثاني: فسيكون محور الحديث، إذ يلزمك إثبات كفر تارك الصلاة بالآيات والأحاديث والآثار وأقوال أهل العلم.

والسبب الثالث: خير ما تختم به خطبتك، مخوفًا العباد ومحذرًا لهم من العقوبات المترتبة على ترك الصلاة، ومصير علاقته وولايته بأقرب الناس إليه من زوجةٍ وولد.

والسبب الرابع: يكون تنبيهًا موجزًا في الخطبة الثانية تبين فيه ضلال القائلين بهذا القول. مع ملاحظة الإجمال والدقة في طرح الموضوع، لأن تفصيله لا يناسب كونه في الخطبة الثانية ذات الوقت الضيق وكما رأيت فقد أضحت إجابتك على السؤال هي متن الخطبة وبنيتها الأساسية.

إذا إجابتك على السؤال الثاني هي عبارة عن: «عناصر الخطبة»، وتفاصيل هذه العناصر.

الخطوة الثالثة:

ما مدى مناسبة الموضوع للزمان؟ وللبيئة؟!

سؤال مهم جدًّا، ويحتاج إلى نباهة وفطنة من الخطيب، فمراعاة الزمان وأحوال الناس وما يشغلهم من قضايا، عوامل رئيسة في قبول الخطبة وتأثيرها.

فلا شك أن موضوعًا كالصلاة، هو خير موضوع، ولكنه قد لا يكون مناسبًا من حيث الزمان أو البيئة؟! فتنبه.

مثال عدم مناسبة الزمان: إذا اختار الخطيب طرح موضوع حكم ترك الصلاة في أزمنة معينة.

قد يكون الطرح غير مناسب البتَّة، بالرغم من أهمية الموضوع وجلالته.

فمثلًا: لا يَحْسُن بالخطيب طرح هذا الموضوع وهو يستقبل شهر رمضان المبارك، كأن توافق الخطبة يوم الثامن والعشرين من شعبان، إذ يتوقع الناس حديثًا من الصيام وأحكامه وتذكيرًا بها، أو يكون وقت الخطبة في السابع من

أيام العشر الأول من ذي الحجة والناس يستعدون لسماع أحكام وآداب لا يسع الخطيب تأخيرها عن وقتها.

مثال لعدم مناسبة الموضوع للبيئة أو المكان: فموضوع الصلاة المذكور سابقًا، قد لا يناسب مجتمعًا محافظًا على الصلوات حريصًا عليها.

وحينما أقول لا يناسب طرحه، فالمقصود أن غيره أوْلى منه، لا أنه غير مفيد أو غير هام.

بل كلٌّ من عند ربنا، وهو علم نافع، ومدارسة للعلم، وذكرٌ يثاب المرء على سماعه. ولكن قد يحتاج الناس إلى موضوعات أكثر أهمية من حيث الأولوية.

لكل خطيب طريقته في تحضير الخطبة:

يختلف مَنْ يُعِدُّون خطبهم بأنفسهم من الخطباء تبعًا لاختلاف اهتماماتهم، وعلمهم، وثقافتهم، ونوعية المصلين معهم، ومدى تفاعلهم مع الخطيب.

فبعض الخطباء يكتفي بأفكاره وخطراته عن الرجوع إلى المراجع والمصادر، وَيُخُطُّ بَنَانُه ما يوحي به ذهنه وقت الكتابة، بغض النظر عن أهمية ما يكتب من عدمه، أو ترابط الموضوع من تفككه.

وبعض الخطباء يكتفي بمرجع واحد ينقل منه، أو يختصره ويُعدِّل عليه، ويرى أنه أحسن من غيره، ممن لم يكتب، أو كتب من ذهنه وخواطره.

ومن الخطباء من لا يكتب خطبته حتى يقرأ في موضوعها عددًا من الكتب، ويراجع فيها مراجع كثيرة، وهؤلاء قَلَّة، وفي الغالب تكون خطبهم مميَّزة ومفيدة.

كذلك يختلف الخطباء في مدى اهتمامهم بالخطبة؛ فبعض الخطباء لا يفكر في موضوع الخطبة إلا ليلة الجمعة أو صباحها، أو قبل صعود المنبر بوقت قصير، بل إنني سمعت مرة خطيبًا في مجلس يفاخر بأنه يصعد المنبر وليس في ذهنه موضوع محدد، فيطرأ عليه الموضوع والمؤذن يؤذن، وهذا فيه استخفاف بعقول الناس، واستهانة بخطبة الجمعة التي أوْلاها الشارع الحكيم عناية كبيرة.

بينما سمعت أن بعض الخطباء المتميزين يبدأ تفكيره بموضوع الخطبة القادمة منذ نزوله من المنبر في الخطبة التي قَبْلَهَا، وبين هذا وذاك مراحل متفاوتة من الحرص والاهتمام والفائدة.

وقبل عرض مقترح لكيفية إعداد الخطبة أحب التنبيه إلى أن الخطبة مثل الكتاب، والخطيب مثل المؤلف.

لكل كاتب أو خطيب طريقة:

ولكل كاتب أو خطيب أو مؤلف أو باحث طريقته في البحث؛ بَيْدَ أنَّ عرض التجارب في هذه المجالات يحقق جملة من الفوائد، لعل من أبرزها:

١- توجيه المبتدئ ومساعدته، بإعطائه منهجًا مجرَّبًا في إعداد الخطبة.

٢- قد تكون الطريقة التي يُعِدُّ بها الخطيب خطبته فيها شيء من العسر، وهناك طرق أيسر منها، فإذا اطَّلع عليها أخذ بها.

٣- الإنسان في الأصل ناقص العمل، مُعَرَّضٌ للخطأ، والناس يكمل بعضهم بعضًا بتبادل تجاربهم وخبراتهم، وفي اطلاع الخطيب على تجارب الآخرين وطرائقهم في إعداد الخطبة تكميل للنقص عنده، أو إصلاح لخطأ في طريقة الإعداد.

لهذا ولغيره فإنني أدعو كل خطيب أن يطرح على الخطباء طريقته في إعداد خطبته؛ حتى تتلاقح الأفكار، ويستفيد بعضنا من تجربة بعض. على أن لا يزعم الواحد منا أن طريقته هي أحسن الطرق لكل الخطباء؛ فالطريقة التي تناسبني قـد لا تناسبك، وقد استفيد من تجربتك كلها أو بعضها ولو كان قليلا، والمسألة اجتهادية، ومهارات الخطيب وثقافته وعلمه وذوقه عوامل مؤثرة في ذلك.

جدير بالخطيب أن يُعِدَّ موضوعه إعدادًا كاملًا، وَيُحَضِّرَ جميع أفكاره تحضيرًا جيدًا، وذلك بالرجوع إلى بعض الكتب والتآليف التي تتحدَّث عن فكرة موضوعهإ، وقراءة ما بحثه أهل العلم والفكر في ذلك، لكي تُصبح لديه حصيلة جيِّدة من الأفكار والمعلومات فيُمكنِّه ذلك من إلقاء موضوع خطبته بثقة تامة واطمئنان كامل؛ لأنَّ الخطيب الذي يرتكز على قاعدة جَيِّدَةٍ من العلم والمعرفة والثقافة يتمكَّن من الوقوف على منصَّة الخطابة بقوَّة وثبات ويساعده ذلك على طول نفسه في خطبته مع اتزان عباراته وسداد فكرته.

وأما إذا اقتصر على معارفه الذاتيَّة فلم يستزد من المعارف والعلوم والأفكار ولم يرجع في تحضير موضوعه إلى مصادر ثرَّية وموارد صافية، فسيخرج موضوعه ضئيل الفائدة هزيل المردود، لا يترك في نفوس السامعين أثرًا حسنًا ونفعًا مقصودًا.

يُضاف إلى ذلك أنَّ تحضير الموضوع ينعكس أثره إيجابيًّا على نفوس السامعين الذين يشعرون بأنَّ ثمَّة جُهدًا بذله الخطيب في موضوعه، فيؤدِّي ذلك إلى زيادة ثقتهم به واحترامهم له.

كيف تعد وتحضر موضوعًا ناجحًا؟

أمور مهمة في اختيار الموضوع[١]:

١- قبل أن تبدأ في اختيار الموضوع أو كتابته.. صَلِّ ركعتين وادعُ الله أن يوفقك وأن يختار لك ما فيه الخير، فبيده التوفيق أولًا وأخرًا، ولا تعتمد على حَوْلِكَ وقوتك، فأنت بحولك وقتك مسكين ضعيف، واستعن بحول الله وقوته، فالموفَّق من وفقه الله تعالى، والمسدَّدُ من سدَّده الله تعالى.

٢- أن يكون موضوعك مناسبًا للتحدث فيه، وكذلك مناسبًا للحضور، كما بينّا ذلك سابقًا.

٣- الإبداع والخروج عن المألوف مطلب مهم في كل موضوعُ يطرح.

٤- عندما يكون موضوعك مصحوبًا بروح التفاؤل يكون قبوله أحرى ويثير النفوس للعمل، فروح التشاؤم تفرضها علينا ظروف هذا الزمن.

٥- قبل أن تبدأ في عملية التحضير قم ببعض التمارين الرياضية، ثم اجلس في مكان مناسب وتخلص من جميع ما يلهيك، ثم ابدأ بالله مستعينًا.

٦- حاول أن تضع وقتًا للبداية في التحضير، وذلك بالقراءة في الموضوع وجمع الشواهد ووضع العناصر وتصنيفها وترتيبها وكذلك وقتًا للنهاية من التحضير، بحيث يصبح الموضوع جاهزًا في ذلك الوقت، فإن لم تنته فيه لاستطرادات الموضوع وحاجته إلى البحث الأطول والأكثر فإنك إن شاء الله وإن اضطررت لزيادة الوقت لإضافات فسيكون انتهاؤك قريبًا مما حددته مسبقًا؛ لأن هذا بناءً على تجربة كثيرٍ من الناس أنهم لا ينجزون إذا تركوا الوقت لأنفسهم مفتوحًا.

(١) موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/aldawah/198.htm.

مرحلة الإعداد:

لتحضير الموضوع: تذكر هذه القاعدة: حدد الموضوع .. حلل الجمهور.. حدد الهدف .. أبدع أفكارًا..

١- اجمع المراجع، واعرف ما هي الكتب التي تساعدك في تحضير موضوعك.

٢- اقرأ وتمعن.. ثم انتق.. وحتى تجيد الانتقاء لا تترك الدرر التي تلقاها في طيات الكتب، أو في الدوريات مثل الجرائد اليومية والمجلات ...بل اجمعها وأقتبس منها واجعل لها عنوانًا.

٣- رتب العناوين والمعلومات التي تريد طرحها.

٤- سجل ملاحظتك الشخصية ووجهة نظرك ولا تعتمد فقط على آراء الآخرين وأفكارهم، بل تذكر أن لك عقلًا مثلهم ويمكن أن تضيف وتعدل.

٥- الاستشهاد يعطي الموضوع قوة، والاستشهاد يكون بـ (القرآن الكريم السنة القصص الشعر أقوال وحكم إحصائيات وغيرها)[١].

٦- ابحث بجد عن آخر المعلومات وأحدث الإحصاءات، ولا تعتمد على ما حضَّرْتَه قبل عدة سنين.

٧- من المسودة الأولى: اكتب كل الموضوع، ولا تدقق، ثم اطبعه على الكمبيوتر ليسهل تصحيح الأخطاء إن وُجِدَتْ.

٨- التعديل: أضف.. احْذِفْ.. عدل.. ثم أعد الترتيب.

٩- التدقيق: دقق اللغة وصحح الأخطاء اللُّغوية.

١٠- المراجعة النهائية: ألق نظرة نهائية وتأكد أن كل شيء في مكانه الصحيح.

---

(١) سوف نتعرض له -بعون الله تعالى- بشيء من التفصيل في الفصل الثالث.

١١- الاختصار النهائي: تأكد من طول الموضوع، وأنه مناسب للوقت واختصر إن لزم الأمر

١٢- والآن تكون قد وصلت إلى مرحلة كتابة الموضوع، وإليك بعض النصائح:

(أ) حاول دائمًا إذا كتبت أو حضَّرْتَ موضوعًا أن تكتب جملًا كاملة ولا تكتفي بالترميز.

(ب) اكتب فكرة واحدة لكل نقطة فرعية، ثم لخصها بحيث لا تزيد عن سطر واحد.

(جـ) تذكر وأنت تكتب كل جملة أنها: (ترتبط بالهدف.. أنها شيقة وممتعة.. وأنها ذات علاقة بالمستمعين.. وأنها جملة قصيرة).

(د) تَلَطَّف، ولْيكن كلامك مؤدبًا ومراعيًا لجميع الحضور.

(هـ) أن تكون كلماتك سهلة ومعروفة، واعلم أن كل صفحة مكتوبة بالكامل تأخذ في المتوسط ٣-٤ دقائق عند الإلقاء.

(و) وفي كتابتك النهائية للموضوع على أوراقك الخاصة راعِ التالي:

★اكتب بخط كبير.

★اترك فراغًا مناسبًا بين السطور

★راجع الإملاء والقواعد النحوية.

★لا تنسَ ترقيم الصفحات.

★لا تدبس الأوراق ليسهل تحريكها أثناء الإلقاء.

★ضع أوراقك في ملف حتى تبقى نظيفة ومرتبة.

★الأفضل أن لا تكتب المقدمة والخاتمة إلا بعد الانتهاء التام من الإعداد، وحاول في مقدمتك أن تجذب الانتباه، وتذكر هدفك ثم أعطِ فكرة عامة عن موضوعك، وأما في الخاتمة فلخص ما ذَكَّرته خلال كلامك وذكرهم بالأشياء العملية التي خلصت إليها حتى تبقى راسخة في أذهانهم.

★ضع نقطة رئيسية لكل ١٥ دقيقة.

★اربط حديثك بالموضوع الرئيسي.

★اكتب هدفك ولا تفترض أنك تعرفه.

★لا تحاول تغطية كل الموضوع.. احْذِفِ المُمِلَ أو البديهي واختصر المقدمات.

★تذكر ... أن الخطبة جيدة التنظيم هي نتاج عقل منظم.

★لا تكتب أي كلمة إلا وستضطر إلى قراءتها أي (سوف تقرأها في الخطبة أو المحاضرة).

★حدد هدفك قبل جمع المعلومات.

★حَضِّر... وحَضِّر... وحَضِّر... القاعدة:

(عشر ساعات تحضير لكل ساعة حديث).

★وبعد انتهائك من التحضير تأكد من التالي:

• اطبع الموضوع، وراجع طباعته، وتأكد من خُلُوِّهِ من الأخطاء اللُّغوية والإملائية ووجود الفقرات والفواصل في أماكنها المناسبة.

• راجع مرة، أو مرتين، وثلاثًا، ولا تمل، وتأكد من تغطية الموضوع.

• قدر الوقت بحيث لا يتجاوز المدة الكلية للحديث.

• وأخيرًا.. تأكد من المضمون التنظيم الأسلوب اللغة القواعد النحوية.

أشكال التحضير:

وهنا يترتب على شكل التحضير طريقة الإلقاء، ولذا دائمًا نقول ونكرر تحضير وإعداد الموضوع أمر مرتبط تمامًا بالإلقاء وطبيعته.

١- القراءة فقط: بحيث يكون الموضوع معدًّا لِيُقْرأَ كاملا، وهنا يكفي أن اذكر كلامًا نفيسًا للدكتور (محمود عمارة)حيث يقول: «إن خطيب الورقة في وادٍ، والمستمعون في وادٍ، إنه يسير مع أفكاره المنقوشة لا مع أفكار مستمعيه».

إضافة إلى ما فيها من ملل للقارئ والمستمعين ولكن لا بأس بها في بداية الأمر، وخاصة إذا كان المتحدث جديدًا على الإلقاء حتى يتدرب و يتمرس ثم ينتقل إلى مستوى أعلى.

٢- نقاط رئيسية: بحيث لا يكتب الملقي جميع ما يريد أن يقوله بالتفصيل، ولكن يضع أهمها فيكتفي بالعناوين العامة، ويدون ما قد يحتاج إلى نصه، أو قد يصعب حفظه من آيات وأحاديث وأبيات شعرية ومقولات وإحصاءات وأرقام، فهذه الطريقة تجعله يتفاعل أكثر مع موضوعه ومع أعين الجماهير. ويطرح ما يحتاجه من أمامه لا أن يطرح ما هو مكتوب في ورقته (ولعل هذه الطريقة هي أفضل الثلاث).

٣- استيعاب كامل الموضوع: إلمامًا تامًا بفرعياته وشواهده وتدرُّجِه، وهذا يجعل الطرح أقوى، وذلك مع التأكيد على الاستيعاب الكامل بحيث لا يخل بأي شيء منه، وهذا يكون نتاج قراءة واطلاع مكثف على الموضوع، وإلقائه أكثر من مرة، مما يجعله محفوظًا للملقي.

أخيرًا العلمية:

فالخطبة الناجحة المؤثرة: هي التي يعتمد فيها الخطيب على التأصيل العلمي؛ لأنه يتحدث من منبر شرعي، يحضره الناس لتلقي الطرح الشرعي المؤصل، وليس المنبر مَوْقِعًا خاصًا أو ديوانية أو وسيلة إعلامية تُنْسَبُ للشخص ذاته، فعلى الخطيب أن يتقي الله فيما يطرح، فلا يخوض في القضايا بغير تأصيل وعلم وسبق تحر وبحث، وألا يكون طرحه للقضايا المهمة مَبنيًّا على وجهة نظر شخصية عارية عن التنقيح أو التحقيق، ومهما كان للخطيب فصاحة وبلاغة وثقافة، فلا يُغنيه ذلك عن التأصيل العلمي والرجوع إلى المُحْكَمات دون المشتبهات، وإلى اليقينيات دون الظنيات، وإلى ما تثبت منه دون ما ظنه، أو اشتبه عليه، يقول أحد السلف: «مَنْ أُعْجِبَ برأيه ضل ومن استغنى بعقله زل».

وقد أعجبني كلامًا للشيخ الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتحدث عن عيوب الخطبة في زمانه فيقول: «ومن أعظم عيوب الخطبة في أيامنا؛ أن الخطيب ينسى أنه يقوم مقام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتكلم بلسان الشرع، وأن عليه أن يبين حكم الله فقط لا آراءه هو، وخطرات ذهنه، إلى أن يقول: ومن الخطباء من يأتي بأحكام غير محققة ولا مُسَلَّمة عند أهل العلم، يفتي بها على المنبر، ويأمر الناس بها، ولو اقتصر على المسائل المتفق عليها فأمر بها العامة، وترك الخلافية لمجالس العلماء لكان أحسن».

المطلب الخامس

التقسيـم

المراد بالتقسيم: أن يقسم الخطيب موضوعه إلى عناصر أساسيَّة شاملة لجميع جوانبه:

وهذا الأمر مهمٌّ لا في موضوع الخطبة فحسب بل في كلِّ موضوع يتناوله المرء بالبحث والمعالجة كخطبة يلقيها، أو محاضرة يؤدِّيها، أو كتاب يؤلِّفه، أو رسالة يكتبها، أو مقالة يُدبِّجها. فالتقسيم مسألة ضروريَّة لِحَبْك الموضوع وضبطه، وتمكين السامعين من إدراك فكرته الرئيسيَّة، واستيعاب عناصره الأساسيَّة، فيصبح في جملته واضحًا في أذهان السامعين، حيًّا في نفوسهم وعقولهم، ولو فاتهم شيء من التفصيلات التي عُرِضت خلاله.

وبناءً على ذلك يشترط في التقسيم ما يلي:

(أ) شمول التقسيم جميع جوانب الموضوع، واستيفاؤه أطرافه كافَّة.

(ب) ترتيب فقرات التقسيم ترتيبًا متوازنًا مناسبًا، بحيث لا تدخل فِقْرة في أخرى ولا يتقدَّم قسْم على آخر وإلَّا أدَّت عشوائيَّة التقسيم واختلال نظام فقراته واضطراب ترتيبها إلى التشويش المضلِّ والتكرار المملِّ.

أن يذكر الخطيب في صدر خطبته أقسام موضوعه مرتَّبة بصورةٍ موجزةٍ كأن يقول: (سنتحدث اليوم في أربع مسائل: أولاها كذا، وثانيتُها كذا...)

أو يقول: (يرتكز موضوع الخطبة على ثلاث نقاطٍ، هي: كذا وكذا...)

(جـ) حسن الربط بين فقرات الموضوع: عندما ينتقل الخطيب من فِقْرة إلى أُخرى خشية أن ينتقل انتقالًا مفاجئًا، فيؤدِّي ذلك إلى تمزُّق بناء الموضوع وتفرُّق وحدته، لذا وجب على الخطيب أن يمهِّد للانتقال من الموضوع، فِقْرةٍ إلى أُخرى؛ ليبقى محافظًا على وحدة موضوعه وتماسك بناء خطبته.

المطلب السادس

التوضيـح

إنَّ من أَهَمَّ ما يجب أن يتَّصف به موضوع خطبة الخطيب الوضوح، فهو السبيل إلى فهم السامعين أفكارَه وإدراكهم معانيَه. وإذا خلا موضوع الخطبة من صفة الوضوح، فجاءت أفكاره معقَّدة، ومعانيه غامضة يستعصى فهمها على أذهان المستمعين، ويصعب عليهم إدراك مضمونها، أدَّى ذلك إلى نفور أولئك المستمعين من الخطبة، وانصرافهم عن خطيبها، وانتظارهم لحظة انتهائه من خطبته بفارغ الصبر.

فالوضوح ضرورة ملحَّة في كلِّ موضوع يخوض فيه خطيبُ أو كاتب لكي يُؤتي ثمرته في أوساط المستمعين والقُرَّاءِ إدراكًا وفَهْما، وهو في الوقت نفسه عاملُ رئيسيٌّ في انفعال الجمهور بالخُطبة وتأثُّر القُرَّاء بالكتاب.

ومردُّ التوضيح والتبيين إلى وضوح الألفاظ وسهولة التراكيب وإشراق العبارات التي تحتضن الأفكار والمعاني، وبكلمة موجزة يرجع إلى سهولة الأُسلوب الذي يستعمله المتكلِّم في مخاطبة الناس.

فإذا استخدم الألفاظ الغريبة التراكيب المعقَّدة، لم ينجح في توصيل معاني خطبته إلى عقول الناس وقلوبهم.

المطلب السابع

الخاتمة

تعريفها: هي ما يُنهي به الخطيب خطبته، ويختم كلامه، ويتحقَّق بها تمام الموضوع وكماله، فهي بمنزلة الختام للشيء إذا بلغ غايته، ويسمَّى ذلك «حسن الانتهاء»، كما أن براعة الاستهلال تسمَّى حسن المطلع «وكما يجب التأنُّق في المطلع، تجب البراعة في المقطع؛ إذ هو الأثر الباقي في نفوس المستمعين بعد الإتمام، وآخر ما يتردَّد صداه في قلوبهم، وبه تتمُّ الفائدة»[(١)].

أهمية الخاتمة:

للخاتمة الأثر في بقاء قوة الخطبة في أذهان المستمعين؛ لأنها آخر جزء منها، وهي آخر ما ينساه المستمع من حديث الخطيب؛ والسبب أن المستمع يركِّز على مقدمة الخطبة وخاتمتها، أما في وسطها وما يتعلَّق بموضوع الخطبة، فربما أصيب المستمع بقلة التركيز، وشرود الذهن، فوجب على الخطيب الاهتمام بالخاتمة، وأن تكون في غاية الوضوح، والتأثير، والجمال والروعة.

والخاتمة آخر أجزاء الخُطبة وهي بذلك أقرب شيء منها على ذهن السامع وذاكرته وآخر ما ينساه منها.

وينبغي أن تكون قصيرة بالنسبة إلى موضوع الخُطبة.

والخُطبة التي تخلو من الخاتمة يجيء موضوعها مبتورًا،فلا يحقِّق الفائدة المطلوبة، ولا يصل بالجمهور إلى النفع المقصود.

(١) فن الخطابة للعالم على محفوظ (ص٥٨).

فوائد حسن الختام في الخطب:

١- فمن فوائد حسن الانتهاء والختام أن يتمَّ بذلك إقناعُ المدعوِّين، وتبصيرهم وتنويرهم، وهو إنَّما يتمُّ بإجمال ما ذكر من الموضوع، واختصار ما ذكر بأحسن لفظ، وأوجز بيان وأخصره، ولو جعلت الخطبة مبتورةً عن خاتمتها لفات ذلك المقصد العظيم، مع ما يترتَّب عليه من سلبيات.

٢- تقوية الرغبة، وشحذ الهمَّة من جديد، بما أوصى به الخطيب من وصايا في موضوع الخطبة، وهو يتطلَّب بذل الوسع في إلهاب الحماس، وتحريك العواطف، بنفس الاندفاع والإثارة في بداية الخطبة الأولى؛ لئلَّا تذهب حلاوة الموضوع وحرارته من نفوس السامعين، وليس من السُّنَّة أن تكون الخطبة الثانية مقتصرةً على الدعاء خالية من الوعظ، بل «ينبغي أن يكون لها صلة بالخطبة الأولى، أو فيها استكمال للنقاط التي طرحت فيها، أو استكمال للموضوع بنقاط وأفكار جديدة»[(١)].

ولذا يتطلب في خاتمة الخطب ما يلي:

١- أن تكون ملخصًا لما جاء في موضوع الخطبة؛ ليخرج السامع وقد وضحت الفكرة لديه، وتبيَّن المطلوب عنده، ولكن يُرَاعَى في التلخيص أهمُّ ما جاء فيها من بيانات، ويظهرها في «صورة جديدة وأسلوب رشيق؛ لئلا تذهب حلاوتها، وحتى لا تكون إعادة أدلَّتها من باب التكرار المُمِلِّ المعيب»[(٢)]، وهو

(١) انظر: «خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة»؛ د: عبد الغني مزهر، (ص٣٨)، ويراجع في موضوع أخطاء الخطباء القوليَّة والفعليَّة كتاب «القول المبين في أخطاء المصلين»؛ للشيخ: مشهور سلمان.

(٢) «فن الخطابة»؛ للشيخ: على محفوظ، (ص٥٩)، وللخطباء عادة معروفة هي جعل الخطبة الثانية عبارة عن كلمات مكرَّرة خالية من التَّذكير، وهي عادة غير محمودة، ونحن في عصر المتغيِّرات، وباب الإرشاد واسع، وميدانه فسيح، وأمام الخطيب مئات الاختيارات لتحضير مادة الموضوع وخاتمته، والله المستعان.

مما يملُّه السامعون عادة، ولا ينبغي للخاتمة أن تحتوى على أفكارٍ وأطروحات جديدة تخالف مضمون الخطبة الأولى؛ لأنها حينئذ ليست بخاتمة، بل إنشاء جديد، وهو من شأنه أن يؤدِّيَ إلى ضياع الفكرة وتشتُّتِ الذهن.

٢- أن تكون قصيرةً بالنسبة لزمن الخطبة الأولى، ولأن الخاتمة تتضمَّن أمورًا منها: التلخيص، والوصية، وعبارة الختام، والدعاء لولاة الأمر، ولعموم المسلمين، وجعلها أطول من الأولى يفقد الخطبة حلاوتها وتأثيرها بالمرَّة، حتى ولو كانت الخطبة الأولى في غاية البيان.

٣- أن تكون في منتهى الوضوح والقوة؛ لأن الخلل أو الزلل يُربِك الخطيب ويضيع جهوده، ويؤدي إلى نسيان موضوع الخطبة بالمرة.

٤- إن كان موضوع الخطبة مُجَزَّءًا إلى أجزاء، فيمكن للخطيب بما لديه من مهاراتٍ أن يلخِّصَ في الخطبة الثانية ما في القصة من عِبر وعظات إلى نقاط، ويَعِدَ الجمهور بتكملة الموضوع في الجمعة القادمة، كأن يقول: وللحديث صلةٌ أو بقية؛ ليبقى المستمع على تشوُّق وترقُّب للموضوع، أو القصة.

٥- يمكن للخطيب أن يهيِّئ الجمهور للخاتمة بعباراتٍ يفهم منها أنها أي: الخطبة على وَشْك الانتهاء والختام، وهو ما يسمَّى بالنغمة المتغيِّرة، وهو ما يعطي تأكيدًا لفظيًّا للمستمع، ويريحه من الانتظار.

أسلوب القرآن الكريم فِي خواتيم السور:

ولنا في كتاب الله أسوة حسنة، فالمتأمِّل في خواتيم السور يجد أن القرآن اهتمَّ بخواتيم السور، فهي في غاية الروعة والبلاغة والبيان كبداياتها، حتى

إن المرء ليحار أيُّها أجمل وأروع بلاغة، وبيانًا، وأسلوبًا، فقد جاءَت خواتيم السور «متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام؛ حتى لا يبقى معه للنفوس من تشوُّف إلى ما يذكر بعدُ؛ لأنها بين أدعية ووصايا، وفرائض، وتحميد وتمجيد، وتهليل، ومواعظ، ووعيد ووعد، وما إلى ذلك كالدعاء الذي اشتملت عليه الآيتان من آخر سورة البقرة، والوصايا التي ختمت بها سورة آل عمران؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]»[(١)].

أنواع الخاتمة:

إنَّ أهمَّ أنواع الخاتمة وأبرزها أن تكون موجَزًا تتلخَّص فيه أفكار الموضوع، فتتحصّل بذلك فائدة كبيرة للسامع الذي يشتدُّ تركيزه وانتباهه في مقدِّمة الخطبة وخاتمتها، بينما يكون ذهنه عُرضةً للشرود وضعف التركيز أثناء الموضوع الذي يحتلُّ المساحة الكبيرة من وقت الخطبة.

لهذا إذا أجمل الخطيب في خاتمة خطبته ذِكْرَ مجموع الأفكار التي بحثها في موضوعه مفصَّلة، أدَّى ذلك إلى تدارك السامع ما فاته من أفكارٍ رئيسةٍ خلال الخطبة، وبهذا لا تضيع عليه الفائدة المقصودة من موضوعها.

ومثال ذلك: أن يقول: وخلاصة القول: إنَّ بحثنا يرجع على ثلاث نقط، هي...كذا وكذا...). أو يقول: (وهكذا نجد أنَّ القضيَّة ترجع إلى أربعة أصول، هي كذا...، وكذا...).

(١) فن الخطابة للعالم علي محفوظ (ص٥٨).

وهناك أنواع أخرى للخاتمة، منها:

(أ) أن يختم الخطيب موضوعه بتأكيد الفكرة الرئيسة التي ناقشها في خطبته.

(ب) أن يؤكِّد للجمهور ضرورة الالتزام والعمل بما بحثه في موضوعه، أو يأخذ عليهم العهد بالتزام ما حدَّثهم به، والعمل على تطبيقه.

(جـ) أن يختم موضوعه بنصٍّ قرآنيٍّ أو حديث نبويٍّ شريف، أو قول أحد العلماء المفكِّرين.

مثال ذلك: أن يقول: (وأخيرًا أختم حديثي بقول الله سبحانه...).

أو يقول: (وأخيرًا أختم كلامي بحديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه...).

أو يقول: (وأختم كلمتي هذه بقول العالم الجليل والمفكِّر الإسلاميِّ الكبير..).

وختامه مسك:

للخطباء عبارات في الدعاء والوصية في ختام الخطب، يتفننون بها بأسلوب أدبي رائع، فيعرف الناس أنهم قد شارفوا على الانتهاء من حديثهم، وقد كان الخليفة الراشد أبو بكر إذا تكلَّم به عُرِف أنه قد فرغ من خطبته: «اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك».

أمَّا عمر بن الخطاب فكان أكثر خواتيم خطبه: «اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني على غِرَّة، ولا تجعلني من الغافلين».

وكما كان الخليفة عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته: «اللهم إن ذنوبي قد عظمت، وجلَّت أن تحصى، وهي صغيرةٌ في جنب عفوك، فاعفُ عني»[١].

أخيرًا تكون الخاتمة:

★ جامعة للفِكَر التي دارت عليها الخطبة.

★ تعيد التركيز على الفكرة المحورية.

★ تترك شيئًا يتعلق بذهن المستمعين.

★ أن تكون قوية في سَبْكِها ومعانيها.

(١) كتاب: «الخطب والمواعظ»؛ بقلم: محمد عبد الغني حسن، ص٤٤، طبع دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

ورابط الموضوع: http://www.alukah.net/sharia/0/8008/#ixzz30fooLCHr.

الفصل الثاني

الأسلوب فِي الخطبة

المبحث الأول: تعريفه، أثره وأهميته، خصائصه.

المبحث الثاني: وسائل الأُسلوب

المبحث الثالث: سبل تقوية الأسلوب

المبحث الأول

تعريفه، أثره وأهميته، خصائصه

المطلب الأول: تعريفه:

هو طريقة أداء المعاني وعرض الأفكار التي تتضمَّنها الخُطبة.

أو هو مجموع الوسائل التعبيريَّة التي يطرح الخطيب عَبرها أفكار خطبته ومعانيها، وعلى هذا نجد أنَّ الأُسلوب يشتمل على: الألفاظ والتراكيب التي صُبَّت فيها المعاني والأفكار.

المطلب الثاني: أثره وأهميَّته:

تتّضح أهميَّة الأُسلوب من زاوية افتقار كلِّ متكلِّم وكاتِبٍ إليه، إذ هو القالب الذي تُصَبُّ فيه الأفكار والمعاني لتصل عبره إلى أذهان الناس وقلوبهم.

ولولا الأُسلوب لما تمكَّن أيُّ إنسانٍ من نقل ما يدور في خاطره من الأفكار إلى الآخرين.

فلا غنى للمتكِلم عن الألفاظ والتراكيب التي ينقل عَبْرها أفكاره وآراءه وعواطفه إلى الجمهور المستمع إليه إنْ كان خطيبًا أو مدرِّسًا واعظًا أو محاضرًا معلِّمًا. وكذلك الكاتب، أيًّا كان شأنه في مضمار الكتابة، أديبًا كان أم مُؤرِّخًا أو مؤلِّف علم ما، أو كاتب مقالة، أو مدبِّجَ رسالة، أو غير ذلك،هو بحاجة إلى الأُسلوب الذي يصبُّ في قنواته آراءه وأفكاره ومشاعره لتصل إلى قُرَّائه. وبقدر ما يكون أُسلوب الخطبة قويًّا وجميلًا وواضحًا بقدر ما يكون تأثيره في

النفوس عميقًا، واستيلاؤه على الأذهان والقلوب بليغًا، وتحريكه للمشاعر والأحاسيس قويًّا.

فإذا خلا أُسلوب الخُطبة من القوَّة والجمال والوضوح فَقَدَ شدَّة تأثيره في النفوس وسلطانَه على القلوب والمشاعر، وأدَّى بذلك على نُفْرة السامعين وسآمة نفوسهم.

المطلب الثالث: خصائصه:

يختلف الأُسلوب الخطابيُّ عن بقيَّة أساليب الكلام، فهو يمتاز بكثرة الجمل الإنشائيَّة والألفاظ التَّأثيريَّة والكلمات الإيحائية التي يستثير إيقاعها المشاعر ويؤجِّج معناها العواطف ويهزُّ جَرْسَهَا أعماق النفوس.

كما تكثر فيه الجمل القصيرة والعبارات الخاطفة التي تتناسب مع نَفَسِ الخطيب وقوَّة صوته وتساعد على تأمين جوِّ التفاعل بين المتكلم والجمهور المستمع إليه.

المبحث الثاني

وسائـــل الأُسلوب

هما وسيلتان فقط: الألفاظ، والتراكيب.

المطلب الأول: الألفاظ:

تُعَدُّ الكلمة أساس التعبير عن المعنى إذ إنَّ كلام الإنسان بجميع تراكيبه ما هو إلَّا مجموعة ألفاظ، فنأخذ من ذلك أنَّ المعنى العام للجملة يتكوَّن من مجموع المعاني التي تدلُّ عليها ألفاظ تلك الجُملة، وأنَّ المعنى الكلِّي للَّفظة الواحدة يتكوَّن من المعاني الإيحائيَّة التي تدلُّ عليها أحرف تلك اللَّفظة، وهذا باب واسع في فقه اللُّغة، تقوم عليه دراسات، وتجري فيه أبحاث ونحن نكتفي هنا بمجرَّد الإشارة إليه.

ونفهم من ذلك أنَّ كلَّ لفظة عربيَّة تَدُلُّ على معنى معيَّن، وهذا الظاهر لا ينفيها وجود المترادفات،لأنَّنا لو دقَّقنا في تلك المشتركات المعنويَّة لوجدنا أنَّ كلَّ لفظة منها تحوي زيادةً على المعنى العام الذي تشترك فيه مع غيرها معنىً آخر تنفرد به دون سواها.ويمكننا التعرُّف على هذه الخاصِّيَّة الدقيقة واضحةً في القرآن الكريم، ونكتفي منه بمثالين فقط يقومان دليلًا عليها:

الأول: قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم:١٦] ولم يقل: سنُعلِّمه، لأنَّ هناك فرقًا بين العلامة والسِّمة، إذ السِّمة ضَرْبٌ من العلامة مخصوص، وهو ما يكون بالنَّار، والأصل فيه التأثير في الشيء بخلاف العلامة التي هي أعمُّ من السِّمة دلالةً.

الثاني: قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال:٣٤]. ولم يقل: يمنعون؛ لأنَّ الصدَّ هو المنع عن قصد الشيء خاصَّة بخلاف المنع الذي يصدُق على القصد وغيره.

ونصل من خلال ذلك إلى عدَّة ملاحظات تجب مراعاتها عند اختيار ألفاظ الخطبة، وهي:

(١) اختيار اللَّفظ المناسب للمعنى، وهذا الضَّرب من الاختيار يزيد في جمال الكلام وحُسْن البيان.

(٢) البعد عن الكلمات الغريبة وإيثارُ الألفاظ الواضحة المأنوسة،لأنَّ الكلمات الغريبة لا تكون كفيلةً بنقل معاني الخطب إلى أذهان السامعين بيُسر وسهولة، وإنَّما تجعلهم يحسُّون عند سماعها أنَّهم يعيشون في متاهة تخرجهم من دائرة فهم معظم معاني الخطبة وأفكار موضوعها، هذا إن لم تُبْعدهم عن فهم الخُطبة برُمَّتِهَا، والإكثار من استعمال الكلمات الغريبة يُعَدُّ عيبًا من عيوب الألفاظ وعورةً في الأُسلوب، ينأى بموضوع الخطبة عن الوضوح، ويدخلها في الأساليب الغامضة. لهذا وجب على الخطيب أن يختار الألفاظ الواضحة السهلة المألوفة.

فبدلًا من أن يقول: (يعروري)[١] ليقل: (يركب).

وبدلًا من أن يقول: (عرَّد) ليقل: (فرَّ أو هرب).

وبدلًا من أن يقول: (اطلخمّ) ليقل: (اسودَّ).

(٣) انتقاء الكلمات المأنوسة ذات الجرس الموسيقيِّ المعبِّر والإيقاع الموحِي، والوقع الجميل في السمع والنفس، وتَجنُّب الكلمات الشائكة ذات النطق الثقيل الذي تكرهه الأسماع، وتنفر منه النفوس كلفظة (الجِرِشَّى).

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٥٩٨).

في قول المتنبيّ:

مبارك الاسم أغرُّ اللّقب كريم الجِرِشَّي شريف النّسَب

و(**الجِرِشَّى**) معناها: (**النَّفْس**) ولا ريب في أنَّك تشعر بالفَرْق بين الكلمتين في سمعك حال النطق بهما فينفر السمع من الأولى ويأنس بالثانية.

والجَرْسُ الموسيقيُّ قضيَّة هامَّة في الكلمة؛ لأنَّ لكلِّ حرف من حروف اللَّفظة موسيقىّ خاصّة، ونغمة معيَّنة تزيد في التعبير عن المعنى العام لتلك اللَّفظة. فمثلا في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧، ١٨] نحسُّ بوقع موسيقيٍّ مُوحٍ لكلمتي ﴿عَسۡعَسَ، تَنَفَّسَ﴾ إذ يُوحي الجَرْسُ الموسيقيُّ لأحرف لفظة ﴿عَسۡعَسَ﴾ بحركة الليل الهادئ وهو ينساب في أرجاء الكون ليلفَّ الكائنات بظلامه الذي لا يلبَثُ بعد اشتداده وتماديه أن ينحسر شيئًا فشيئًا، وينزاح عن صدر الوجود فيتنفَّس أنفاس الحياة من جديد وتعود إليه الحيويَّة والنشاط بعد سكون حركته تحت وطأة ظلام اللَّيل، ويُشعرك بهذه الإشرافات التعبيريّة الرائعة جرس كلِّ حرف من أحرف كلمة ﴿تَنَفَّسَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٩٤].

يوحي ذلك الإيقاع الموسيقيُّ لكلِّ حرف من أحرف لفظة ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ بالمعنى الذي تدلُّ عليه، وهو السقوط على الوجه بصورة قبيحة ومهينة مرَّة بعد مرَّة.

وبِناءً على ذلك وجب على الخطيب أن يختار لمعاني خطبته وأفكارها الألفاظ ذات الجرس الموسيقيِّ المعبِّر عن تلك المعاني والمضامين. فهوَ إذا تحدَّث عن الجهاد عليه أن يختار الألفاظ القويَّة الحماسيَّة ذات الإيقاع الموسيقيِّ المعبِّر، مثال:

(الجهاد البأس العنف العزيمة القراع الاقتحام...).

وإذا تحَّدث عن الإيمان اختار الألفاظ المعبِّرة بإيحائها الموسيقيِّ عن طمأنينة القلب، وسموِّ الروح، وإشراق الأعماق، واستقامة الجوارح، مثال:

(الهداية النور الرشاد الاستقامة الإيمان...).

وإذا تحدَّث عن مناسبة حزن اختار الألفاظ الموحية بجرسها الموسيقيِّ بمعاني الحزن والتحسُّرُ وألم الفراق، مثال:

(الأسى المصاب الأتراح العويل البين الفاجعة).

(٤) البعد عن الكلمات المُبْتَذَلَة والركيكة والألفاظ العامِّيَّة: فاستعمال مثل هذه الكلمات يورث أُسلوب الخطبة ضعفًا ويفقده الرونق والجمال وقوَّة التأثير في نفوس المستمعين الذين لا تستهويهم تلك الألفاظ، وإنما يألفون لغة القرآن لأنَّها أوقع في النفوس وأبلغ تأثيرًا في الشعور. والخطيب الذي يستخدم ألفاظ اللُّغة الدارجة، ويتعاطى في خطبته الكلمات المبتذلة والعبارات الركيكة لا يكون صادق الوفاء في الحفاظ على سُمُوِّ أُسلوب خطبته ونقائه من شوائب العامِّيَّة، وألفاظ الركاكة والابتذال، وفي الوقت نفسه لا يتمكَّن من النهوض بجمهوره إلى مستوىً يليق بلغة القرآن وثقافة الإسلام؛ لأَنَّ اللُّغة من أهم وسائل الثقافة الإنسانيَّة ومنجزات الفكر البشريِّ في حياة الأُمَم.

فلا يليق بالخطيب أن يقول: (كَمَش) بدلًا من: (أمسك).

ولا يليق به أن يقول: (لحَش) بدلًا من: (ألقى).

ولا أن يقول: (شو أو ليش) بدلًا من: (ماذا أو لماذا؟).

(٥) تجنُّب تكرار اللَّفظ الواحد في الخطبة لغير حاجة، لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى سآمة السامع وملله، ويُعدُّ التكرار من عيوب الكلام، كما جاء في علم البلاغة العربية فكرهوا قول الشاعر:

إنِّـي وأسـطـارٍ سُـطِـرْن سَطْر لقـائـل يـا نَـصْـرُ نَـصْـرُ نصْرا

وقول الآخر:

مكثنا بها يومًا ويومًا وثالث ويومًا له يوم الترحُّلِ خامس

وقول الثالث:

وقـــد وقـــد وقـــد وقـــد وقـــد مـــلأنـا الـكُـتُـبـا

فإذا قال الخطيب:

(يجب أن نأمر بالمعروف،لأنَّ الأمر بالمعروف أَمْرُ أمرنا الله به، ولا نأتمر بأمر أمرنا الله به ونأمر غيرنا بذلك إلَّا كان أمرُنا خيرًا، وينتهي بنا ذلك الأَمْر إلى الجنَّة...) فهذا الكلام الذي تكرَّرت فيه كلمة (أمر) يتنافى مع فصاحة البيان العربي، ولا يمنح أُسلوب الخطبة قوّةً وجمالا. بينما تلاحظ أنَّ في استعمال الألفاظ المترادفة تجديدًا لنشاط السامع في انتباهه واستمرار إصغائه؛ لأنَّ اللَّفظة الجديدة تؤدِّي إلى انتباه جديد، أما تكرار الكلمة أكثر من مرَّة فيُوهِن ذلك الانتباه، ويجلب الشرودَ وانصرافَ السامع عن المتكلِّم.

ولا يعني ذلك أن يُمجَّ التكرار في جميع الحالات، فهناك تكرار محمود إذا كانت الحاجة داعيةً إليه، كتقرير المعنى وتأكيده وتثبيته في النفوس، ولفت النظر إلى أهميَّته وضرورته. ومثل هذا في القرآن الكريم كثير، كتكرار قوله تعالى:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣] في سورة الرحمن، وتكرار قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

وكذلك في حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كتكرار قوله الشريف: «**التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا**»[(١)]. وأشار إلى صدره، وكقوله: «**أَلا وَقَول الزُّور، وَشَهَادَة الزُّور، أَلا وَقَول الزُّور، وَشَهَادَة الزُّور. فَمَا زَالَ يَقُولهَا حَتَّى قلت: لَا يسكت**»[(٢)] وما زال يكررها يقول الصحابيّ حتى قلنا ليته سكت. وكقوله: «**وَاللهِ لا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لا يُؤْمِنُ ثَلاثَةً**»، قَالُوا: وَمَنْ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الْجَارُ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ**»[(٣)].

فهذا التكرار له غرضه وفائدته، كالتأكيد والتحذير، والتهويل فلا يعد عيبًا من عيوب الكلام. ونضيف على جانب ما ذكرناه الإعراضَ عن الألفاظ ذات الأحرف المتنافرة كلفظة، (الأجلل) بدل (الأَجْلّ) وكلمة (مقوول) بدل كلمة (مَقول) فهذه عيوب مخلّة بفصاحة الكلمة، مسيئة إلى أساليب الكلام.

المطلب الثاني: التراكيب:

نقصد بالتراكيب: العبارات والجمل التي تتألف من عدة ألفاظ بمجموعها معنىً معينًا، وإذا كانت التراكيب سهلةً حسنة السَّبك، جارية على سَنَن العربية وطرائق تعبيرها، خاليةً من التعقيد وتنافر الكلمات، مؤتلفة مع جوٍّ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٧، رقم ٧٧١٣)، ومسلم (٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤). وأخرجه أيضًا: البيهقى (٦/ ٩٢، رقم ١١٢٧٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٥١٠) باب ما قيل في شهادة الزور، مسلم (٨٨) باب بيان الكبائر وأكبرها، واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٣٨٥، رقم ٢٧٢٠٦)، والبخارى (٥/ ٢٢٤٠، رقم ٥٦٧٠).

الخطبة العام متناسبةً من حيث طولُها وقصرها مع المعاني المقصودة كانت الخطبة قويَّة التأثير جميلةَ العَرْض، محمودةَ الذكر، بالغة النفع.

وعلى هذا تجب ملاحظة الأمور التالية:

أولًا: أن تكون التراكيب قويَّة متماسكة، محقّقة للمعنى المقصود في أجملِ صورةٍ لفظيَّةٍ سليمةً من الضعفِ والتفكُّكِ.

وتفسير ذلك: أن تكون ألفاظ التراكيب متناسبة في اجتماعها لتحقيق المعنى المراد، متآلفةً في تعانق حروفها وتناغم حركاتها، وإيحاء لفظها وَجَرْسِهَا الموسيقيِّ.

وهذه الخصلة الرائعة نجدها واضحة في تراكيب القرآن الكريم وجُمَلِ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبه ومواعظه.

أمَّا في القرآن الكريم فنقرأ مثالًا على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر:١٨-٢٥]، فنلاحظ في هذا النصّ القرآنيِّ الكريم التصويرَ الدقيق للحالة النفسيَّة الباطنة والظاهرة التي كان عليها الوليد بن المغيرة في موقفه من القرآن الكريم بعد أن سمعه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءت الألفاظ موحية، والتراكيب معبِّرة تعبيرًا دقيقًا عن التقلُّب الذي اعترى الوليد أثناء تفكيره وتقديره، ومصوِّرة تصويرًا رائعًا لحالته النفسيَّة في إدباره واستكباره ثُمَّ افترائه الكذب وادعائه الباطل، فاستطاع هذا النصّ القرآنيّ المجيد بجمله القصيرة الخاطفة، وأفعاله الكثيرة المتتابعة، وإيقاع حركات حروفه المتناغمة، والتَّواؤم البديع بين أنفاس

ألفاظه وتراكيبه أن يرسم ملامح تلك الشخصية المهزوزة المضطربة، ويعرضها أمام خيالنا بصورة ساخرة، وهي تصل على قرارها الجائر.

ثانيًا: أن تكون التراكيب متوازنة في ترتيب ألفاظها.

بحيث تنزل كلُّ لفظة منها في مكانها المناسب ويأخذ بعضها بيد بعض في نظام محكم وترابط دقيق، فتتجنَّب بذلك عيب التعقيد اللَّفظيِّ الذي يورث الكلام غموضًا يجعل السامع يستصعب فهم المراد منه. فإذا لم تقع اللَّفظة في موقعها المناسب من التركيب فأُخِّرت عن مكانها وقُدِّمت عليها أخرى بلا سبب بلاغيٍّ أو لُغويٍّ يُجوِّز ذلك التقديم أو التأخير أو فصل بين اللَّفظتين المتجاورتين بفاصل لا تسوِّغه قواعد التعبير اللغويِّ الفصيح، أدَى ذلك إلى فقد الكلام صفةَ الوضوح، وعناءِ السامع في فهم المعنى المقصود، وإذا لم يتمكَّن المستمع من فهم ما يلقى عليه من الكلام لم تتحقَّق له فائدته، ولم تصل إليه غايته، ولقد جاء في قواعد البلاغة العربيَّة أنَّ من عيوب الكلام وأسباب خروجه عن مسار فصاحة اللُّغة العربيَّة وسننها التعقيدَ اللَّفظيَّ، ومن صوره التقديم والتأخير المضلُّ عن المعنى المراد، وعود الضمير على متأخِّر لفظًا ورتبة. ومثَّلوا للأول قول المُتَنَبِّيّ:

أَنَّــى يـكـون أبــا الـبـرايـا آدم ... وأبـوك والـثـقـلان أنـت محمدُ

نلاحظ في هذا البيت أن الشاعر فصل بين المبتدأ (أبوك) وخبره (محمد) بفاصل يستدعي حيرة السامع في فهم المراد، وكذلك قدَّم الخبر على المبتدأ تقديمًا يدعو إلى اللَّبْس في قوله و(الثقلان أنت). و بناء على ذلك يصبح معنى البيت هكذا: كيف يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت والثقلان.

ومثّلوا للثاني قول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولو أنّ مجدًا أخلد الدهرَ واحد من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مُطْعِمًا

ومعنى البيت: لو كان مجد الإنسان سببًا لخلوده وبقائه لكان مطعم بن عدي أولى الناس بالخلود.

ولكنَّ هذا المعنى لم نستوضحه من البيت إلا بعد عناء، لأنَّ الشاعر أخلَّ في استعمال الضمير في قوله (مجدُه) فأعاده إلى (مطعمًا) وهو متأخِّر لفظًا ورتبةً، وهذا خروج عن قواعد النحو، وسنن العرب في كلامها.

وإذا شئنا مثالًا من كلام الخطباء نذكر ما يلي:

تحدَّث أحد الخطباء عن الأخلاق، فقال في بعض كلامه: (إنَّ في حقيقة الأمر الأخلاقَ أساسُ بقاءِ واستقرارها الأُمَّة).

نجد حال قراءة هذه العبارة أو سماعها صعوبة في فهم المعنى المراد منها، وهذا يرجع إلى ما اشتملت عليه من تقديم وتأخير في ألفاظها، ووجود الفواصل بين كلماتها، حيث نلاحظ ما يلي:

أولًا: أنّه فصل بين إنَّ واسمها بفاصل هو قوله (في حقيقة الأمر)، وكان الأولى التأخير عن كلمة (الأخلاق).

وثانيًا: أنَّه فصل بين المضاف (بقاءِ) والمضاف إليه (الأُمَّة) بفاصل مع تقديم ضمير (الأُمة) عليها.

وهذا عيب في الكلام يورث التراكيب قُبحًا والجمل تعقيدًا والمعنى غموضًا، فيستعصي على سامعه فهم مضمونه وإدراك مقصوده.

وإذا أردنا أن نصوغ تلك العبارة صياغة صحيحة، وجب علينا أن نقول: (إنَّ الأخلاقَ في حقيقةِ الأمرِ أساس بقاء الأُمة واستقرارها).

ويدخل في هذا الباب استعمال كلمات للدلالة على معانٍ لا تصلح لها، فيؤدِّي ذلك إلى التباس المعنى المقصود على السامع، ويقع هذا كثيرًا في المجازات الخاطئة كقولنا:

(فلانٌ سيفٌ في العلم)، والصواب أن نقول: (بحر في العلم) أو (جبل في العلم) ونحوه قول أحدهم: (فتواثب الصائمون في رمضان إلى المساجد، وتشابكوا على تلاوة القرآن الكريم...)، ولا ريب في أنَّ فِعْلي (تواثب وتشابك) لم يستعملا هنا مكانهما المناسب، وأراد المتكلِّم الدلالة بهما على غير ما يصلحان له.

وَيُذَكِّرُنَا هذا النوع من الخلل في التعبير بالتعقيد المعنويِّ الذي عدَّه البلاغيُّون من العيوب المُخِلَّة بفصاحة الكلام ومثَّلوا له بقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بُعَد الدارِ عنكم لتقربوا ... وتسكب الدموع عيناي لتجمدا

وقالوا: لقد أصاب الشاعر حين جعل الدموع دليلًا على الحزن والألم بسبب الفراق، وأخطأ حين جعل جمود العين دليلًا على السرور؛ لأنّ العرب لم تستعمل جمود العين كناية عن السرور، وإنّما استعملته كناية عن البخل بالدموع في وقت البكاء، كما نجده في شعر الخنساء حين رثت أخاها صخر فقالت:

أعينيّ جودا ولا تجمد ... ألا تبكيان لصخر الندى

ومثل ذلك قولهم: (بثّ الملك آذانه في صفوف أعدائه).

والعرب لا تستعمل الآذان كنايةً عن الجواسيس، وإنَّما تستعمل العيون كناية عن ذلك، نحو قول الشاعر:

كم بعثنا الجيش جرّار وأرسلنا العيونا

ونلحق بقائمة هذا الضرب من التعقيد استعمال بعض الخُطباء المحدَثين الرمزيّة في كلامهم إلى حدٍّ يضيع فيه على السامع فهم المراد ويُرهق الأذهان في إدراك المقصود.

مثال ذلك قول أحدهم في خطبته: (لقد فاحت رائحة الشمس، فعطَّرت وجنات القلوب، وتركت قطرات من الندى الإيمانيّ الأبيض على شفاه الخفقات الدافئة في الصدور).

أقول: إنَّ من خصائص الخطبة الناجحة وضوح مضمونها للمستمعين، وسرعة وصول أفكارها ومعانيها إلى أذهان المخاطبين، والرمزيَّة لا تحقِّق شيئًا من ذلك فيجب تجنُّبها في العمل الخطابيِّ، وإن كان يحسُن استخدامها في بعض الشعر؛ لأنّ العملين مختلفان من حيث اتجاههما وجمهورهما.

فالشعر يخاطب الخيال والمشاعر وأعماق الفِكْر، ويسمو بسامعه إلى آفاق التأمُّل البعيدة، فيحتاج إلى طبقة معينة من المستمعين تتمتَّع بثقافة فكريَّة وشعوريَّة تليق به، وأمَّا الخطبة فهي تخاطب العقول والعواطف وتتّجه على طبقات متنوِّعة من المستمعين تتفاوت مستوياتها الثقافيَّة والإدراكيَّة، فجدير بخطيبها أن يجافي فيها الرمزيَّة والغموض، ويلازم التبيين والوضوح مراعاةً لحاجة جمهوره ومستوى مخاطبيه.

ثالثًا: خلوُّ التراكيب من ظاهرة التكلُّف اللفظيّ وسلطان السجع.

وتفسيره عند البلاغيين أن تتوافق الفاصلتان في الحرف الأخير، ولا يكون إلَّا في النثر، وهو ممجوج غير مُسْتَحَبٍّ إذا كثُر وشاع في الخطبة أو أيّ نصّ نثريّ؛ لأنّه يؤدّي إلى انشغال السامع بإيقاعاته وبريق الصنعة في ألفاظه عن مضمون الخطبة ومعنى النصّ اللَّذين استشرى فيهما.

وأمَّا إذا جاء عفويًّا في عبارات الخطبة وكلماتها فهو مقبول مستحسَن؛ لأنَّه يزيد من جمال الكلام ويضفي على ألفاظه وتراكيبه رونقًا وبهاءً فيعذب في الأذان سماعه، ويؤثِّر في النفوس إيقاعه.

وقول أحد الخطباء: (أيها الإخوة المؤمنون، اعملوا بهدي القرآن الكريم، واستقيموا على سُنَّة النبيِّ العدنان وأعرضوا عن الهوى، والتزموا سبيل التقوى، تفلحوا وتنجحوا، وتبلغوا منازل السعداء ومقام الأتقياء في الدنيا والآخرة...).

ولا ننسى في نهاية هذه الفقرة أنّ نؤكّد أنّ أرباب اللغة والفصاحة لم يستحسنوا كثرة السجع في الكلام، ولم يستسيغوا استخدامه الواسع في الخطب والنصوص النثريّة، ولو كانت كثرته من مظاهر جمال البيان وقوّة اللِّسان وفصاحة المنطق لكان أولى الناس باستخدامه رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن أمثلته في حال استحسانه وعفويّته: عن أنس قال: قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمال من البحرين فتسامعت به المهاجرون والأنصار فغدوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر حديثا طويلا فيه: وقال للأنصار: إنكم ما علمت تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع. [العسكري في الأمثال]

وقول أحد الخطباء: وأصحابه الكرام ولكنَّ الذي يقرأ خطبهم ويسمع مواعظهم يجدها أبعد ما تكون عن تكلُّف الصنعة والخضوع والسجع، وأقرب ما تكون إلى تغذية العقول بالمعاني النافعة والفوائد الرائعة.

رابعًا: خلوُّ التراكيب من التكرار غير المناسب.

تقدَّم معنا في الحديث عن الألفاظ أنّ من محاسنها في الخطبة عدمَ تكرار اللفظ الواحد منها لغير حاجة داعية إليه، ونذكر هذه الملاحظة أيضًا في التراكيب، فتكرار التركيب الواحد أكثر من مرَّة في الخطبة يُعدُّ من العيوب المخلَّة بتماسك الأسلوب، ودليلًا على ضعف قدرة الخطيب على تحصيل المعاني التي يريدها بتراكيب تفي بالمقصود، وتجعل السامع في حالة تنبُّه دائمة من بداية الخطبة إلى نهايتها، فيتمكن بذلك من استيعاب معظم أفكار الخطبة وأكثر معانيها.

فإذا كرَّر الخطيب الجملة أكثر من مرّة بلا داعٍ مناسب، وأورث سامعيه السآمة والضجر، وجعلهم ينصرفون عن متابعة تحصيل الفائدة المطلوبة من خطبته.

وأمَّا إذا دعت الحاجة إلى تكرير الجملة أكثر من مرَّة فهذا لا يسيء إلى قوَّة أُسلوب الخطبة، ولا يشتِّت ذهن السامع عن إدراك مضمونها وفهم معانيها، وإنّما يزيد من قوّة تأثيرها في نفوس المستمعين، ويُضفي على أسلوبها سِحْرًا وجمالًا وجاذبيَّة.

ونلاحظ هذه الظاهرة واضحة في القرآن الكريم، وفي كلام إمام المرسلين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أمَّا في القرآن الكريم فَقَد تقدَّمت معنا الإشارة إليه خلال حديثنا عن تكرار اللفّظ الواحد فوجدنا مثاله في سورة (الرَّحمان) التي تكرَّر فيها قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣]، فأعطى تكرار هذا التركيب القرآنيِّ تأثيرًا ساحرًا في نفس القارئ، وأضفى رونقًا وبهاءً على سياق تلك السورة الكريمة التي لا يملُّ تاليها، بل يُحِسُّ بأعماقه ومشاعره تزداد انجذابًا نحوها كُلَّما أكثر من تلاوتها.

ومثال أيضًا في سورة (القمر) التي تكرَّر فيها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

وفي سورة المرسلات التي تكرَّر فيها قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾. [المرسلات:١٥]

فمن قرأ هذه السور أحسَّ بتآلف ألفاظها وترابط آياتها وتناسق تراكيبها، ووحدة سياقها، وشعر أثناء تلاوتها إلى جانب ذلك بأنَّ تكرار أحد تراكيبها حيث جاء فيها مكرَّرًا كان عاملًا فعَّالًا في تحقيق ذلك التآلف والترابط والتناسق، بحيث لو انعدم أو قلَّ عدده عما هو عليه لأدَّى ذلك إلى تفكُّك وحدة السياق. وهذه الظاهرة الأسلوبيَّة الرائعة اختصَّ بها القرآن الكريم دون غيرها من الكلام، لأنَّه كلام الله الذي يعلو ولا يُعلى عليه.

ولقد اهتمَّ علماء العربيَّة بدراسة هذه الظاهرة القرآنيَّة الباهرة، وخصَّصوا لها أبحاثا مستقلَّة أصدروها في رسائل وكتب نذكر منها رسالةً قَيِّمَةً صدرت حديثًا بعنوان «التقرير في التكرير» من تأليف السيد محمد أبي الخير أفندي الشهير بابن عابدين المتوفى سنة (١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م)، وقد أودع فيها خلاصة ما جاء في كتب المتقدِّمين من آراء وأقوال.

وأما في كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنذكر مثالا على ظاهرة تكرير التركيب الواحد ما جاء في خطبته الشريفة التي خطبها في حجَّة الوادع حيث كرَّر قوله: «**ألا هل بلغت؟! اللَّهمَّ اشهد**» في مواضع متعدِّدة من خطبته، فكان ذلك التركيب ينزل في موضعه المناسب في سياق الخطبة فيزيدها تناسُقًا وقوَّة وتأثيرًا في نفوس المخاطبين الذين يُحِسُّون بأهميَّة ما يُلقى عليهم، وضرورة وَعْي ألفاظه وفهم معانيه بلا تفويت ولا تفريط.

ونلحق بهذه الملاحظة الرابعة ظاهرة التزام الخطيب بعبارات مُعَيَّنَة يردّدها في خطبته تنبيهًا للناس أثناء كلامه وتجديدًا لنشاط إقبالهم عليه قلوبًا وعقولًا وعاطفةً، كقوله: (نعم أيُّها المسلمون). وقوله: (وهكذا أيُّها الناس). وقوله: (أجل معشر المؤمنين).

إنَّ التزام تكرير هذه العبارات أثناء الخطبة لا يُعدُّ عيبًا في أسلوبها إذا حدث التكرير في مكانه المناسب وحسب الحاجة الداعية إليه، ولنا في خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شواهد على هذه الظاهرة كخطبته في حجة الوادع التي كان يكرّر فيها في مطلع أجزائها قوله: «أمَّا بعد أيُّها الناس». وأمَّا إذا كررت هذه العبارات في الخطبة الواحدة في غير موطنها المناسب فسوف يُؤَدِّي تكريرها إلى تقطع تسلسل الألفاظ والتراكيب في سوق المعاني فَيَتَشَتَّت نظام الأفكار، وينتاب ذهنَ المستمع الشرودُ عن متابعة إدراك معاني الخُطبة، ويفوته الحظُّ الوافر من فائدتها. ومثال ذلك قول أحد الخطباء: (إنَّ المعاصيَ بريدُ الكفر ومطيَّة الهلاك في النار، أجَلْ معشر المؤمنين، فمن أعرض عن المعصية وراقب ربَّه، أجَلْ معشر المؤمنين، فقد ربح في الدنيا والآخرة، أجَلْ معشر المؤمنين أما في الدنيا فيكون مطمئنًا في

حياته لا يعرف القلق ولا الشّقاء، أجَلْ معشر المؤمنين وأمّا في الآخرة فيكون من السعداء الفائزين بنعيم جنَّة الرحمن).

نلاحظ في هذا المقطع الخطابيّ أنَّ تكرار عبارة: (أجلْ معشرَ المؤمنين) لم يقع في موطنه المناسب، بل جاء ذلك التكرار فاصلًا بين أجزاء الفكرة الواحدة فترتَّب عليه تشتُّت ذهن السامع عن فهمها حيث كان ينبغي أن تُساق إليه عبر ألفاظها وتراكيبها دونما فاصل أجنبيّ. إلى جانب كونه سببًا في ضعف الأسلوب وَتَردِّيهِ عن المستوى اللائق بالخطبة المؤثِّرة.

خامسًا: طول التراكيب وقِصَرها.

تحتلُّ التراكيب القصيرة مركز الأهميَّة في سياق الخطبة التي تعتمد اعتمادًا كُلِيًّا على صوت الخطيب ولهجته، وكلاهما يرتبط ارتباطًا لا انفكاك له بنَفَس الخطيب، والجملة الطويلة يحتاج إلقاؤها إلى نَفَس طويل، وهذا ما لا يستطيعه إلَّا النّزْر اليسير من الخطباء، بل إنَّ الخطيب مهما طال نفسه لا يتمكَّن من النطق بالجمل الطويلة متتالية مع محافظته على قوَّة صوته ونشاط لهجته من بداية نطقه بتلك الجُمَل الطويلة بمآزق، منها:

(أ) أن يختلَّ توازن صوته ولهجته، وينتقل من النشاط إلى الفتور إن استمرَّ في إلقاء التركيب الطويل إلى نهايته، فيترتَّب على ذلك اضطراب طريقة الإلقاء وفَقْدِ الإيقاع المؤثِّر في أُذن السامع.

(ب) أن ينقطع نَفَس الخطيب أثناء نطقه بالتركيب الطويل قبل أن يبلغ نهايته فيضطرُّ للسكوت، فيترتَّب على ذلك انقطاع تمام معنى الكلام عن المستمع وعدمُ تحقيق فائدته المرجوَّة في نفسه. ونضيف إلى هذا أيضًا أنَّ الخطبة

التي تغلِب عليها صبغة إثارة العواطف وتحريك المشاعر تحتاج في التعبير عن معانيها إلى العبارات الخاطفة والجمل القصيرة التي تتناسب مع جوِّ العاطفة الثائرة، ويبقى فيها صوت الخطيب مدويًّا ولهجته قويّة ونَفَسُه نشيطًا.

وأمّا إذا طالت العبارات وكثرت ألفاظ التركيب الواحد منها، فسينشأ عن ذلك فتور الإلقاء في مواطن الحماسة، وضعف الصوت في موضع القوّة، فتفقد الخطبة بهذا سلطان تأثيرها في النفوس واستيلاءَها على المشاعر.

المبحث الثالث

أنـــواع الأسلوب

إنَّ من سمات الخُطبة الناجحة أن يتلوَّن أُسلوبُ عَرْضِها، وتتغيَّر ضروب التعبير فيها من أمر إلى استفهام إلى نهيٍ إلى تعجُّب إلى إِخْبارٍ وإلى غير ذلك. حيث يمكِّنها ذلك التلوُّن من تنبيه الأذهان، واستقطاب الأسماع والأخذ بمجامع القلوب، والتأثير في النفوس.

وأمَّا إذا التزم الخطيب في خُطبته ضَرْبًا من ضروب التعبير لا يبرحه إلى غيره، كأن يلتزم صيغة الأمر أو النهي أو التقرير، فسيجعل السأم يتطرَّق إلى نفوس سامعيه، فتضجر منه أسماعهم، وينصرفون عن متابعة خطبته، وَخَاصَّة إذا كرَّر عرض الفكرة الواحدة بصيغة واحدة ولون واحد من ألوان التعبير، وهذا بلا شك، يدلُّ على قلة زاد بيان الخطيب وضعف مقدرته الخطابيَّة، وأمَّا الخطيب القويُّ المتمكِّن فلا يستعصى عليه عرض الفكرة الواحدة في أساليب مُتَعَدِّدَةٍ وأثواب مختلفة، بل يختار من ضروب التعبير ما شاء، ثم يسكب فكرته الواحدة فيما اختاره من الأساليب ليُخرجها إلى الناس بأثواب قشيبة وقوالب متنوِّعة، فيتمتَّعون بسماعها ويتلذَّذون بفهمها كما تخرج العروس ليلة زفافها إلى صويحباتها بأثوابها وأشكالها وزينتها فلا تملها العيون ولا تسأم منها النفوس.

وبهذا تتثبَّت الفكرة في الأذهان لأنَّها توجَّهت إلى أسماع الناس في تلك الأشكال المختلفة والألوان المتعدَّدة. ولا نزاع في أنَّ النفس البشريَّة ترفض بطبيعتها الاستمرار على حال واحدة في مختلف شؤون حياتها، وتنزع دومًا إلى التغيير فرارًا من السآمة وخلاصًا من الضجر، وهذا ما أشار إليه الشاعر أبو تمّام بقوله:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحَيِّ فإنِّي ... مُخْلِقُ لِدِيباجَتَيْهِ فاغتَرِبْ تَتَجَدَّدِ
رأيْـتُ الشَّـمسَ زيـدت مَحَبَّةً ... إلى النَّاسِ أَنْ ليْسَتْ عليهم بِسَرْمَدِ

آن لنا بعد هذا الإيضاح أن نستعرض أبرز أنواع التعبير، وأهمَّ أضرُب الأُسلوب، ونستشهد على كلٍّ منها بما يناسبه.

تَتَنَوَّعُ أساليب الكلام وتعابير الخطاب إلى عدَّة أنواع من أهمِّها:

الإخْبار: مثال قول سيّدنا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى خُطَبه: «أمّا بعدُ، فإنَّ الدنيا قد أَدْبَرتْ وآذَنت بوَادع، وإنَّ الآخرة قد أقْبَلتْ وأشرفت باطِّلاع، وإنَّ المضمار اليوم والسّباق غدًا...»[(١)].

الأَمْـر: مثال قول أحد الخطباء في إحدى خُطَبه: «فلتكُن الدنيا في أعينكم أصغرَ مَنْ حُثَالة[(٢)] القَرَظ[(٣)] وقُراضة الجَلَم[(٤)] واتَّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتَّعِظ بكم من بعدكم، وارفُضُوها ذميمةً فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم».

النهي: مثال سيِّدنا أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيِّكم، ولا يفتننَّكم عن دينكم، فعالجوه بالذي تُعجِزونه، ولا تستنظِروه فيلحقَ بكم»[(٥)].

القَسَم: مثال سيِّدنا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إحدى خُطَبه: «وأيم الله، إنِّي لأقولُ لكم هذه المقالَة، وما أعلم عند أحدٍ منكم من الذُّنوب أكثر ممَّا عندي»[(٦)].

(١) أخرجه ابن عساكر (٤٢/ ٤٩٧).
(٢) **الحُثَالة:** ما لا خير فيه، والرديء من كل شيء.
(٣) **القَرَظ:** حَبَّ معروف يخرج في غُلْفٍ كالعدس من شجر العضاة، وبعضهم يقول القرظ: ورق السَّلم.
(٤) **القراضة:** ما بقطع بالمقراض، **والجَلَم:** المِقَصُّ.
(٥) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (٤/ ٤٧٥).
(٦) حلية الأولياء لأبي حامد الغزالي (٥/ ٢٧٩).

الاستفهام: مثال قول أحد الخطباء في خطبته له: «أينَ مَنْ سعى واجْتَهد، وجَمَع وعدَّد، وبني وشيَّد وزَخْرف ونجَّد وبالقليل لم يقنعْ وبالكثير لم يُمتَّع؟ أين مَنْ قاد الجنود، ونشر البُنُود؟ أضحَوا رُفاتًا تحت الثرى أمواتًا، وأنتم بكأسهم شاربون، ولسَبيلهم سالِكُون. عبادَ الله، فاتَّقوا الله وراقِبُوا، واعملوا لليومِ الذي تُسَيَّر فيه الجبال، وتُشَقَّق السماءُ بالغمام، وتَطَايَر الكُتُب عن الأيمان والشمائل، فأيُّ رجلٍ يومئِذ تُراك؟ أقائل: هاؤم اقرؤوا كتابيَهْ؟ أم: يا ليتني لم أوت كتابيَهْ؟».

الاستنكار: مثال قول أحد الخطباء في خُطبة له بالمدينة النبوية: «أيها الناسُ حتّام يهتِف بكم صريخُكم؟ أما آن لراقدكم أن يهُبَّ من نومه؟ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] أغرَّكُم الإمْهال حتى حسبتموه الإهْمال...».

التعجُّب: مثال قول أحد الخطباء في خطبة له: «ما أجلَّ القلوبَ حينَ تَسْتضيء بنور الإيمان! وما أعظمَ النُّفُوسَ حين تستقيم على هَدْي القرآن! فليس كالإيمان نور يُضيء فيكشف ظُلُماتِ الغَيِّ والضَّلال، وليس كالقرآنِ منهاجُ يَنْجو به العبدُ من التواءِ مسالك الحياة».

التشويق: مثال قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أَدُلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(١).

ومثال قول أحد الخطباء في خُطبةٍ له: «ألا أُنبِّئكم بالعالِمِ كلِّ العالم؟ من لم يُزيِّن لعباد الله معاصي الله، ولم يؤمنهم مكره، ولم يؤيِسْهم من رَوْحه».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩١، رقم ٩٠٧٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٧٤، رقم ٥٤).

وهناك ألوان أخرى للأُسلوب:

(كالعرض والحضِّ والتهكم والاستهوال والتوبيخ والنداء والتمني والدعاء والترجِّي...).

ويحسن بنا في نهاية المطاف أن نذكر شاهدًا خطابيًّا واحدًا يشتمل على أساليب متنوِّعة.

خَطَب سيِّدنا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «إنَّ لكلِّ سَفَرٍ زادًا لا محالة، فتزوَّدوا من دنياكم لآخرتكم التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ اللهُ له من ثوابه وعقابه، فترْهَبُوا وتَرْغبوا، ولا يطولَنَّ عليكم الأمد فتقسوَ قلوبُكم، وتنقادُّوا لعدوِّكم فإنَّه والله ما بُسِط أملُ من لا يدري لعلَّه لا يصبح بعد إمسائه أو يمسي بعد إصباحه، وربَّما كانت بين ذلك خطرات المنايا، وإنَّما يطمئنُّ إلى الدنيا من أمن عواقبها، فإنَّ من يداوي من الدنيا كَلْمًا أصابت جراحةً من ناحية أُخرى، فكيف يطمئنُّ إليها؟ أعوذ بالله أن آمركم إلا بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي، وتظهر عَلْيتي وتبدو مسكنتي في يومٍ لا ينفع فيه إلَّا الحقُّ والصِّدْق».

نلاحظ في هذه الخُطْبة البليغة عدَّة ألوانٍ للأُسلوب الذي انتظم معانيها، هي:

(١) الإخبار: في قوله: «إنَّ لكلِّ سَفرٍ زادًا لا محالة، وإنَّما يطمئنُّ إلى الدنيا من أمن عواقبها».

(٢) الأمر: في قوله تعالى: «فتزوَّدوا من دنياكم لآخرتكم التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدَّ الله له من ثوابه وعقابه».

(٣) النَّهْي: في قوله: «ولا يطولَنَّ عليكم الأمد...».

(٤) القسم: في قوله تعالى: «فإنّه والله ما بُسِط أملُ من لا يدري لعلَّه...».

(٥) الاستفهام الإنكاريّ: في قوله: «فكيف يطمئنُّ إليها؟».

المبحث الرابع

سُبل تقوية الأسلوب الخطابي

ذكرنا مسبقًا أن الأسلوب يتألَّف من الألفاظ والتراكيب التي يسوق المتكلِّم أو الكاتب عَبْرَهَا أفكاره ومعانيه. وبقدر ما يكون اختيار الألفاظ مناسبًا، وصياغة التراكيب محكمةً، يكون الأسلوب قويًّا متينًا.

ونقصد بالألفاظ والتراكيب هنا الألفاظَ والتراكيبَ العربيَّة الأصلية البريئة من الغريب والدخيل والعاميِّ المرذول.

فاللغة العربية الفصحى: هي أُسُّ الأسلوب وعماده، وبها تكون قوته وعزته فإذا تسللت إليه لغة غيرُ الفصحى، كانت سببًا في هدم بنائه وتقويض أركانه.

فقُوَّة الأُسلوب الخطابيِّ تستند إلى مدى اصطباغه بصبغة العربية الأصلية، وتحليه بخصالها الكريمة في أداء المعاني والتعبير عن الأفكار.

فوجب على الخطيب في سبيل تقوية أسلوبه أن يرجع إلى مصادر اللغة ومنابعها الصافية ليستمدَّ منها زاده اللُّغويَّ، ويأخذ حاجته من الألفاظ والتراكيب.

المطلب الأول: أهمية اللغة العربية:

في معرض ذكرنا أن اللغة العربية العمود الفقري للأُسلوب، حبذا لو وقفنا حيالها مليًّا، متأملين تلك الخصائص الكريمة، والصفات الجليلة التي برزت بها العربية الفصحى غيرها من لغات العالم.

تُعَدُّ اللُّغة العربية أفضل لغات العالم وأدقِّها في التعبير عن المعاني التي تجول في الخواطر، وتتمخَّض عنها الأحاسيس والمشاعر إذ ربَّما تعجز لغة أخرى عن الإفصاح عن كلِّ ما يثور في خاطر الإنسان من المعاني ويجيش في أعماقه من المشاعر، وهذا ما نجده في كثير من نصوص الأدب الغربيِّ أو الشرقيِّ بخلاف العربيّة الفصحى، فإنهَّا تستوعب كلِّ المعاني والأفكار والعواطف التي تفيض بها القلوب وتغدقها قرائح العقول.

فيستطيع الناطق بالعربيَّة أن يتخيَّر منها اللفظ المناسب والتركيب الملائم للفكرة التي يريد التعبير عنها بلا مشقَّة أو عناء. فهي لغةٌ مرنةٌ سَلِسَةٌ بقدر ما هي جليلةٌ عظيمةٌ، وهي لغةٌ دقيقةٌ محكمةٌ بقدر ما هي جميلةٌ رائعةٌ.

وإنَّ من أبرز دلائل جلال قَدْرها ومحكم بنائها ودقَّة تعبيرها وروعة سبكها وجمال بيانها أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختارها من بين لغات خلقه لتكون لغةَ كتابه المنزَّل وبيانه المحكم الذي قال عنه جلَّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]، ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

كما أنَّ من دلائل ذلك أن جعلها الله لسانَ أفضل الناطقين وخير المتكلِّمين مَنْ وَصَفَ نَفْسه بقوله: «**أوتيت جوامع الكلم**»[(١)]، إنَّه محمد رسول الله الذي خضعت له الكلمات، وَذَلَّت بين يديه العبارات، فهو يقودها كما يشاء ويستعملها كيفما يريد.

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٠) تعليق شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

ولو اطلع أحد على التراث اللُّغويِّ الهائل الذي بلغنا عن العرب منذ مولد اللُّغة العربيَّة وإلى يومنا هذا، لوجد من خلال نثر الأُدباء وشعر الشعراء وبيان الخُطباء = أنَّه ليس ثمَّةَ لغة تفوق العربيَّة في روعة البيان ودقَّة التعبير والسَّعة والشمول لمختلف حاجات الناس البيانيَّة في شتَّى العصور والأحوال، فحدا ذلك بالكثيرين من غير العرب إلى الإعراب عن إجلالهم للعربيَّة الفصحى بأوضح الكلمات وأصدق العبارات، كالبيرونيِّ الفارسيِّ الذي قال: (لأن أُهجى بالعربية أحب إليّ من أمدح بالفارسية)[١].

وأمَّا ما تمتَّعت به العربيَّة الفصحى من حيويَّة وعطاءٍ متجدِّد في عالم الألفاظ والمعاني، اندفع الشاعر العربيُّ الكبير حافظ إبراهيم إلى نظم قصيدة رائعة أجراها على لسان اللغة العربية، قال فيها:

وسعتُ كتابَ الله لفظًا وغايةً ... وما ضِقْتُ عن آي به وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصفِ آلة ... وتنسيق أسماءٍ لِمُخْتَرَعَاتِ
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنُ ... فهل ساءلوا الغوَّاص عن صدفاتي

وإذا حازت اللغة العربيَّة هذا المنصبَ الكريمَ والمقام الجليل، وأصبحت خير لغات العالم على الإطلاق، فقد وجب على كُتَّاب العربيَّة ومتكلِّميها إزاء ذلك أن يُعنَوا بها عنايةً لا يُعدَل عنها، ولا يُدرك شَأْوُهَا وألَّا يدعوا مجالًا للدخيل مهما كان شأنه أن يندس فيما يكتبون أو يتكلَّمون، ولا عذر لهم إن قالوا: (حاجة العصر تقتضي تناوله على ما هو عليه).

(١) من كتاب: «نحو وعي لُغَوِيٍّ» د. مازن مبارك.

أَمَّا إنَّ لغتنا العربيَّة قادرة بما تمتَّعت به من خصائص على أن تُمدَّنا بكلِّ ما نحتاج إليه من الألفاظ والتراكيب للتعبير عن كلِّ شيء جديد يظهر في حياتنا.

المطلب الثاني: أهم مصادر العربيَّة الفُصحى:

والقرآن الكريم هو: من أهم مصادر اللغة العربيَّة وأعلاها وذروة سنامها، فمن عُني بتلاوته وأكثر منها، وحرَص على أن يحفظ كثيرًا من آياته وسوره، فيستقيم لسانه، ويحسن بيانُه، ويجمُل منطقه، ويُسدّد قولُه، وتغزُر لغتُه، وتُشرق فكرتُه، ويجزُل رأيُه، وينصع فهمُه، وخاصَّة إذا أحسن تلاوة القرآن، فأدَّاها كاملة الخصائص والصفات، لأنَّ القرآن الكريم بلغ في الفصاحة والبلاغة الدرجة العليا والغاية القصوى، فهو يعلو ولا يُعلى عليه، وكلُّ كلام سواه مهما سما فصاحةً وبيانًا ينحطُّ عن رتبته ويقصّر عن بلوغ درجته، ولقد أثنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر:٢٣]، وبقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وتكفينا آية من كتاب الله تكشف النقاب عن هذه الحقيقة الجليلة التي تمتَّع بها القرآن دون سائر الكلام، إنَّها قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

فلقد أطلق الله الهداية في القرآن، ولم يجعلها في مسار معيَّن، ولا في اتجاه محدَّد، وإنَّما هي هداية شاملة لجميع مناحي الحياة، وهي ليست هداية عاديَّة ذات أُفق محدد وبُعْد معيَّن، وإنَّما هي هداية ترتقي إلى أعلى مستوياتها، وتبلغ أسمى

معانيها. واللِّسان هو أحد منطلقات هداية القرآن، فمن قرأه وحفظه وفهمه بلغ به الأقوام في الفصاحة والبيان.

وهناك مصادر أخرى نذكرها في ما يلي:

(١) الحديث النبويُّ الشريف:

لقد أختصَّ الله تعالى رسوله النبيَّ الأميَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون سائر المتكلِّمين من خلقه ببلوغه ذروة الفصاحة وأعلى درجات البلاغة، فانطلق لسانه الشريف بالبيان الرائع والكلام المعجز، فكان حقًّا كما قال عن نفسه: «**أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**»[(١)].

لذا تُعتَبر الأحاديث النبويَّة الشريفة التي تتكوَّن من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المصدرَ الثانيَ بعد القرآن الكريم للُّغة العربية الأصيلة.

فمن أراد أن يُسدِّد لسانه، ويُحسِّن بيانه، ويُجمِّل منطقه، ويُطلِق حديثه في المسالك اللُّغويَّة المتوازنة المؤثِّرة، فعليه أن يعكُف على أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقرأها قراءةَ المتدبِّر الواعي، ويحفظ منها الكثير حتى يصطبغ منطقُه بصبغتها السامية الرفيعة، ويتحلَّى بخصالها الكريمة، ويستقيم لسانه على نسقها

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبة في (المصنف) (ج١١/ رقم ١١٧٨٤)، وأبو يعلى في (مسنده) (ج١٣/ رقم ٧٢٣٨)، والحسن بن عرفة في (جزئه) (٣٣)، ومن طريقه البيهقي في (الشعب) (ج٤/ رقم ١٣٦٨)، والخطيبُ في (موضح الأوهام) (٢/ ٤٥٩)، وسنده ضعيفٌ أيضًا، وله شاهدٌ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أخرجه الدارقطنيُّ في (سننه) (٤/ ١٤٤، ١٤٥) من طريق زكريا بن عطية، نا سعيد بن خالد، حدثني محمد بن عثمان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس مرفوعًا: (أعطيتُ جوامع الكلم، واختصر لي الحديث اختصارًا). قال العراقي في (تخرج الإحياء) (٢/ ٣٦٧): (إسناده جيد)، كذا قال، فأغرب! لأن زكريا بن عطية منكر الحديث، كما قال أبو حاتم.

المحكَم المبين وبيانها الرائع المنير. وخاصَّة خُطَبَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهي أعظم زادٍ بيانيٍّ وأنفع غذاءٍ فِكريٍّ لكلِّ خطيب أراد الصعود إلى أعلى مراتب القدرة الخطابيَّة، وأرفع درجات الروعة البلاغيّة.

(٢) كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

فهم أقرب الناس إلى عظمة البيان النبويِّ إذ أصغَوا بقلوبهم وعقولهم ومشاعرهم إلى حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونقلوه إلى الجيل من بعدهم، فاكتسبوا إلى جانب ما رُزِقوا من فصاحة اللِّسان، وجمال البيان، وقُوَّةً في التأثير، ودقَّةً في التعبير، وسعة في الخيال، وسموًّا في المقال، فأضحوا مصدرًا موثوقًا من مصادر اللُّغة العربيَّة الفصيحة، وموردًا من أصفى مواردها، ونخصُّ بالذِّكْر من كلامهم الخُطَبَ التي ألقاها كبار الصحابة الكرام في مختلف المناسبات، فهي زاد ثمين لكلِّ خطيب ابتغى دعم أسلوبه بقوَّةٍ بيانيَّةٍ عاليةٍ مؤثِّرة، فلقد كان من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلُّ خطيب مفوَّه ومتحدِّث مِسْقَع، وخاصّةً الخلفاء الأربعة، وحَسْبنا منهم سيّدنا عليّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخليفة الرابع وابن عَمِّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي نشأ في أحضان النبوَّة منذ نعومة أظفاره إلى أن غدا شابًّا يافعًا، وأضحى فارسًا شجاعًا لا يُشَقُّ له غُبار، ولا تلين له قناة، ولا تضعف له عزيمة، وخطيبًا لامعًا قد آتاه الله من فصاحة اللِّسان وسحر البيان ما تقصِّر عنه فصاحة الفُصَحاء، وتنحطُّ عنه بلاغة البُلَغاء وتتطامن أمامه براعة الأدباء، ويتضاءل عنده منطق الشعراء، فلا يجاريه خطيب في قُوَّة التأثير، ولا يضاهيه أحد في حسن الأسلوب وجمال التعبير.

فخليق بكل من أراد بلوغ أرقى المنازل في حقل الخطابة أن يجعل من خطب الصحابة الكرام وكلامهم رائدًا له في هذا الميدان الجليل والمضمار العظيم، وهاديًا يهديه إلى تحقيق غايته وتحصيل بغيته.

ملحوظة: لا يعني كلامنا هذا الغضّ من قدر بقيَّة الصحابة الكرام في قُدرتهم البيانيَّة وقوَّتهم الخطابيَّة وبراعتهم اللِّسانيِّة، ولكننا اقتصرنا على ذكر سيدنا عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكثرة ما ورد عنه من الخُطَب.

(٣) كلام التابعين وتابعيهم:

وهم يأتون في درجة قوَّة البيان وفصاحة اللِّسان بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولقد ظهر فيهم كبار الفصحاء، وأجلُّ البلغاء، وأقوى الخطباء، من طارت بشهرتهم الأخبار، وحارت في روائع بيانهم الأفكار، وأغار ذكرهم في الناس، فوصل إلينا من فيض عقولهم، وسحر مقالهم، وبديع خطبهم ما يُذْكي العقول، ويصقل القرائح، ويطلق الألسنة بأطيب الحديث، وروائع البيان، وجميل الخطاب.

وإذا أردنا أن نعدِّدَ منهم أُناسًا، نذكر أسماءً كان أصحابها مشاعل الهداية، وحُداة الركب في مضمار الدعوة إلى الله رب العالمين، فنذكر منهم: الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كما لا ننسى في معرض حديثنا هذا خطباءَ ظهروا في ذلك العهد، كان لهم شأن عظيم، ومنزلة خطيرة، وإن خالط حياتهم أمورًا لا نزيد فيها على أن نقول: بقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا

﴿تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]، فنذكر منهم: قطريَّ بن الفجاءة، وأبا حمزة الشاريَّ والحجّاج ابن يوسف الثقفيَّ.

فلقد خلَّف هؤلاء إرْثا خطابيًّا رائعًا، حريٌّ بخطباء زماننا أن يرجعوا إليه ليقتبسوا منه الأساليب الجيّدة والتعابير الجميلة ويحفظوه وينتهجوه.

إنَّ ما جاءنا عن العرب قبل الإسلام وبعده من النثر والشِّعر يُعدّ موردًا ثَرِيًّا من موارد الفصاحة والبيان، فالشِّعر يمتاز بروعة التصوير وسعة الخيال وجمال الصياغة، والنثر له خصائصه التصويرية الرائعة، وأساليبه التعبيرية البديعية، وكلاهما زادٌ لغويٌّ وفير، يفتقر إليه مريد الخطابة ليستمد منه الألفاظ والتراكيب وألوان الأساليب، ويرجع بفائدة ذلك على خطبته حيث تظهر ثمرته في روعة بيانها وجمال أسلوبها ودقة تعبيرها وحسن أدائها.

ولقد حفلت كتب الأدب وتأليف اللُّغة العربية الفُصحى برصيد وافر من النصوص النثريَّة والشِّعْريَّة التي تمدُّ الخطباء والأدباء والكُتَّاب والشعراء من أهل زماننا، ومن يأتي بعدنا بما يحتاجون إليه من المعاني والألفاظ والأخيلة ومسالك الكلام.

فجدير بالخطيب الذي يحرص على امتلاك قوَّة التأثير، والقدرة على حسن التعبير أن يطَّلع على تلك، ويحفظ أكبر قَدْرٍ ممكن منها.

وإليك في ما يلي أهمَّ هذه الكتب قديمًا وحديثًا:

«البيان والتبيين للجاحظ العقد الفريد لابن عبد ربِّه الأمالي لابن عليّ القاليّ الكامل للمبرِّد زهر الآداب للقيرواني صبح الأعشى في صناعة الإنشا

للقلقشنديّ نهاية الأرب، للنويري عيون الأخبار لابن قتيبة المثل السائر لابن الأثير كشف المعاني والبيان عن معاني بديع الزمان لإبراهيم أحمد أفندي من وحي القلم لمصطفى صادق الرافعيّ».

ونضيف إلى جانب ذلك كتب ورسائل المنفلوطيِّ والعقّاد والمازنيِّ والزيَّات وعلى الطنطاوي وغيرهم من كبار أُدباء وكُتَّاب عصرنا الحاضر.

ولا ننسى عيون الشعر العربيِّ القديم والحديث، كشعر أبي تمّام والبحتريِّ والمتَنبِّي وشعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والبارودي وما أُلِّفَ حديثًا من مختارات الشعر والأدب وما اختصّ بجمع روائع الخطب.

المبحث الخامس

الأساليب النبوية في الخطبة

مستخرجة من الأحاديث الواردة.

إذا ما أراد المرء الهداية وأحسن الأساليب في الخطبة وفي سواها فعليه أن يطلبها في كتاب الله تعالى، ويطلبها في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته.

وَحَسْبُكَ أن خير الحديث في حكمه تعالى كتاب الله، وأن خير الهدي هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أفصح من نطق بالضاد، وأنه أحسن الناس خُلقًا، وأجلهم حكمة، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم.

المطلب الأول: الهدي الفعلي والقولي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة:

وفيما يلي بيان لهديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة مصنَّفا على:

١- هديه في الفعل.　　٢- هديه في القول.

أولًا: الهدي الفعلي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة:

اشتملت الأحاديث التي وقفت عليها من ذلك على ما يلي:

- كان يخطب قائمًا كما في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم وأبي داود وقد استدل كعب بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة:١١]، كما في الحديث عند مسلم والنسائي.
- كان يخطب على المنبر؛ لما ثبت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له منبر يخطب عليه.

كان يخطب خطبتين يفصل بينهما بجلوس، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند البخاري ومسلم وغيرهما.

كان يقرأ القرآن في الخطبة ويُذكِّر الناس، كما في حديث جابر بن سمرة السابق، وفي حديث جابر بن عبد الله عند مسلم وغيره: «يقْرَأ آيَات من الْقُرْآن، وَيذكر النَّاس»[(١)].

كان يشير إشارة خفيفة بيده بإصبعه المسبّحة، كما يدل عليه حديث عمارة بن رويب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم والترمذي وأبي داود والنسائي.

«كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: **صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»[(٢)] كما في حديث مسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله.

وفي رواية للنسائي: «وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ: **صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»[(٣)].

كانت صلاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصْدًا؛ وخطبته قَصدًا. كما في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود. وله: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُطِيلُ الْمَوْعِظَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِنَّمَا هُنَّ كَلِمَاتٌ يَسِيرَاتٌ»[(٤)].

---

(١) مسلم الجمعة (٨٦٢)، أبو داود الصلاة (١١٠١)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٠٦)، أحمد (٥/ ٨٨)، الدارمي الصلاة (١٥٥٩).

(٢) مسلم الجمعة (٨٦٧)، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨)، ابن ماجه المقدمة (٤٥)، أحمد (٣/ ٣٣٨).

(٣) النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨)، أحمد (٣/ ٣١١).

(٤) أبو داود الصلاة (١١٠٧).

وفي حديث عمّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**»(١) أخرجه مسلم. وفي رواية عنده وعند أبي داود عن عمار قال: «أمرنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِقْصَارِ الخطْبَة»(٢).

- كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ(٣).
- وقد كان النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا، حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ(٤).

ثانيًا: الهدي القولي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبه:

اشتملت الأحاديث التي وقفت عليها من ذلك على ما يلي:

- قد صحّ من فعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه إذا خطب حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله(٥).
- كان في الخطبة يقرأ القرآن ويذكّر الناس(٦).
- كان يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ...**»(٧).

---

(١) مسلم الجمعة، با تخفيف الصلاة (٨٦٩)، أحمد (٤/ ٢٦٣)..
(٢) أبو داود الصلاة (١١٠٦).
(٣) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤ / ٢٣١).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم وفي الاستئذان من حديث ثمامة (١ / ٣٤)
(٥) أخرجه مسلم، الجمعة، باب تخفيف الصلاة (٣/ ١١-٨٦٧).
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، وأبو داود في كتاب الجمعة.
(٧) أخرجه مسلم، الجمعة، باب تخفيف الصلاة (٣/ ١١-٨٦٧).

ثم يقول: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»(١).

كان يقول: «نَحْمَدُ اللهَ، وَنُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ محدثةٍ بدعةٌ، وَكُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وَكُلُّ ضلالةٍ فِي النَّارِ» ثم يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ...»(٢).

وكان إذا تشهد قال: «الْحَمْدُ لِلهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلا نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا»(٣).

المطلب الثاني: أنواع الخطب في هدي النبي ﷺ في الخطبة:

أذكر فيما يلي أهم الأمور اللازم مراعاتها في إعداد الخطبة، مستخلصة من النصوص الشرعية ومقاصدها:

(١) مسلم الجمعة (٨٦٧)، أبو داود الخراج والإمارة والفيء (٢٩٥٦)، أحمد (٣/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم الجمعة، باب تخفيف الصلاة (٣/ ١١-٨٦٧)، النسائي صلاة العيدين (١٥٧٨)، ابن ماجه المقدمة (٤٥)، أحمد (٣/ ٣١٩).

(٣) أخرجه الترمذي تخريج (حديث صحيح) رواه الإمام أحمد (٣٧٢١ و ٤١١٦) وأبو داود (٢١١٨) والترمذي (١١٠٥) وقال حديث حسن والنسائي (٦ ٨٩) وابن ماجة (١٨٩٢) والحديث رواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عنه مرفوعًا وهذا إسناد صحيح متصل وجمعها إسرائيل فقال عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص وأبي عبيدة عنه مرفوعًا وفي الباب عن عدي بن حاتم وابن عباس أيضًا رواه الإمام أحمد (٣٢٧٥) والنسائي (٦ ٨٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم والله أعلم.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عن هدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة: فقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب خطبًا عامة وخطبًا خاصة، وخطبًا راتبة في الجمع والأعياد ونحوها، وخطبًا عارضة بحسب الأسباب والدواعي.

وكانت خطبه كلّها دعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، وتوضيحًا للأصول النافعة والأعمال الصالحة، وترغيبًا في أصناف الخيرات والإحسان إلى المخلوقات، وترهيبًا من الأعمال الضارة والأخلاق السيئة.

وكان الغالب على خطبه الاختصار والاقتصار على ما يحصل به المقصود. ويقول: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»(١).

وكانت مواعظه على نوعين:

نوع يعظ الناس وعظًا مطلقًا ويُرغِّب في الخير ويرهِّب من الشر، ويشوِّق إلى ما أعد الله للطائعين من الكرامة، ويحذِّرهم مما أعدَّ الله للعاصين من الإهانة؛ ليثير في القلوب الإيمان، والرغبة في الخير والرهبة من الشر.

ونوع من وعظه يُفصِّل ما يحتاج الناس إلى تفصيله، ويوضحه لهم توضيحًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٣، رقم ١٨٣٤٣)، ومسلم (٢/ ٥٩٤، رقم ٨٦٩)، وابن حبان (٧/ ٣٠ رقم ٢٧٩١). وأخرجه أيضًا: الدارمي (١/ ٤٤٠، رقم ١٥٥٦)، والبيهقي (٣/ ٢٠٨، رقم ٥٥٥٣)، والبزار (٤/ ٢٣٥، رقم ١٣٩٨). وأخرجه أيضًا: الحاكم (٣/ ٤٤٤، رقم٥٦٨٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

فالنوع الأول: وعظ وإيقاظ وتذكير.

والنوع الثاني: تبيين وتعليم وتفصيل.

وكان يراعي في وقت حال ما يحتاج الناس إلى بيانه، لا يتكلف السجع ولا التعمق. بل جُلُّ قصده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبلاغ المعاني النافعة بأوضح العبارات وأقصرها. ولقد أوتي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جوامع الكلم. وكان يردد اللفظ أو المعنى حسب ما يحتاج المقام إلى ترديده وهذا أولى ما يعتمده الخطيب، ولا بأس مع ذلك بمراعاة تحسين الألفاظ من غير تكلُّفٍ[١].

وأخيرًا: أهم ما يمكن استخلاصه من النصوص الشرعية من صفات الخطبة وأساليبها.

ولعل أهم ما يمكن أن أستخلصه من النصوص الشرعية في صفات الخطبة وأساليبها ما يلي:

- إن التأسي في خطبة الجمعة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنصوص الكتاب والسنة والسعي في تحقيق مقاصدهما وهدايتهما من أهم ما يلزَمِ الخطيب أخْذه بعين الاعتبار عند إعداده للخطبة موضوعًا وغايةً وأسلوبًا.

الاهتداء بالكتاب والسنة يوجب على المرء الرجوع إليهما والاستنباط منهما ودراستهما والعناية بهما.

- يتلخص من النصوص الشرعية الـواردة بشأن خطبة الجمعة والموضوعات الأخرى ذات العلاقة:

أن خطبة الجمعة مناسبة أسبوعية ثابتة يتعين على المسلمين العناية بها والمحافظة عليها والتأسي فيها شكلا ومضمونًا بهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) مجموعة مؤلفات ابن سعدي، الخطب (١٨٧، ١٨٨).

وأن وظيفة خطبة الجمعة تتركز في ثلاثة أمور، هي:

- الوعظ والتذكير.
- تعليم المسلمين دينَهم عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا.
- إرشاد الناس وتوجيههم إلى ما فيه مصالحهم في حياتهم وأحوالهم المتجددة المتعددة.

وأن الخطبة هذه دعوة إلى الله تعالى، فمن واجب القائمين بها أن يهتدوا فيها بالحكمة والأحكام المتعلقة بالدعوة، متمسكين في ذلك بنصوص الكتاب والسنة الواردة في الموضوع وبمقاصدها وهدايتها.

- ومن الفقه عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يجعل الخطيب خطبته في يوم الجمعة دعوةً إلى أصول الخير وفروعه، ونهيًا وتحذيرًا من الشر (أصوله وفروعه)، ودعوة إلى الإسلام في عقيدته وشريعته وأخلاقه.

- من الفقه عن الله عَزَّوَجَلَّ وعن رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيضًا أن يبتعد الخطيب عن إيراد الرِّوايات الواهية والمكذوبة على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والواهية، مكتفيًا بالثابت بمختلف درجاته. سواء فيما يتعلق به هو، أو فيما يتعلق بالمستمعين إليه والمصلين معه.

ليس كل موضوع يَصْلح أن تكون فيه خطبة، والخطيب الفقيه هو الذي يقدّر ذلك.

ولعل من المناسب في إطار هذه الفقرة من الموضوع، أن أنقل عددًا من التوجيهات حول صفات الخطيب، وأسلوب الخطبة وصفاتها المطلوبة، عن بعض من بحث هذا الموضوع، فإليك أيها القارئ الكريم تلك التوجيهات المختارة:

الفصل الثالث

الاستشهاد

وفيه مباحث:

المبحث الأول: تعريفه

المبحث الثاني: أهميَّته ومكانته

المبحث الثالث: شروط الشاهد

المبحث الرابع: أنواع الاستشهاد

المبحث الأول

تعريفـه

هو الإتيان بنصٍّ (قرآنٍ أو حديثٍ) أو قولٍ (منثورٍ أو منظومٍ) أو قصَّةٍ يؤيِّد به الخطيب رأيه، ويقوِّي حُجَّته، ويدعم قوله، ليكون أقدر على إقناع السامعين وكسب ثقتهم والتأثير في نفوسهم.

المبحث الثاني

أهميَّته ومكانته

إنَّ أيَّة فكرة يودُّ أن يطرحها إنسان ما على جمهور من الناس لا تجد وَقْعًا في نفوسهم وقَبُولًا كاملًا في عقولهم ما لم يدعمها ويعضدْها بالشواهد المناسبة التي تستحوذ على ثقتهم، وتكسب قناعتهم واطمئنان قلوبهم، لأنَّ الشاهد المناسب الذي لا تختلف عليه العقول، ولا تختصم فيه المفاهيم يُعتبر قوَّةَ تَرْسيخٍ وتثبيت للأفكار والمعاني الملقاة على أسماع الناس وأذهانهم، فيكونون بها أشدَّ اهتمامًا وأكثر اعتدادًا، وذلك لأنَّ ثقة الناس تتفاوت بتفاوت منزلة المتكلِّمين، فإذا كان المتكلِّم شخصًا عَادِيًّا أو ذا منزلة بسيطة في الناس، فإنَّه يُضطرُّ لكسب ثقة السامعين بقوله إلى أن يؤيِّده بكلام من تشتدّ ثقة الناس به.

وثقة الناس أيضًا تتدرَّج بتدرُّج منزلة من ينسب إليه القول المستشهد به.

فكلام الله سبحانه يحتلُّ المنزلة العُليا في ثقة الناس واعتقادهم، لأنَّه الحقُّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويستحيل أن يتطرَّق إليه

أدنى تبديل أو تحريف؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

وحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل في المحلِّ الثاني بعد القرآن الكريم في ثقة الناس وتصديقهم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

وأمَّا أقوال الصحابة والسلف الصالح وأرباب المذاهب الإسلاميَّة المعتبرة فإنَّ ثقة الناس بها تفوق ثقتهم بأقوال علماء زمانهم ومفكِّري عصرهم.

المبحث الثالث

شروط الشاهد

الأول: أن يكون مناسبًا للفكرة المستشهد عليها به:

فإذا لم تتَّفق فكرة الشاهد مع الفكرة المستشهد به عليها فلا يُعدُّ الاستشهاد به صحيحًا؛ لأنَّ الغرض من سَوق الشاهد كما تقدَّم معنا هو دعم الفكرة التي يعالجها الخطيب وتأييدها به، وهذا لا يتحقَّق إذا جاءت فكرة الشاهد مخالفة لفكرة النصِّ الخطابيِّ.

وقد نجد بعض الخطباء أو الوعَّاظ يقعون في مثل هذا العيب فيستشهدون على كلامهم بنصوص من القرآن أو الحديث أو كلام السلف ولا نجد أيَّ ارتباطٍ بين ما يقولون وبين الشاهد الذي يأتون به، وأحيانًا يستشهد بعضهم على فكرته بما يناقضها، ومردُّ ذلك إلى جهله بالمعنى المراد من الشاهد.

ومن أمثلة الخطأ في الاستشهاد:

أنَّ أحد الخطباء كان يتحدَّث عن مسؤوليَّة الإنسان في مجتمعه، فقال أثناء خُطبته: (إنّ كلَّ فرد من أفراد المجتمع المسلم مسئول عن نفسه لا علاقة له بغيره، إن ضلَّ أو اهتدى؛ لأنَّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:١٠٥].

فاستشهد ذلك الخطيب على حدود مسؤولية الإنسان المسلم في مجتمعه بهذه الآية القرآنيَّة التي لا نجد أنَّها قد وُضِعَتْ في مكانها المناسب؛ إذ لا يعني مضمونها، كما ذهب إليه الخطيب.

أن لا علاقة للمسلم بما يجري في مجتمعه من انحراف المنحرفين وإفساد المفسدين، فهو مسئول عن نفسه فقط بأن يقيمها على منهج الله ولو انحراف الناس من حوله، وتخبَّطوا في ظلمات الشرِّ والعصيان، وإنما تحمل هذه الآية الكريمة في كل كلمة من كلماتها توجيهًا للمؤمنين إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنَّهم جسد واحد، وأيّ انحراف يقع فيه فرد منهم فسوف يتطرَّق إلى غيره حتى يعمّ المجتمع كلّه إذا لم يُنه ذلك المنحرف عن انحرافه، ويؤخذ على يده.

وهذا هو منهج الإسلام في حراسة المجتمع وصون القاعدة الأخلاقيَّة في حياة أفراده، وحسبنا أن نقرأ تأكيد ذلك في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(١).

ويمكننا أن نقرأ التفسير الصحيح لهذه الآية تأكيدًا لما ذكرناه في ما جاء عن سيّدنا أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: أيُّها النَّاس إنَّكم تضعون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة:١٠٥]. على غيرها موضعها، وإنِّي سمعت رسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنّ النَّاسَ إذا رَأوُا المنْكَرَ ولا يُغَيّرُونَهُ أوْشَكَ أن يَعُمَّهُم الله بِعِقابِهِ**»(٢).

(١) رواه مسلم باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان رقم (٤٩).

(٢) أخرجه أبو يعلى (١/ ١١٩، رقم ١٣١)، وأحمد (١/ ٥، رقم ١٦)، وابن أبى شيبة (٧/ ٥٠٤، رقم ٣٧٥٨٣)، وأبو داود (٤/ ١٢٢، رقم ٤٣٣٨)، والترمذي (٤ / ٤٦٧، رقم ٢١٦٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٣٨، رقم ١١١٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧، رقم ٤٠٠٥)، وابن حبان (١/ ٥٤٠، رقم ٣٠٥)، وابن جرير (٧ / ٩٨)، وابن أبى حاتم في العلل (٢/ ٩٨، رقم ١٧٨٨)، والدارقطني في العلل (١/ ٢٤٩، رقم ٤٧) وقال: رواه جماعة من الثقات.

وعندما سأل أبو ثعلبة الخشني رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن معنى هذه الآية، قال له: «**يا أبا ثعلبة، مُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ**»(١).

فيتّضح لنا بهذا أنَّ الخطيب قد أخطأ في فهم المراد من هذه الآية، وحَمَلَها على غير معناها الصحيح.

فيجب على المتكلِّم حين يذكر شاهدًا يؤيِّد به فكرته أن يدرك مدى الارتباط بين ذلك الشاهد والفكرة التي يتحدَّث عنها ما هو أقوى مكانة وثقة في نفوس أولئك المستمعين من المتكلم بتلك الفكرة.

الثاني: ألَّا يكون الشاهد طويلًا حتى لا يصرف السامعين عن الموضوع الأصليّ:

فهناك من الخطباء من يتوسَّع في شواهد خطبته إلى حدِّ طغيان تلك الشواهد على أفكار موضوعه، فتجده يستشهد على فكرته بشاهد قرآنيٍّ، أو حديث نبويّ شريف، ثمَّ يأخذ في تفسير ذلك الشاهد وبيان المعاني العديدة التي يفيض بها، فإذا بالشاهد يجتاح معظم الخُطبة، ثمَّ يصبح غايةً يبحث الخطيب فيها بعد أن كان مجرَّد شاهدٍ سيق تأييدًا لفكرة الموضوع، فينجم عن ذلك انصراف السامعين عن فكرة الخطبة الرئيسيَّة واهتمامهم بالشاهد، ملتفتين إلى المعاني والإشراقات التي تدفَّقت منه.

ومن هذا القبيل أن يسوق الخطيب قصَّة مستشهدًا بها على فكرةٍ مُعَيَّنَةٍ، ثمَّ يأخذ في تفصيل حوادث القِصَّة والوقوف على فقراتها مستنبطًا مسترشدًا، ثمَّ

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٨، رقم ٧٩١٢) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: الترمذى (٥/ ٢٥٧، رقم ٣٠٥٨) وقال: حسن غريب. وابن حبان (٢/ ١٠٨، رقم ٣٨٥)، وقال العراقي: رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه اهـ، وأيضًا ورواه أيضًا ابن جرير والبغوي في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم أيضًا.

يستشهد على ما استنبطه من أفكارٍ بشواهد أخرى فيخرج من القصَّة ويدخل في قصَّة أخرى، فينشأ عن ذلك ضياع المستمع عن الموضوع الأصلي، ورُبَّما يضيع الخطيب نفسه عن فكرة خطبته ويضلُّ طريقها إذا ما استغرق في تفصيل أحداث القصَّة وشواهدها فلا يستطيع الرجوع إلى تلك الفكرة، فينتُج عن ذلك اضطراب الخطبة وتمزُّقها وحرج الخطيب نفسه وحيرة السامع وفوات الفائدة المقصودة.

الثالث: أن يكون الشاهد صحيح الوقوع، قويَّ الورود عن أصحابه:

فلا يصحُّ الاستشهاد بالقصص الخُرافيَّة والمكذوبة، ولا بالأحاديث الموضوعة ولا بالضعيفة في المواضع التي لا يقبل فيها الاستشهاد بالضعيف، ولا بالأقوال التي لم تثبت نسبتها إلى أصحابها، فيجب على الخطيب أن يتحرَّى الشاهد تمامًا، ويتأكَّد من صحَّةِ وروده وصِدْق حدوثه قبل أن يذكره في موطنه من الخُطبة.

وسوف نفصِّل هذا الشرط ونوضِّح معالمه عندما نتحدث عن أنواع الشاهد.

الرابع: أن يكون الخطيب متين الحفظ للشاهد دقيقًا فِي نقله وإلقائه:

لأنَّ أيَّ تغيير يطرأ على الشاهد، أو نسيان لفقرة منه أو كلمة قد يؤدِّي إلى عدم تحقُّق فائدته، ويفقد قوَّة تأثير في النفوس، وخاصَّةً الشاهد القولي.

ولتفادي الوقوع في مثل هذا الأمر يُسْتَحسن من الخطيب أن يتأكَّد من قوة حفظه للشاهد وقدرته على أن يؤدِّيه كاملًا دون أيّ نَقْض أو تغيير يؤثِّر في تحقيق فائدة ذِكْره، وإلَّا فللخطيب أن يسجِّل ذلك الشاهد على ورقه فيتمكَّن من ذِكْره بحذافيره دون أي نقص أو تغيير وخاصَّة إذا كان نصًّا قُرْآنِيًّا أو حديثًا نبويًّا أو قولًا مأثورًا أو كلمةً لمفكِّرٍ إسلامي أو عالم كونيّ، ولا يتحرَّجنّ من فعل ذلك فهو ليس عيبًا في خطبته يستحقُّ عليه النقد أو العتاب.

المبحث الرابع

أنواع الشاهـــد

للشواهد أنواع عدّة نذكر في ما يأتي أهمَّها:

(أ) القرآن الكريم:

يُعتَبر القرآن الكريم من أعظم وأقوى وأهم مصادر الاستشهاد على الإطلاق إذ هو الحُجَّة الكبرى، والحقُّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والدستور الإلهيّ المبين.

لذلك مهما ملك الخطيب من أسباب البيان، وبلاغة الخطاب، ومهما كانت قوة عباراته وجزالة أسلوبه، فلن يصل إلى درجة تأثير القرآن في القلوب، وقرعه للعقول، وأين كلام البشر من كلام الله تعالى؟!!

ولذا كان جديرًا بالخطيب أن يضمن خطبته الآيات القرآنية التي تزين خطبته، وتجلي حجته، وتجعله ينطق بالحق، فإن الاستشهاد بالآية، وتلاوتها في الوقت المناسب والموضع المناسب، إقامة للحجة، وبيان وبرهان يأخذ بمجامع القلوب، ويُشَنِّفُ الأسماع، ويقرع العقول.

وانظر إلى العقل البشريِّ عندما يقف مذهولا متعجِّبًا متسائلًا: كيف تمكَّن القرآن الكريم من كشف تلك الأسرار والدقائق الكونيَّة المعجزة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، بينما نجد العقل البشريّ ما يزال يعاني في زماننا من كثير من العقبات التي تقف في وجهه، فتحُول ما بينه وبين معرفة كثير من أسرار الكون

وما يتمكَّن من معرفته من تلك الأسرار لا يتعدَّى أن يكون قطرة من بحر لُجِّيٍّ لا ساحل له أو ذرَّة من صحراء مترامية الأطراف.

فالقرآن الكريم كفيل بأن يكون أوثق وأصدق مصدر يُخبرنا عن تلك الحقائق والأسرار التي استصعب العقل البشريُّ اختراقها والنفاذ إلى بواطنها إلّا بعد جهود فكريَّة كبيرة وأبحاث واسعة.

بل هو كفيل بأن يكون أوثق مصادر الدقائق والمعارف المتعلِّقة بشتَّى أحوال المخلوقات في مختلف مجالات الحياة. ولقد أشار الله تعالى إلى تلك الحقيقة القرآنية المذهلة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

والاكتشافات الحديثة التي تمخَّضت عنها جهود علماء الكون في عوالم المخلوقات الأرضيَّة والسماويَّة التي اطمأنت أمامها العقول، واهتدت بنورها القلوب رغم تشعُّب مِلَلِها وتعدُّد مذاهبها.

ذكر الدكتور عناية الله المشرقيّ الهنديّ واقعة حدثت معه قال فيها:

كان ذلك يوم الأحد من أيام سنة ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكيّ المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج ذاهبًا إلى الكنيسة والإنجيل والشمسيَّة تحت إبطه، فدنوت منه وسلمت عليه فلم يردّ عليّ، فسلّمت عليه مرّة أخرى فسألني: ماذا تريد مِنيِّ، فقلت له: أمرين يا سيدي! الأوَّل هو أنَّ شمسيَّتك تحت إبْطك رغم شدَّة المطر فابتسم السير جيمس، وفتح شمسيَّته على الفور، فقلت له: وأمَّا الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجَّه إلى

الكنيسة؟، وأمام هذا السؤال تَوَقَّفَ السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أنَّ تأخذ شاي المساء عندي، وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت (ليدي جيمس) في تمام الساعة الرابعة بالضبط وأخبرتني أنّ السير جيمس ينتظرني.

وعند ما دخلت عليه في غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفسور منهمكًا في أفكاره، وعند ما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردِّي بدا يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللَّامُتنَاهية وَطُرُقِها ومداراتها وجَاذِبِيَّتَهَا وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنَّني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله وأما (السر جيمس) فوجدت شعر رأسه قائمًا والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول: يا عناية الله! عندما أُلقي نظرة على روائع الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهيّ، وعندما اركع أمام الله وأقول له (إنك عظيم) أجد أنَّ كلَّ جزء من كياني يؤيِّدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحسُّ بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرَّة، أفهمت يا عناية الله خان، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟).

ويضيف العلامة عناية الله قائلًا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانًا في عقلي وقلت له: «يا سيِّدي لقد تأثرتُ جدًّا بالتفاصيل العلميَّة التي رويتموها لي، وتذكَّرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدَّس فلو سمحتم لي، لقرأتها عليكم» فهزَّ رأسه قائلا: (بكل سرور) فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٧، ٢٨].

فصرخ السير جيمس قائلا: ماذا قلت؟ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؟! مدهش وغريب وعجيب جدًّا!! إنَّ الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرَّت خمسين سنة من أنبأ محمّدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة منّي أنّ القرآن كتاب موحى من عند الله.

ويستطرد السير جيمس جينز قائلًا لقد كان محمد أمِّيًّا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السرّ بنفسه، ولكنّ الله هو الذي أخبره بهذا السرّ. مدهش... وغريب.. وعجيب جدًّا) آه.(١).

فكم من مفكرٍ ملحدٍ أَخْضَعَتْهُ الحقيقة القرآنية لسلطانها وساقته إلى نور الإيمان بها فبات بعد كفره من المؤمنين وخُدَّام رسالة القرآن. فكم من حائر متشكِّك أخرجه القرآن من ظلمات حَيْرته فيه وإرهاق تشكُّكِه، وهداه إلى صراط أوضح من الشمس لا ترى فيه عوجًا ولا أمتا. فلا حجة بعد حجة القرآن لأنه كلام الله الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

وقد كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثير أحواله يجعل خطبته أو جُلَّها تلاوةَ سورةٍ من القرآن لما يشتمل عليه من ابتداء الخلق والبعث، والحساب، والجنة، والنار، والترغيب والترهيب.

أخرج مسلم في صحيحه عن عمرة بنت عبد الرحمن رَحِمَهَا ٱللَّهُ عن أخت لها

(١) كتاب «الإسلام يتحدّى» لوحيد خان.

كانت أكبر منها قالت: «أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى المِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ»(١).

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ(٢) رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدًا سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ وَمَا أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١] إِلا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقْرَؤُهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، إِذَا خَطَبَ النَّاسَ»(٣).

وعن صفوان بن يعلى عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ عَلَى المِنْبَرِ ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]»(٤).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه: «فيه القراءة في الخطبة، وهي مشروعة بلا خلاف، واختلفوا في وجوبها، والصحيح عندنا وجوبها، وأقلها آية»(٥).

قال الشيخ عبد الله البسام: «وفيه مشروعية قراءة شيء من القرآن في الخطبة، وهي واجبة عند بعض العلماء، ومنهم الحنابلة، فلا بد من قراءة آية من كتاب الله، وفيه استحباب ترديد المواعظ لتذكير الناس في الخطبة، وأنفع ما يوعظ به العامة والعصاة هو ذكر الموت والبعث والجزاء»(٦).

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة رقم (٨٧٢).

(٢) **التنور**: الفرن.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في (٥٩) كتاب بدء الخلق (٧) باب (**إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء**)، وأخرجه مسلم كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة رقم (٨٧١).

(٥) شرح النووي على مسلم (٦/ ١٦٠).

(٦) توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٢/ ٥٨٥).

شروط الاستشهاد بالقرآن الكريم:

ومما ينبغي التنبيه له عند الاستشهاد بالآيات القرآنية في الخطبة ونحوها ما يلي:

الشرط الأول: الحذر من الخطأ في تلاوة الآية، فإن هذا مما يعيب الخطيب، ويفسد عليه جمال أفكاره، وأهمية موضوعه، ويصرف السامع عن التأثر بالخطبة إلى التصحيح والنقد، وتتبع الأخطاء، فينبغي على الخطيب حفظ الآيات التي يستشهد بها في الخطبة حفظًا دقيقًا وسليمًا، فإن لم يتيسر له ذلك فلتكن مكتوبة يرجع إليها عند الحاجة، حتى ولو كان مرتجلا لخطبته ارتجالًا.

الشرط الثاني: الحذر من قراءة الآية بقراءة غير معروفة ولا مشهورة لدى السامعين، وإن كانت قراءة سبعية، فهذا من شأنه أن يُشَوِّش أذهان السامعين، ويصرفهم عن تدبُّر المعنى إلى الوقوف عند اللفظ، ومن كان مُحَدِّثًا للناس فليحدثهم بما يعرفون، وليترك ما ينكرون.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»[(١)].

فإن أحب الخطيب أن يلفت النظر إلى معنى يكون في قراءة دون أخرى فلينبه إلى أن ذلك في قراءة «فلان»، وهي قراءة سبعية.

الشرط الثالث: الحذر من الاستشهاد بالآية في غير موضعها، وإنزالها على غير واقعها، والتكلُّف في حمل الآية على حادثة معينة، أو على جماعة معينة، أو واقع معين مما يعد من التحريف، وتحميل الألفاظ فوق ما تحتمل، وعلى ذلك فلابد من الاطلاع على تفسير الآيات من كتب التفسير المعتمدة، فلا أقل من

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية (برقم ١٢٧).

أن يَطَّلِعَ على تفسير واحد من هذه التفاسير حتى يكون على علم بفهم السلف للآيات وتأويلها، مما يقيه من التأويلات الباطلة، والأقوال الواهية في ذلك، وليحذر من الاعتماد على تفاسير المبتدعين، من الباطنية والصوفية، والرافضة ونحوهم.

الشرط الرابع: الحذر من إقحام الآيات المتشابهة أو المحتملة المعاني في مواطن الخلاف بين المذاهب، والجماعات الإسلامية، وجعلها نصًا قاطعًا في الرد على بعضها، أو نصًا له فيما يذهب إليه من رأي، وإنما حسبه في ذلك أن يبرز دلالة الآية القرآنية كما فهمها سلف الأمة، وليكن دور الخطبة هو جمع الأمة وتأليف القلوب على منهج علماء الأمة وسلفها، لا في تفتيت صفها، وتمزيق وحدتها، وهذا يتطلب سعة صدر وحكمة.

الشرط الخامس: الحذر من إقحام الآيات في مجال المخترعات الحديثة أو الصناعات والوسائل العلمية المستجدة ما لم يكن ذلك نصًا أو معنى راجحًا مرضيًا من العلماء الأخيار، فإنَّ وُلُوجَ ذلك الباب لا يخلو من التكلف والتعسف في لَيِّ النصوص وتحميلها ما لا تحتمل من المعاني، وهذا باب يستهوى كثيرًا من الخطباء رغبة في التميز، وإعجاب الناس بسعة علمه، وثقافته، ودقة نظره، واستنباطه للطائف المعرفة، وهو أمر محفوف بالمخاطر، ربما فتح الباب للتأويلات الفاسدة، والتجرؤ على الخوض في أمور من العلم لا يحسنها.

الشرط السادس: الحذر أيضًا من التكلف في تطويع الآيات للمناسبات المختلفة سواء أكانت مناسبات عامة أم خاصة.

قال الأستاذ نذير مكتبي: «إن من أقبح ما يقع فيه كثير من الوعاظ والخطباء إساءة قراءة النص القرآني، وعدم الاهتمام بأحكام التجويد وآداب الترتيل، فنجد أحدهم يتلو الآية أو الآيتين كأي كلام آخر غير القرآن، فلا يبالي بأي خطأ يعتري قراءته، إن رفع أو خفض أو غير أو بدل، أو أخرج الحرف من غير مخرجه، ولا ضير على الخطيب إذا لم يستوثق من متانة حفظه للشاهد القرآني أن يكتبه على ورقة، ويقرؤه منها على الناس... وليس ثمة عيب في الخطبة إذا لم يستظهر الخطيب الآيات التي يوردها في خطبته، وإذا قرأ الخطيب نصًّا قرآنيًّا، وكان فيه كلمة أو أكثر خفي معناها، فمن المستحسن بالخطيب أن يفسر معاني تلك الكلمات بأسلوب حكيم لا يخرج النص عن كونه شاهدًا، حتى لا يبقى السامع في غموض عن إدراك المعنى المراد من السياق»[(١)].

إن كتاب الله تعالى هو الشفاء، وهو الدواء الناجع لكل أمراض الأمة، وعللها، ولكن الدواء إذا وقع في يد متطبب لا يحسن الطب فإنه ربما كان ضره أكبر من نفعه، ومن هنا فإن الفرق الضالة والمبتدعة ترتكز في مناهجها ومسالكها المبتدعة على التأويل الفاسد لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(ب) الحديث النبويّ الشريف:

ويُعتبرُ الحديث الشريف أعظم شاهدٍ منزلةً بعد القرآن الكريم الحُجَّة التي تبلّج فيها الحقُّ ناصعًا مشرقًا، واستبانت في أرجائها الحقائق لا لبس فيها ولا غموض لأنَّ الله سبحانه اختصَّ رسولَه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمقام لا ينبغي لمخلوق سواه فأطلق لسانه حقًّا لا تعتريه شائبة هوًى قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:٣-٥].

(١) خصائص الخطبة والخطيب لمحمد نذير مكتبي (ص٦٢، ٦٣).

وقد آتاه الله من العلم والمعرفة ما لم يؤته أحدًا من المرسلين ولا من الملائكة المقرَّبين، واطَّلَع على حقائق وأسرار لم يحظ بمعرفتها مخلوق من قبله ولا من بعده فقال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم حُجَّةً، وأصدق بيانًا بعد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وهذه حقيقة أقرَّت بها أعداؤه فَضْلًا عن أصحابه وأتباعه، فهو الصادق الأمين الذي ما جرَّب عليه قومه الجاهليُّون كذبًا قطُّ، فكان قولُه لديهم قبل بعثته لا نزاع فيه، وكانوا يقولون معترفين: (ما جَرَّبْنّا عليك كذبًا)، ولقد أشار ربنا سبحانه إلى هذا بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

ولم يكن ذلك شأن قومه فحسب، بل كان شأن الكثير من عقلاء العالم الذين لم يمنعهم اختلاف أديانهم وتعدد مذاهبهم من أن يحنوا رؤوسهم إجلالًا لسلطان نبوَّة سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

شروط الاستشهاد بالحديث الشريف:

الشرط الأول: تجنب ذكر الأحاديث الموضوعة، والواهية، فإنه لا خير فيها، ولا نور عليها، بل إنَّ ذِكْرها وَحَمْلَها وتبليغها إلى الناس له دور خطير في نشر العقائد الفاسدة، والبدع والضلالات، لا سيما وأن العامة لا تمحيص ولا تثبت لديهم، فسرعان ما تنتشر مثل هذه الأمور فيما بينها لتعلقها بالغرائب، مع الاستهانة بما يترتب عليها من مفاسد.

ولا يعفى الخطيب من التبعة أن يكون حسن النية سليم القصد، هدفه التأثير في القلوب، والترغيب في الإصلاح، فإن الغاية المشروعة لا تسوغ الوسيلة

المحرمة، وقد وقع قوم من جهلة العباد والمتنسكة في هذه الخطيئة، حيث زعموا أنهم يَكْذِبُون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا عليه، وَيَكْذِبُونَ للإصلاح لا للإفساد، ويكذبون حسبة للخير كما فعل نوح بن أبي مريم، وهو الذي وضع الأحاديث في فضائل القرآن سورةً سورةً.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في التقريب: «والواضعون أقسام: أعظمهم ضررًا قوم ينسبون إلى الزهد وضعوه حسبة»(١).

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي احتسابًا للأجر عند الله تعالى في زعمهم الفاسد، فقبلت موضوعاتهم ثقة بهم وركونا إليهم، لما نسب إليهم من الزهد والصلاح»، ولهذا قال يحيى القطان (١٩٨هـ): «ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير».

ومن أمثلة ما وضع حسبة، ما رواه الحاكم بسنده إلى أبي عمار المَرْوَزِيِّ أنه قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم (١٧٣هـ) «من أين لك عن عكرمة، عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة»(٢).

الشرط الثاني: تجنب الأحاديث الضعيفة؛ لأن في الصحيح غنية عن الضعيف، ولا يخفى ما في نشر الأحاديث الضعيفة من آثار سيئة على الأمة في عقيدتها وفي سلوكها، فكم من حديث ضعيف أو واه، تناقله الناس محتجين به اعتمادًا على إيراد الخطيب له، وكم من عادة تشبث بها الناس كان مستندها حديثًا ضعيفًا.

---

(١) انظر: تدريب الراوي (١ / ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) تدريب الراوي (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

إن الخطيب إذا لم يكن من أهل العلم فعليه أن يرجع إلى كتب الحديث التي تقتصر على الأحاديث الصحيحة، مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، أو الرجوع إلى الكتب المعتمدة التي تكون الأحاديث فيها مخرجة تخريجًا علميًّا.

الشرط الثالث: تجنب التحريف في المعنى والتكلف في حمل الحديث على غير ما يحتمله معناه لتقوية رأي، أو مذهب، أو جماعة، أو نصرة فئة على فئة، فإن بعض الخطباء يبالغ في مثل هذا فيشعر السامعين أن الحديث إنما ورد في بيان قوة هذا الرأي، أو في بيان فساد تلك الجماعة بعينها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إيضاح هذا المعنى: «أن يفهم عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحَمِّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده، وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدل عنه من الضلال، والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده، وسوء القصد من التابع في محنة الدين وأهله.

وهل أوقع القدرية، والمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، والجهمية، وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله، حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام، والذي فهمه الصحابة ومن بعدهم عن الله ورسوله فمهجور لا يلتفت إليه، ولا يرفع هؤلاء به رأسًا»[(١)].

(١) الروح لابن القيم (ص١١٣، ١١٤).

ومما ينبغي التنبيه إليه في هذا المجال، الحذر من التساهل في رواية الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال، والترغيب والترهيب والمواعظ دون بيان لحالها، وعدم مراعاة للضوابط والشروط التي وضعها العلماء لرواية الضعيف في فضائل الأعمال، وكذلك ما يكثر لدى بعض الخطباء من إيراد الحديث الواهي مع تصحيح معناه، فيقولون حديث ضعيف لكن معناه صحيح، وربما كان الحديث ضعيفًا جدًّا أو موضوعًا، وهذا تساهل ومجازفة ينبغي الحذر منها، وعدم التهاون فيها.

فإن هذا يفتح باب التساهل في رواية الأحاديث الواهية، والموضوعة، وتناقلها، وتداولها بين العامة، مع نوع من التأييد لها بحجة صحة معناها، وليعلم الخطيب أن كثيرا من الناس ينقل عنه، يصحح ما صحح ويضعف ما ضعف، ويحتج بما أورد، وإن هذا العلم دين، ثم ليحذر من التساهل في ذكر المنامات والرؤى والقصص الواقعية، أو القصص التي لم تقع في زماننا، والحكايات والمواقف المختلفة، فلا يذكرها حتى يتفحصها ويقلبها ويمحصها، ويدرس الآثار التي يمكن أن تنعكس على الناس من جرائها في اعتقادهم، وتصوراتهم وأخلاقهم، ولا يكن همه لفت أنظار الناس، ونيل إعجابهم بهذا الإغراب مهما كانت نتائجه وآثاره.

(جـ) الأقوال المأثورة:

أولًا: أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

يُعدُّ كلام الصحابة الكرام الحُجَّة بعد كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كانوا أقرب الناس إلى مشكاة النبوة، فلقد عاشوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ونهلوا من نهلوا مورده الصافي، فأشرقت قلوبهم وعقولهم بالمعارف والعلوم الجمَّة التي تدفَّق سلسالها عليهم من يَنْبوع المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان منهم أخطر الناس شأنًا وأغزرهم علمًا وأوسعهم معرفةً وأوفرهم عقلًا وأدراهم سياسيةً، وأحسنهم تدبيرًا، وأطيبهم سيرة، فكانوا إذا تكلَّموا جرت الحكمةُ على ألسنتهم، وتجلَّى الحق في بيانهم، فهم بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نجوم الهداية ومشاعل الإيمان.

ثانيًا: أقوال السلف الصالح:

ونعني بالسلف الصالح أولئك الذين عاصروا الصحابة الكرام أو عاصروا من عاصرهم وسار من سار على منهاجهم، أي هم أولئك الذين عناهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١).

هم التابعون وتابعوا التابعين، ومن لزم خطَّتهم ممن جاء بعدهم وأخذ عنهم.

وهم يُعَتبرون الجسر الذي عبرت عليه شريعةُ الإسلام حتى بلغت الأجيالَ من بعدهم، حيث وعت عقولهم مبادئ الشريعة الغرَّاء، وحفظت صدورهم أحكامها، واستضاءت قلوبهم بأنوارها، فكانوا مشاعل هداية ونبراس حقيقة، وجاءت أقوالهم وأحاديثهم حقًّا لا يشوبه باطل، ونورًا لا يغشاه ظلام.

ولقد ظهر منهم جهابذةٌ أعلام خضعت علماء الدنيا أمام روعة فهمهم، وعمق فكرهم، وغزارة علمهم، وسعة معرفتهم، وقوَّة حجَّتهم، ونصاعة

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (١١/ ٢٤٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥/ ٢١٤)، وأحمد (٤/ ٤٢٧).

برهانهم، وصائب رأيهم، وراجح عقلهم، وبراعة إقناعهم.نذكر منهم: سعيد بن المسيَّب، والحسن البصريَّ وعليّ بن الحسين، وعروة بن الزُّبَيْر، والأئمَّة الأربعة: أبا حنيفة النُّعْمَان، ومالكًا، والشافعيّ وأحمد بن حنبل... وغيرهم.

ونورد فيما يلي أمثلة على الاستشهاد بأقوال أولئك الأسلاف:

بعض الأمثلة من استشهاد التابعين:

مراقبة الله: قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ[١]: «ما ضربت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بطشت بيدي، ولا نهضت على قدمي، حتى أنظر أعلى طاعة أم على معصية؟ فإن كانت طاعة تقدَّمت وإن كانت معصية تأخَّرت» اهـ.

التقوى: كتب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى رجل[٢]: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ التي لا يَقْبل غيرها، ولا يرحم إلَّا أهلها، ولا يُثيب إلَّا عليها، فإنَّ الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، جَعَلنا الله وإيَّاك من المتقين» اهـ.

مضرَّة الشِّبع: قال الإمام الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلَّا شبعةً اطّرحتها يعني: فطرحتها لأنّ الشِّبَع يُثقِل البَدَن، ويُقسِّي القلب، ويُزيل الفطنة، ويجلب النَّوم ويُضعِف صاحبه عن العبادة» اهـ.

ثالثًا: أقوال علماء الإسلام:

ونعني بهم أولئك الذين جاءوا بعد عهد السلف الصالح وإلى أيّامنا هذه.

فهم في الحقيقة امتداد لذلك الجسر الشامخ الذي عبرت عليه شريعة الإسلام؛ لتصل إلى الأجيال البشرية المتلاحقة على وجه الأرض إلى آخر الزمان.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ١٦٦).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ١٦٦).
(٣) آداب الشافعيّ ومناقبه «للإمام عبدا لرحمن الرازيّ» (ص٧٨).

والعلماء الثِّقات هم حُجَّة الإسلام في كلِّ زمان ومكان، فإذا تكلَّموا بأمره، ودعوا الناس إليه وجاهدوا في سبيل ذلك حقَّ الجهاد، جاء كلامهم وثائق حقٍّ تقري أديم الباطل فَرْيًا ونبراسَ هَدْي ينير الطريق للسالكين، ويُضيء آفاق المسترشدين.

ومن هؤلاء العلماء من جُمِعت آراؤهم وأقوالهم في مؤلَّفاتهم ورسائلهم، كالإمام فخر الدين الرَّازي، والإمام حُجَّة الإسلام الغزالي، والإمام شيخ الإسلام العزّ بن عبد السَّلام، والإمام زكريا بن شرف الدِّين النوويِّ، وابن قَيِّم الجوزيَّة، وابن حجر العَسْقلانيِّ، وابن حجر الهيتميِّ.

وغيرهم من سائر أعلام الأُمَّة الذين تلاحقت قوافلهم من بعد عهد السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وما تزال إلى اليوم، فيدخل في سلكهم أساطين العلم ورُوَّاد المعرفة الذين جادت بهم قرائحهم بالعلوم التي أصغينا إليها في مجالسهم وعبر أقلامهم التي قرأنا ثمارها في كتبهم ومقالاتهم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلًا.

أساس كلّ خير: قال الإمام ابن قيَّم الجوزيَّة: «أساس كلِّ خير أن تعلم أنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتتيقَّن حينئذٍ أنَّ الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرَّع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السَّيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السَّيئات إلى نفسك» اهـ.

فضل الأخوَّة في الله: قال أبو سُليمان الدارانيّ: «لو أنَّ الدنيا كُلّها في لُقمة، ثمَّ جاءني أخٌ لي لأحببت أن أضعها في فيه.إني لأضع اللُّقْمَةَ في فم واحد من إخواني فأجد طعمها في حلقي».

شروط الاستشهاد بالأقوال المأثورة:

(١) وجوب التأكّد من نسبة الأقوال إلى أصحابها:

ويكون ذلك بالرجوع إلى المصادر الأصليَّة الموثوقة، وعدم الاقتصار على محفوظات الذهن أو كتابة أصحاب الفكر المحدَثين الذين لا يتورَّعون عن نسبة الأقوال إلى غير أصحابها.

(٢) وجوب التثبُّت من صحَّة ألفاظ المصادر الكتابيَّة وعبارتها:

إذا حدث أحيانًا تصحيف أو تحريف في كلمة من كتاب لأحد علماء الأُمَّة أو سقوط لفظة أو عبارة من بعض نصوصه، فينشأ عن ذلك تغيُّر معنى السياق. فوجب على الخطيب التأكُّد من صحَّة الألفاظ وسلامة التراكيب قبل أن يستشهد بها في موطن الاستشهاد، وذلك بالرجوع إلى نُسخ أخرى غير نسخة الكتاب التي نُقِل منها الشاهد أو بالاستفسار عنها من أحد علماء الأُمّة الثقات العالِمين بمضمون ذلك المصدر.

(د) أقوال أهل الفكر وعلماء الكون:

هم أولئك العلماء والمفكِّرون والفلاسفة الذين بحثوا في الكون والحياة، ونقَّبوا في مختلف الميادين، فاكتشفوا كثيرا من الحقائق والأسرار والدلائل الشاهدة على وجود قوَّةٍ غيبيَّة مهيمنة على هذا الوجود، فكان ذلك البحث والاكتشاف سبيلًا إلى هداية قلوبهم بعد ضلالها، وسببًا في إيمانهم بعد جحودهم أو قربهم من

ذلك الإيمان، ومنهم من قرأ الإسلام ودرس حياة رسول الله والصحابة الكرام وتاريخ المسلمين الأوائل فقاده ذلك الدين الحق وإيمانه بصدق رسول الله وإجلاله لشخصيته ومكانته، وتقديره لأصحابه وأتباعه.

وهم ما بين غربيٍّ عريقٍ في غربيَّته أو شرقيٍّ أصيل في شرقيَّته وما بين ملحد لا يدين بدين ومتدين بعيدٍ عن منهج الحقِّ المبين.

شروط الاستشهاد بأقوال أهل الفكر وعلماء الكون:

(١) التحقُّق من صحَّة نسبة القول إلى قائله وصدق وروده عنه.

(٢) إذا كان القول المستشهد به يتعلَّق بتفسير نظرية علميَّة أو تعليل إحدى الظواهر الكونيَّة، وجب ألَّا يكون معارَضًا بأقوال أخرى هي أقوى حُجَّةً وأكثر صوابًا.

(٣) ذكر اسم صاحب القول المستشهد به، وذكر المصدر الذي استقى منه الخطيب ذلك القول.

(٤) أن لا تكون مخالفة للشريعة الإسلامية.

(هـ) المثـل:

تعريفه: التمثيل هو تشبيه شيء بشيء لوجود عناصر التشابه بينهما. وهو وسيلة يتوصَّل بها المتكلِّم إلى تقرير ما يريده من المعاني في نفوس المخاطبين وتقريبها إلى عقولهم، واكتساب ثقتهم به، وقناعتهم بما يلقيه عليه.

أهميَّته وضرورته:

إنَّ الإنسان يميل بطبعه إلى ما يستأنس به ويألفه، فيُقبِل عليه ويصدِّقه بكامل الرِّضا ومطلق التسليم. وفي سبيل كسب قناعته بأيِّ شيء يُلقى عليه من

الآراء والأفكار والمعاني ينبغي أن يقرَّب إليه بمقايسته ومشابهته بما هو مأنوس ومألوف لديه حيث يلتفت بذهنه وأحساسيه إلى ذلك المأنوس المألوف فيلاحظ أنَّ بينه وبين ما أُلقي عليه شَبَهًا وتقاربًا فيجعله ذلك يَلتَقِّي ما ألقي عليه بالرضا والاقتناع ويتحقَّق له فيه من الاتعاظ والاعتبار.

فالمَثل وثيقة تدعم الأقوال والأفكار، وتُحِلُّها من نفوس المخاطبين وعقولهم محلَّ القبول. وفي ضَرْبه استنهاضٌ لِهِمَمِ المستمعين في حسن إقبالهم على ما يُملى عليهم، وتوضيحٌ لمعالمه وإيناسٌ لنفوسهم وترويحٌ لقلوبهم نظرًا لطرافة المثل وروعته وقوَّة جَذْبه وعمق تأثيره.

نظرة القرآن الكريم إلى ضَرْب الأمثال:

لقد ضرب الله سبحانه في قرآنه كثيرًا من الأمثال لتقرير حقائق الإيمان في النفوس وتحقيق الاتعاظ والاعتبار، وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتثبيتها في النفوس.

فقال الله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم:٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٣].

أقسام المثل:

ينقسم المثل عَقْلًا إلى أربعة أقسام هي:

- تمثيل مدرك بالحسِّ الظاهر بمدرك بالحسِّ الظاهر: تمثيل الرجل الشجاع بالأسد.

تمثيل مدرك بالحسِّ الظاهر بمدرك الفكر: كتمثيل الأعداء بالكراهيات.

تمثيل مدرك بالفكر بمدرك بالحس: كتمثيل العلم بالنور والجهل بالظلمة.

تمثيل مدرك بالفكر بمدرك بالفكر: كتمثيل الإيمان بالطمأنينة والنفاق بالقلق والاضطراب النفسيّ.

أنواع المثَل:

للمثل عدَّة أنواع، أهمها:

ما يجري على ألسنة الناس ويشيع في أحاديثهم:

كالأمثال العربية: نحو: (إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارًا) يقال للقويِّ إذا واجه في صراعه من هو أقوى منه.

(١) سَوْق الحادثة أو القصة بُغية الاعتبار بخاتمتها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ [النحل:١١٢].

القصص الرمزية التي تكون الغاية من وضعها الاعتبار فقط.

الحكم والحكايات التي تروى على ألسنة الحيوانات والطيور: وغايتها إعداد النفس لتلقِّي الحكمة واستقبال الموعظة. [«وكتاب كليلة ودمنة» يذخر بهذا المصنف من الأمثال].

التمثيل بالمحسوسات لإدراك المعنويَّات وعكسه:

وهو يُعْرَفُ عند البلاغِيِّين بالتشبيه، وله ضروب كثيرة لا مجال لتفصيل الحديث عنها هنا. وهذا النوع من المثل نجده كثيرا شائعًا في القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف وأقوال الصحابة والتابعين ومن سار على سننهم بلسان عربيٍّ مبين، وهو من قبل ذلك مورد فصحاء العرب وشعرائهم.

ويُخرج بعضهم هذا اللَّون من التمثيل من نطاق (المَثَل)، ويجعله ضربًا من مستقلًا بذاته من أضرُب التعبير، ولا يدخله في زمرة أنواع الاستشهاد.

في الحديث النبوي الشريف: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ الله والْوَاقِعِ فيها، كَمثل قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفلَهَا، فكان الذي في أَسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهمْ، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نَصِيبِنَا خَرقا ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعًا**»[(١)].

(و) القصَّة:

تتناول القِصَّة معالجةَ حادثة أو طائفةً من الحوادث في حدود زمانيَّة ومكانيَّة معينَّة وفي إطار مجموعة من الشخصيَّات التي تُسْتنَد إليها تلك الأحداث مع رصيد جيِّدٍ من الأفكار والمواقف والمشاعر. ولسنا هنا في صدد الحديث عن القصَّة كفنٍّ بارز من فنون الأدب، وإنَّما سنتحدَّث عنها كأحد أنواع الاستشهاد الخطابيِّ.

وفي نطاق بيان أهميَّتها وسماتها ومصادرها وشرائط الاستشهاد بها نقول:

(١) أخرجه البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة (٢/ ٨٨٢، رقم ٢٣٦١). والترمذي أبواب الفتن (٤/ ٤٧٠، رقم ٢١٧٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

تعريفها وأهميَّتها: تعتبر القصَّة من أهمِّ المعابر التي تنتقل بواسطتها الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، وذلك لما تتمتَّع به من قوَّة التأثير في النفوس، وعوامل السيطرة على القلوب والعقول، والقدرة على تأجيج العواطف والمشاعر وإغناء الأخيلة والخواطر.

وهي تمتاز بخصال قيِّمة، من أهمها خصلتان هما:

(١) أنَّها وسيلة تربويَّة رائعة ذات أثر عميق في تربية الفِكْر والضمير والسلوك.

(٢) أنَّها من أعظم فنون الأدب مَقْدِرَةً على تحويل المعاني المجرَّدَة إلى وقائع محسوسة.

وبهذا يتَّضح لنا أنَّ القصَّة تُعدُّ خير وسيلة يفتقر إليها المربُّون والمفكِّرون، إذ يتمكَّنون بواسطتها من عرض آرائهم وَبَثِّ أفكارهم، حيث تتلقَّاها النفوس والعقول بشغفٍ شديدٍ ووعي كامل ونشاطٍ متجدِّد؛ لأنَّ المستمع إلى القصَّة يستقبل أحداثها بعقله ونفسه ومشاعره ووجدانه، فهي تحْدِثُ فيه تفاعلًا كليًّا يترك في كيانه تأثيرًا بليغًا فكريًّا ونفسيًّا ووجدانيًّا وسلوكيًّا. وإنَّ من أعظم الدلائل والبراهين على كون القِصَّة وسيلة تربويَّة متميِّزة ومسلكًا إرْشَاديًّا ناجحًا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سنَّها في كتابه العزيز، فقصَّ فيه أحسن القصص، وبثَّ تعاليمه السامية ومواعظه الجليلة عَبْر هاتيك القصص المتعدِّدة التي شاعت في أرجاء القرآن الكريم.

نظرة القرآن الكريم إلى القصَّة:

لم يَغْفَلْ القرآن الكريم شأن القِصَّة، بل اتَّخذها وسيلةً هامَّة في بثِّ مواعظه ونشر توجيهاته، وجعلها أداةً فعّالة في تقرير الحقائق وتثبيتها في النفوس،

ولقد أعرب القرآن عن اعتداده بالقصَّة واعتبارها منهجًا تربويًّا مؤثِّرًا، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣]، وقال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

بل إنَّ القرآن الكريم وجَّه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يتخذ القصة مسلكًا من مسالك نشر دعوته، ووسيلة لتوجيه الناس فأمر بقصِّ قصص الأَوَّلِينَ عليهم بما أوحي إليه من أخبارهم ليكون لهم في آثارهم عبرة وَهُدًى وموعظة، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

موارد الاستشهاد بالقِصَّة:

يجب على الخطيب أن يستقي القصَّة المستشهد بها من مواردها الصافية التي يمكن حصرها في أربعةٍ موارد فقط هي:

(١) القرآن الكريم:

وهو من أصفى موارد القصة التربوية الجادَّة المستمدة من نطاق الحقيقة الواقعة بلا تغيير، ولا زيادةً أو نقصًا في أحداثها أو شخصياتها.

فالقرآن يعرض القصة كَمَا وقعت بغاية الصدق ومنتهى الدقة وينقل وقائعها بصورتها الحقيقة الحيّة[(١)].

---

(١) أهمية القصة في القرآن الكريم تتمثل فيما يلي:

(أ) ورودها منسوبة إلى رب العزة والجلال في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣]. =

تتميَّز القِصَّة في القرآن الكريم باتخاذها طابع الجديَّة المطلقة، وبراءتها من ظاهر اللَّهو وتسلية القلب والنفس بالمتعة الفكريَّة وطرافة الأحداث، وكون ذلك الهدف الرئيسيَّ من ذكرها. كما تتميَّز القِصَّة في القرآن بالواقعيَّة الكاملة، فهي ليست كتلك القصص الخُرافيَّة التي تشيع في الكتب الدينيَّة ترغيبًا وترهيبًا وتسلية، وإنَّما تستمدُّ أحداثها من واقع موضوعها المشحون بالصدق المطلق، وبهذا يمكننا القول بأنَّها تفسير صادق للحَيَاةِ في مختلفِ جوانبِها.

يضاف إلى ذلك أنَّ القصَّة القرآنيَّة تنفرد بميزة عجيبة مدهشة، لا نجدها في غيرها من القصص، وإذا حصل أن وجدنا في غيرها من القصص فإنَّها تأتي هزيلة شاحبة فاقدة البهاء والرونق وقوَّة التأثير. هذه الميزة هي: دِقَّة العرض والعناية بإبراز الأحداث الهامَّة في الموضوع مع إغفال كثير من الجزئيَّات التي لا تساهم في إبراز المواعظ المقصودة والعبر المنشودة، وإضافة إلى القدرة العجيبة على التدليل على تلك الجزئيَّات من خلال إحكام الربط بين الوقائع المعروضة واتِّزان السياق وروعة السَّبْك فيُحسُّ القارئ بظاهر الاندماج الفكريِّ والروحيِّ في أحداث القصَّة القرآنيَّة فيحدو به ذلك إلى إدراك تلك الجزئيَّات التي لم يصرِّح بها النَّظْمُ القرآنيُّ، ولكن أشار إليها واقع الحال ودلَّ عليها ترابط السياق.

= (ب) أمر الله رسوله أن يقص على الناس ما أوحي إليه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

(جـ) القصة مَعلم بارز من معالم القرآن لتوضيح الحقائق وإزالة الشبه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

(د) والقَصُّ بالمفهوم العام كان من مهمات الأنبياء و الرسل: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام:١٣٠].

(٢) الحديث النبويّ الشريف:

وهو يحتلُّ المركز الثاني بعد القرآن الكريم في كونه أصفى موارد القِصَّة الجادَّة الصادقة التي تنقل الحقيقة الواقعة بمنتهى الصدق والأمانة وبغاية الدقة والوضوح.

وقد أجاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توظيف القصة في أحاديثه الشريفة توظيفًا يخدم القيم السامية التي يرومها، خاصة أن النفس البشرية تميل إلى سماع القصص، وتحتفي بالحكايات، ويسهل إيصال المعلومة والحكمة عبر القصة، بدلًا من القول المباشر.

ولسنا بصدد عرض أبرز القصص التي وردت في كتب الصحاح، بقدر ما يهمنا أن نتعرف على القصص بوصفها شكلًا من أشكال الحوار الذي استخدمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو شكل موظف في ثنايا الحوار، لذا فإن تناول القصة في هذا المبحث سيكون خاضعا لآلية الحوار، بمعنى أن القصة ستكون واردة ضمن سياق الحوار النبوي، فهي خاضعة لمنطق الحوار الذي تكون القصة فيه مثالا أو دليلا أو تعليلا أو وسيلة لتوصيل مفهوم أو معلومة.

وعليه يمكن أن نقسم أشكال القصص في الحوار النبوي إلى عدة أشكال:

١) المثل القصصي:

حيث تكون القصة مثالًا يبسط المفهوم والمراد، وهذا المثال مجرد قصة بأحداث مفترضة، لذا هي تقترب من شكل المثال العام، أو القص المتخيل، الذي يلامس حياة المتلقي بشكل عام، ويبدأ متن الحديث بطرح مفهوم وتأتي القصة توضيحا لهذا المفهوما وتبسيطا له.

• عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ فَقَالَ لَهُمْ لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمَا أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنْ الْأَجْرِ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلَاةِ الْعَصْرِ قَالَا لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ لَهُمَا أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنْ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَيَا وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ»[1].

فقد جاء استهل الحديث بمقارنة بين: المسلمين واليهود والنصارى، وجاء الاستهلال غير مكتمل، فلم نعرف مثل أصحاب الديانات الثلاث بماذا، فقد ارتبط هذا المثل بالقصة المروية، وجاءت القصة – نحويا – خبرا للمبتدأ (مثل)، وهذا يعني التعاضد اللغوي والبنائي بين جوانب الحديث الشريف، ونعلم أن المضمون الكلي للقصة هو المقارنة بين جهود أصحاب الديانات الثلاث في الوفاء بخدمة الإسلام والذود عنه، ونيل ثواب إتمام دعوته وإكمال أركانه. فالفريق الأول عمل منتصف النهار، ولم يستطع أن يكمل العمل، فغادر متنازلًا عن الأجر، والفريق الثاني عمل إلى العصر، وغادر رغم أن المتبقي على آخر اليوم شيء يسير، ولكنهم غادروا متنازلين عن الأجر، أما الفريق الثالث فهو أتم العمل حسب الوقت ونال الأجر.

(١) صحيح البخاري، (ج٢)، كتاب الإجارة، (ص١٣٣، رقم ٢٢٧١).

في الحديث أمور عدة:

إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جعل الديانات السماوية الأساسية الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام في بوتقة واحدة، وهذا دليل على اعتراف الإسلام بالنبوات والرسالات السابقة، وأنها وغيرها من دعوات أنبياء الله تخرج من مشكاة واحدة، بغض النظر عن التبدل والتحريف في بعضها، وهنا جعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استيفاء العمل هو الأساس في قبوله، وأن الخالق عَزَّوَجَلَّ يستوفي كل أمة أجرها، ولكن التقاعس بشري.

أيضًا، ارتكز الحديث الشريف على الحوار بشكل خفي، فقد كان مطلع الحديث ثم المثل القصصي المقدم معتمدا على بناء حواري يتمثل في المقارنة بين: جهود أتباع الديانات الثلاث، وقد نال المسلمون الأجر كاملا لأنهم تحمل مشاق العمل، وأتموه لوقته، فنالوا أجر من سبقهم، مصداقا لقوله: «**واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور**»، ولننظر إلى لفظة «النور» الذي ختم بها الحديث، فهي معبرة عن أن نور المشكاة واحد في ضوئه، ولكن أين من يتلقى الضوء كاملا: إيمانا وعملا وجهادا.

في الحديث السابق أيضًا: عدم التمييز بين اليهود والنصارى في العمل، ويبدو من الترتيب في المثل القصصي أن الرسول يقصد بالفريق الأول: اليهود. والنصارى هم الفريق الثاني، أما المسلمون فهم الفريق الثالث، فهذا ترتيب زمني تتابعي، يبسط مفهوم الجهد البشري في تلقي الإيمان والنهوض به.

• عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ**

فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنْ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ»[(١)].

يعتمد هذا الحديث على المقارنة أيضًا، مقارنة بين حابس الخيل، فهي على ثلاثة أحوال:

الأول: أن تكون أجرا لرجل نذرها للجهاد في سبيل الله: محاربة للكفر، وتحريرا للأرض، ودفاعا عن حرمات الإسلام، وهذا بأن يجعل صاحبها خيله نذرا لله تعالى، فهي محبوسة من أجل ساعة الجهاد، فيثاب على خدمته لها، وهي مثوبة تبدأ من ساعة تهيئتها للجهاد، فكل ما يقوم به صاحبها من أجلها ينال الثواب عليه، فلو قام على رعيها في حديقة أو مرج، فهو مثاب على ذلك، حتى لو أنه تركها ترعى أو تشرب من نهر غير عامد، يناله الأجر أيضا، فالأجر موقوف على النية. وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، وهناك تناص (اقتباس) من المصطلح القرآني «رباط الخيل»، في تواشج ما بين القرآن والحديث الشريف، وتعميق الدلالات القرآنية، وهي واضحة على امتداد الأحاديث النبوية.

(١) صحيح البخاري، (ج٢)، كتاب الشرب والمساقاة، (ص١٦٧، رقم ٢٣٧١).

والحال الثاني: أن تكون سترا أي مانعة عن النار لصاحبها، وهذه تكون لرجل ربّى الخيل كمال ورزق له ولعياله، وأدى زكاة الله فيها، فهي ستر له.

والحال الثالث: أن تكون وزرا وسوءا ومصدرا لشقاء صاحبها، وهذا لمن يربط الخيل تكبرا بين الناس، وخيلاء له ولعياله، فتزيد نفسه غرورا، وسلوكه سطوة، وتصرفاته عنفوانا، فيضر من حوله من المسلمين وغير المسلمين، فتكون الخيل هنا وبالا وسيئات عليه.

وهذه مصداق للآية الكريمة: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤]. والخيل المسوّمة هي الخيل المطهمة والراعية الحسان[(١)]، وهي شهوة ومما يحبه المرء في دنياه، وتتقارب في الدلالة مع المركبات الحديثة الفارهة، كوسيلة ركوب.

في الحديث حض على الجهاد، وعلى العمل وإخراج الصدقات، وعلى التواضع، عبر تبيان سبيل تعامل المسلم مع الخيل، فإما أن تكون للجهاد، أو تكون وسيلة رزق ومن ثم إخراج حق الله فيها من زكاة وصدقة، ثم النهي عن اتخاذها وسيلة للتكبر، بين الناس عندما يعتلون ظهورها.

استهل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حديثه بإجمال ثم أعقبه بتفصيل، والإجمال جاء قاعدة أساسية في التعامل مع الخيل، وهو تعامل نفسي أخلاقي ينطلق من منظومة الإسلام في تربية النفس البشرية حتى لا يطغى الشح والتكبر عليها، وتصبح الممتلكات وسيلة للخير والجهاد والتواضع.

---

(١) تفسير ابن كثير، (ج١، ص٤٠٤)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقد ورد في التفسير أن حب الخير على ثلاثة أقسام، هي المذكورة في الحديث الشريف المتقدم.

٢) قصص الرحمة بالحيوان:

ويقصد بها القصص الواقعية التي بها مظاهر الحنو على الحيوان، وهي تختلف عن النوع السابق، في كونها قصصا حقيقية، كما ورد في تفسيرها، وقد رواها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من باب التقرير الواضح للحادثة التي وقعت بالفعل، فالرسول يعيد ذكرها، مؤكدا وقوعها، ومبينا نتيجة الفعلة ذاتها ثوابًا أو عقابًا.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[(١)].

هذا الحديث نزل في أحد رجال بني إسرائيل؛ نال مغفرة من الله تعالى لأنه سقى كلبًا كاد يموت عطشًا، فقد نزل بئرا فشرب، فلما صعد وجد كلبا يلهث من العطش، حتى أنه يلحس التراب لحسا، فنزل البئر، فملأ خفه (حذاءه) ماء، ثم وضعه في فمه، وصعد البئر، وسقى الكلب، فنال الشكر من الله تعالى، وأيضا المغفرة الواسعة.

ومن الموقف المذكور، خرجت الحكمة الشاملة من الحديث أن «**في كل كبد رطبة أجر**»، فالمراد من الرطوبة الحياة، والرطوبة تتأتى من الماء[(٢)]، وهذا الأمر على سبيل الوجوب.

(١) صحيح البخاري، (ج٢)، كتاب الشرب والمساقاة، (ص١٦٥، رقم ٢٣٦٣).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب المساقاة، فصل سقي الماء. حيث يقول الإمام النووي تعقيبًا على الحديث الشريف: إن عمومه مخصوص بالحيوان المحترم وهو ما لم يؤمر بقتله فيحصل الثواب بسقيه، ويلتحق به إطعامه وغير ذلك من وجوه الإحسان إليه.

ونرى في الحديث أن الصحابة طرحوا سؤالا على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فهل ينالون ثوابًا إذا أحسنوا للبهائم عامة؟، وجاءت الإجابة مؤسسة لحكم عام في الترفق بالبهائم. وقد اعتمدت بنيةُ الحديث القصةَ مطلعا، ومن ثم كان الحوار استفهاميا عن ثواب من يحسن للبهائم في العموم.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**»(١).

فهذه المرأة دخلت النار لأنها حبست القطة، لم تقم بإطعامها وسقيها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض أي هوامها وحشراتها، وقد جاء في شرح الحديث الشريف: أن المرأة غير مأمورة بقتل القطة، لأنها لم تفعل شيئا، وإنما حبستها دون ذنب، فدخلت النار(٢).

والقصد هنا: الرأفة بالحيوان ورعايته وعدم إيذائه. وجاء بناء الحديث: ذكر القصة بإيجاز شمل حبس القطة، حتى الموت جوعا، ثم العاقبة أن دخلت صاحبتها النار في الشطر الأول. ثم جاء الشطر الثاني: جاء تعليلا لسبب دخولها النار، وهو تعليل منطلق من رحابة الرحمة العامة بمخلوقات الله تعالى، فإن لم نرعها، فلنتركها تنل رزقها المقدر من قبل الله تعالى، فهو رازقٌ مخلوقاته، فكأننا أشبه ببناء حواري على شطرين: شطر قصصي، وشطر تعليل له.

---

(١) صحيح البخاري، (ج٢)، كتاب الشرب والمساقاة،(ص١٦٦، رقم ٢٣٦٥).

(٢) فتح الباري، كتاب المساقاة، فضل سقي الماء، وقد جاء فيه: «قال ابن المنير: دل الحديث على تحريم قتل من لم يؤمر بقتله عطشا ولو كان هرة وليس فيه ثواب السقي ولكن كفى بالسلامة فضلًا.

٢) قصص الصالحين من الأمم السابقة:

وهي قصص مروية عن الصالحين من الأمم السابقة، وقد جاءت ضمن سياق الحكاية الطويلة نوعا ما، بها الكثير مما يمكن التحاور حوله، وهي قصص مكتملة الدلالة، واضحة في إرشادها، تبرهن من خلال كونها حدثت بالفعل على كثير من القيم الإنسانية والإسلامية العظيمة.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يَقُولُ انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقَالَ الْآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ

أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»**(١).

الحديث السابق كان حوارًا قصصيًّا مرويًّا بين الرسول وصحابته، وشفاهية الحوار واضحة من بنيته المعتمدة على الحكي المتمهل، الذي نجد أن الرسول يتوقف فيه من آن لآخر، كما يذكر الراوي مثلا: «قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال الثالث: اللهم...**». فهذا يعني أن الرسول كان يتوقف متأملا وقع سرده الأحداث على وجوه مستمعيه، وربما يعن لأحدهم سؤال، ولكن متن الحديث يخلو من السؤال لطبيعة التشويق الذي يعتمده المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأن الأحداث واضحة متعللة في تتابعها.

أكد الرسول في مطلع الحديث على أن القصة واقعة بالفعل، حين قال: «**... ممن كان قبلكم**»، فهذا توكيد على واقعية الشخوص والأحداث، خاصة أن القصة تنقل السامع إلى أجواء إيمانية خالصة، لا مجال للاجتهاد البشري فيها، فلا سبيل للخروج من كهف في باطن جبل، سد بابه بصخرة عظيمة، إلا باللجوء إلى المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد انعدمت القدرة البشرية في هذا الموقف،

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، (ص١٣٤، رقم ٢٢٧٢).

وامتحنت القلوب، وبدأت مناجاة العباد لربهم، فالأول أنجاه الله بإخلاصه في طاعة والديه، بموقف أخفض الابن جناح الذل من الرحمة فيه، حيث ظل واقفا حاملا إناء الغبوق، منتظرا استيقاظ والديه المسنين، حارما أبناءه منه. والثاني تعفف عن الوقوع في الفاحشة بعدما امتلك جسد ابنة عمه وهي أحب الناس إليه، وقام خوفًا من عقاب الله. والثالث: يؤدي أمانة أجر رجل عمل عنده يوما، ولكنه يؤديه أضعافًا مضاعفة: خيلًا ورقيقًا وأنعامًا، ولو شاء لاكتفى بإعطاء الأجير أجره فحسب، خصوصا أنه غادر دون أن يطالب بأجره.

المواقف الثلاثة فيها أمور عدة:

أولها: إنها تمثل أشد لحظات الإخلاص لله تعالى.

ثانيها: إنها متدرجة في طبيعة الاختبار ذاته، فالموقف الأول أقل امتحانا للقلب من الموقف الثاني حيث شهوة الجسد، ورغبة النفس، ولكنه يترفع، أما الثالث فهو يعطي ثمرة تعبه في استثمار أجر الرجل، عن طيب خاطر، وحب النفس للمال شديد.

ثالثها: إن الابتلاء متنوع في كل موقف ما بين فتنة الولد، وفتنة المرأة، وفتنة المال.

رابعها: إن القيم إنسانية الطابع، ما بين طاعة الوالدين، وإعفاف النساء، وإعطاء حق الأجير/ العامل، وهي قيم سامية مشتركة بين البشر، في الأديان السابقة بدليل أن القصة حدثت في أمم سابقة، ثم عززها الإسلام وشدد عليها.

خامسها: إن بناء القصة يعتمد على المناجاة الخالصة للعبد مع ربه، بأشد مواقف الإخلاص والعبودية المطلقة لله تعالى، وهذه المناجاة حوار موصول مع الله.

سادسها: إن الطابع الحواري واضح في ثنايا القصة، فكل موقف يجعل النفس تتحاور حول مدى ترسخ هذه القيم في النفس، وهي قيم أساسية في نفس كل مسلم، وثابتة في مختلف الأديان السماوية المنزلة من عند الله تعالى. كما أن الشخصيات الثلاثة بمواقفها المختلفة شكلت بناء حواريا فيما بينها، فالتنوع يجعل الذهن متفكرًا، مقارنًا، طارحًا الأسئلة، أي متحاورا مع الشخصيات والأحداث.

سابعها: إن هذه القصة، وغيرها من القصص النبوي، تثير في السامع الشعور بالتفاؤل، والأمل في الله تعالى دائما، وأن الأمور مهما اشتدت، وعظُم سوادُها فإنها إلى انفراج مادام العبد حسن الظن، صادق التوكل على الله تعالى. والتفاؤل شعور «بتوقع الخير الذي يؤدي إلى الرضا والفرح والسرور، ثم السعادة، وما ينعكس عنه من أثر إيجابي...، يدفعه إلى البحث عن وسائل عمل الخير، والرغبة في فعله، والاستزادة منه»[(١)]، والهدي النبوي متوافق مع الفطرة البشرية، لأن النفس تميل بطبعها إلى الأمل، والرغبة في الخير.

أما التشاؤم -من المنظور الإنساني والإسلامي- فأمر يحبط النفس، ويؤدي إلى عدم الرضا، والشعور بالحزن، والكره والغضب، وانقباض النفس، وهذا كله له أثر لبي على توجه الإنسان نحو الخيرات، بل انعدام الرغبة في الفعل[(٢)].

(١) التفاؤل والتشاؤم في الحديث النبوي (دراسة موضوعية)، د. أمين محمد القضاة، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٥٢)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، (ص٩٨).

(٢) التفاؤل والتشاؤم في الحديث النبوي (دراسة موضوعية)، د. أمين محمد القضاة، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٥٢)، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، (ص٩٨).

وكما يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فيما يرويه أبو هريرة): «**لَا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ قَالَ الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ**»(١).

والكلمة الصالحة في مجملها تغرس الفأل الحسن في النفس، وتمثل قصص الرسول كلها أملا في النجاة والفوز والفلاح، والتوفيق من الله حاضر في كل موقف، ما دام العبد مرتكنًا، متوكلا على ربه تعالى.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ فَقَالَ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا قَالَ فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا قَالَ صَدَقْتَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ قَالَ هَلْ**

(١) صحيح البخاري، كتاب الطب، (رقم ٥٧٥٤، ج٤، ص٤٦).

كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ قَالَ أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ قَالَ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»[1].

هذه القصة تعبر عن الصدق العالي مع الله تعالى، فمن أحسن الظن بالله، كان الله تعالى عند ظنه، وقد أشهد المقترض الله على أنه أخذ الألف دينار، وجعل الله وكيله، وأصدق الله وعده. فلما حان موعد الأجل، لم يجد مركبا، فأدخل الألف دينار في خشبة، ثم ألقاها في البحر، وقد وصلت الألف دينار إلى المقرض عبر البحر، وكان الله تعالى عند حسن ظن الرجلين، فلما سافر المقترض بالألف الثانية؛ خشية أن تكون الأولى ضاعت في البحر، أخبره المقرض أنه تسلمها في اليوم المحدد عبر خشبة جاءته في الماء.

في القصة تسليم مطلق بقدرة الله، وصدق الرجلين فيما بينهما، وتقيم حوارا غير مباشر في أعماق السامع، إنه حوار مع القيم العليا المترسخة في القصة: الإخلاص، وحسن الظن بالله، والوفاء.

بناء القصة اعتمد على السرد والحوار، والسرد كان مركزا للغاية، ينقل الدلالة المباشرة، عبر مشاهد ثلاثة: مشهد الإقراض، ثم مشهد البحر، ثم مشهد اللقاء الثاني بين الرجلين، وفي كل مشهد نجد صدق الذات مع الله تعالى. وفي المشهدين الأول والثالث: الحوار مكثف بين الرجلين، وكلاهما يثق في الآخر.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ يُصَلِّي فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهَا فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي ثُمَّ أَتَتْهُ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ وَكَانَ**

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الكفالة، (ص١٤٠، رقم ٢٢٩١).

جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ لَأَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلامًا فَقَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ فَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ يَا غُلامُ قَالَ الرَّاعِي قَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ لَا إِلا مِنْ طِينٍ»[(١)].

فحين أبى جريج أن يجيب أمه دعت عليه أن يريه الله وجوه الغانيات المومسات، واستجاب الله لدعائها، وسعت إحداهن لتغويه، ولكنه رفض وتعفف، فذهبت الغانية إلى أحد رعاة الغنم، فزنا بها، وحملت، ووضعت سفاحا غلاما، وادعت على جريج أنه والد الغلام، فيثور قومه، وينزلوه من صومعته ويهدوموها، وهنا يلوذ جريج بالصلاة، فيدعو، ويستجيب الله لدعائه، وينطق الغلام أن الراعي أبوه، وحين يرى القوم هذا المشهد، يعتذرون، ويعرضون عليه أن يبنون صومعته من الذهب، فيرفض، ويفضل الطين، ليعود إلى معية الله، وزهده.

في القصة عدة قيم سامية: طاعة الأم، الاستجابة إلى الأم عند ندائها، وأن دعوة الأم مستجابة، وأن الصلاة ملاذ العبد في محنته، وأن الدعاء مخ العبادة.

جاء بناء القصة في مواقف حوارية موجزة: بين الأم وجريج، وجريج والقوم، وجريج والغلام، فالحوار أقصر السبل الجمالية في الفن القصصي.

٣) قصص من الواقع المعيش:

وهي قصص رويت للرسول عايشها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان طرفا فيها، ومحاورا لشخوصها، وقد دُوِّنت الكثير منها في كتب السيرة والصحاح، فكانت توثيقا رائعا لحياة زاخرة بالقيم والهداية، ونرى في هذه القصص إعلام الله تعالى بأمور غيبية إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب المظالم والغصب، (ص٢٠٢، رقم ٢٤٨٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ**»، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**» فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا قُلْتُ مَا هُوَ، قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**مَا هِيَ**»، قُلْتُ، قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ**

صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ذَاكَ شَيْطَانٌ»**(١).

في هذه القصة نجد ثلاثة شخوص: الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا هريرة الصحابي الجليل، والشخص الذي يحاور أبا هريرة (الشيطان). فقد أمسك أبو هريرة برجل كان يسرق من صدقات شهر رمضان المبارك، فاسترحمه الرجل، مدعيا الفقر وحاجته وحاجة عياله، فتركه أبو هريرة، فأعلم الله تعالى رسوله الكريم بما حدث، فسأل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا هريرة عن خبر الرجل، فلما أخبره أبو هريرة بما حدث، أخبره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا الرجل سيعود إليه على نحو ما جاء في أحداث القصة، وبالفعل يعود الرجل، مرتين، ويحاور أبا هريرة، ويعلمه آية الكرسي، مثلما علمه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا الرجل شيطان، وأنه علّم أبا هريرة آية من القرآن فصدق وهو من الكاذبين، وجنّب الله أبا هريرة آثام الشيطان ومسّه وأنجاه منها.

في القصة أمور عدة: إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحاور أبا هريرة، الذي تعرض لفتنة شيطان، ويهديه إلى حسن التصرف في هذه المواقف، حيث يعتصم بالقرآن الكريم، وبهدي آية الكرسي، فهي حافظة من كل شيطان آثم.

وفيها أيضًا مظهر لنبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث يعلم الغيب، وكينونة هذا الرجل الذي أراد أن يفتن أبا هريرة، ويخلط سمه بعسل القرآن، وقد ظل ثلاثة أيام ينبئ أبا هريرة بالمستقبل حتى أعلمه حقيقة الرجل. وكون ظهور الشيطان في هيئة رجل هو واقع، فالشياطين كائنات يمكنها أن تظهر في صور مختلفة، لتفتن الناس وتغويهم، وتدس في سبيل ذلك خبيثها من القول.

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الوكالة،(ص١٤٩، رقم ٢٣١١).

عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انطلق نفر من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إني لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]. فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقي: لا تفعلوا حتى نأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكروا له، فقال: وما يدريك أنها رقية. ثم قال: قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهما فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه القصة شاهدا مقرا على أحداثها، وهي قصة تثبت التداوي بآيات القرآن الكريم خاصة آيات فاتحة الكتاب؛ وقد شفى زعيم القوم بهذه الآيات، وحين عرض الأمر على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضحك

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الإجارة، (ص١٣٦، رقم ٢٢٧٦)، وذكر أيضًا: قال ابن عباس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**». وقال الشعبي: لا يشترط المعلم، إلا أن يعطى شيئا فليقبله. وقال الحكم: لم أسمع أحدا كره أجر المعلم. وأعطى الحسن دراهم عشرة. ولم ير ابن سيرين بأجر القسام بأسًا. وقال: كان يقال: السحت: الرشوة في الحكم، وكانوا يعطون على الخرص.

مقرًا أن الفاتحة شفاء لأمراض الجسد، وقد كان الموقف توفيقا من الله للرجل الذي أرقى زعيم القوم وأشفاه بفضل فاتحة الكتاب.

القصة بهذا الشكل تلامس الحدث، فهي مروية على لسان أبي سعيد راوي الحديث، الذي رواها للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن ثم جاء تعقيب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن المداوي بالفاتحة قد أصاب، وطلب سهما معهم فيما أخذوه، ثم ضحك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو سعيد بأن أحد هؤلاء النفر المسلمين قد اهتدى بخالص إيمانه إلى الاستشفاء بأم الكتاب (الفاتحة).

وعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا فَسَأَلَتْ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(١).

الموقف عظيم التأثير في النفس، فهذه امرأة لا عائل لها، ومعها ابنتان صغيرتان، وهن يعانين الفقر الشديد، بدليل أنهن يسألن الطعام، وحين يغدون إلى بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسألن زوجته السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولم تجد السيدة عائشة إلا تمرة واحدة، أعطتها المرأة، فقسمتها المرأة بين ابنتيها. وحيت روت السيدة عائشة الحادثة إلى الرسول، جعل من كفل هذه البنات ينال الستر من النار يوم القيامة.

في الحديث دلالات عالية: فبيت السيدة عائشة، زوج الرسول، حاكم المسلمين، ورسولهم وقائدهم، لا طعام فيه، وهذا دليل على الزهد وكثرة الصدقات

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، الحديث (رقم ٢٠٣٩).

من الرسول وآل بيته كذلك، فإن المجتمع في المدينة المنورة فيه تكافل كبير وكان أهل بيت النبي يتقدمون الناس في التصدق، فها هي الأم وابنتاها يدخلن على بيت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وينلن ما فيه من على قلته الشديدة ويرضين، لأن في علمهن المسبق أن أزواج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كثيرات الصدقة والبر.

لم يترك الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحادثة دون أن يذكر توجيها ساميا، وقد انتقل فيه من الخاص إلى العام، فبشّر كافل البنات والأم، بشارة أخروية، لينقل القضية كلها إلى دائرة الإثابة، والحفز على رعاية اليتيمات والأرامل، رغم أن الحديث لم يشر إلى أن البنتين يتيمتان، إلا أن السياق دال على أن لا كفيل لهن، فجاء التوجيه النبوي السامي إلى أهمية الاعتناء بهن، على العموم، سواء أن يكفلهن متطوعا من غير قرابة، أو يكون قريبا لهن فيتولى أمرهن.

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا**»(١).

الموقف غاية في البساطة: رجل كبير السن، يريد النبي في أمر، والنبي بين الناس وهم جالسون، وكل ما حدث: أن القوم تباطئوا في الإفساح له؛ ليقترب من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فسارع النبي بترسيخ قاعدة مهمة، تتصل بكيفية التعامل مع كبير السن، وصغيره، إنها قاعدة الرحمة، التي تبدأ بأبسط السلوكيات: الإفساح في المجلس، وتتسع لتشمل القول والفعل والإحسان. وقد ركز الرسول على الفئة العمرية: صغار السن وكبارهم، لأنهم الطرف الأضعف في الاهتمام، فهم ما يكونون غير ذي قوة: في المال والجسد والعمل.

(١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، الحديث رقم (٢٠٤٣).

٤) قصص اليوم الآخر:

وهي أحاديث تشير إلى ما سيحدث يوم القيامة من مواقف وأحداث، وقد صيغت بشكل قصصي، يقربنا من الصورة التي ستقع بها، وهو شكل فيه وصف للشخوص والمكان والأحداث بدقة وكثافة لغوية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَقَالَ ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا. فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَرَجَعَ وَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا**»[(١)].

إننا أمام قصة متكاملة جوانب السرد: الوصف، المتكلمين، الحوار. وجاء الزمان في المطلق الأبدي الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وكذلك المكان في عليين. كان الحوار هو الأساس في بناء القصة، فالله تعالى، خلق الجنة والنار، وجعل مسببات وكمال النعيم في الجنة، وكمال القبح والعذاب في النار، وهنا نجد الحوار بين الله تعالى، وبين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالجنة لو سمع بها أحد على ما فيها من خيرات ونعيم أبدي لا حدود له، ولا يخطر على قلب بشر، فإن الناس

(١) سنن سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن البحر الخراساني، كتاب الأيمان والنذور، الحديث (رقم ٣٧٧٩)، نشر موقع www.al-eman.com (نداء الإيمان)، مكتبة التراث الإسلامي.

سيدخلونها، ويتركون النار بما سمعوا عنها من مشاهد العذاب الأبدي. فيأمر الله تعالى أن تحَفَ الجنة بالمكاره والنار بالشهوات، والمكاره مختلف الواجبات التي يقوم بها المرء وتشمل اجتناب المحرمات (الشهوات المختلفة)، وفعل الطاعات وهي قد تثقل على النفس. أما الشهوات فهي كل ما ترومه النفس وتتمناه مثل شهوتي الفرج والمال، وتسلك في سبيل ذلك مسالك تخالف الشرع، وتضر الآخرين كالزنا والسرقة والنصب والاحتيال والربا.

فمقصد الحديث: أن الجنة ذات نعيم غير محدود، ولكن من طلبها فعليه أن يتجنب المحرمات وما تشتهيه نفسه بطريق غير شرعي، ويتحمل مشقة ذلك على نفسه، ولكن الثمرة أن شهواته سينالها كاملة في الجنات العلا، أما إذا أراد راحة نفسه، وإشباع شهواتها، فإن النار عاقبته في الآخرة.

وقد صيغ الحديث بقالب حواري جذاب، بين الله تعالى وسيد الملائكة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والحديث موجز، ولكنه عالي الإشارات والدلالات حول اكتمال اللذائذ في الجنة، واكتمال العذاب في النار.

ونلاحظ سمة تميز الأسلوب اللغوي للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تتمثل في إعادة توظيف المفردات في دلالات جديدة، فيما يسمى «دلالات اللفظة في السياق»، ويعنى بـ«بيان دلالات الألفاظ وتحديد معنى الكلمة وإزالة الغموض والكشف عن المعنى المراد في الألفاظ ذات الدلالات المتعددة، التي لا تُعرَف دلالتها، ولا تتضح إلا من خلال السياق»[(١)].

(١) السياق وأثره في دلالات الألفاظ (دراسة أصولية)، د. عبد المجيد محمد السوسوه، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد (٧٤)، رمضان ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، (ص٢٤).

ولابد أن يكون في السياق قرائن تسهم في عملية فهم النصوص وبيان معانيها مثل القرائن اللفظية في النص أو في نصوص أخرى تسهم في تبيان الدلالات المقصودة[١].

والقرائن الحالية وهي تعتمد على بيان حال الأشخاص المتكلمين والمخاطبين وغرض المتلكم وبيئة الخطاب[٢].

فلفظتا: (المكاره، والشهوات)، اكتسبتا دلالتين جديدتين؛ فالمكاره تعني اجتناب ما يكرهه الإنسان من ملذات الحياة المحرمة، وإجبار النفس على فعل الطاعات. أما الشهوات فتعني اللذائذ المحرمة التي تغوي النفس. وقد جاء الفعل «حُفّت» ليعطي الجنة والنار دلالة الصورة الخيالية (الاستعارة المكنية) حيث شبه المكاره والشهوات كسورين يحفان بالجنة أو بالنار، فالسياق للجنة والنار في الحديث الشريف، أعطى الدلالات المشار إليها للمكاره والشهوات.

إن قضية السياق في الحديث النبوي واضحة بجلاء، ويمكن أن نقرر أن هناك قاموسا لغويا؛ جديد في استخداماته اللغوية أحدثه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعبيراته، ويمكن أن نرصد ألفاظ هذا القاموس من خلال إعادة قراءة مفردات الحديث النبوي الشريف بشكل أفقي، وهذا دال على ثراء المنشئ، وعمق رسالته.

---

(١) المرجع السابق، (ص٣٠)، والقرائن اللفظية على نوعين: المتصلة: وتكون في مبنى النص نفسه، والمنفصلة وتكون في نصوص أخرى مستقلة عن النص، ولا نفهم الدلالة إلا باستحضار النص الآخر.

(٢) المرجع السابق، (ص٣٩)، والقرائن الحالية هي التي تحف بالخطاب من ظروف وملابسات ومقامات مختلفة، والتي سماها العلماء بسياق الحال أو المقام.

عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا آخذ بيده، إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق، فيقول الأشهاد:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨][(١)]».

القصة مشهد يعبر عن لحظة الحساب ثم المغفرة من الله تعالى، يوم الحساب، حين يحضر العبد المؤمن بمعاصيه في الدنيا، وهي معاص لا ترقى لمعاصي الكافر ولا المنافق، ونجد أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف الموقف بكلمات قليلة، ولكنها تتخذ طابع القصة المشهد الواحد، فالله تعالى يقرّب العبد المؤمن يوم القيامة، ويعرّفه بذنوبه، فيقر المؤمن بما فعل، وتعظم الذنوب أمام عينيه، ويظن أن جهنم جزاؤه، إنها الهلاك، إلا أن الله تعالى يخبر المؤمن بستره الذنوب عليه في الدنيا، ومغفرتها له في الآخرة، أما الكافر والمنافق فلهما لعنة الله على الظالمين.

القصة تقارن بين شخصيات ثلاثة: المؤمن، الكافر، المنافق، وتضع الأخيرين في خندق واحد، بينما ينجو المؤمن بصدقه وإخلاصه وينال مغفرة الذنوب والجنة. فالقصة تذم سلوك المنافق، الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ويكون كالسوس ينخر في المجتمع المسلم. في الوقت التي تبشر به المؤمن المخلص بالمغفرة، فالدلالة غير المباشرة في القصة: أن الإيمان الصادق والتوحيد

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الخصومات،(ص١٧٩، رقم ٢٣١١).

الحقيقي هو الأساس في قبول الأعمال، والسبيل لمغفرة السيئات. فالمؤمن ذو إيمان ثابت، وتوحيد خالص يضاد الكفر والنفاق.

وقد كان الحوار ديدن الموقف بين الله تعالى، وعبده المؤمن، أما رد الله على الكافر والمنافق فقد جاء بآية قرآنية، ليكون الموقف موضحا ماهية الكذب على الله، وهو إبطان الكفر.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، قال المسلم: والذي اصطفى محمدا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلم، فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري: أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله**»(١).

القصة تشمل ثلاثة مواقف، الأول: حادثة واقعية، تتمثل سباب الرجلين، المسلم واليهودي، وكلٌ يتباهى بنبيه. الموقف الثاني: شكوى اليهودي للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لطمة المسلم له. الموقف الثالث: ذكر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موقف صعق الناس يوم القيامة، فلما يفيق محمد من الصعقة، يجد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جانب عرش الرحمن، فلا يعلم هل استثنى الله موسى من الصعقة، أو أفاق موسى قبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) صحيح البخاري، ج٢، كتاب الخصومات، (ص١٧٩، رقم ٢٣١١).

في الموقف دلالات عديدة: أولها: كيف أن الرسول كان ملاذ الناس في مجتمع المدينة، فهو قاض محايد بين المسلم واليهودي، واليهودي قبل بحكم الرسول في خصومته مع المسلم. ثانيها: إن حكم الرسول كان رفضا لسلوك المسلم، فلا تمييز بين موسى ومحمد، فكلاهما رسول. ثالثها: إن الإسلام يؤمن بفضل موسى، ويعترف به، والرسول يقر بمنزلته العالية عند الله تعالى.

ونشير في النهاية إلى:

إن البناء الحواري في القصص النبوي هو الأساس، فهو يتسق مع طبيعة السرد الشفاهي للأحاديث الشريفة، حيث تتميز قصص الرسول بالكلمات الموجزة التي تنقل أحداث القصة، وهذا النقل يعتمد على أمور في بناء القصة، يمكن أن نجملها مما تقدم من القصص:

- إن السرد في القصص النبوي قصير عامة، لأنه يُلَقى على مستمعين، وبالتالي فإن الرسول حريص على الكثافة اللغوية، والعرض بأقل العبارات.
- في السرد القصصي يمكن تمييز «الوقفة الوصفية»[١] التي تصف الموقف بدقة، خاصة أن القصص ذات مكان وزمان محدودان، فجاءت القصص النبوية في مجملها قصيرة، تصف أحداثا محددة وبشخوص قلة، رغبة في إيصال رسالتها بشكل ميسر فلا يضيع السامع بين أحداث القصة وطولها.
- في السرد النبوي حوار «درامي الطابع»، والحوار أكثر الآليات القصصية في إيجاز الحدث، وتعميق الدلالة. وفيه أيضا كلمات من الرسول (بوصفه راويا

(١) قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة: السيد إمام، دار ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٣م، (ص٤٤).

للقصة) تساهم في تطوير الحدث القصصي، وإفهام المتلقي مغزى القصة[١].

إذا كان الفصل الثاني تناول أشكال الحوار في الأحاديث الشريفة، فإن الفصل الثالث، سيتطرق إلى أبرز القضايا وطبيعة الشخصيات التي حاورها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي قضايا متعددة، كان الحوار فيها أساسا في الدعوة[٢].

(٣) التاريخ:

وهو من أغزر موارد القِصَّة وأوسعها نطاقًا لأنَّه يتجّمَّعُ في جُعْبَتِهِ مختلف وقائع الدهر وأحداث الزمان، وما يكتنف حياة الناس من تطوُّرات واضطرابات، وما يعتريهم من أفراح وأتراح ومسرَّات وارتكاس في صفوف خاصَّتهم وعامَّتهم وعظمائهم وسُوقتهم في مختلف الأمصار وشَتَّى الأَعْصَار، وما يحقِّقونه من انتصارات ويصابون به من هزائم وانحسارات.

فالتاريخ سجلٌّ واسع للحياة بما فيها وما يطرأ عليها، إلَّا أنَّه لا يسلم من التحريف والتزوير، عرضة للأغاليط وقلب الحقائق حيث تعبث به أهواء المؤرَّخين الذين تجنَّبوا الإنصاف، وخضعوا لسلطان أفكارهم ومذاهبهم فاختلقوا الوقائع والأحداث، وغيَّروا في الأخبار وتلاعبوا بالأوراق تأييدًا لمذاهبهم ونصرة لآرائهم[٣].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) جزء مختصر من مقال في شبكة الألوكة بعنوان: (القصة في السنة النبوية) للدكتور مصطفى عطية جمعة.
رابط الموضوع: https://www.alukah.net/sharia/0/123873/#ixzz6HQy6pCk6.

(٣) يراجع كتاب «أغاليط المؤرخين» للدكتور الشيخ أبي أيسر عابدين المفتي العام السابق للجمهورية السورية رَحِمَهُ اللَّهُ.

فأصبح من أهمِّ واجبات الخطيب حين يستقي القصَّة من مورد التاريخ أن يتأكَّد من حدوثها، ويتثبَّت من صدقها، ويلجأ في سبيل ذلك إلى المصادر التاريخيّة الموثوقة التي تمتَّع مؤرِّخوها بالصدق والأمانة والتجرُّد والنزاهة.

(٤) وقائع الحياة المعاصرة:

لا ريب في أنَّ الحياة المعاصرة وما يجري فيها من أمور وأحداث تُعدُّ مصدرًا مؤثرًا من مصادر القصَّة الواقعيَّة وموردًا غزيرًا من مواردها؛ لأنَّ أحداثها تنبُع من أجواء الحياة اليوميَّة الواقعيَّة القريبة من الناس المخاطبين بها، فيكونون لذلك أكثر تفاعلًا معها وأشدّ تأثُّرًا بها، إذ تنقل إليهم صورة واقعِهم المحسوس القريب منهم أو الملتصق بهم بأخلاقه وأفكاره وتصَوُّراته واتجاهاته وبيئته وزمانه.

شروط الاستشهاد بالقصّة:

(١) ألَّا تكون مختلقةً كأمثال القصص التي يضعها القصَّاصون، وينسبونها إلى شخصيَّات معروفة، وغايتهم من ذلك الترغيب والترهيب والإفراط في بيان قدر مقام الأَجِلَّاء من رجال الأُمَّة وأعلامها. ونجد بعض كُتُب الوعظ والتفسير يحوي عددًا من هذا الضَّرب من القصص.

(٢) أَلَّا تكون موغِلة في الغرابة نائيةً عن الواقع المحسوس أو الغيب المعقول، كأمثال القصص الوارد في بعض كتب التاريخ والتفسير والوعظ ونحوها، حيث تحفل تلك الكتب بأمثال تلك القصص دون النظر إلى مدى معقوليَّتها وواقِعِيَّتِهَا كقصّةِ بكاء سيِّدنا آدم زمانًا طويلًا حتى تشكَّلت من دموعه أنهار واعشوشبت منها الأرض.

ولا ريب في أنَّ أمثال هذه القصص تنفر منها أذواق الناس،وترفضها عقولهم وقناعاتهم، وتتحاشى عنها أفكارهم القائمة على أساس المنطق السليم والمنهج العقليِّ الحكيم. وخاصَّة في عصرنا هذا الذي يزخر بقوانين البحث العلميِّ وقواعد التفكير ومناهج البحث التجريبيِّ، ويفيض بالمعارف والعلوم والاكتشافات حتى أُطلق عليه عصر العلم والاكتشاف.

(٣) ألَّا تكون بعيدةً عن مقتضى المنطق فاقدةً دواعي استجابة العقل وقناعة الفكر، كبعض القصص الخُرافيَّة التي تتعارض مع الواقع وترفضها تصوُّراته كقِصَّة عوج بن عنق وطوله العجيب.

(٤) ألَّا تكون مخالفةً للحقِّ ومبادئ الشريعة السامية وأخلاق دين الله الحنيف.

فهناك عددٌ هائل من تلك القصص المدسوسة التي كان لليهود والملاحدة باع طويل في بثِّها ونحلها الثِّقات من العلماء افتراءً وزورًا، كقصَّة سيِّدنا يوسف الصدِّيق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع امرأة العزيز واتّهامه بحلِّ تكَّته، وكقصَّة سيدتنا مريم وادِّعاء أنَّ سيدنا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقع عليها، إلى غير ذلك من قصص الافتراء، إلَّا أنَّ الله سبحانه سخَّر لتفنيد أمثال هذه الأكاذيب والأباطيل جهابذة أعلامًا كالإمام الفخر الرَّازي الذي بسط في كتابه «عصمة الأنبياء» بيانًا واضحًا لأمثال تلك الافتراءات والقصص المنكرة وردّ، عليها جميعًا ردودًا ألقم بموجبها الحاقدين حجارةً قاسية أسكتهم فارتدُّوا على أدبارها خاسرين.

(ز) الأنباء والحوادث المعاصرة والإحصائيّات:

والمقصود بها كلّ شيء جديد يظهر في مختلف جوانب الحياة البشريَّة الفكريَّة والمشكلات الاجتماعيَّة والاكتشافات والاختراعات والنتائج العلميَّة الطريفة التي

تحمل في أحشائها بواعث الإيمان والإقرار بعقيدة القوَّة الغيبية ونحو ذلك، وهي تعتبر مادَّة استشهادية ناجحة في تقرير الأفكار في أذهان السامعين والتأثير في نفوسهم.

مصادرها:

لاشكَّ في أنَّ الحصول على تلك المعلومات والأنباء الحادثة المتجدِّدة يتوقَّف على ما تنقله وسائل الإعلام المختلفة كالصحف والمجلات والوثائق والبرامج الإذاعية ونحوها وما تفيض به الكتب الثقافية والعلمية والتربوية المعاصرة.

أمثلة على الاستشهاد بها:

أطفال الخطيئة: ذكرت مجلَّة حضارة الإسلام في المجلَّد الثاني عام ١٩٦١:

لقد ولد في الولايات المتحدة الأمريكية (٢٢١) ألف طفل غير شرعي، وذلك خلال عام ١٩٥٩م، أي نسبة: ٥٢ طفلا في كلِّ ألف طفلٍ وُلِد في أمريكا خلال ذلك العام ونشرت جريدة اللِّواء الدمشقيَّة بتاريخ ١٩ من شعبان ١٣٨٢هـ برقيَّةً صادرة عن الأُمم المتحدة من وكالة «رويتر» ما يلي يقول تقرير الأمم المتحدة حول التمييز ضدَّ الأطفال غير الشرعيِّين: إنَّ ما يقارب ٣٠٪ من الأطفال في بعض البلدان يولدون خارج نطاق الزواج.

شروط الاستشهاد بالأنباء المعاصرة والإحصائيَّات:

إن أبرز وأهمَّ شرط هو التأكُّد من صِحَّة النبأ، وأخذه من مصادره الموثوقة التي أشرنا آنفًا؛ لأنَّ من أقبح السقطات أن يُورد الخطيب نبأً مَا، ويستشهد به على فكرته، ثم يظهر عدم صحة ورود هذا النبأ ويرجع سبب ذلك إلى أنَّ الخطيب اقتصر في نقل النبأ، على سماعه من أحد الناس، ولم يتثبَّت من صحَّة وروده من مصدر موثوق.

وفي النهاية لهذا الباب:

وفي نهاية هذا الباب وبعد الانتهاء من الخطبة نبين لكم أهم العيوب فيها:

عيوب في الخطبة:

وهي عيوب تكون في معنى الخطبة أو مبناها، ومنها:

١ - خلوُّها من التشهد والثناء على الله والصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء**»(١)، أي كاليد المقطوعة أو المصابة بالجذام.

قال المناوي نقلا عن ابن العربي: «أراد بالتشهد هنا الشهادتين، من إطلاق الجزء على الكل كما في التحيات»، ثم نقل عن القاضي قوله: «أصل التشهد الإتيان بكلمة الشهادة، وسمي التشهد تشهدًا لتضمنه إياهما، ثم اتسع فيه فاستعمل في الثناء على الله تعالى والحمد له»(٢).

وقد كانت العرب تذم الخطبة إذا لم يكن في أولها حمد لله وصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد خطب الفضل بن عيسى الرقاشي إلى قوم من بني تميم، فخطب لنفسه، فلما فرغ قام أعرابي منهم فقال: «توسلْتَ برحمة، وأدليت بحق، واستندت إلى خير، ودعوت إلى سنة، ففرضك مقبول، وما سألتَ مبذول، وحاجتك مقضية إن شاء الله تعالى»، قال الفضل: «لو كان الأعرابي حمد الله في أول كلامه وصلى على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفضحني يومئذ» أي لبلاغته وفصاحته(٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤١)، والترمذي (١١٠٦) من حديث أبي هريرة. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب». ورمز السيوطي لصحته، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٩).
(٢) فيض القدير (٥/ ١٨).
(٣) البيان والتبيين (٤/ ٧٣).

وقد كان خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان، يُسَمُّونَ الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد: «البتراء»، وَيُسَمَّونّ التي لم توشَّح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشوهاء»(١).

٢- الطول الممل والقصر المخل:

إن المقصود من الخطبة هو إفهام المخاطبين وإقناعهم بمضمون الكلام الموجه إليهم، فكل ما يحول دون ذلك عيب يجب اجتنابه، وأعظم ذلك الإطالة التي هي أدعى لسقطات اللسان، وتبعث الملل والسآمة في الإنسان، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطَبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»(٢).

وقوله: «**مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ**» أي علامة على فقهه ودليل عليه.

قال بعض الأدباء: «للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعتَ الحكماء يعيبونه»(٣).

لكن ينبغي للخطيب وهو يراعي مجانبة هذا العيب أن يجانب أيضًا الوقوع في ضدّه، وهو القِصر المخلّ، وخير الأمور الوسط، فعن جابر بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت أصلي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا»(٤).

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٥٩٤) [٨٦٩] من حديث عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) البيان والتبيين (١/ ٩٩).
(٤) أخرجه مسلم رقم (٨٦٦).

ويندُّ عن الذم ما يقتضيه الحال والمقام من طول أو قصر، ومما مدحوا به الطول والإيجاز إذا وقعا موقعهما قول داود بن حريز الإيادي: يرمون بالخطب الطوال وتارة وحيَ الملاحظ خيفة الرقباء[١].

٣- خلوها من نصوص الكتاب والسنة:

وقد عد بعض الفقهاء من أركان الخطبة ذكر آية من كتاب الله تعالى، فلا يحسن بالخطيب أن يخلي خطبته من القرآن الكريم، وكذا من سنة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع.

وقد كانت العرب تعيب ذلك فقال بعضهم في خطيب مصقع: «هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن»[٢].

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعظ في خطبه بالقرآن الكريم، فعن صفوان بن يعلى عن أبيه أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف:٧٧][٣]، بل ربما قرأ سورة بأكملها.

فعن أخت لعمرة قالت: «أَخَذْتُ ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى المِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ»[٤].

٤- كثرة الشعر فيه:

وقد يصل الحد ببعض الخطباء إلى أن يُنزل الشعر منزلة الكتاب والسنة، فيستدل به كما يستدل بالكتاب والسنة، بل بعضهم قد لا يستدل إلا به، وهذا عيب كبير وطريق إلى تقرير الباطل إذا كان ذلك الشعر مشتملا على باطل.

(١) البيان والتبيين (١/ ١٥٥).
(٢) انظر البيان والتبيين (١/ ١١٨).
(٣) أخرجه مسلم برقم (٨٧١).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٨٧٢).

قال الجاحظ: «وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر»[١].

على أن الاستشهاد بالشعر الذي له وقع في النفس، ويؤيد المعنى الذي نسج له الكلام لا بأس به إذا كان بقدر وناسب المقام، وقد كان بعض خطباء العرب تفعله[٢].

٥- اشتمالها على ألفاظ منكرة شرعًا أو عرفًا:

مثال الألفاظ المنكرة شرعًا أن يقول: «ما شاء الله وشاء فلان»، أو يقول: «من أطاع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما»، أو يقسم بغير الله تعالى أو غير ذلك من الألفاظ المنهية[٣].

عن عدي بن حاتم أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوِيَ**»[٤].

والمراد بالألفاظ المنكرة عرفًا ما اتفقت طباع القوم على استقباحه واستهجانه، فعلى الخطيب أن يتجنبه وأن يعدل عنه إلى بديل يعرفه القوم ولا ينكرونه، وهذا يختلف باختلاف البقاع والأصقاع، فربَّ لفظ حسن شريف عند قوم قبيح هجين عند آخرين، وعليه يلزم من أراد أن يخطب في قوم أن يعرف لسانهم وعاداتهم وأعرافهم حتى لا يقع فيما يصدهم عنه ويسقطه في أعينهم.

(١) البيان والتبيين (١/ ١١٨).
(٢) انظر البيان والتبيين (١/ ١١٩، ١٢٠).
(٣) انظر كتاب معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر أبو زيد حفظه الله. (رَحِمَهُ اللَّهُ؟؟؟؟؟؟؟؟؟).
(٤) أخرجه مسلم برقم (٨٧٠).

٦- اشتمالها على باطل:

وهذا من أخطر العيوب وأشدها ضررًا على الناس، وبخاصة إذا كان الخطيب مصقعًا مفوهًا، فيتوصل بحسن كلامه وتنميق عباراته إلى تقرير باطل كعقيدة فاسدة، أو بدعة محدثة، أو معاملة محرمة، أو معصية لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٧- اشتمالها على أحاديث ضعيفة أو موضوعة:

وهذا العيب قلَّما يسلم منه خطيب في العالم الإسلامي، وذلك لعدم التحرِّي والتثبت من صحة الحديث، ويخشى على من وقع في مثل هذا أن يتناوله الوعيد الذي ذكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**»(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِحَسْبِ الْمُؤْمِنِ الْكَذِبُ أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»(٢).

ويشتد هذا العيب ويتفاقم إذا كان موضوع الخطبة كله مَبْنِيًّا على حديث ضعيف أو موضوع، كمن يخطب في قصة ثعلبة بن حاطب(٣) ويستخرج منها العبر والعظات، وهي غير ثابتة، أو يخطب في قصة الغرانيق(٤) وهي أيضًا لا تثبت.

(١) أخرجه مسلم (١/ ٩) في المقدمة باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكاذبين، وابن ماجه (٣٩).
(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ١٠). كفى.
(٣) أخرجه البغوى فى التفسير (٢/ ٣١٢)، وابن قانع (١/ ١٢٤). وأخرجه أيضًا: الطبرانى (٨/ ٢١٨، رقم ٧٨٧٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٧٩، رقم ٤٣٥٧). قال الهيثمى (٧/ ٣٢): فيه على بن يزيد الألهانى، وهو متروك. وفى الحديث أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا. فذكره.
(٤) رواه الطبراني مرسلًا وفيه ابن لهيعة ولا يحتمل هذا من ابن لهيعة.
قصة الغرانيق باطلة كما قرر ذلك جمعٌ من الأئمة والحفاظ منهم: أبو بكر بن العربي المالكي في أحكام القرآن،والقاضي عياض في الشفا، وفخر الدين الرازي في مفاتح الغيب (٦/ ١٩٣)، والقرطبي في تفسيره (١٢/ ٨٠)، والعيني في عمدة القاري (٩/ ٤٧)، والشوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٤٧)، والآلوسي في روح المعاني (١٧/ ١٦٠)، وغيرهم من الأئمة الأعلام رحم الله الجميع.

٨- طغيان الأسلوب العلمي على الأسلوب الأدبي:

من مظاهر هذا العيب أن يستعمل الخطيب مصطلحات علمية دقيقة لا يدركها عامة الناس. ومن مظاهره أيضًا التوسع في تخريج الأحاديث وعزوها والكلام على طرقها وعِلَلِهَا. ومن مظاهره أيضًا خلو الخطبة من الأساليب الإنشائية كالأمر والنهي والاستفهام والتعجب والدعاء وغير ذلك، مما يخرجها من حد الخطابة إلى حد المقالة.

٩- عدم إيفاء الموضوع حقه:

وذلك بأن لا يتناول جميع عناصره، أو أن يستطرد ويفرع حتى يخرج عن الموضوع الذي يخطب من أجله، أو أن يشتت الموضوع ويبعثر الأفكار ولا يربط بينها.

١٠- خلوها من الإرشاد والتوجيه الفوري:

وذلك بأن يغض الطرف عمن يتخطى رقاب الناس، فلا ينهاه عن ذلك، ويسكت عمن جلس دون أن يركع ركعتين فلا يأمره بهما، ويحصل بين يديه منكر فلا ينهى عنه.

١١- اشتمالها على ألفاظ ثابتة لا تتغير، يفتتح بها ويختم بها وكأنها سنة ماضية:

وذلك كقولهم: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...»، وقولهم: «بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...»، وقولهم: «فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له...» وغيرها من العبارات التي يلتزم بها بعض الخطباء كأنها ركن من أركان الخطبة، وواجب من واجباتها.

١٢- غلبة الترخيص عليها:

قال الحافظ ابن حجر: «من آداب الخطبة ترجيح التخويف فيها على التوسع في الترخيص لما في ذكر الرخص من ملاءمة النفوس لما جبلت عليه من الشهوة، والطبيب الحاذق يقابل العلة بما يضادها لا بما يزيدها»[(١)].

عيوب نسبية:

قد يكون الخطيب مصقعًا متوفرًا فيه جميع شروط الخطابة وخاليًا من العيوب، وتكون خطبته بالغة الغاية في الجودة مبنى ومعنى، ولكن خطبته لا تناسب المكان الذي هو فيه، أو الزمان الذي هو فيه، أو الناس الذين يخطب فيهم، هذا ما نعني بالعيوب النسبية.

١- عدم مناسبة الخطبة للمخاطبين:

وسبب هذا العيب في الغالب هو الجهل بواقع المخاطبين وأحوالهم ومستوياتهم وأعرافهم، فلا يراعي في خطبته المستوى العلمي واللغوي لدى المخاطبين، فيتناول موضوعا يفوق أفهامهم، ويستعمل ألفاظًا لا يدركها أكثرهم، ولتحاشي هذه الآفة على الخطيب أن ينوع في استعمال المرادفات حتى يقع على اللفظ الذي يفهمه السامع ويصل به إلى المعنى الذي يريد أن يبلغه.

وعن بعض الأدباء: «وليس يشرف المعنى بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة من الخطاب، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. فمن تمكن من البلاغة في البيان على أن يفهم العامة معاني الخاصة،

(١) فتح الباري (٢/ ٦١٨).

ويكسو الخطبة بالألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأَكْفَاء فهو البليغ التام والخطيب المصقع»[(١)].

وقال بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقةٍ من ذلك كلامًا، ولكل حالةٍ من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[(٢)].

٢- عدم مناسبة الخطبة للمكان:

وذلك كأن يتناول في قلب الصحراء موضوع المنكرات التي تحصل في شواطئ البحار، أو يتكلم عن أحكام زكاة الزروع والضروع في مكان ليس فيه زرع ولا ضرع، أو غير ذلك، فعلى الخطيب أن يراعي المكان الذي هو فيه، وأن تكون خطبته مواتية للظرف الذي يخطب فيه.

٣- عدم مناسبة الخطبة للزمان:

وذلك كأن يتبيَّن فضل الجهاد وبعض أحكامه في زمان فتنة، أو يتكلم عن فضل العشر الأواخر من رمضان في أشهر الحج، أو يتناول فضل الحج في شهر رمضان، أو غير ذلك من نظائرها مما يقع فيه الخطباء، كعدم مراعاة الأحداث، والمناسبات الشرعية ذات الشأن.

---

(١) مستفاد من العقد الفريد (٤/ ٥٥، ٥٦).

(٢) البيان والتبيين (١/ ١٣٨، ١٣٩).

الباب الثالث

الخطيب

وفيه فصول:

الفصل الأول

تعريف الخطيب ومكانته

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الخطيب.

المبحث الثاني: مكانة الخطيب ومنزلته.

الفصل الأول

تعريف الخطيب ومكانته

المبحث الأول

تعريف الخطيب

هو ذلك الشخص الذي يقتدر على التصرف في فنون القول حين يخاطب جمهورًا من الناس لمحاولة إقناعهم بما يجول في خاطره من أفكار، والتأثير في نفوسهم بما يستعر في أعماقه من عواطف.

المبحث الثاني

مكانة الخطيب ومنزلته

مكانة الخطيب ومنزلته مما يعين الخطيب عن الاضطلاع بمهمته وتحمل مسئوليته أن يعرف عظم الرسالة التي يتحملها، ومدى التأثير الذي يحدثه إذا أخلص في عمله.

ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

١ - يمثل الخطيب في موقفه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينوب عنه في دعوة الأمة إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة، ويندرج بذلك في سلك المصلحين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠].

٢- يوجه الخطيب همته ويؤدي رسالته مع أشرف أجزاء الإنسان، روحه وعقله وقَلبه وضميره، وهو بهذا يقّوِّم ما اعْوَجَّ من سلوك الناس، وَيَرُدُّ من شرد منهم عن الجادة، مع عظيم حبهم له، وجميل تقديرهم لنصحه، وبذلك يؤدي الخطيب خدمة جليلة لمجتمعه، لا تقل شأنًا بل تزيد عن أفراد كثيرين يُقدِّرُ المجتمع خدماتهم.

يقول الدكتور عبد الجليل شلبي (أنت يا خطيب المسجد أشد فاعلية في نفوس الجماهير من رجل البوليس الحاكم، ورجل المباحث المستطلع، والوزير الآمر... إنك تقتلع جذور الشر من نفس المجرم وتبعث في نفسه خشية الله، وحب الحق والعدل ومعاونة الناس، والتخلي عن شيء من حقوقه مرضاة للآخرين، فأنت توفر على رجل البوليس والقائم على أمن الدولة جهدًا كبيرًا وأعمالًا شاقةً، وإن كانوا لا يشعرون، الناس لا يخافونك، ولكنهم يُجِلُّونَك ويحبونك؛ إن ميدان عملك هو إصلاح الضمائر وإيقاظ العواطف النبيلة في نفوس الناس، فعملك هو الطبُ للأجساد، وبث الحياة في الأفراد)[١].

٣- يقف الخطيب من مستمعيه موقف الأمير، ويجلس الناس تحت قدميه مجلس الطلاب أو التلاميذ، يرمقونه بأنظارهم، ويشرئبون إليه بأعناقهم، ويلتزمون نصيحته، ويأتمرون بأمره، وكل هذا يعبر عن سمو رسالة الخطيب، وعظم منزلته التي يفوق فيها من سواه من سائر الناس.

يقول الشيخ علي محفوظ: «ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس، وأنفذ كلامه في القلوب، وأشد إثارته للعواطف، والخطيب أمير القوم الذي تتجه

(١) الخطابة وإعداد الخطيب (ص٤٩٨).

نحوه أنظارهم وتحدق به أبصارهم، وتلتف حوله قلوبهم، وتترامى إليه آمالهم، يستلينهم بالقول إذا قسوا، ويستخضعهم به إذا عصوا، ويمتلك نفوسهم بالرغبة تارة وبالرهبة أخرى، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس، فيقذف بهم الجبال فيدكونها بين يديه، ويلين لهم بالقول فإذا استوهبهم الأموال بل الأرواح وهبوها له، فو الله إنها لمكانة سامية، وسلطان نافذ القوة في الأرواح، لا يدانيه نفوذ الأمراء وقوتهم الجبروتية في الأجسام»[(١)].

ولعل من المناسب في هذا المقام أن نشفع الكلام النظري ببعض الكلمات والمواقف العملية التي تدعم في نفوسنا أهمية الخطابة، وتؤكد على دورها المؤثر في تغيير مجرى الأحداث، ونبدأها ببعض الكلمات:

(أ) خير ما نستهل به كلماتِنا حديثُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي جاء فيه عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من البيان لسحرًا**»[(٢)].

(ب) يقول هتلر الزعيم الألماني المعروف، وأحد أشهر الخطباء في العالم. «إن القوة التي حركت أعظم الانهيارات التاريخية ذات الطبيعة السياسية والدينية كانت منذ بدأ التاريخ هي القوة السحرية التي تنطوي عليها الكلمة المنطوقة وحدها»[(٣)].

---

(١) فن الخطابة، وإعداد الخطيب (ص٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢١) كتاب الطب باب من البيان سحرًا.

(٣) من كتاب هتلر في كتابه (كفاحي) نقلًا عن (الخطابة في موكب الدعوة) (ص٣٣). محمود محمد عمارة من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٨٦م.

(جـ) وفى تأثير خطب نابليون بونابرت في صناعة الأحداث، يقول إميل لودفيج: «لقد حول بونابرت معاركه الأولى بسحر بيانه إلى انتصارات كبيرة، فجعل لها مكانًا في التاريخ»[(١)].

وأما عن المواقف العملية فذكر منها هذه المواقف:

أولًا: عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِى قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِى الأَنْصَارِ مِنْهَا شَىْءٌ، وَجَدَ هَذَا الحَىُّ مِنَ الأَنْصَارِ فِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِىَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذَا الحَىَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِى أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِى هَذَا الْفَىْءِ الَّذِى أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِى قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِى هَذَا الحَىِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَىْءٌ، قَالَ: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِى، وَمَا أَنَا مِنْ ذَلِكَ قَالَ: «**فَاجْمَعْ لِى قَوْمَكَ فِى هَذِهِ الْحَظِيرَةِ**»، [قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِى تِلْكَ الحَظِيرَةِ]، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَىُّ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِى هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِى عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِى أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ تكونوا ضُلَّالا فَهَدَاكُمُ اللهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟**»، قَالُوا: بَلِ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: «**أَلَا تُجِيبُونَنِى يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟**»، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ،

(١) خطباء صنعوا التاريخ (ص٢٢٦) أنور أحمد.

وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: «أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ، وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ»، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قِسْمًا وَحَظًّا[1] اهـ.

وبالتأمل في هذه الخطبة الجامعة نجد أنها أسهمت في تحويل مجرى الأحداث من الضد إلى الضد، فحولت الشاكين إلى معتذرين، والغاضبين إلى راضين، وهدأت نفوسهم الثائرة، وعبروا عن أسفهم لما حدث وإيثارهم لرسول الله ﷺ على أي شيء سواه، وذلك في صورة بكاء زادت حدته حتى أخضلت منه لحاهم.

ثانيًا: ومثل هذه الخطبة النبوية التي غيرت مجرى الأحداث خطبة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين تُوُفِّي رسول ﷺ، وكادت تحدث فتنة، وقد وَقَي الله المسلمين شر هذه الفتنة بخطبة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، والتي جاء فيها قوله: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت». والقصة بكاملها مذكورة في كتب التاريخ والسير.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٢٠، رقم ٣٧٠٠١)، وأحمد (٤/ ٤٢، رقم ١٦٥١٧) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب مناقب الأنصار (٤/ ١٥٧٤، رقم ٤٠٧٥)، وأخرجه مسلم في الزكاة باب أعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (٢/ ٧٣٨، رقم ١٠٦١).

ونخلص من هذا إلى أن المكانة التي يتبوأها الخطيب لا تدانيها مكانة، وأن تأثيره في الناس وسلطانه على قلوبهم ونفوسهم يبلغ مبلغًا عظيما، وذلك مع كمال الحب له، وجميل الثناء عليه، وهذا فضلًا عما أعده الله تعالى من جميل المثوبة وعظيم الجزاء لمن يبذلون جهدهم في هذا المجال طلبًا لمرضاةِ الله، وانتصارًا لدينه ودعوته، إذ أن كل ما ورد في القرآن أو السنة من ثواب أعده الله للدعاة إليه ينال الخطباء منه بنصيب وافر. فإذا قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فالخطِيب هو أحد هؤلاء المفلحين باعتباره داعية إلى الخبر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر.

وإذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا...**»[(١)].. فأحد هؤلاء الدعاة إلى الهدى خطيب المسجد، وثوابه يتضاعف بقدر الاستفادة منه، والانتفاع به... وهكذا. اهـ[(٢)].

فما هي أهم المقومات التي تساعد المرء على أن يكون له باع في هذا المجال؟

(١) أخرجه مسلم (ج ٤- ص ٢٠٦٠) كتاب العلم- باب من سن سنة أو حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى الهدى أو ضلالة.

(٢) بتصرف من كتاب إعداد الخطيب بين الموهبة والتدريب أ. د / طلعت محمد عفيفي (ص٩).

الفصل الثاني

المقومات العقلية للخطيب

وفيه مباحث:

المبحث الأول: حبه لأداء رسالته وإقباله عليها بشغف.

المبحث الثاني: عنايته بالثقافة والمعرفة في جميع فروعها.

المبحث الثالث: معرفة قواعد وأصول الخطابة.

الفصل الثاني

المقومات العقلية للخطيب

المبحث الأول

حبه لأداء رسالته وإقباله عليها بشغف

١- وتبدو أهمية هذا العنصر في أنه القوة المحركة لحماسة الخطيب، و حمله على التفاني في عمله، وحرصه على إجادته والسمو به دائمًا.

٢- والخطابة في هذا المجال لا تخرج عما عهِدَ في حياة الناس، بشأن ما يقومون به من أعمال، فالواقع يشهد بأن المرء لا يجيد صناعةً يكرهها، ولا يبرع في مجال ينفر منه، بينما حب الإنسان لعمله وتعلقه به يجعله مبرزًا فيه، وقادرًا على الإبداع فيه.

٣- وَلْنقارن في مقام الخطابة خاصة بين رجلين أحدهما يحب الخطابة ويتعلق بها، وآخر ينفرُ منها ويُكْرَه على ممارستها، فالأول يشتاقُ لمخاطبة الجماهير، ويألف صعود المنبر، ويشعرُ براحة وسعادة وهو يؤدي هذه الرسالة، ودائمًا يستعد لها بكثرة الإطلاع وقوة الملاحظة والتهيؤ لكافة الظروف بما يناسبها من الحديث.

وأما الثاني فهو إنسان غير صادق مع نفسه، ويتكلف أمرًا شاقًا عليه، ولذلك فهو يجتهدُ في الهروب من مواجهة الناس، وإذا خطب وهو كاره فلا ينفعُ

مستمعيه بشيء لأنه لم يُعِدَّ نفسَه بدرجة لائقة، وتبدو كلماتُه خالية من أي تأثير، فيظلمُ بذلك نفسه، ويظلمُ معه جمهور المستمعين الذين يأسفون على أوقاتهم التي ذهبت دونما فائدة.

٤- ولا يقولن قائل إن حب الخطيب لرسالته يتأتى له إذا توفرت لديه موهبة الخطابة دونما سواه، وهذا الكلام صحيح في أهمية الموهبة والصفات الفطرية في أي خطيب، ولكن الموهبة في أمرٍما تتأتَّى بكثرة المران والممارسة والتدريب، والواقع يشهد بذلك... فالخطيب لا يولد بارعًا مبدعًا، ولكنه يعاني ويكابد حتى يكتسب الخبرة، وتزول منه مظاهر الضعف والإرتاج.

يقول الشيخ علي محفوظ: «الخطابة مَلَكَةٌ نفسية لا توجدُ دفعةً واحدةً، بل لابد لطالبها من الممارسة والمران كي تنمو مواهبه، وقد قال خالد بن صفوان: «إنما اللسان عضو إذ مرنته مرن، فهو كاليد تخشنها بالممارسة، وكالبدن تقويه برفع الحجر والرجل إذا عودت المشي مشت»[(١)]، وسيأتي مزيد بيان لأهمية التدريب فيما بعد - بعون الله تعالى -.

٥- وإن مما يساعد الخطيب على أن تكون لديه هذه المحبة لأن يكون خطيبًا أن يضعَ نصب عينيه أمورًا عِدَّةً نذكر منها:

(أ) ما أعدَّه الله تعالى من فضل للدعاة إليه، وتفوقهم في هذا المقام على سائر الناس، وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في النقطة السابقة.

(ب) أن ينظر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وأحوال السلف الصالح في حبهم للدعوة إلى الله تعالى، وتضحياتهم في سبيلها بالنفس والنفيس.

(١) فن الخطابة وإعداد الخطيب (ص١٧، ١٨) بتصرف يسير.

ونذكر من ذلك على سبيل المثل ما قصَّه علينا القرآن الكريم في سورة يس في قصة الرجل الذي دعا قومه إلى تصديق الرسل، وأعلن إيمانه بما جاءوا به، فما كان منهم إلا أن قتلوه، ففاز برضوان اللهَ تعالى وأُدْخِلَ الجنة..

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٠-٢٧].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٦، ٢٧]»(١).

وقد كتب الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي كتابًا عن حياة الصحابة أورد فيه العديد من المواقف الدالة على حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على تبليغ الدعوة، وقد صدَّر حديثه عن ذلك بهذه العبارات. «كيف كانت الدعوة إلى الله وإلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من كل شيء، وكيف كانوا حريصين على أن يهتدي الناس ويدخلوا في دين الله وينغمسوا في رحمة الله؟، وكيف كان سعيهم في ذلك لإيصال الخلق إلى الحق؟»(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٨) طبعة عيسى الحلبي.
(٢) حياة الصحابة للكندهلوي (١/ ٥٩).

ثم شرع في سوق الأمثلة التي تُفَصِّلُ ما أجمله في تلك الكلمات، فليرجع إليه من أراد المزيد.

٦- لقد بلغ حب السلف الصالح لدعوة الخلق إلى الحق أن الواحد منهم ربما بذل من ماله ومتاعه ليرغبَ الناس في الاستماع إلى نصائحه والاستفادة بتوجيهاته، وفى هذا يروى عن الزهري قال: «كان عروة (يعني ابن الزبير) يَتأَلَّفُ الناس على حديثه»[(١)].

فلْتجعل أخي الداعية الخطيب هذه النماذج أسوة طيبة وقدوة صالحة تسعى إلى التشبه بها في حبهم للدعوة وتفانيهم في البذل والتضحية لأجلها، ومن سار على الدرب وصل.

أولًا: عنايته بالثقافة والمعرفة فِي جميع فروعها:

١- في إطار حديثنا عن موقع الخطيب ومنزلته بَيَّنَّا أنه يحظى بمكانة عظيمة لدى مستمعيه، فهو إمامهم الذي يرشدهم، وقائدهم الذي يوجههم.

٢- لكن هذه المكانة تتناسب تناسبًا طرديًّا مع مجموعة من العوامل، تزيد بزيادتها، وتقل بقلتها، ومن أهم تلك العوامل تمتع الخطيب بالثقافة العالية، وإلمامه بالمعرفة في كافة الجوانب.

وتبدو أهمية هذا الأمر من خلال ملاحظة ما يلي:

(أ) أن الخطيب يقف من جمهوره موقف المعلم والأستاذ، يعلمهم ما يجهلون، وينبههم إلى ما هم عنه غافلون، فإذا حدثهم بما يعرفون، وكرر على أسماعهم ما يفهمون، أعطوه آذانهم وانصرفوا عنه بقلوبهم، وضاقوا به ذرعًا وفشل في أداء رسالته، وأخفق في القيام بمهمته.

(١) صفة الصفوة (٢/ ٨٥) أبو الفرج بن الجوزي.

(ب) أن مجال الخطابة واسع، وموضوعاته لا تقتصر على جانب دون آخر، فهي تتناول جميع الشئون الدينية، ولا يتيسر ذلك دون أن يتمتع الخطيب بثقافة عالية، بحيث يقنع كافة مستمعيه، ويدخل بذلك إلى قلوبهم.

٣- لأجل ذلك وجب على من يتولى مهمة الخطابة أن يتقن عمله، وذلك بكثرة الاطِّلاعِ وسعة المعرفة، وجودة الإعداد لما هو بصدد الحديث عنه، وألا يفضح نفسه بسطحية معلوماته أو ركاكة ألفاظه أو ضعف معلوماته أمام جمهور المصلين الذين قد يوجد من بينهم الطبيب والمهندس والكيميائي وغيرهم من فئات المجتمع، ولن يحظى الخطيب باحترام هؤلاء أو غيرهم إلا إذ شعروا بتفوقه عليهم، سواء فيما يعطيهم من معلومات، أو يتصف به من أخلاق.

٤- وفيما يلي نتعرف على أهم ما ينبغي أن يهتم به الخطيب من معلومات تعينه على الإجابة والإفادة في رسالته.

(أ) القرآن الكريم:

واهتمام الخطيب بالقرآن، ينبغي أن يكون في قمة اهتماماته، وذلك لما يتمتع به القرآن الكريم من مميزات عدة تنضح على الخطيب بآثارها وفوائدها، فترابُطِ الأفكار، وقوة الأدلة، وروعة الأسلوب، ومراعاة أحوال المخاطبين...، كلها فوائد يحصِّلها الخطيب بحفظه لكتاب الله تعالى واهتمامه بتفسيره والإحاطة بمعانيه ومراميه.

وعليه في هذا الجانب أن يتقن حفظه لما يتلوه من آيات، فإن اللحن في كتاب الله تعالى يُسِقْطُ الخطيب من أعين مستمعيه، ولن يلْتَفتَ بعد ذلك إلي ما يسوقه من فوائد.

وقد مُثِّلَ الخطيب الذي لا يحفظ القرآن ويرد منه الخطأ دائمًا حين يستشهد به بالرجل الذي يتحلَّى بثوب حسن في الظاهر، ولكنه لا يكتسي تحته بإزار، فإذا لفحته الريح كشفت عورته، وأبانت عن سوءته.

ومع حفظ الخطيب للقرآن الكريم تبقى كتب التفسير زادًا له لا يستغني عنه، ينهل من معانيها، ويقطف من ثمارها، وأصَحَّها في هذا المجال تفسير ابن كثير، فهو وسط بين الإطناب والإيجاز، ويتمتع بحاسة النقد لما يورده من آثار، فإذا أريد الاقتصار على أحد التفاسير فليكن هو، وإلا فلا غنى عن الاستفادة من غيره.

(ب) السنة النبوية:

والسنة هي المنبع الثاني الذي لا يستغني الداعية عن أن يغترف من معينه، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلم الناس بكتاب الله تعالى، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

وقد تحدث الأئمة عن مكانة السنة وأهميتها وضرورة العمل بها كالقرآن سواء سواء، وليس هنا مجال التفصيل، وإنما نستشهد بأحد أقوالهم في هذا المجال لما له من أهمية فيما نحن بصدده.

يقول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَنَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولاة الأمور بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على الدين، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين وَلَّاهُ الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا»[(١)].

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة الحافظ السيوطي (ص٢٤).

ومن خلال هذا القول الكريم يتضح لنا دور السنة وأهميتها في دين الله تعالى، ومدى حاجة الداعية إلى معرفتها، والاعتماد عليها في شواهده وأدلته.

وقد استوعبت السنة كافة مناحي الحياة، اجتماعية واقتصادية، وسياسية، وعسكرية، وأخلاقية...، بحيث لم يَدَعِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرًا إلا ودعانا إليه، أو شرًّا إلا ونهانا عنه.

فعلى الخطيب أنا يعيش مع السنة في مصادرها، بحفظ رواياتها، ويدعم أدلته بأحاديثها، وبذلك يضفي على خطبته جمالًا وجلالا.

وعلى الخطيب في هذا المجال أن يتحرَّى الصحة لما يذكره من أحاديث، وأن يتجنب ما حكم عليه العلماء بالضعف أو الوضع، ويمكنه أن يعتمد في هذا على الكتب الصحيحة كالبخاري ومسلم، وهناك مختصرات لهذين الكتابين قامت بحذف المكرر وحذف الأسانيد تيسيرًا على طلاب العلم، وأهمها: (التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدي)، وهو مختصر لصحيح البخاري، وكذلك مختصر صحيح مسلم للمنذري.

وهناك كتب رتبت أبوابها موضوعيًّا كرياض الصالحين للإمام النووي والترغيب والترهيب للحافظ المنذري[١].

وهى تُسْعِفُ الخطيب في توفير الأدلة بين يديه فيما هو بصدد الحديث عنه.. ومع المتون توجد الشروح مثل فتح الباري على صحيح البخاري وشرح النووي على صحيح مسلم، وغير ذلك كثير مما لا يستغني عنه الداعية الخطيب[٢].

(١) فيما يتعلق بالترغيب والترهيب للمنذري ننبه إلى أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يشير إلى صحة الحديث بإسناده إلى من رواه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول مثلًا (عن ابن مسعود...) أما إذا كان الحديث ضعيفًا فهو يرويه بصيغة التمريض، فيقول (روى عن فلان...) فوجب التنبيه.

(٢) وقد تكلمت عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل في فصل الاستشهاد (ص١٤٤).

(جـ) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:

تعدُّ السيرة النبوية هي الصورة المثلى لتطبيق الإسلام في شخص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلق رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن[١]، وسيجد الداعية الخطيب في السيرة النبوية علاجًا لكافة المشكلات، وحلًّا لِكُلِّ المعضلات، مع التعامل مع المواقف! من منطلق الأخلاق العالية التي كان يتصف بها الحبيب المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتزود الخطيب بزاد وفير من القيم والأخلاق.

وننصح في هذا المقام بقراءة كتاب الإمام ابن القيم (زاد المعاد في هدى خير العباد) فهو توظيف جيد لأحداث السيرة النبوية، يعتمد فيه المؤلف على التحليل والترجيح والنقد، وكل ذلك مما يخدم الداعية في رسالته.

ولا يستغني الخطيب عن قراءة التاريخ الإسلامي، والتعرف على الأحداث وتسلسلها، والعبر المأخوذة منها، وصَدَقَ من قال: اقرأ التاريخ إذ فيه العبر.. ضلَّ قوم ليس يدرون الخبر، وقراءة تاريخ العلماء والزهَّاد والمصلحين في كل مجال، وأخذ العبرة والعظة من كلماتهم ومواقفهم من الأشياء الهامة لمن يتصدرون للدعوة والخطابة، وننصح في هذا المقام بقراءة كتاب (حلية الأولياء) لأبي نُعَيْم، أو المختصر له (صفة الصفوة) لأبي الفرج ابن الجوزي.

(د) الثقافة اللغوية والأدبية[٢]:

إذا كانت حاجة الخطيب إلى المعاني الجيدة ليفيد بها جمهوره أمرًا لا غنى عنه، فإن حاجته للألفاظ التي تكسو هذه المعاني بهاءً وجمالًا لا تقل أهمية.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض.
(٢) وهذا الباب تكلمت عنه بشيء من التفصيل في فصل الأسلوب (ص١١٢).

وعلى ذلك ينبغي على الخطيب أن ينتقي ألفاظه، ويَجوِّد أسلوبه ويهذِّب عباراته، ولا يتأتى ذلك إلا بكثرة المطالعة في كتب الأدب (شعرًا ونثرًا) بحيث ينتقي منها أجودها، وأن يسوقها في موضوعها، فتطرب لذلك الأسماع، وتتأثر بذلك القلوب.

ويمكن للخطيب أن يقرأ كتابًا يفيده في هذا مثل: (أدب الدنيا والدين) للماوردي، أو (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) لابن حبان البستي، فإذا أراد المطولات فليرجع إلى كتاب (كالعقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي، أو (البيان والتبيين) للجاحظ.

كما أن عليه أن يتجنب اللحن والخطأ في عباراته، بحيث تبدو كلماته منضبطة وفق قواعد اللغة العربية (نحوها وصرفها) ومن أقوال العلماء في ذلك: «اللحن كالتفتيقَ في الثوب، والجُدَرِيِّ في الوجه».

ومما يساعد الخطيب على ذلك أن يتعلم قواعد اللغة العربية من أي كتابٍ كان، ثم يركز على التطبيق العملي، بحيث يعرب كل كلمة يقولها، ويضبطها وفق القواعد التي تعلمها، ولا بأس من الاستعانة في هذا المقام بمن سبقه إلى تقويم لسانه ليتدرب على يديه، حتى يستقيم لسانه، وتصبح العربية عنده ملكة وطبيعة. وسيأتي مزيد بيان لهذه النقطة فيما بعد إن شاء الله.

(هـ) علوم أخرى:

١ - لا غنى للخطيب فوق ما سبق ذكره عن الإلمام بالأحكام الشرعية التي كثيرًا ما يتعرض للسؤال عنها، وذلك بدراسته للفقه الإسلامي بأقسامه المختلفة،

كالعبادات والمعاملات، وأحكام الأسرة، والحدود، والأيمان والنذور... إلخ.. بحيث لو اسْتُفْتِيَ في مسألة أمكنه أن يبين حكم اللهّ فيها.

٢- ويحتاج الخطيب إلى القراءة في كتب السلوك، ومن أهمها (إحياء علوم الدين للغزالي)، على أن يستأنس بتخريج أحاديثه للحافظ العراقي، أو يقرأ مختصراته (كمختصر منهاج القاصدين) للحافظ المقدسي أو كتاب (السلوك الاجتماعي) في الإسلام للشيخ حسن أيوب، أو (خلق المسلم) للشيخ محمد الغزالي أو (تربية الأولاد في الإسلام) لعبد الله ناصح علوان.

٣- كما يحتاج الخطيب إلى الإلمام بطرف من العلوم الموسومة بالعلوم الإنسانية، وهى علم النفس وعلم الاجتماع، ليقف من خلالها على أداء النفس والمجتمع وعللها والطرق المناسبة لعلاجها، وذلك من خلال النظرة الإسلامية التي تنضبط وفق القرآن الكريم والسنة المطهرة وتوظيف ذلك في خدمة دعوته.

٤- كما يحتاج الخطيب إلى معرفة عقائد الآخرين ولو على سبيل الإجمال ليبرز جمال الإسلام ويدفع الشُّبه التي تثار ضده، وحتى يتمكن من المقارنة في أي موضوع يتناوله على وجه ينتصر فيه للحق وفق القواعد العلمية والمنهجية.

٥- ولا غنى للخطيب كذلك عن معرفة الأفكار والتيارات المعاصرة كالشيوعية والوجودية والرأسمالية وغيرها، وأن يقرأ الواقع الذي يعيشه بسلبياته وإيجابياته، وما يعانيه المسلمون في عالم اليوم من مشكلات، بحيث لا يكون بعيدًا عن هذه الأحداث، وأن ينفعل بها ويتفاعل معها، مثال ذلك قضية فلسطين وما يحدث بشأنها وما يجرى على أرضها، وكذلك سائر القضايا الإسلامية الساخنة على الساحة.

والخلاصة: أن سعة المعرفة، وتعدد أوجه الثقافة ضرورة لا يستغني عنها الخطيب، ولا يتوقع نجاحه بدونها.

ومن ثمَّ يلزم الخطيب أن تكون لديه مكتبة عامرة بالكتب الإسلامية في شتى الفنون[١]، وأن يَقْضِيَ بين تلك الكتب أوقاتا كثيرة يقرأ فيها ويحفظ منها، ويفيد من ذلك عشَّاق المعرفة وطلاب الحقيقة الذين هم أمانة في عنقه، وسيحاسبه اللهَ تعالى على ما بذل من جهد لإفادتهم وتوجيههم.

ثانيًا: معرفة قواعد وأصول الخطابة[٢]:

إذا كان حب الخطيب لأدائه لرسالته، مع اتساع ثقافاته وتنوع معارفه أمرين لابد منهما كصفات عقلية لا غنى عنها لأي خطيب، فإن مما يعين على الكمال في هذا الجانب أن يطَّلَعَ الخطيب على ما كتبه أهل هذا الفن من قواعد وأصول تعين على الإجادة فيه.

إن معرفة الخطيب بتلك القواعد والأصول تساعده على تنظيم فكرته وترتيب عناصره، وتطلِعهَ على أفضل السبل في التعبير عن موضوعه، وتوقفه على أنجح الطرق للتأثير على مستمعيه والنفاذ إلى قلوبهم.

ومن البديهي أن هذه القواعد وتلك الأصول لن تصنع بذاتها من الإنسان خطيبًا، ولكن لا بد من توفر عناصر أخرى أساسية كتلك التي أشرنا إليها من

---

(١) في نهاية هذا الكتاب سوف نوضح أهم الكتب التي يحتاجها الخطيب في مكتبته.

(٢) وهذا الكتاب الذي بين يديك (**الخطيب المِصْقَعْ فارس المنبر**) قد فصلت فيه هذه القواعد والأصول تفصيلًا واضحًا، لو مشى الخطيب عليها، والتزم بها سوف يكون خطيبًا بارعًا وفارسًا من فرسان المنابر بتوفيق الله له وتسديده.

قبل ونحن نجد أن تَعَلُّمَ العروض والقافية لا يجعل من الإنسان شاعرًا، وليس كل من عرف النحو سلم من اللحن، فلابد إذن من تضافر مجموعة من العناصر لإيجاد الخطيب الناجح، ومنها معرفة قواعد وأصول هذا الفن، والتي تعرضنا على ما يخص الخطيب منها في هذه الصفحات.

«إن من يقول بالفطرة المجردة للخطيب لا يلامس الصواب في شيء، لأن معنى ذلك إلغاء دور التربية وأثرها في تكوين الإنسان وتنشئته، مع أن أثرها لا ينكر أبدًا»[(١)]. وعلى هذا تكون تلك القواعد والأصول هاديةً ومرشدةً لا موجدة ومنشئة، تنير السبيل للراغبين في سلوكه، وتوضح الطريق للسائرين فيه.

ولذا فقد أَحْسَنَتْ كليات الدعوة وأقسامها حين وضعت ضمن خطتها الدراسية مادة الخطابة، كي تساعد الطلاب من خلال الدراسةِ النظرية والتطبيقية على أن يكونوا خطباء مؤهلين للقيام بتلك الرسالة العظيمة، ويبقى على طلاب العلم أن يشمروا عن ساعد الجد ليقوموا بواجبهم في خدمة دعوتهم ونصرة دينهم إذا أرادوا أن يكونوا من هذه الأمة التي وصفها الله دون سائر الأمم بأنها خير الأمم، وعلل ذلك بكونها أمةً مؤمنة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.

وَرَدَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه حج مَرَّة فرأى من الناس دِعَةً، فقرأ هذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

ثم قال: «من سَرَّه أن يكون من هذه الأمة فليؤدِّ شرط الله فيها»[(٢)].

(١) علم الخطابة (ص١٣٢) د. أحمد أحمد غلوش.
(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٣٩٦).

الفصل الثالث

صفات الخطيب

وفيه مباحث:

المبحث الأول: صفات الخطيب.

المبحث الثاني: عُدَّة الخطيب.

المبحث الثالث: فهرسة مصادر الخطب.

المبحث الرابع: إلى كلِّ خطيب.

المبحث الخامس: مكتبة الخطيب.

المبحث السادس: أنواع الاستشهاد

الفصل الثالث

صفات الخطيب

أيها الخطيب المؤثر: إن الخطبة كاللباس المفصل على الجسد لا يظهر جماله، ولا يحسن منظره إلا بقدر انسجامه مع بدن لابسه؛ ولا يكفي لتحقق الخطبة مقصودها ولتؤتي أكلها استيفاؤها عناصرها فقط، بل لابد من الانسجام بين الخطيب وخطبته؛ وكم من خطبة مؤثرة إذا ألقاها غير صاحبها أصابت سامعها بالملل والسآمة، وما ذاك إلا لافتقار الانسجام والموافقة بين الخطيب وخطبته، ونعرض فيما يلي جملة من هذه الصفات والآداب التي ينبغي للخطيب أن يتحلى بها:

المبحث الأول: صفات الخطيب

تنقسم صفات الخطيب إلي مطلبين:

المطلب الأول: صفات تتعلَّق بذات الخطيب.

المطلب الثاني: صفات تتعلَّق بمظهر الخطيب.

وسوف نتحدَّث فيما يأتي عن هذين القسمين: بالتفصيل:

أولًا: الصفات المتعلقة بذات الخطيب.

ونقسمها إلي قسمين:

القسم الأول: قبل الخطبة.

القسم الثاني: أثناء أداء الخطبة.

وسوف نشرع فيما يلي في الحديث عن القسم الأول منها.

القسم الأول

الصفات المتعلقة بذات الخطيب قبل الخطبة

نقول: إن الصفات المتعلقة بذات الخطيب قبل الخطبة عديدة، من أهمها الصفات الآتية:

الصفة الأولى: الاستعداد الفِطْري:

فليس كل إنسان يصلح للخطابة، مهما علا شأنه وارتفعت مكانته، فالخطيب هو الذي يتفاعل مع الأحداث، فينطلق لسانه للتعبير عنها. ولذا قيل قديمًا: «ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة».

سأل سيدنا معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صحار بن عباس العبيدي: ما هذه البلاغة التي فيكم؟

فأجابه صحار: شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا.

وذكر أبو داود في الخطابة كلامًا قال فيه: «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدُّرْبة».

فالخطابة إذًا تستمد معينها من الفطرة، وتستند إلى عطاء الطبع، والخطيب الحق هو من ولد معه الاستعداد والقدرة على أداء الخطبة دون تصنع أو تكلف، وإنما يجيء منه الكلام الخطابي عفو الخاطر دون عناء، ولكنه يحتاج إلي الدربة والممارسة، ليشحذ مقدرته الخطابية وينميها، ويقويها ويهذبها.

وأما إذا فقد المرء استعداده الفطري للخطابة، فإنه مهما بذل واجتهد وتدرب، فلن يبلغ مبلغ من كانت الخطابة أصيلة في فطرته، مغروسة في طبعه.

وكم من إنسان عميق الفكر واسع العلم لم يفلح في مجال الخطابة، ولم ينجح في أدائها، على نسق من كانت الخطابة طبعه، فتجده إذا تكلم في موقف الخطيب كبا جواد لسانه، ولانت قناة منطقه؛ ولكنك قد تجده في مجال آخر يرقي أعلى المنازل، فهو إذا كتب أبدع، وبلغ ببيانه وسداد ثلمه ما لم يبلغه الخطيب المِصْقَعْ.

فنجاح الخطبة وروعتها وقوة تأثيرها يتوقف على الاستعداد الفطري عند الخطيب، وهذا لا يعني أن نغض من شأن الدُّربة، وننزل من قدرها، فهي تغني بعض الشيء فيمن لم يملك الاستعداد الفطري للخطابة، ولكن لا ترقي به إلى مصاف الخطباء المبدعين الذين يشار إليهم بالبنان، ويتمتعون بقوة الخطبة وطلاقة اللسان، إلا أنه لا يستغني عنها في دعم الاستعداد الفطري وتنميته، كما ذكرنا من قبل.

الصفة الثانية: الدربة والمران أو الارتياض والممارسة:

إن الفطرة والاطلاع وثروة الألفاظ والقراءة الكثيرة والعلم بالأصول الخطابية لا تكفي في تكوين الخطيب؛ لأن الخطابة مَلَكَةٌ، وعادة نفسية لا تتكون دفعة واحدة، بل لا بد لمريدها من المعاناة والممارسة والمران؛ لتنمية مواهبه وعلاج عيوبه، ولم يبدأ خطيب حياته كاملًا إلا المعصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكثير من الخطباء الناصعين كانت فيهم عيوب كلامية وغيرها، فلا زالوا يعالجونها ويتمرسون على الخطابة وأسبابها حتى وصلوا إلى ما هم فيه.

ورياضة النفس على الخطابة تكون بأمور كثيرة؛ بعضها يتعلق بالإلقاء، وبعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة.

ومن الرياضة التي تتعلق بالفكرة: أن يعوِّد نفسه ضبط أفكاره ووزن آرائه وعقد صلة بينها وبين واقع الناس وأمورهم الحياتية، ومنها كثرة التأمل في شؤون الحياة وتعميق الفكرة فيها والدراسة لأحوالها، وأن يعوِّد نفسه الاتصال بالناس ومعايشتهم لينبض بنبضهم ويعيش أحلامهم وأحاسيسهم.

وأما الأسلوب: فيعوِّد نفسه الحديث بجيد الكلام وكتابته، ومحاكاة البلغاء في أساليبهم، مع الحذر من أن يرتدي غير ثوبه، أو يطمس معالم شخصيته، وذلك يكون بالتقليد الأعمى لأحد الخطباء المشهورين.

وأما الإلقاء: فيعوِّد نفسه إخراج الحروف من مخارجها، وقراءة ما يستحسنه بصوت مرتفع، مصورًا بصوته معاني ما يقرأ بتغيير النبرات ورفع الصوت وخفضه، وغشيان ميادين القول والخطابة واغتنام فرصتها غير هياب ولا وجل ولا مستح، فإن الاستحياء في هذا نوع ضعف وهو يجر إلى الحبسة وموت المواهب، ويعوِّد نفسه الارتجال ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وعليه ألا ييأس إن أصابته حبسة أو ارتباك.

على الخطيب أن يعلم أن أول وآخر طريقة فعالة لتوكيد الثقة بالنفس في فن الخطابة هي أن يقف ويخطب، عليه أن يدرك أن الطريقة الوحيدة لتعلم السباحة هي النزول إلى الماء!!

وثمَّ أمر هام ينبغي التفطن إليه، وهو أن الرياضة ليست فقط لطالب الخطابة، بل لزومها ربما يكون آكد لمن شدا فيها وعظم أمره، وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم السقيفة يقول: فزورت في نفسي كلامًا، أي: إنه أعد في نفسه كلامًا وهيأها له، وهو من هو في البلاغة والفصاحة.

وهذا شيشرون -أخطب خطباء الرومان- يتمرن على إلقاء الخطبة قبل أن يقدم على إلقائها، وكانت تلك حاله حتى قتل.

ومما يتعلق بالفكرة هنا القدرة على استحضارها أو تنمية الذاكرة، وهذه مسألة هامة جِدًّا للخطيب المرتجل على وجه الخصوص، والذاكرة القوية مع كونها فطرية في أصلها إلا أن أسباب اكتسابها ربما كانت أظهر للخطيب، وقوانين التذكر الطبيعية بسيطة جِدًّا وهي ثلاثة:

(أ) الانطباع:

فهو أول قانون للذاكرة، والمقصود منه العمق والسرعة والرسوخ في الأمر المرغوب تذكره، وإن خمس دقائق من التركيز الشديد تعطي نتائج أهم بكثير مما يعطيه قضاء عدة أيام في التأمل، ويمكن للخطيب أن يعود نفسه على التركيز في الانطباع، بالاهتمام مثلًا بحفظ الأسماء الجديدة التي يتعرف عليها، وهؤلاء الذين لا يتذكرون أسماء من يتعرفون عليهم وينسونها في لحظتها حقيقة سلوكهم ليس في ضعف الذاكرة كما يرددون أحيانًا، وإنما في ضعف ملاحظتهم، ويمكن التأكيد على الانطباع الأول باستخدام أكثر من حاسة، كالنظر والسمع، ويحصل السمع إذا قرأ الإنسان ما يريد تذكره بصوت يسمعه.

(ب) التكرار:

والتكرار الأعمى لا يكفي، والمطلوب هو التكرار الذكي الذي يصاحبه جهد ذهني، وهنا أمر هام أثبتته الدراسة النفسية، وهو أن الإنسان الذي يجلس ويكرر مرارًا حتى يسيطر على ذاكرته يستخدم ضعف الوقت والطاقة

الضروريتين لتحقيق النتائج ذاتها التي يمكن الحصول عليها بإجراء عملية التكرار في فترات منفصلة.

وهذه النتيجة جد مهمة للخطيب أن يعلمها وأن يعلم أنه بتأخيره وتحضير خطبته إلى ليلة أو يوم إلقائها فإنه بذلك يفقد نصف قدرة ذاكرته؛ بسبب ما يتعرض له من إجهاد.

(جـ) ترابط الأفكار:

إن سر الذاكرة الجيدة هو ذاته سر تكوين عدة فِكَر مترابطة ومتعاكسة لدى كل حقيقة ترغب في الحصول عليها، فمثلا حتى يمكن تذكر اسم شخص ما يمكنك ربط اسمه بصفاته أو مهنته أو أحد الأسماء المتداولة، وكذا التواريخ والأرقام عن طريق ربطها بتواريخ وأرقام هامة ثابتة في الذهن، وأفضل الطرق لتذكر النقاط الرئيسة في الخطاب هو التسلسل المنطقي لعناصر الموضوع.

الصفة الثالثة: قوة البيان وفصاحة اللسان:

إن قوة البيان وفصاحة اللسان تعتبران من الصفات البارزة في الخطيب ومن أسباب نجاحه في ميدان الخطابة، إذ أن الخطيب المِصْقَعَ الذي صقلت العربية لسانه، فطاعت له الكلمات، واطمأنت عنده العبارات، فهو يسوقها إلي ما يشاء من المعاني، ويبني بها ما يريد من الأفكار.

إن مثل هذا الخطيب قادر على أن يستحوذ على القلوب، ويستولي على العقول، ويؤثر في النفوس، ويلهب المشاعر، لأن روعة بيانه وفصاحة لسانه كفيلتان بجذب الأذهان إليه وجمع القلوب عليه.

وكم من رجل آتاه الله فصاحة لسان وحسن منطق وروعة بيان، كان ذلك سببًا في ارتقائه سلم الأمجاد وبلوغه أعلى منازل الفخر والاعتزاز.

فاللسان أداة الخطيب الأولى، وطلاقته ألزم صفاته وأشدها أثرًا في نجاحه، وقد بالغ بعض الناس حتى عدها ركن الخطابة الوحيد.

وأما إذا ضعف بيان الخطيب، وعزبة فصاحته، واستعصت عليه الألفاظ العربية الفصيحة والعبارات البليغة، وتلكأ لسانه، وَعَيَّ في منطقه، فقد خاب سعيه في التأثير في نفوس المستمعين إليه وتحريك مشاعرهم.

الصفة الرابعة: الزاد العلمي:

إن الخطيبَ الناجحَ هو الذي تكون جعبةُ معرفته وخزانةُ علمه مليئةً زاخرةً، فيغترف منها حينما يتكلم في أي محفل من المحافل، كل ما يحتاج إليه من الأفكار وجميع ما يطلبه من المعاني بمنتهي السهولة والطلاقة، فلا تكل عزيمته، ولا يتأرجح موقفه، ولا تضطرب مقالته، ولا يمله سامعه.

وأما إذا كان محدود العلم، قليل الزاد، ضئيل المعرفة، ضيق الثقافة، فسوف يضطرب سير خطبته، ويكبو جواد مقالته عندما تفرغ جعبته، وينتهي مخزون معرفته، فيضطر إلي تكرار العبارات وإعادة المعاني والأفكار ليملأ ما تبقي من وقت خطبته، فينشأ عن ذلك تفشي السآمة في نفوس المستمعين إليه، وفتور انفعالهم وبرود عواطفهم وشرود أذهانهم، فينصرفون غير آسفين، ويتمنون انتهاء خطبته بفارغ الصبر، فيؤدي به ذلك إلى الإسراع في إنهاء كلمته بأي طريقة، لِيُخْرِجَ نفسه من حرج موقفه.

إن العلم والاطلاع: أولى صفات الخطيب وأهمها على الإطلاق، فقد بدأ الله بالعلم قبل العمل فقال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩]، وهو البصيرة التي جعلها شرطًا لاتباع سبيل نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:١٠٨].

والخطيب مُرَبٍّ ومُعَلمٍّ ومُوَجِّهٍ، وإذا لم يكن عالمًا مطلعًا كان ضرره أكبر من نفعه، بل لم يكن فيه نفع البتة، والعلم درجات ومنازل، منها الضروري ومنها التكميلي.

أما العلوم الضرورية اللازمة للخطيب فهي:

(١) علوم القرآن والسنة:

وهذا هو لب بضاعة الخطيب ورأس ماله، فالخطيب داعية إلى الله، ولا يمكن أن يهدي الناس ويعلمهم ويرشدهم بعيدًا عن الكتاب والسنة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا من صنيع أولئك الذين يدعون بعيدًا عن الكتاب والسنة، وأن ذلك من الدخن فقال في وصفهم: «**قوم يهدون بغير هدي ويستنون بغير سنتي**».

(أ) الخطيب والقرآن:

لا شك أن حافظ القرآن عن ظهر قلب أقدر على استحضار الآيات والاستشهاد بها، وأن هذه الصفة من صفات الكمال للخطيب، ولكن لا شك أن هناك قدرًا ضروريًّا لا غنى للخطيب عنه، هذا القدر يتعلق أولًا بالقدرة على التلاوة الصحيحة السليمة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ بغير لحن، ثم القدرة على استحضار الآيات المتعلقة بموضوع خطبته، ومعرفة أقوال أهل العلم في تفسيرها، والتمييز بين الصحيح والسقيم، والإسرائيليات، والموضوعات، وغيرها.

وليحذر الخطيب أن يقحم الآيات في غير محلها،أو يصرفها عن غير وجهها، أو يخضعها للنظريات العلمية والاكتشافات العصرية، أو يخضعها لواقعه الزمني، أو المكاني إذا كان مخالفًا لدين الله.

(ب) الخطيب والسنة النبوية:

وكما قلنا في القرآن فالقول في السنة النبوية، وهي تشمل أقوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن التأكيد هنا أشد في الحذر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، فهذا مما عمت به البلوى، وقل من يسلم منه.

(٢) علم العقيدة:

والمقصود من هذا العلم أن يكون الخطيب على دراية تامة بالعقيدة الصحيحة عقيدة السلف الصالح، أهل السنة والجماعة، وكذلك معرفة الفرق المخالفة لها والموقف الصحيح منها.

ولا نعني بذلك الدراسة النظرية المجردة المتعلقة بحفظ المتون والشروح بعيدًا عن التحرك بهذه العقيدة وفهمها والتحرك في إطارها ومن خلالها.

وإذا لم يكن الخطيب على دراية بهذه المسألة، فربما نصر الباطل وأعلى شأنه متأثرًا بحماسةٍ هوجاءٍ، أو عاطفةٍ منجرفةٍ، وهو يحسب أنه يحسن صنعًا.

مثال ذلك: تعاطف مشاهير الخطباء مع ثورة الخميني وذلك لجهلهم.

ومن المضحك المبكي ما سمعناه من كثيرٍ من الدعاةِ المبرزين في الثناء على ثورةِ الرافضةِ وإمامهم، وما ذلك إلا للجهل بعقيدتِهم وضلالتِهم.

(٣) العلم بالأحكام الشرعية المتعلقة بالإمامة والصلاة[١]:

وهذه الصفة فرع عن الصفة الأولى، ولكن أفردناها لأهميتها والتنبيه عليها، فينبغي أن يكون عالمًا بأحكام الخطبة والصلاة وشرائطها ومصححاتها ومبطلاتها وجوابرهما وكيفياتها وتكميلاتها.

ولا يشترط أن يكون عالمًا مجتهدًا مطلقًا ولا مقيدًا، ولا أن يكون مفتيًا في جميع الأحكام، ولا حبرًا لجميع الأنام، فإن ذلك من صفات الكمال، لا من صفات الصحة والإبطال[٢].

وأما العلوم التكميلية، فمنها:

١ - علم الرقاق والأخلاق:

ونقصد به العلم المستقى من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح وسيرتهم، بعيدًا عن شطحات الصوفية وأفكارها المنحرفة وسلوكها الضال.

وإذا كان هذا اعتقادنا في الصوفية وأفكارها؛ إلا أننا نأخذ في الاعتبار التفريق بين الصوفية الأولى والتي ينسب إليها عباد أهل البصرة كالحسن البصري والجنيد وغيرهم من العُبَّادِ والزُّهَّادِ، وبين غيرهم من المبتدعة والضلال، الذين لم يرثوا من القوم إلا الاسم والرسم.

مع اعتقادنا أن خير الهدي وأكمله هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن أفضل الطريق والسبل إلى الله ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) ومن أجمل الكتب في هذا الباب كتاب (الشامل في فقه الخطبة والخطيب) للدكتور سعود الشريم إمام الحرم المكي، فقد جمع وحوى كل ما يتعلق بفقه الخطبة والخطيب، فجزاه الله خيرًا، فينبغي على جميع الخطباء الوقوف عليه وتحصيل ما فيه، إن لم تجده في المكتبات الإسلامية، فبإمكانك تنزيله بصيغة pdf من على النت.

(٢) أدب الخطيب (ص٩١) بتصرف يسير.

لكن حال هؤلاء وعبادتهم وخشيتهم وزهدهم وورعهم مع ما نقل في وصفها من مبالغة أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده شيء من ذلك.

فلا ينبغي الإعراض عن سيرة هؤلاء وأقوالهم وأحوالهم، بل العدل يقتضي الإفادة منها، فكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف.

وحاجة الخطيب إلى ما يحرك المشاعر ويثير العواطف ويهيج الأحاسيس حاجة ماسة، إذ إنه بذلك يستطيع توجيه الناس للعمل وعلاج أمراضهم واستخلاص آفاتهم وإخراجهم من الطَّوْرِ النظري إلى الطُّوْرِ العملي الذي هو مقصود التوجيه والوعظ.

وينبغي للخطيب الحذر من الشطط والمبالغة في هذا الجنب، وليتحر الكتب التي تحقق له مقصوده من خلال النظرة السنية السلفية، ككتب ابن القيم وابن تيمية رحمهما الله تعالى.

٢- علم التاريخ:

فالتاريخ ودراسته يوسع آفاق الخطيب ويطلعه على أحوال الأمم وسير الرجال وتقلب الأيام بها وبهم، وفيه يرى سنن الله الكونية وعاقبة الأمم والمجتمعات والحضارات، وانتصار أو انهزام الدعوات.

فالتاريخ مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ونهاية الكفر والفجور، فهو أصدق شاهد على دعوة الرسل وأتباعهم، وقد لفت الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه إلى أهمية القصص والاتعاظ بأحوال السابقين فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢]، وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم

مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ [ق:٣٦]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].

والخطيب والداعية إذا أحسن دراسة التاريخ والإفادة منه كان أعون له في تثبيت المعاني والقيم التي يدعو إليها، لا سيما إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع.

إذا أضفنا إلى ذلك أن كثيرًا من القضايا المعاصرة لها جذورها التاريخية وأصولها السحيقة، ولا يستطيع فهم الأحداث وتفسيرها من غفل عن هذه الأصول والجذور، فلا يدرك حقيقة الصراع وطبيعته اليوم في فلسطين ودور القوى الكافرة فيه، من ينظر إليه بمعزل عن الصراع بين اليهود والنصارى من جهة، والمسلمين من جهة أخرى، وهكذا في الصراعات الدائرة في البوسنة وكوسوفا، والشيشان، والعراق، وسوريا، وليبيا، واليمن، وبورما، وغيرها.

ولا يفوتنا هنا التنبيه إلى المنهج الصحيح في دراسة التاريخ والاستقاء منه والحذر من الروايات غير الموثقة، فليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيحًا مائة في المائة، فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات، ربما كان وراءها أهواء وعصبيات سياسية، أو دينية، أو مذهبية.

وكذا يجب الحذر من الاعتماد على كُتَّاب غير مسلمين من مُنَصِّرِينَ أو مستشرقين وغيرهم، وكتابات غير أهل السنة والجماعة ممن عُرِفَ عنهم فكر منحرف أو عداء للسنة وأهلها.

٣- العلم باللغة والأدب:

ويكفي لمعرفة أهمية هذا العلم أن يستمع من له بعض الدراية باللغة ومفرداتها لكثير من الخطباء، بل أكثر الخطباء تجد المنصوب عنده مرفوعًا، والمرفوع منصوبًا أو مجرورًا، والمجرور مرفوعًا أو منصوبًا، وربما سار بعضهم على وتيرة واحدة، فينصب كل ما ينطق به لسانه، وربما رفعه كله أو جره، وهكذا يخرج المرء من الخطبة، وقد تأذى سمعه واقشعر جلده واضطرب قلبه.

بل ربما تمنى صاحبنا أن لو كان لا يعلم عن اللغة شيئًا حتى يتسنى له الاستفادة من الخطبة والاتعاظ بها.

وأما الأدب بشعره ونثره وأمثاله وحِكَمِهِ فهو نافذةُ الخطيب على الروائع والشوامخ، به يثقف لسانه ويجود أسلوبه ويرهف حسه، ومنه يحصل العبارات الرائقة والأساليب الفائقة والصور المعبرة والأمثال السائرة والحكم البالغة مما يعينه على إيصال المعنى لطبقات السامعين على اختلاف مشاربهم ومآكلهم ومواردهم.

وهـذا يتأتـى بالنظر في أقـوال البلغـاء، والتأمل في مناحـي التأثير وأسرار البلاغة.

وقد بَيَّنَّا شيئًا من هذا في وسائل الأسلوب.

٤- العلوم الإنسانية:

ومنها علوم النفس والاجتماع ونحوها مما له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة والخطابة، وهو الإنسان على اختلاف طباعه وخصائصه وثقافاته، والإلمام بهذه العلوم يعين على فهم الناس وطبائعهم وأمزجتهم ومناحي التأثير والتوجيه فيهم.

ولكن ينبغي التنبه والحذر من الإغراق في هذه العلوم وتلقيها من غير أصحاب العقيدة الصحيحة؛ إلا إذا كان لديه من العلم والقدرة ما يميز به الغث من السمين، إذ إن غالب هذه العلوم للأسف الشديد شابها نزغات الفلاسفة والمناطقة من غير أهل الإسلام، أو من أهل الإسلام الذين تبنوا المذاهب الكلامية التي على غير منهج السلف.

ومن هذه العلوم:

(أ) علم النفس:

ونقصد به العلم التجريبي الذي انتهت إليه الدراسات النفسية الحديثة القائم على الدراسة العلمية المنهجية للظواهر النفسية على أساس الملاحظة والتجربة والقياس والاختبار، ولا نقصد به ذاك الذي كان جزءًا من أجزاء الفلسفة أو ما اشتهرت به مدرسة التحليل النفسي وما انبثق عنه من نظريات باطلة لا دليل عليها.

وهذا العلم تكمن أهميته في إعانة الخطيب والداعية على فهم نفسية من يتوجه إليهم بالخطاب، وما يؤثر فيهم ويشغل اهتماماتهم، وهل قول ابن مسعود لما قيل له: «يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالمَوْعِظَةِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»[1] هل هذا القول إلا من هذه المشكاة، بل هو أصل في هذه المشكاة؟

(ب) علم الاجتماع:

وهو العلم الذي يُعنى بدراسة المجتمع البشري في مختلف جوانبه، ويعمل

(١) أخرجه البخاري في(٣) كتاب العلم (١٢) باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة.

على تحليل ظواهره، والكشف عن القوانين التي تحكم مسيرته.

وهذا العلم له مدارس عديدة، واتجاهات متباينة، لكل منها مناهجه في البحث والتحليل، ويحسن بالداعية والخطيب أن يطلع على نبذة من أصول هذا العلم وأهم مقرراته وأحدث ما انتهى إليه رجاله. ويجب الانتباه إلى ضرورة تناول أسس هذا العلم من منظور إسلامي، وَوَفْقِ العقيدة الصحيحة.

٥- الإلمام بأصول الثقافة المعاصرة:

فالمسلم اليوم يعيش في عالم مفتوح، ما يجري في مشرقه يتم الاطلاع عليه وسماعه وقراءته في يومه، بل ربما في ساعته، والإعلام اليوم ومَن يقفون وراءه غالبًا ما يمثلون المبادئ المخالفة للإسلام من يهود ونصارى وعلمانيين ومن على شاكلتهم، وهؤلاء يوجهون الدفة إلى حيث يريدون أن يغرسوا أذهان الناس وعقولهم خاصة أهل الإسلام.

كثير من الناس لا يعرفون إلا ما تخاطبهم به هذه الوسائل، ويتلقونها ويرونها حقائق مُسَلَّمة لا تقبل الجدال والنقاش، ولا يمكن أن يُكْشَفَ اللِّثامُ عن حقيقتها وَوِجْهَتِهَا إلا من خلال إعلام مسلم فعال مواكب جاد، ويبقى المنبر هو رائد هذا الإعلام وفارسه وصاحب الكلمة العليا فيه، ولكن للأسف الشديد فإن الخطباء لا يدركون هذه الحقيقة، ولا يروون ظمأ الجماهير التي تأتي المسجد تريد معرفة وجه الحق والنظرة الصحيحة المستقاة من الشريعة الغرَّاء لما يجد من مُلِمَّاتٍ وأحداث؛ ولكنها تصدم بخطيبها الذي لا يدرك عن الأمر شيئًا، وربما إذا تحدث فيه تحدث عن غير علم ودراية، فيزيد الطين بلة.

فينبغي للخطيب أن يكون عارفًا بمواقع الثقافة الجديدة وأهوائها الفكرية، وخلفياتها وأبعادها القريبة والبعيدة، وأن يكون متابعًا لأحوال الأمة واهتماماتها وما يراد بها.

ولا نعني بذلك أن تكون رغبة الجماهير هي المسيطرة والموجهة لدفة المنبر وما يطرحه من موضوعات، وإنما المقصود أن كثيرًا من القضايا والمستجدات التي تحل بالأمة ويتناولها جميع أهل الأرض إلا أصحاب الشأن وهم المسلمون، ولسان حالهم ومقالهم وهم الخطباء.

وأهم أصول هذه الثقافة هي:

(أ) واقع العالم الإسلامي:

فما أقبح بالخطيب أن يجهل أحوال أمته وواقع عالِمَهَ، وإلَّا فأين الجسد الواحد؟ ومن أين تستقي الجماهير أخبار إخوانهم؟ وكيف يمكنهم مد العون لهم؟ أو على الأقل المشاركة بالدعاء والدعم المعنوي لقضاياهم وأزماتهم؟!.

(ب) واقع القُوَى العالمية المعادية للإسلام:

إن تكالب أعداء الإسلام على الإسلام ودعاته أمرٌ لا ينكره إلا مكابر، وتنوع أساليب الأعداء وتبادلهم الأدوار، فهذا اليوم يقدم بدور الحمائم، وغدًا يكون هو الصقر الذي ينقض على فريسته، ومع غفلة الأمة عن إدراك حقيقة الصراع وطبيعته، يصبح دور الدعاة والخطباء أمرًا لازمًا لتبصير الأمة بهؤلاء الأعداء وأساليبهم ومؤامراتهم، ولكن للأسف الشديد الناظر في أحوال الأمة اليوم يدرك غياب هذا الدور تمامًا، ولا زالت تلهث وراء أعدائها وتتعلق آمالها بهم غافلة عن تاريخهم وعدائهم ومكرهم، وما ذاك إلا لأنهم يقومون بدور

الحمائم اليوم، ومن ذلك تعلق المسلمين بمجلس الأمم المتحدة اليوم؛ ليعيدوا إليهم حقوقهم السليبة، وكرامتهم المفقودة؛ وأرضهم المغتصبة؛ ناسيةً أو متناسيةً دورهم القبيح وأفعالهم الشنيعة مع الشعوب المسلمة.

فإدراك الخطيب بهذا الواقع وأساليب الأعداء من اقتصادية وسياسية وفكرية، وتنوع صورها من مؤسسات تنصيرية، أو تبشيرية، أو استشراقية، أو ماسونية، وتحذيره الأمة وتبصيرها بذلك من شأنه أن يقيها ضربات موجعة مؤلمة، ولكن يجب الانتباه إلى أمرين هما:

الأول: عدم التهويل والمبالغة في شأنها، الأمر الذي ربما سبب اليأس والقعود، كما أن التهوين يسبب الاستهانة وعدم الأخذ بالأسباب.

والأخر: إدراك طبيعة العلاقة بين هذه القُوَى المعادية، وأنهم تحسبهم جميعًا، وقلوبهم شَتَّى.

(جـ) واقع الأديان المعاصرة:

فمعرفة واقع الأديان المعاصرة وما اعتراها من تحريف وانحراف أمر ذو بال؛ فمعرفة اليهودية بتوراتها المحرفة وتلمودها ونظرته إلى الأمميين، وانعكاس ذلك على الحركة الصهيونية وطبيعة الصراع الإسرائيلي.

ومعرفة النصرانية بطوائفها وكنائسها وما بينها من صراعات وخلافات ومحاولات ما يسمى بالتقارب النصراني اليهودي، وتبرئة اليهود من دم المسيح وما ترتب على ذلك من تغير طبيعة الصراع بينهما وتوحيد الجبهة ضد المسلمين.

وكذا معرفة أديان الشرق الأقصى الكبرى من هندوسية، أو بوذية، وطبيعة العلاقة بينها وبين المسلمين، كل ذلك رصيد يحتاجه الخطيب، ولا غنى له عنه.

(د) واقع المذاهب السياسية المعاصرة:

من شيوعية ورأسمالية واشتراكية وديمقراطية وعلمانية وقومية وعولمة، ومعرفة الفرق بينها وأبعادها ومدارسها، وصور ممارساتها في العالم الإسلامي، ولبوس الزور التي تلبسها للتلبيس على المسلمين، وموقف الإسلام منها ومبادئها.

(هـ) واقع الحركات الإسلامية المعاصرة:

ومعرفة أصولها الفكرية والحركية ومبادئها وحجم دعوتها وتأثيرها، وكيفية دعم الحركات التي على منهج أهل السنة والجماعة، والحذر من الحركات المخالفة لهذا المنهج، مع النظرة الصحيحة القائمة على العدل، والمستقاة من النظرة الصحيحة في التعامل معها.

الصفة الخامسة: الربانية:

كيف تكون عبدًا ربانيًّا؟؟

أيها الخطيب المِصقع: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ بُسْرٍ، قَالَ: كَانَ يُقَالُ: «إِذَا جَلَسْتَ فِي قَوْمٍ فِيهِمْ عِشْرُونَ رَجُلًا أَقَلُّ أَوْ أَكْثَرُ فَتَصَفَّحْتَ وُجُوهَهُمْ فَلَمْ تَرَ فِيهِمْ أَحَدًا يُهَابُ فِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَاعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ رَقَّ»[(١)].

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٥٠٥، رقم ٩٠٧٧)، وابن عساكر (٢٧/ ١٥٧)، رواه أحمد والطبراني في الكبير بنحوه وإسناده حسن ورجاله موثقون وأزهر بن عبد الله قال فيه البخاري: إنه أزهر بن سعيد، قال فيه الذهبي: تابعي حسن الحديث.

وتساءلت: هل رق الأمر؟؟ هل رق الأمر؟؟ تكون في مجلس عشرين أو ثلاثين أو خمسين في عملك، في جيرانك، في حافلة، في قطار، في طريق تتصفح عشرين أو خمسين تجد من كل عشرين رجلًا يُهاب لله! وتذكرت قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالت له أم المؤمنين: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَالَ: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»(١).

إن النسبة المطلوبة لإنقاذ الأمة على الأقل خمسة بالمئة، رجلًا من كل عشرين خمسة بالمئة ولكن هؤلاء الخمسة ربانيون تذكر الله برؤيتهم، خَيْرُكُمْ مَنْ إِذَا رُؤِّيَ ذُكِرَ الله.

إذا كنت في وسط النهار فأحست بقلبك قسوة، فهل تجد حولك رجلًا إذا نظرت في وجهه زادك ذلك خشوعًا؟ هل تجد ذلك الرجل؟؟

كان جعفر الصادق يقول: إذا وجدت من قلبي قساوة أتيت محمد بن واسع فنظرت إلى وجهه فزادني ذلك خشوعًا أسبوعًا

وكان ابن القيم عليه رحمة الله يقول: كنا إذا شاءت بنا الظنون وغلبتنا الهموم أتينا شيخ الإسلام ابن تيمية فما أن نجلس إليه وننظر في وجهه حتى يعود إلى قلوبنا البِشر وإلى صدورنا الانشراح.

إننا بحاجة لهذا النموذج من الرجال أن يكون في خطباء المساجد.

كان يوسف بن يعقوب الماجِشون يقول: إن رؤية محمد بن المنكدر تنفعني في ديني... تنفعني في ديني.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٩، رقم ٣٧٢١٤)، والبخاري (٣/ ١٣١٧، رقم ٣٤٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٨، رقم ٢٨٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٧، رقم ١١٣٣٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥، رقم ٣٩٥٣). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٢/ ٣٤، رقم ٣٢٧).

هؤلاء الرجال الذين رؤيتهم تنفع في الدين ومشاهدتهم تفيد في إصلاح القلوب ءأنت منهم؟ المطلوب أن تكونوا منهم أيها الإخوة:

إن أشر ما في الأمر أن كلًا منَّا يُلقى بالتبعة عن كاهله ويدفعها عن عاتقه ويُلزم بها غيره فينظر إلى أحوال الدعاة أو المشايخ أو الخطباء أو الإخوة. وَلِمَ لا تكون أنت؟

إنها قضية أن نفهم أن مسؤولية الإسلام لازمة علينا جميعًا؛ لذا أيها الخطباء أردت أن أذكر هذه الصفة في صفات الخطيب المصقع، صفة من صفات المؤمنين، وعنصر من عناصر صناعة الشخصية المسلمة الربَّانية.. الربَّانية..، صفة الربَّانية، يقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف هؤلاء: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦، ١٤٧]، هؤلاء هم الربانيون يقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩، ٨٠].

وَقَالَ تَعَالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة:٦٣]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟

ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].

هذه الآيات كلها صفات الربانيين، وبهم أردت أن أقْتَصرَ على سرد صفات الربانيين، وفى سرد هذه الصفات يتبين لك كيف تكون منهم؟؟.

في زمن الفتن في الظلمة الحالكة للمآسي والظُّلَّم يعيش الربانيون في نور، يعيش الربانيون على بصيرة في نور العلم، ونور الهداية، ونور الصبر، والصبر ضياء كما قال سيد البشر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، الربانيون يعيشون بهذه الأنوار، ولذا أول ما يأتينا من صفات الربانيين أنهم قومٌ لا تتعلق قلوبهم ببشرٍ، ولو كانوا رسلًا، بل تتعلق قلوبهم بالله وحده.

الرباني قد تعلق قلبه بالله لا بالنبي، وشيءٌ يُحزن أن تقول هذا الكلام لخطباء تعلقت قلوبهم بالدنيا فماذا تقول؟... مأساة مأساة مأساة بجميع المقاييس، يقول

(١) هذا هو الحديث، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الصَّبْرُ ضِيَاءٌ**».
أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وصححه الألباني فقال في ظلال الجنة: (٢/ ٢٧٧) حديث صحيح ورجال إسناده ثقات رجال مسلم غير الرجل الذي لم يسم هنا وقد سماه مسلم وغيره كما يأتي زيدًا وهو ابن سلام.
والحديث أخرجه أحمد من طريق يحيى بن إسحاق وعفان كلاهما عن أبان بن يزيد ثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام به مرفوعا بلفظ الطهور شطر الإيمان الحديث وفيه هذه الفقرة التي ساقها المصنف وقد خرجت الحديث في تخريج مشكلة الفقر رقم وقد سقط من هذه الطريق ذكر الرجل مطلقا والظاهر أنه رواية يحيى بن إسحاق فقد أعاد أحمد رواية عفان وحدها وفيها إثبات الرجل وتسميته فقال ثنا عفان ثنا أبان حدثني يحيى بن أبي كثير عن زيد عن أبي سلام به وتابعه حبان بن هلال حدثنا أبان حدثنا يحيى أن زيدا حدثه به أخرجه مسلم والترمذي وقال حديث صحيح
وتابعه معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام به لكنه قال عن جده أبي سلام عن عبد الرحمن بن غنم أن أبا مالك الأشعري حدثه به فزاد في الإسناد ابن غنم أخرجه النسائي بإسناد جيد.

ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩].

في غزوة أُحد أُشِيع أنَّ النبَّي قد مات صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فداه أبي وأمي ونفسي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، اهتزت لذلك قلوب المؤمنين، وفى غزوة أحد دروس عظيمة وفوائد جمَّة ربَّى الله عليها أمة الحبيب، ومن هذه الدروس: درس موت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، غياب النبي عن الساحة صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، هذا الدرس ربَّى الله عليه الصحابة، قال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ وما... إلا، الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، والقصر ما محمد إلا رسول، رسول يعني رجل أَرْسَلْتَهُ إليكم ليُبلِغكم وقد بلَّغ فإذا مات فالقضية عندكم لا عنده ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، نعم أراد الله أنْ يربي الأمة على أنَّ التعلق به وحده، فالدين دينه، والأمر أمره، والشرع شرعه، والهداية منه والثبات منه، فالتعلق به وليس لشخص رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أيُّ أثر في هذا دون الله، قال الله للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢] قال الله للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦]، فأراد الله أن يربي الأمة عَلَى أن التعلق إنما بالله لا بشخص رسول الله، وعلى هذا يُرَبَّى الربانيون، ويُرَبُّون مَن بعدهم، فالعبد الربانيُّ عبدٌ لله وحده لا لأحد مع الله، فينبغي ألا نخلط ما لله من حَقٍّ بما للرسول من حقٍّ.

يا معشر الخطباء: العبد الرباني متعلق بالله وحده:

إن بعض الخطباء تعلقت قلوبهم بأشخاص الدعاة والمشايخ والعلماء وبأسمائهم، وهذا باطل من كل وجه، وخطرٌ على دينك أن يتعلق قلبك بشخص باسمه أو بصورته أو بفعله أو بكلامه، إنما هذا الشخص مجرد دلَّال على بضاعة الله، فخذ البضاعة، ولا تنشغل بالدلَّال؛ إن أي شيخ الآن بين لحظة وأختها يموت أو يسجن أو يفتن أو يضيع، وارد ليس على أحد مأمن، فتعلق دينك بالرجال خطر عليك، ونحن في عصر يُشَنَّعُ فيه على أهل الدين أيّ صحفي تافه يُصبح فيكتب مقالة في عيب المفتي أو الشيخ أو العالم أو الداعية أو غيره، وللأسف الشديد يصبح هذا الكلام قرار اتهام يُصَدَّقُ فيه الكاذب ويُكذَّب فيه الصادق، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَ يَدِي السَّاعَةِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُتَّهَمُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْمُتَّهَمُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**». قَالُوا: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**السَّفِيهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**». وفي رواية: «**الْفَاسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**». وفي رواية الإمام أحمد: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ الدجال سِنِينَ خدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ**»[(١)]

إننا في عصر خطر، فتعلق قلبك بالشخص خطر، فقد يُهدَم الشخص بنحوٍ ما أو بطريقة ما فيُهدَم عندك الدين.

كُن ربانيًّا: فإذا بلغك أنَّ فلانًا أذنب، أو أخطأ، أو فُتِنَ، أو ضَلَّ، أو ضاع، أو ترك أو خان، كل هذا لا يؤثر فيك إنما أنت تعمل لقضية الدين، وعلى هذا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٠، رقم ١٣٣٢٢). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٦/ ٣٧٨، رقم ٣٧١٥)، والطبرانى فى الأوسط، (٣/ ٣١٣، رقم ٣٢٥٨). قال الهيثمى (٧/ ٢٨٤): فيه ابن إسحاق وهو مدلس وفى إسناد الطبرانى ابن لهيعة وهو لين.

ربَّي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صحابته، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا وَيَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولُ اللهِ وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللهُ** عَزَّوَجَلَّ» حَدَّثَنَاه الأَشْيَبُ عَنْ حَمَّادٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ وَعَفَّانُ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ: «**وَلَا يَسْتَجْرِئَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»[(١)]، إنما أنا عبد وانتهت القضية، مات رسول الله ووقف أبو بكر يقول قولته المشهورة: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، فما ارتد من الصحابة رجل واحد ما ارتد أحد بسبب موت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإنما ارتد من ارتد بسبب قضية الزكاة أو غيرها، أما بسبب فقدان شخص النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلم يفعل ذلك أحد.

فأول صفة من صفات الربانية: «أن يتعلق قلبك بالله».

وكما قال شيخ الإسلام: لن تصح لك عبودية مادام لغير الله فيك بغية حتى يطهر قلبك حتى لا يبقى فيه غير الله، قال محمد بن المنكدر لرجل: لأُعَلِّمَنَّكَ كلمةً هي خيرٌ من الدنيا وما فيها، إذا سخط الخلق من قلبك فلم يعد في قلبك أحد إلا طلب رضا الله ما سألت الله شيئًا إلا أعطاك إياه.

إن كثيرًا من الناس اليوم لم يتعلق بأشخاص الدعاة فحسب، وإنما يعلق قلبه بالناس، ماذا يقول الناس عنه؟ وماذا يظن الناس به؟ وماذا يتصور الناس فيه؟

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (ص ٣٩٧، رقم ١٣٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٢٦ رقم ٤٨٧١)، والضياء (٥/ ٢٦، رقم ١٦٢٨). وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (٦/ ٧١، رقم ١٠٠٧٨). أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٥٣، رقم ١٢٥٧٣) تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم.

تعلق القلب بالخلق بهذه الطريقة يجعله يعيش للخلق لا لله، إن ضابط قضية الزهد أن الإسلام لا يحجر على المال، بل الأغنياء لهم فضل عند الله بما أنفقوا من أموالهم وهذا محل شكوى الفقراء قالوا: «**يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْأَغْنِيَاءَ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَلَهُمْ أَمْوَالٌ يَتَصَدَّقُونَ وَيُنْفِقُونَ**»[(١)]، **الشاهد:** ولكن الضابط عند الأغنياء في قضية الزهد في الدنيا ألَّا يخشى الفقر، بل إذا تصور الفقر رضيه وَقَبِلَه، وَلَمْ يَأْنَفْ مِنْهُ، ولم يحتجَّ على ربه، ولم يعترض، ولم يكن في صدره حرج، هذا هو الشرط أنه يفتقد مسكنه ومتاعه وعمله ودابَّته، فيعيش في مسكنه ضيِّقٍ، ويتكبَّد عناء السير، هو لا يأنف من هذا إذا كان، فهو راضٍ بالله غنيٌّ به، هذا هو الضابط، أما إذا كان يقول: لا..أفتقر.. وماذا يقول الناس عني؟! وكيف ينظر الناس إليَّ؟! وكيف أعيش في وسط هؤلاء الناس؟! فهو حين ذاك عبد ماله لا عبد ربه.

تعلق القلب بالله صفة الربَّانيِّ، فهو ليس عبدًا للمال ولا عبدًا للناس، ولا عبدًا للنساء، ولا عبدًا للشهوات، ولا عبدًا للمنصب والجاه والوظيفة، ولا عبدًا لمن يدعوه ويرتبط به، إنما هو عبدٌ لله وحده... وحده... وحده... وحده.

وهذا هو الذي تُربيِّ نفسك عليه أيها الخطيب، وما تربي عليه جمهورك الذي يسمعك في كل جمعة ويتعلق بك، وينتظرك، وهذه هي وظيفتك في الأرض، تعبيد الناس لرب العالمين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤١٠) قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد المصري، وعلي بن حجر. والنسائي (٣/ ٧٨). وفي الكبرى (١١٨٥) قال: أخبرنا علي بن حجر. كلاهما (إسحاق، وابن حجر) قالا: حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن مجاهد، وعكرمة، فذكراه، قال النسائي: عتاب ليس بالقوي، ولا خصيف. «تحفة الأشراف» (٦٠٦٨).

الصفة الثانية من صفات الربَّانيين: «أنهم أهل العلم»:

قال الله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] فهو يدرس العلم ويعلمه، عالمٌ مُعلِّم مُربٍّ مُربًّا، طالب علمٍ داعية، شيخٌ تلميذ، هو يعيش العمر يطلب العلم، خرج الإمام أحمد قبل صلاة الصبح يطلب مجلس أحد المشايخ فقيل له: إلى متى تطلب العلم؟! قال: مع المحبرة إلى المقبرة. ويُذكَر أن الإمام ابن الجوزي عليه رحمة الله قرأ بالعشر في الثمانين من عمره، ذهب يقرأ القرآن على شيخ وعمره ثمانين سنة؛ إن كثيرًا منا يأنف أن يطلب العلم يقول: كبرت وانشغلت واتسعت عليَّ الدنيا دع الأولاد يتعلمون وأنت؛ فلذا لابد على الأب أن يطلب العلم ليعلم ابنه ويربيه، ليوجه ابنه ويُذكِّره، ليحاسب ابنه ويُثبته؛ ليدل ابنه ويرشده، ليعاتب ابنه ويصلحه؛ ليعيش معيشة صحيحة، فطلب العلم على الكبار قبل الصغار.

طلبُ العِلْمِ فرضٌ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»(١) افتح كتابًا من كتب العقيدة، واقرأ كتابًا من كتب الفقه، وادرس كتابًا من كتب السيرة، وتناول التفسير مع زوجتك وأولادك كل يوم.

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع الجوامع أو الجامع الكبير (ص١٤٠٧٨) حديث أنس: أخرجه ابن عدى (١/ ٢٠٢، ترجمة ٤٨ أحمد بن هارون بن موسى) وقال: له نسخ موضوعة مناكير ليس عند أحد منها شيء كنا نتهمه بوضعها. وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٥٤، رقم ١٦٦٥)، وابن عساكر(٥٢/ ٣٤١). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٥/ ٢٢٣، رقم ٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (١/ ٧، رقم ٩)، وفي الصغير (١/ ٣٦، رقم ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٣)، والإسماعيلي في معجم الشيوخ (٣/ ٧٧٥)، والقضاعي (١/ ١٣٦، رقم ١٧٥)، والبزار (١/ ١٧٢، رقم ٩٤) وقال: هذا كذب ليس له أصل عن ثابت عن أنس فأما ما يذكر عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**» فقد روى عن أنس من غير وجه وكل ما يروى فيها عن أنس فغير صحيح.

طلب العلم اسعَ استمع إلى المحاضرات واقرأ في الكتب، واقرأ البحوث الفقهية، تعلم.. تعلَّم تكن ربانيًّا، ولا عبرة في ذلك بسن كبيرٍ أو صغيرٍ مهما بلغ بك السن تعلَّم.

انظر لجابر بن عبد الله بعد موت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلغه أن هناك حديثًا في الشام ليس عنده، يشترى دابة بألف درهم ويضرب أكباد الإبل شهرًا من المدينة إلى دمشق ليسمع حديثًا واحدًا من صحابي...حديث واحد وأنت بين يديك ستة مجلدات مسند الإمام أحمد سبعة وعشرين ألف حديث وزيادة، أمامك بضغطة واحدة على جهاز الكمبيوتر ينفتح أمامك صحيح البخاري أربعة آلاف حديثًا، ماذا تريد؟ في مجلد واحد صغير بين يديك تتصفحه (رياض الصالحين) ألف وخمسمائة حديثًا صحيحًا بدون أن تتكلف (رياض الصالحين) بمبلغ يسير أو... أو... تقوم بتحميله على الهواتف الذكية مجانًا فيكون بين يديك ألف وخمسمائة حديثًا صحيحًا تقرأه في يومين.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً**»(١)، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري ت (٨/ ٥٦٧) برقم (٣٤٦١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٦، رقم ٤١٥٧)، والترمذى (٥/ ٣٤، رقم ٢٦٥٧) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (١/ ٢٦٨، رقم ٦٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٢٧٤، رقم ١٧٣٨). وأخرجه أيضًا: البزار (٥/ ٣٨٢، رقم ٢٠١٤)، والشاشى (١/ ٣١٤، رقم ٢٧٥)، وابن عدي (٦/ ٤٦٢، ترجمة ١٩٤٢ مهران بن أبى عمر الرازى).

الصفة الثالثة من صفات الربانية: «صابر»:

صابرٌ صبورٌ يواجه المكايد والمناكد وهو كالجبل الراسخ، قال الله الملك ذو الجلال جَلَّجَلَالُهُ العليّ سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، صفتهم الصبر، والصبر أمام فتنة الدنيا، الصبر أمام مشكلة الأذى، الصبر على الفقر، والصبر على أذى الجيران ومن حوله، الصبر سِمتُهم، الصبر والصبر الطويل، والصبر الجميل، صبر بلا ضجر، وصابَر الصبر حتى قال له الصبر إلى متى الصبر؟ فقال له يا صبر صبرًا، الصبر وتحقيق مقام الصبر على الصبر، وكثيرًا ما يقول لك: إلى متى سوف نصبر؟ حتى يأتي الله بأمره، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤]، قيل للإمام الشافعي: أحب إليك أن يُمَكَّنَ الرجل أو يُبتلى، قال: لا يُمَكن حتى يبتلى. البلاء لازم، والأذى لازم، والتضييق لازم، والفقر لازم، والهم لازم، اصبر لله، والعبد الرباني صابر الصبر الجميل، حبس اللسان عن الشكوى، وحبس القلب عن التسخط، هذا هو الصبر الجميل، صبر بلا جزع صبر، بلا استعجال، صبر برضا إنه استمراء المر، واستعذاب العذاب في طلب رضا رب الأرباب، الصبر.

الصفة الرابعة من الربانية: «التأله والتنسك»:

صفة العبد الرباني أنه عابد ناسك متأله مخبت خاشع منكسر لله ذليل مقبل متواضع؛ إنه لا يفتر لسانه عن الذكر، ولا عقله عن التفكر، ولا قلبه عن حفظ القرآن، ولا جسده عن القيام في العبادة، ولا لسانه عن بذل الخير للخلق، ولا...، لا يَكُف العبد الرباني عن العبادة، تجده وقت الصلاة في صلاة، وبعد الصلاة في ذكر، وبعد الذكر في تلاوة قرآن، وبالصفة الدائمة صائمًا، وفي الليل قائمًا، ومن المال متصدقًا، وفي صلة الرحم مسارعًا، وفى هداية الخلق عاملًا، وفى اصلاح الخلق وخدمة المسلمين مسارعًا، رباني يعمل لربه ببساطة هذا معناها البسيط الدارج، إنه رجلٌ رباني، فليس لغير الله له فيه شيء، إنما هو لله؛ فإذا قام على خدمة أهله إنما هو لله، وإذا عمل على إصلاح ماله فإنما هو لله، وإن جلس مع أولاده فإنما ذلك لا لشهوة بل لله، نعم إنه متعلق القلب بالله.

الصفة الخامسة للربانية: «العبد الرباني غيورٌ لله»:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣]، العبد الرباني غيور على محارم الله، كان رسول الله ﷺ لا يغضب لنفسه قط، فإذا انتُهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء، انظر لما سرقت مخزومية من بني مخزوم من الأشراف فأراد رسول الله ﷺ قطع يدها فجاءوه يكلمونه فهابوه، فقالوا: من يكلمه قالوا: أسامة بن زيد حِبُّه ابن حِبِّه، فَزَيْدُ بن حارثة حبيب رسول الله ﷺ كان قد تبناه وسمَّاه زيد بن محمد ابنه أسامة حبيبه يدله فقالوا: دعوا حبيبه يكلمه فقام أسامة وقال: يا رسول الله المخزومية، أسامة غلام ورسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه، ويخلو به، فلما تكلم أسامة هذه الكلمة غضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحمَّر وجهه، وانتفخت أوداجه، وقال: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[(١)] الغيرة لله وهنا يعجز اللسان عن وصف حال المسلمين اليوم في أمر الغيرة حين ترى المتبرجات في الشوارع لا تدرى أتتساءل عن غيرة أبيها وأخيها أم تتساءل عن غيرة المسلمين الذين ينظرون فيشتهون، ليست مصيبة هؤلاء بأقل من مصيبة هؤلاء، إنك حين ترى امرأة متبرجة في الشارع تتساءل أهذه خرجت من بيت رجل؟ مستحيل، أيًّا كان هذا الرجل، ولا أقول بيت مسلم، رجل يدع ابنته أو زوجته أو أخته تخرج بكامل زينتها وعليها ملابس كأنها عارية! أي رجلٍ يرضى هذا؟! لقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا اسْتَعْطَرَتِ الْمَرْأَةُ فَمَرَّتْ على القوم لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ**»[(٢)] فما بالك بامرأة لبست ليرى الناس مفاتنها تكون؟ ماذا تكون؟ ثم هذه المرأة التي خرجت أمام أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها بهذا المنظر كلما كُتبت عليها زنية كُتبت على هذا الديوث مثلها، فإنه مُقِر، أين الغيرة؟! ثم تجدنا نمشي في الشارع ونرى وما يغضب أحدنا لله!!! ولكن على الأقل أن ينكر قلبك، أن يحزن قلبك، أن تتألم نفسك، أن تحمل الهم، أن تغار لله تعالى، تقول: يا رب حرماتك قد انتهكت، وهذه يدي قد قُيِّدت، ولساني قد مُنع وحُجب فاعذرني

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ت (٨/ ٥٨٦)، برقم (٣٤٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٧٩، رقم ٤١٧٣)، والترمذي (٥/ ١٠٦ رقم ٢٧٨٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٨/ ١٥٣، رقم ٥١٢٦). وأخرجه أيضًا: أحمد (٤/ ٤٠٠، رقم ١٩٥٩٣).

فإن قلبي يقطر دمًا من أجل دينك وشرعك، هذا على الأقل الحد الأدنى، ما بعد ذلك حبة خردل من إيمان، أما أن تنظر وتشتهى فأنت شريك في الإثم.

الغيرة... العبد الرباني غيور.

قال العبد الرباني عمر بن عبد العزيز: وددت لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وقُرِّض جسمي بالمقاريض، قال العبد الرباني عمر بن عبد العزيز: وددت أن أُقيم فيكم سُنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلما أقمت سُنَّة وقع عضو من أعضائي حتى يكون آخر ذلك خروج نفسي.

هذه هي الغيرة، الغيرة أن تحمل همَّ هذا الدين، قَالَ اللهُ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠]، قتلوه قتلهم الله، قتلوه حين قال اسمعوني فقتلوه، فلما قُتِل قيل ادخل الجنة، فبعد أن دخل الجنة ما نسي القضية قال الله تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٦، ٢٧]، الله أكبر، العبد الرباني لا يزال ناصحًا للأمة وإن آذوه، وإن ضربوه، وإن سبّوه، وإن أهانوه، وإن حبسوه، وإن قتلوه، يظل يدعو للأمة أن يهدى الله به بعض الأمة.

أيها الخطباء: لابد أن تثور الغيرة لله في قلوبنا بأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر بلطف، مُر بالمعروفِ بمعروفٍ، وانه عن المنكرِ، بغير منكرٍ، وقدِّم الدين للناس في صورة حسنة، وبلِّغ الدين، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

نعم إنك بحاجة إلى أن تثور في قلبك الغيرة، إن أكبر جماعة على الساحة في هذه الأيام جماعة لها اسم مشهور، جماعة الأنامالية وأنا مالي، هذه الجماعة أتباعها كثير (وانا مالي) أنت أمام الله مسؤول، وعن دينك مسؤول؛ فإن لم تغر فأمام ربك سيسألك عن علمك ماذا عملت به.

الصفة السادسة من صفات الربانية: «الربانيون يحكمون بما أنزل الله ويقيمون شرع الله»:

ففي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] فهؤلاء الربانيون يحكمون بما أنزل الله، هؤلاء الربانيون يقيمون شرع الله ودائمًا إذا تكلمنا عن الحكم بما أنزل الله انصرفت الأذهان مباشرة إلى الحاكم، دعك من هذا، فليس من شأننا، شأنه إنما شأني أنت يا من تقرأ هذه الكلمات، هل أنت تقيم حكم الله وشرعه في نفسك ومن تعول؟ هل أنت تقيم حكم الله وشرعه في نفسك وأعمالك وأحوالك ومعاملاتك وبيتك ومن تستطيع أن تحكم فيهم؟ تلكم البداية من القاعدة، تلكم البداية من الأصل، تلكم البداية الصحيحة من عند نفسك، إن الذى يتحدث عن التغيير في كل شيء إن لم يبدأ من عند نفسه لن يغير شيئًا على الإطلاق، نعم أنت هل أنت تحكم بشرع الله في زوجتك وأولادك؟ في عملك وأنت عنه مسؤول؟ في نفسك وتصرفاتك؟ في معاملاتك مع الآخرين؟ في من تقدر أن تقيم عليهم حكم الله؟ أنت لا تفعل؟

فلمَ تطالب غيرك وأنت لا تفعل؟! فالرباني عبد..، والعَبْدُ حين يريد أن يتحرك لا يتحرك إلا بإذن سيده..، عبد هذه صفته، يقول أحد الناس أنه يشعر بالخشوع وحلاوة الصلاة وهو وحده أكثر من شعوره بالخشوع في صلاة الجماعة قيل له: أنت تصلي لله لا لنفسك، فصلِ كما يريد الله لا كما تريد، نعم العبد الرباني يقيم شرع الله وإن خالف هواه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات:١]، عجيبٌ أمر الخطباء في هذه الأيام، ابنك لماذا لا يصلي في المسجد؟ لماذا لا يحفظ القرآن؟ بيتك لماذا فيه تلفاز؟ سبحان الملك أوقات الامتحانات يُنزع التلفاز ويوضع في الدولاب ويُغطى ويُمنع تمامًا لماذا؟! الامتحانات نريد أن ينجح الأولاد، استطعنا يعني أن نستغنى عن التلفاز، وأن نترك مباريات الكرة، استطعنا فلم لا نستطيع أن نفعل هذا لله؟ دفعًا للمعاصي والذنوب! نعم ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ [المائدة:٤٤] الربانيون يحكمون بما أنزل الله، أنت مُطالب أن تُنَفِّذَ في نفسك وزوجتك وبيتك وعملك وجيرانك ومن تستطيع أن تُقيم فيهم حكم الله، أن تقيم حكم الله يا رباني أم ماذا؟.

الصفة السابعة من صفات الربانية: «أنهم حفظة شهداء»:

قال تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة:٤٤] فهم حفظة لكتاب الله، يحفظون المصحف، يحملون بين جنباتهم القرآن، ثم هم عليه شهداء.. شهداء.. يا أمة محمد ﷺ جَعَلَكُمُ الله شهداء على الناس، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وشرط من يشهد أن يرى، أن يرى فهل رأيت؟ هذه هي القضية، إنما تحصل الرؤية باليقين، وأين يقينك الذي به رأيت لتكون شهيدًا للدِّين، شهيدًا بالدِّين، شهيدًا في الدِّين، شهيدًا على الدين ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾، ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [المائدة:٤٤].

يا معشر الخطباء: أيها الأكارم أين كتاب الله فيكم؟ فهل أنتم شهداء للدين؟! صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**يَا عِبَادَ اللهِ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ**»(١). وَقَالَ رسول الله ﷺ: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»(٢)، إنَّ من الخطباء وأصحاب الهَدْيِّ الظاهر لمن يصدُّ عن سبيل الله بأقواله، يصدُّ عن سبيل الله بأفعاله، يصدُّ عن سبيل الله بتصرفاته، يصدُّ عن سبيل الله بمعاملاته، يصد عن سبيل الله بأخلاقه، فإياك أن تكون أيها الخطيب هكذا؟ أنت مَظهر الدين، وأنت علامة الدين، وأنت قد ارتبط بك الدين، فكن شهادة حق؛ ليكن خُلقك القرآن، احفظه واعمل به، ولِن للناس في غير ضعف، ومُر بالمعروف بمعروف، وانه عن المنكر بغير منكر، واثبت على الدِّين، وأحسن إلى الناس وإن أساءوا إليك تكن عبدًا ربانيًّا.

العبد الرباني قائم على حدود الله، عفيف عن أموال الناس، عفيف العين عن النظر إلى ما عندهم، عفيف اللسان عن الرد عليهم والبطش بهم، عفيف القلب عن اشتهاء غير ما قُسِم له. العبد الرباني عبدٌ أبصر الحق فهو يسير به،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص٢/ ١١٣) برقم (٧٠٢).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص١/ ٧٣) برقم (٧٢).

فهو شهيدٌ له، شهيدٌ به، شهيدٌ عليه. العبد الرباني هو الذي يوافق كلامُه فعلَه، أي هو الذي يعمل بما يأمر الناس به من خير وصلاح، ويجتنب ما ينهى الناس عنه من شر وسوء[١].

وسائل تساعدك على تحقيق الربانية:

(١) المحافظةُ على الصلواتِ الخمس في وقتها وفي جماعة، وخاصة صلاة الفجر والعشاء.

(٢) المحافظةُ على أذكارِ الصباحِ والمساءِ وباقي الأذكارِ اليوميةِ، واجعلها لك كالماءِ والهواءِ

(٣) المحافظةُ على وِرْدِكَ القرآني اليومي، وهو جزء كُلَّ يوم، وهذا هو الحد الأدنى، تختمُ كلَ شهر.

(٤) المحافظةُ على شرف المؤمن، قيام الليل، ولو بركعتين طويلتين كل ليلة، بنصف جزء مثلًا.

(٥) المحافظةُ على صيامِ الاثنين والخميس، والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري.

(٦) المحافظةُ على السنن الرواتب من الصلاة، وأيضًا صلاة الضحى، وباقي النوافل.

(٧) المحافظةُ على مجالسِ العلمِ، ولو مجلسًا واحدًا كل أسبوع، ومزاحمة أهل العلم بالركب، والتزود من العلم النافع يوميًّا، وذلك بمدارسة كتب أهل العلم، ولا خير في يومٍ لم تتزود فيه من العلم.

(١) بتصرف من خطبة للشيخ محمد حسين يعقوب بعنوان (الربانية).

(٨) اتباع سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المطعم والمشرب والملبس والنوم، وفي البيع والشراء، وفي الزواج والطلاق، وفي الظاهر والباطن، وفي حياتك كلها.

(٩) برُّ الوالدين، وزيارة المرضى، وتشييع الجنائز، وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، واحترام العلماء وتوقيرهم وتبجيلهم من غير إفراط أو تفريط، والأدب مع الكبير والصغير، ومساعدة المحتاج من الفقراء والأرامل والأيتام، وسائر أنواع التواصل الاجتماعي.

(١٠) العمل في ميادين الدعوة إلى الله تعالى، كلٌّ مُيسَّرُ لما خُلِقَ له، كلٌّ بما يُجِيد، بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، واحذر أن تكون عن الدعوة والدعاة في معزل.

(١١) طاعةُ المرء لوالديه، وطاعةُ الزوجةِ لِزوجها.

(١٢) كثرة التصدُّق على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، وخاصة صدقة السِّر التي لا يعلم بها أحدٌ إلا الله.

(١٣) مصاحبة الصالحين ومجالستهم والأُنسُ بهم، وترك مصاحبة أصدقاء السوء ومجالستهم.

(١٤) ترك المعاصي والذنوب، والمسارعة بالتوبة إذا وقعت في معصية.

(١٥) ليكن لسانُك رطبًا بذكرِ اللهِ تعالى، من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل واستغفار وغيرها من أنواع الذكر.

(١٦) احذر قُطَّاع الطرق واللصوص الذين يَحولونَ بينك وبين الله تعالى، النفسُ والهوى والشيطانُ والدنيا، وأصدقاءُ السوءِ.

(١٧) عبادةُ السِّرِّ، وما أدراك ما عبادةُ السرِّ؟ وهي أن تجعل لك نوعًا من أنواع العبادة بينك وبين ربك، لا يطَّلعُ عليها أحدٌ، ولا يعلمُ بها أحدُ، تخلو بربك تناجيه، ترجوه تدعوه تعبده تذكره تأنس به، والأُنسُ بالله له لذة لا يعرفها إلا من ذاقها، الخلوة بالله في عبادةِ السِّرِّ، فيا لها من جمال، وروعة، ومتعة، وأنس، تخلو بحبيبك، وهذا حال الصالحين والعلماءِ والربانيين.

صور مشرقة من الربانيين:

يقول الإمام «ابن القيم» في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين»، يوضح لنا كيف نكون عبادًا ربانيين لله وحده فقال: «ولن يبلغ العبد الربانية إلا إذا ربَّى نية، فجملة نعت الفقير حقًا أنه المتخلِّي من الدنيا تطرفًا والمتجافى عنها تعففًا. لا يستغنى بها تكثرًا، ولا يستكثر منها تملكًا، وإن كان مالكًا لها بهذا الشرط لم تضره، بل هو فقير غناه فى فقره، وغنى فقره فى غناه..»[(١)].

إن الله جَلَّجَلَالُهُ حين مدح أقرب خلقه إليه المصطفين الأخيار من عباده من الأنبياء مثل «أيوب» عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

قال شيخ الإسلام: لن تصح لك عبودية ما دام لغير الله فيك بُغْيَة، حتى يطهر قلبك حتى لا يبقى فيه غير الله. قال محمد بن المنكدر لرجل: لأعلمنك كلمة هي خيرٌ من الدنيا وما فيها إذا خرج من قلبك رضا الخلق، فلم يعد في قلبك أحدٌ إلا طلب رضا الله ما سألت الله شيئًا إلا أعطاك إياه.

وإليك بعض الصور من حياة العبد الرباني، أذكرها باختصار دون تعليق:

يقوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الليل حتى تتفطر قدماه وتشقق ويسيل الدم منهما،

(١) بتصرف طريق الهجرتين وباب السعادتين (١٣/ ١).

فتقول له أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هَوِّن عليك يا رسول الله فيقول: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(١).

أبو بكر رجل أسيف لا يسمع الناس صوته في القرآن من كثرة بكائه عند تلاوته من خشية الله.

عمر يجري في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء من خشية الله، قيل ألا تنام يا عمر، قال: ومتى أنام، إن نمت بالنهار أضعت رعيتي، وإن نمت بالليل أضعت نفسي.

عثمان يقرأ القرآن كل ليلة في ركعة واحدة، ويقول: «لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم».

أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأتيها سبعون ألف درهم تنفقها في جلسة واحدة، فتقول لها جارتها: لو تركتِ لنا درهمين نشتري بهما لحمًا تفطري عليه، وهي صائمة، فتقول: (لو ذكرتيني لفعلت)، يا الله تنسى نفسها.

أبو هريرة له في اليوم اثنتا عشرة ألف تسبيحة.

عباد بن بشر يخرج من جسده أثناء صلاته وهو يحرس المسلمين ثلاثة أسهم بلحمها ودمائها، لأنه كان يصلي بسورة يحبها ولا يريد أن يقطعها.

عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقطعون قدمه في الصلاة ولا يشعر بقطعها، لأنه يناجي ربه ومحبوبه، وخاشع في صلاته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عائشة (ص١٢/ ٩٤) برقم (١١٣٠).

سعيد بن المسيب يقول: أربعون سنة ما قال المؤذن حي على الصلاة إلا وأنا بمسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انتبه ماذا يقول، أربعون سنةً، وليس أربعون يومًا، ولا أربعون أسبوعًا، ولا أربعون شهرًا، ولكن أربعون سنةً.

هل حدث هذا معي ومعك أربعين صلاة، أو أربعين يومًا.

البخاري يختم في رمضان أربع ختمات يوميًّا، مائة وعشرين ختمةً في شهر رمضان.

رجل من السلف يقول: عشرون سنة لم أنظر في قفا مصلٍ، أي يصلي في الصف الأول.

الشافعي له ختمة من القرآن كل يوم في غير رمضان، وفي رمضان ختمتان، واحدة بالليل وواحدة بالنهار.

الإمام أحمد بن حنبل يصلي في اليوم والليلة ثلاثمائة ركعة يوميًّا غير الفريضة، وهذا دأبه.

الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ لم تفته تكبيرة الإحرام طوال عمره الذي بلغ تسعين سنة إلا مرة واحدة، ما هذا؟

أسلم شاب أمريكي فكان له في اليوم مائتا ألف تسبيحة حتى توفاه الله.

هذه بعض الصور التي أردت أن أنبِّه بها الخطيب الربانيَّ، وأرفع بها همة الخطيب، وأضعها بين يديك، وأسأل الله أن يرزقنا العمل بما نقول ونقرأ، والإخلاص في القول والعمل آمين.

الصفة السادسة من صفات الخطيب: «قوة الشخصية»:

تعتبر قوة الشخصية في الخطيب من الصفات الجليلة والعوامل الهامة في نجاح خطبته، لأنها ذات أثر كبير في تمكين الخطيب من الاستيلاء على قلوب السامعين وامتلاك أحاسيسهم والتأثير في نفوسهم.

والخطيب الناجح هو الذي يتميز بقوة شخصيته التي يستولي بهيبتها على جمهوره، ويهيمن على نفوس الناس، ويسيطر على مشاعرهم، ويؤثر في أعماقهم.

ولقد كان في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة في ميدان قوة الشخصية لمن أراد أن يحتل من الخطابة ذؤابتها، وينزل في أعلى منازلها، لِذَا قال علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رآه بديهة هابه، ومن عاشره خلطة أحبه، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب خشعت له القلوب، وذرفت من كلامه العيون، ورحم الله أحمد شوقي حيث قال:

وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ تَعْرُو النَّدِيَّ وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ

وتنقسم قوة الشخصية إلى قسمين:

الأول جِبِلِّيٌّ: أي جَبَلَهُ الله عليها من الصغر، فهي هبة من عند الله تعالى ليس للإنسان يد فيها، فهي نعمة من الله تعالى.

وهذه الهبة من الوهاب العليم يهبها بعض الناس فتشعر منه بقوة الروح وعظم النفس، وهذه الصفة في الخطيب تُكْسِبُ كلماته ونظراته وصوته قوة ونفاذًا وتأثيرًا عظيمًا في الجماهير.

الثاني اكتسابي: وهو أن يسعى الإنسان إلى أن تكون شخصيته شخصية قوية مؤثرةً فيمن حوله.

وهذا بأمرين:

(أ) بتحقيق الربانية كما بيناها سابقًا، فكثرة العبادة والإخلاص فيها تجعلك خطيبًا مهابًا عند الناس جميعًا، حتى عند ذوي السلطان.

(ب) ومن عوامل قوَّة الشخصيَّة: تجنُّبُ الخطيب التبذُّل بثيابه وارتكاب رذائل الأقوال والأفعال، والحذرُ من كثرة المزاح، والتمسُّك بكريم الأخلاق، والتحلِّي بآداب الحديث، ومحاسن الخطاب.

فالخطيب الذي يتبذَّل، وتسوء أخلاقه، وترذُل أقواله وأفعاله، ويكثر مزاحه، تتَهَلْهَل شخصيَّتُه، وتُزدَرى مكانته، وينحطُّ قَدْرُه، وتسقط هيبته من نفوس الناس، فلا يتأثَّرون بكلماته، ولا ينتفعون من خطبته، حيث فقد أهمّ صفات المربِّي الناجح والمرشد المؤثِّر، ألا وهي قُوَّة الشخصيَّة.

الصفة السابعة من صفات الخطيب: «حُسن الأخلاق»:

إنَّ حُسن الخلق من أبرز الصفات الكريمة التي يجب أن يتحلَّى بها الخطيب، والتي تكون الباعث الأوَّل على تصديقه والاستجابة لحديثه والتأثُّر بكلماته، لأنَّ المرء الذي يتحلَّى بحُسْن الأخلاق وكريم الخصال يكون قريبًا من قلوب الناس ونفوسهم، قادرًا على التأثير فيهم والاستيلاء على مشاعرهم وعواطفهم، ويتمكَّن من زرع الثِّقة في جمهوره بشخصيَّتِهِ، ودفعه إلى إجلاله وإعظامه والإصغاء إليه إذا تكلَّم والإذعان له إذا أمر؛ لأنَّه في نظر الناس مثال القدوة

الصالحة، فهو لا يأمرهم بشيء ويفعل خلافه، ولا ينهاهم عن شيء ويأتيه، وإنَّما تتجسَّد الأخلاق الكريمة في أفعاله وأقواله وسائر أحواله، فيفرض بذلك على الناس احترامه، ويجعلهم يتأثَّرون بمواعظه، وتميل إليه قلوبهم، وتأنس بحديثه نفوسهم، وتنجذب إلى روحه أرواحهم.

وأمَّا إذا كان الخطيب سيئ الأخلاق، فاسد السلوك، ملطَّخًا برذائل الأقوال والأفعال، خبيث التصوُّرات وقبيح التصرُّفات، فإنَّه مهما اتَّسع علمه، وبلغت ثقافته، وحسُن بيانه، وبرعت خطابته، فلن ينجح في التأثير في قلوب المستمعين إليه، ولن يتمكَّن من السيطرة على مشاعرهم وأحاسيسهم، لأنَّ سوء سيرته حال بينهم وبين التأثُّر بموعظته، فجعلهم يصرفون أسماعهم عن كلامه، وَإِنْ أصغَوا إليه فهم لا يثقون به، لأنَّه يقول ما لا يفعل، ويفعل خلاف ما يقول.

وإنَّ أمثال هذا الضَّرْب من الخطباء أشدُّ خطرًا على الأُمَّة من أعدائها الصُّرَحاء؛ لأنَّهم يشوِّهون بواقع سلوكهم المنحرف وسيرتهم السيئة صورة الإسلام النقيَّة؛ إذ يعرضون على الناس في خطبهم مبادئ الإسلام وأخلاقه، ثمَّ تنطق تصرُّفاتهم ووقائع حياتهم بخلاف ما يدعون الناس إليه ويعظونهم به، فينعطف واقعهم ذلك على ضعاف القلوب وغير المسلمين بالنُّفْرة من الدِّين لنُفْرتهم من أولئك الخُطباء الذين عكسوا بتصرُّفاتهم وسلوكهم خلاف مواعظِ الإسلام وأخلاقِ دين الله ربِّ العالمين.

ولقد ندَّد الله بالذين يأمرون الناس بالخير وينسون أنفسهم فلا يأمرونها به، فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

وحذَّر المؤمنين من عاقبة مخالفة أفعالهم لأقوالهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣].

وجاء في بيان مصير هذا الصنف من الخطباء والإشارة إلى عاقبة أمره أنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ في رحلة إسرائه ومعراجه على أُناس تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فقال: «**يَا أَخِي يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**»(١).

وجاء في الصحيحين: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**»(٢).

وصدق في أمثال هذا الصنف من الخُطباء قول الشاعر حيث قال:

لا تنه عن خُلُق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُسمع ما تقول ويُشتفى ... بالقول منك وينفع التعليم

---

(١) انظر الحديث في: مسند أحمد (٣/ ٢٣٩، ٥/ ١٠)، وصحيح ابن حبان (٣٥)، وحلية الأولياء (٨/ ٤٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٩١-٢٠٩٤) باب صفة النار، وأخرجه مسلم في الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله رقم (٢٩٨٩)..

كما صدق فيهم قول الآخر حيث قال:

فكم أنت تَنْهى ولا تنتهي وتُسمِع وعْظًا ولا تَسمَعُ
فيا حجر الشَّحْذِ حتى متى تسنُّ الحديدَ ولا تقطعُ

ورحم الله مالك بن دينار حيث قال: «إنَّ العالِم إذا لم يعمل بعلمه زلَّتْ موعظته عن القلوب كما يزلُّ القطر عن الصفا».

«فينبغي للخطيب أن يكون ذا سيرة سديدة وطريقة حميدة، غير متهافت على الدنيا ومراتبها، صابرًا على آفاتها ونوائبها، مراقبًا لله سبحانه في سره وجهره، راضيًا عنه في عُسره ويُسره، مغتنمًا نشاطه، مهتما بتقصيره وجبره، محافظًا على العمل بما أمر به في نفسه وخاصته، مُحبًّا لأهل الله تعالى، مبغضًا لأهل مخالفته، حذرًا من زخارف الدنيا وزينتها، غير مُلْتَهٍ بعبيدها وشهوتها، كارهًا لرفعتها وشهرتها، قائمًا بفرائض الله وحدوده، قاعدًا عن محاذره ومحدوده، مقبلًا على الله معرضًا عما سواه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا قعدة قاعد، ولا قومة قائم».

وأهمس في أذنك أيها الخطيب، وأقول: لا يَسُود المرءُ الناسَ بقوته ولا ماله ولا منصبه وجاهه ولا قبيلته، ولكن يَسُود المرءُ الناسَ بحسن خلقه فقط.

وأخيرًا: نختم حديثنا حول هذه الفقرة بكلام الشيخ حسين المرصفيّ حيث يقول: «إنَّ مَنْ نصَّب نفسه لوظيفة الهدى، ودعا الناس إلى الخير، يجب أن يكون أبعدهم من التصنُّع، وأحرصهم على الكمال، فإنَّ أدنى هفوةٍ فيه تُسقِط اعتباره، وتسهِّل التهاون به، فلا يكون لكلامه تأثير في القلوب، ويصير مجلسه مَسْلاةً يتلهَى الناسُ بحضوره».

الصفة الثامنة من صفات الخطيب: «الإخلاص»:

لقد مدح الله تعالى المخلصين، وأثنى عليهم في أكثر من موطن في القرآن الكريم، فقال جلَّ وعزَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦].

من خلال آيات القرآن الكريم ندرك أنّ المقصود بالإخلاص: صلاحُ الباطن، وصفاء السريرة، وتوجُّه القلب نحو الله سبحانه، وألَّا يكون للعبد في قوله وفعله أيُّ مَطْمَحٍ سوى طاعةِ الله تعالى ومرضاته.

ولا شكَّ في أنَّ مثل هذه الصفة الجميلة والخصلة الجليلة إذا قامت في العبدِ استطاع أن يمتلك القلوب، ويؤثِّر في النُّفوس، ويستحوذ على المشاعر، لأنَّه إذا تكلَّم أو تصرَّف فليس له غرض سوى طاعة الله ورضوانه.

فالإخلاص: قُوَّة فعَّالة في توجيه النَّفس البشريَّة، وقيادة القلب الإنسانيّ، والخطيب الذي يتحلَّى بالإخلاص هو أقدر على التأثير في نفوس جمهوره وتوجيه قلوبهم وأذهانهم؛ لأنّ كلامه ينبعُ من أعماقه، وينطلق من صفاء قلبه، فلا مستقر له سوى قلوب المستمعين إليه، ولا مرتع له سوى أحاسيسهم ومشاعرهم، وقد جاء في الحِكَم: ما خرج من القلب وقع في القلب، وما خرج من اللِّسان لم يتجاوز الآذان.

وكم من خطيب تحلَّى بالإخلاص وأشرق بالنيَّة الصالحة؛ فتمكَّن بفضل ذلك من أن يعالج أقسى القلوب، فيفجِّر منها الخير، ومن أن يؤثِّر في أعتى النفوس، فينقل صاحبَها من الظلام إلى النور.

ولمّا توجَّه السابقون إلى الله، واشتدَّ إخلاصُهم له، تَمَكَّنُوا بذلك من أن يفتحوا قلوب العباد، ويوجِّهوا نفوسهم، ويهيمنوا على عقولهم، ويغرسوا معاني الخير في أعماقهم.

وأمَّا إذا تجرَّد الخطيب من صفة الإخلاص، وباتت الدنيا غَايَة يريدها وغَرَضًا يبتغيه، وَتَوَجَّهَ بنصحه ووَعظه إلى غير الله، توجَّه إلى السُّمْعَةِ والشُّهْرة والمنصب والجاه والمال والمتاع، فإنَّه مهما حسُن بيانه، وفصح لسانه، وغزر علمه، واتسعت ثقافته وبرعت خطابته، فلن يتمكَّن من الوصول إلى أعماق الناس والتأثير في نفوسهم وتحريك عواطفهم، لأنَّه فقد المصباح المنير الذي به يضيء أرجاء القلوب، وينير ساحات العقول، وعلى هديه يعالج أوصاب النفوس.

ولقد ذمَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تجرَّد من الإخلاص، وابتغى بعلمه وعمله ووعظه وإرشاده غير وجه الله، فقال: «**مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ**»(١).

وكان أسلافنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يتحرُّون الإخلاص في جميع أحوالهم، ويحذرون من غائلة التجرُّد منه، ويتَّعظون بالمواقف، فهذا هو الإمام أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «يا قوم أريدوا بعلمكم الله تعالى، فإنِّي لم أجلس مجلسًا قطُّ أنوي فيه أن أتواضع إلَّا لم أقم حتى أعلوَهم، ولم أجلس مجلسًا قطُّ أنوي فيه أن أعلوهم إلَّا لم أقم حتى أُفتَضَح».

وكان الإمام التابعيُّ مكحول الشاميّ يقول في بيان فضل الإخلاص: «ما أخلص عبد قطُّ أربعين يومًا إلا ظهرتْ ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه»(٢).

---

(١) قال الهيثمي (١٠/ ٢٢٢): رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد، وأحد أسانيد الطبراني في الكبير رجال الصحيح.

(٢) انظر «بستان العارفين» للنووي (ص٧).

الصفة التاسعة: «الحلم وسعة الصدر»:

فكمال العلم في الحلم، ولين الكلام مفتاح القلوب، فيستطيع الخطيب أن يعالج أمراض النفوس ويداوي عللها بهدوء نفسه واطمئنان قلبه وسعة صدره، أما إذا استفزَّهُ الغضب واستثاره الحمق نفرت منه القلوب وأعرضت النفوس، والله عَزَّوَجَلَّ يقول لخيرة خلقه وخاتم رسله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة، وإلى وُدٍّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.

الصفة العاشرة: «التواضع»:

والداعية إلى الله والخطيب الذي يوجههم أحوج من غيره إلى هذا الخلق؛ فالناس لا يقبلون قول من يستطيل عليهم ويحتقرهم ويستصغرهم ويتكبر عليهم، وإن كان ما يقوله حَقًّا وصدقًا، كذلك فإن من طبائع الناس أنهم لا يحبون من يكثر الحديث عن نفسه وَيَكْثِير الثناء عليها، ويكثر من قول أنا، أنا..

كما أن الناس لا يقبلون على أصحاب الأبراج العاتية الذين ينظرون إليهم وإلى اهتماماتهم مِنْ عَلٍ، يأنفون أن يخالطوهم عن كثب ويعيشون في معزل عنهم، فلا تزاور ولا التقاء بعيدًا عن جدران المسجد يلمس الناس فيه صدق الداعية والخطيب وشفقته وتواضعه.

والتواضع في الأصل يقال للكبار الذين هم في حقيقة الأمر كبار، أما نحن فيقال لكل واحد منا: اعرف قدر نفسك، والإنسان إنما يستطيل ويتكبر ويعجب

بنفسه إذا جهل بحقيقة نفسه ولم يعرف قدر ربه، وقد يتطرق الكبر والعجب للدعاة والخطباء لما يرون عليهم أنفسهم من التفات الناس إليهم واستماعهم لهم، والتفافهم حولهم، وهؤلاء على خطر عظيم في الدنيا قبل الآخرة، وقد قال بعض السلف: «من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به».

وفي الحديث: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ رَفَعَهُ اللهُ**»(١) ومفهومه أن من تكبر وضعه. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(٢).

ويلزم معرفة الفرق بين التواضع المحمود والمذلة المهينة، وما أجمل قول ابن المبارك في ذلك حيث يقول: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل.

الصفة الحادية عشر: «ضبط النفس واحتمال المكاره»:

فالخطابة منصب خطير؛ إذ قد تعترض الخطيب مصاعب ومكاره، وقد يُقَابَلُ بِصَدٍّ أو إعراض، ورُبَّمَا سخرية واستهزاء، علاجه وسلاحه في ذلك كله الصبر والاحتمال.

الصفة الثانية عشر: «القناعة والعفة واليأس من الناس»:

فعلى قدر قناعة العلماء والدعاة والخطباء في الدنيا وتقللهم منها تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم والانقياد لهم، وعلى قدر تعلقهم بالدنيا تكون زهادة الناس فيهم وعزوفهم عنهم ونفرتهم منهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/ ٤٤، والبزار في مسنده (ح٣٥٨٠)، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٢): رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح. وبنحوه أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠١)، والترمذي (ح٢٠٢٩)، ومالك في الموطأ (٢/ ١٠٠٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٧).

قال سفيان الثوري: العالم طبيب هذه الأمة، والمال داؤها، فإذا كان يجر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره؟!

والقناعة والعفَّة والاستغناء عن الناس شرف الداعية والخطيب، يقول الحسن البصري: لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه. وقيل لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم.

وفي الحديث: «**ازْهَدْ فَيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**»(١).

فينبغي للداعية والخطيب نزاهة النفس عن شُبَهِ المكاسب، والاكتفاء بالميسور عن ذل المطالب؟ فإنَّ شُبَهِ المكتسب إثم، وكد الطلب ذل.

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم، ولو عَظَّمُوه في النفوس لعظما، ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما.

ورحم الله محمد بن واسع البصري؛ فقد كان يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: «من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد».

الصفة الثالثة عشر: «الورع واتقاء الشبهات والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة»:

فذلك أبرأ لذمة الداعية والخطيب، وأسلم لعرضه، وأهون على الإقبال

(١) رواه ابن ماجه قال عبد القادر الأرناؤوط (١ / ٣٥١): ورواه أيضًا الطبراني في «الكبير» و أبو نعيم في «الحلية» وابن حبان في «روضة العقلاء» والحاكم في «صحيحه» والبيهقي في «شعب الإيمان» وآخرون و هو حديث حسن.

عليه، وأدعى إلى الانقياد له؛ لأن حال الداعي يؤثر في القلوب أكثر من مقاله، وهكذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته وأئمة الهُدَى.

وقد حكت لنا كتب التراجم والسِّيَرِ نماذج رائعة لورع السلف وصورًا أقرب ما تكون للخيال لولا صدق الرواية وتواترها.

وهذا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه كان يوزن بين يديه مسك للمسلمين فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة، وقال: هل ينتفع منه إلا بريحه؟!

قال ذلك لما استبعد ذلك منه، وهذا من ورعه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ كانت له شاة فأكلت شيئًا يسيرًا من علف بعض الأمراء فلم يشرب من لبنها بعد ذلك.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: لأن أَرُدَّ درهمًا من شُبْهَةٍ خير من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف.

وهذا رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد المتَّقِينَ وإمام الورعين مرَّ بتمرة فقال: «**لَوْلَا أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً لَأَكَلْتُهَا**»(١)، وخبر أبي بكر واستقائه معلوم مشهور.

وأما البعد عن مواضع الريبة ومسالك التهم، فذلك أنَّ مَنْ فعل ذلك لا يأمن من إساءة الظن به وسقوطه من عين الناس، فلا ينفع نصحه ووعظه، وهذا رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعصوم الذي لا يظن به مسلم أبدًا سوءًا يقول وقد رآه رجلان من أصحابه مع زوجه: «**إِنَّهَا صَفِيَّةُ**» فَيَكْبُرُ على الصحابيين ذلك فيجيبهما: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فِي الجسد، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُدْخِلَ عَلَيْكُمَا**»(٢).

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٠٧١).
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٨٦٥).

فينبغي للداعية والخطيب أن يتحرَّزَ عن كل ما يوهم نسبته إلى ما لا يليق لئلا يوجب سوء الظن به، وإن كان له مخلص، فذلك سبب لعدم الانتفاع به وبإرشاده.

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره؛ فرب سامع نكرًا لا تستطيع أن تبلغه عذرًا.

الصفة الرابعة عشر: «علو الهمة»:

فينبغي للخطيب أن يكون كبير الهِمَّة، عالي النفس، مترفعًا عن الدنايا والسفاسف، يستصغر ما دون النهاية من معالي الأمور.

ومثل هذا الخطيب يرتفع بهممه هِمم جمهوره، واهتماماتهم فيصطبغون بصبغته ويتخلقون بأخلاقه، وإنما كانت هِمَّة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على هذا النحو العظيم، لتأثرهم بهمَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلو نفسه الشريفة؛ حتى كان الشجاع منهم من يكون قريبًا منه في ساحات الوغى[1].

(١) **الوغي**: الحرب.

القسم الثاني

الصفات المتعلِّقة بذات الخطيب أثناء الخطبة

وأمَّا الصفات المتعلِّقة بذات الخطيب أثناء الخطبة، فهي:

الصفة الأولى: فن الإلقاء. **الصفة الثانية:** سرعة البديهة.

الصفة الثالثة: الحماسة وتأجج العاطفة.

الصفة الرابعة: رابطة الجأش وقُوَّة الجَنَان.

الصفة الأولى: فن الإلقاء:

(أ) حسن الإلقاء. **(ب)** جهارة الصوت وحسنه.

(جـ) اتِّزان النبرات. **(د)** النطق الجيِّد.

(هـ) الوقوف عند الموقف المناسب.

الصفة الأولى: فن الإلقاء:

(أ) حسن الإلقاء:

تعريف الإلقاء وأنواعه: تعتبر كل محادثة بين اثنين فأكثر، نوع من أنواع الإلقاء.

ولقد صُنِّفَ الإلقاء إلى ثلاثة أنواع:

١- فردي، أي تتحدث مع شخص واحد فقط.

٢- لمجموعة صغيرة كما هو الحال في الدروس المنهجية في المدارس والمساجد ونحوه.

٣- لمجموعة كبيرة كما هو الحال في الخطب والمحاضرات العامة ونحوها.

ولعل ما يهمنا في هذه الصفة هو النوع الثاني والثالث، لكونهما يمثلان جل مجالات الإلقاء المنظم، ولأن القصور غالبا ما يقع فيهما دون سواهما.

مجالات الإلقاء:

إن مجالات الإلقاء كثيرةٌ جدًّا ويصعب حصرها. ولعل من أبرز أمثلتها: خطبة الجمعة، والدروس المنهجية، سواء في المدارس أم في المساجد، والمحاضرات العامة على تنوع موضوعاتها، والمواعظ، والمناسبات العامة، والاحتفالات، والمؤتمرات، والبرامج الإذاعية والتلفازية وغيرها.

عناصر الإلقاء:

كل عملية إلقاء لابد لها من ستة عناصر أو أركان، ينبغي مراعاتها إذا ما أريد لها النجاح.

وهذه العناصر هي:

١- المصدر: وهو الملقي، فلابد أن يلم بقواعد الإلقاء ليكون إلقاؤه مؤثرًا.

٢- المستقبِل: وهو المستمع، فلابد من التعرف على صفاته الشخصية كعمره، ومستواه العلمي، ومستواه المعيشي، وعاداته وتقاليده وغيرها، وذلك لاختيار ما يناسبه من المواضيع، ومن طرق، ووسائل، وأساليب الإلقاء.

٣- الرسالة: وهي الموضوع، فلابد من إتقان تحضيره ومراعاة كونه مناسبًا للمستمعين وضمن دائرة اهتماماتهم.

٤- القناة: وهي وسائل وأساليب الإلقاء، وأعني بها الطبق الذي سيقدم به الإلقاء؛ فقد يكون عن طريق إلقاء محاضرة من جانب واحد فقط، وقد يكون على شكل حلقة نقاش يشارك فيها المستمعون بآرائهم ومقترحاتهم وأسئلتهم.

وقد تستخدم فيه السبورة أو عارضة الشرائح أو الشفافيات أو الفيديو أو غيرها، وذلك لضمان فاعلية الإلقاء واستفادة المستمعين.

٥- استجابة الجمهور: وأعني بها مدى استفادة الجمهور من الموضوع الذي ألقي عليهم.

إذ إن العناصر السابقة مهما كان الاهتمام بها، ومهما روعيت فإنه لا يكون لها أدنى فائدة إذا لم ينتج عنها استفادة المستمعين. لذا كان لابد من التأكد من استجابة الجمهور، وذلك عن طريق فتح المجال لأسئلتهم وإلقاء الأسئلة عليهم، واستقبال أجوبتهم، أو عن طريق الأسئلة المكتوبة كالاختبار في نهاية الدرس أو بعد مجموعة من الدروس أو المحاضرات ونحو ذلك.

٦- المؤثرات الخارجية: كضيق المكان، وحرارة الجو، وضعف الإضاءة، وكثرة الضوضاء الخارجية ونحوه.

فلو أن جميع العناصر السابقة قد رُوعِيت بدقة إلا أن مكان الدرس أو المحاضرة كان شديد الحرارة لِتَعَطُّلِ أجهزة التكييف مثلا، فإن المتوقع هو عدم استفادة المستمعين؛ لذا كان من المهم جدًّا التأكد من عدم وجود أي مؤثرات خارجية تؤثر سلبًا على عملية الإلقاء.

وسنعرض في هذه الرسالة العنصر الأول بشيء من التفصيل، ولبقية العناصر بشكل مجمل.

أهداف الإلقاء:

لابد لكل عمل من هدف، وإلا كان هذا العمل فاشلا، يتخبَّط فيه صاحبه يمنة ويسرة ولا يصل إلى شيء. ولا بد لهذا الهدف أن يكون واضحًا، ويمكن تحقيقه، وبشكل عام فإن أهداف الإلقاء لا تخرج عن هذه الأهداف العامة التالية:

١- **زيادة العلم والمعرفة:** مثال ذلك أن تلقي محاضرة للتعريف ببلد معين أو إنسان معين أو مبدأ معين أو نحو ذلك.

٢- **تعزيز وجهات النظر السليمة:** مثال ذلك أن تلقي محاضرة على جمع من المسلمين المصلين عن فضائل الصلاة لتزيدهم محبة للصلاة وتمسُّكًا بها.

٣- **تغيير وجهات النظر الخاطئة:** مثال ذلك أن تلقي محاضرة على جمع من الناس يعتقدون بجواز تطبيق القوانين الوضعية في ديار الإسلام لإقناعهم بعدم جواز ذلك.

٤- **تعزيز السلوك العملي السليم:** مثال ذلك أن تلقي محاضرة على جمع من المحافظين على صلاة الجماعة، عن فضل المحافظة عليها لتعزز فيهم هذا المسلك.

٥- **تغيير السلوك العملي الخاطئ وتبني السلوك السليم:** مثال ذلك أن تلقي محاضرة على جمع من المدخنين، عن حرمة التدخين وأضراره، لِيَكُفُّوا عنه.

والحقيقة أنه بالرغم من أهمية جميع الأهداف المذكورة إلا أن الهدف الأخير يعتبر من أهمها ومن أصعبها تحقيقًا؛ ذلك لأنه يتطلب ترك ما اعتاده الإنسان لزمن طويل، وما يكون قد ورثه عن آبائه وأجداده فيعز عليه تركه، كما أنَّ السلوك الخاطئ غالبا ما يكون موافقا للهوى والشهوة وفي تغييره وتبني السلوك السليم مشقة وتبعات ثقيلة، ولقد أخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك حيث قال: «**حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، عن القعنبي، والترمذي (٤/ ٦٩٣٩) من طريق عمرو ابن عاصم، وابن حبان (٢/ ٤٩٢) من طريق هدبة بن خالد، ثلاثتهم عن حماد بن سلمة، عن ثابت وحميد، عن أنس به، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح».

لذا فسوف نتحدث في الفصل القادم عن مراحل التغيير، التي غالبا ما يتنقل فيها كل من أراد أن يغير سلوكا خاطئا إلى آخر سليم.

مراحل التغيير:

إن تغيير السلوك الخاطئ إلى آخر صحيح لا يمكن أن يتحقق إلا إذا شاء الله ذلك وأراده حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

ويقول في موضع آخر على لسان نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود:٣٤]، وإن هذا التغيير لا يأتي في الغالب فجأة بدون مُقدِّمات، ولا دفعة واحدة بدون تدرُّجٍ، بل لابد للإنسان من الانتقال عبر عدة مراحل حتى يبلغ حدَّ التغيير.

لذا كان لزامًا على الملقي أن يراعي جميع هذه المراحل قبل إلقائه وأثناءه وبعده.

وهذه المراحل غالبًا ما تكون مرتبة على النحو التالي:

١- العلم والإدراك:

إن أول مرحلة وأهم مرحلة من مراحل التغيير هي مرحلة العلم والإدراك. فإن الإنسان عدو ما يجهل، ومن أراد أن يجيد صنعة فلابد أن يتعلمها، وإلا ذهب يتخبط فلا يهتدي إلى شيء. لذا فإنه من أهم واجبات الداعية إلى الله سبحانه،

هو تعليم الناس العلم النافع الذي يثمر بإذن الله عملا صالحًا. يقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٩]، ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة:٢]، فإن الله قد بعث رسوله إلى الناس تاليًا لآياته عليهم، مبلغًا إياهم ما بعثه الله به من الهدى، ومعلمًا إياهم العلم الإلهي النافع، وبعد ذلك هم يختارون إما الإتباع، وإما الإعراض والامتناع. ويقول جَلَّ من قائل في موضع آخر: ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٤]، أي أنهم لو علموا الحق لكان أحرى بهم أن يتبعوه.

ويقول تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩]، وهذا يعني العلم أولًا ثم العمل، وفي الآية الأخرى يقول تعالى: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾ [يونس:٣٩]، فهذه الآية تبين أن سبب التكذيب هو عدم كمال العلم بالمكذَّب به، وبالتالي فإنه يُفهم منها بأن كمال العلم بالشيء شرط لقبوله والأخذ به.

لذا فإننا نجد آياتٍ وأحاديث كثيرة تحث على تبليغ العلم للناس؛ لأن ذلك هو نقطة البدء والانطلاق للتغيير.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

ومن الأحاديث قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»(١)، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢)، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ»(٣).

إن تبليغ العلم إلى الناس له وسائل كثيرة ومتنوعة، ولعل من أهمها وأكثرها استعمالًا هو توصيل العلم عبر الكلمة المسموعة، أو بمعنى آخر عن طريق الإلقاء، لذا كان لزامًا على كل داعية أن يجيد فن الإلقاء.

٢- محبة ما عَلِمه والاهتمام به:

إذ إن الإنسان إذا بلغه علم معين ينبئه بأن السلوك الذي يمارسه خطأ، وفيه ضرر عليه فإنه ليس بالضرورة أن يبادر بترك ذلك السلوك الخاطئ، وإنما يكون حاله بين أمرين اثنين لا ثالث لهما، فإما أن يحب ذلك الأمر، ويهتم به، ويبحث فيه، ومن ثم يتدرج إلى ترك ذلك السلوك الخاطئ.

وإما أن يكره ذلك الأمر الذي أُبْلِغ به ولا يقبله؛ وذلك لأسباب عديدة، ولعل منها عدم فهمه لذلك الأمر أو عدم قناعته به، أو محبته لما كان يمارسه من سلوك خاطئ وتعوده عليه، ونحو ذلك.

فتكون النتيجة أن يمكث على سلوكه الخاطئ ولا يغيره، يقول تعالى:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٣٢٧٤)، (٣/ ١٢٧٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه رقم (٤٧٣٩)، (٤/ ١٩١٩)
(٣) أخرجه الترمذى (٥/ ٥٠، رقم ٢٦٨٥) وقال: حسن غريب. والطبرانى (٨/ ٢٣٣، رقم ٧٩١١) وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٧/ ١٦٦)، انظر حديث رقم (١٨٣٨) في صحيح الجامع.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة:٧٠]، فبالرغم من صدق ما بلغهم به المرسلون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأن الخير كل الخير فيه، إلا أن أنفسهم لم تهوَ ما بُلِّغوا به، فكانت النتيجة أن كذبوهم ولم يقبلوا ما جاءوا به، بل قتلوهم قاتلهم الله.

وفي موضع آخر يقول الله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:١١٢، ١١٣]، فإن شياطين الإنس والجن عندما أوحى بعضهم إلى بعض القول الباطل المزخرف المُزَيَّن كان من نتيجة ذلك أن تميل إليه قلوب الكافرين بالآخرة ويستقبلونه بالمحبة والرِّضَى ومن ثَمَّ يُسْفِر ذلك عن العمل والسلوك الفاسد، وذلك بأن يقترفوا ما هم مقترفون. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧].

وفي موضع آخر يقول الله جل من قائل: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧]، وكفى بهذه الآيات دليلًا على أهمية هذه المرحلة من مراحل التغيير.

وهكذا فإن على الملقي أن لا يدَّخِرَ وسعًا في تحبيب موضوع إلقائه للمستمعين؛ ليضمن انتقال المستمع من مرحلة العلم والإدراك إلى هذه المرحلة إذا شاء الله لهذا المستمع هدايةً وتوفيقًا.

٣- التقييم والموازنة الفكرية:

فإن الإنسان إذا علم شيئًا وأدرك أنه الحق ثم أحبَّه واهتم به فإنه ليس بالضرورة أن يتبنَّى السلوك الذي يدعو إليه ذلك العلم، بل لابد له وأن يَخْضَع لمرحلة الموازنة بين المصالح والخسائر التي سيجنيها من وراء تَبَنِّيه لذلك السلوك، سواء أكانت أخروية أم دنيوية.

فإن ترجَّح لديه جانب المصلحة عمل بذلك السلوك وإلا تركه.

والناس يتفاوتون في ذلك تفاوتًا عظيمًا، فمنهم من يُقَدِّم المصلحة الأخروية الآجلة على الدنيوية العاجلة مهما كانت خسائره المادية، ومنهم من يفعل العكس فيُقَدِّم المصلحة الدنيوية الفانية على الأخروية الباقية، ففي كتاب الله آياتٍ كثيرةٍ تتحدث عن حالِ الناسِ في هذه المرحلة، منها قول الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦]. ومنها قوله جَلَّوَعَلَا في حق آل فرعون: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل:١٣، ١٤].

ولعل من أمثلة ذلك في السنة الشريفة قصة أبي طالب عم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حيث إنه ناصر دعوة ابن أخيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وَأَقرَّ بِصحَّةِ دين الإسلام، حيث قال منشدًا:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أُوَسَّد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر وقرَّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي	ولقد صدقت وكنت ثَمَّ أمينا

وعرضت دينا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبَّة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فبالرغم من ذلك لم يُسلم، حتى وهو على فراش الموت، ومات وهو يقول «هو على ملة عبد المطلب»، والنبيُ الداعيةُ الأعظمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه ويقول له: «**يا عم قل لا اله إلا الله، كلمة أشفع لك بها عند الله**»(١).

ومثال آخر من السنة: هو ما رواه البخاري في صحيحه عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتُرْجُمَانِهِ

فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا.

فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ثُمَّ، قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ فَوَاللهِ لَوْلَا الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ، قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ، قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٧٧٢) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦١).

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ، قُلْتُ: لَا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ، قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ، قُلْتُ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ، قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ

بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران:٦٤]» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ: لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ.

قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً أي كاهنا يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ. فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ أي قصر لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ. [رَوَاهُ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ وَيُونُسُ وَمَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ]»[(١)].

٤- التجربة والمحاولة العملية:

بعد الموازنة الفكرية وترجيح المصالح على الخسائر، والاقتناع بهجر السلوك الخاطئ وَتَبَنِّي السلوك الصحيح، تبرز مرحلة مهمة من مراحل التغيير،

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٧) برقم (٩).

ألا وهي مرحلة التجربة العملية لممارسة السلوك الصحيح، وهذه المرحلة تعتبر من أخطر المراحل، حيث أن العلم النظري شيء والتطبيق العملي شيء آخر؛ فقد تواجه الإنسان في هذه المرحلة صعوبات كثيرة لم يكن يحسب لها حسابًا. فقد تكون ممارسة السلوك القويم أمرًا شاقًّا ومَكَلِّفًا وبالذات لشخص لم يتعود عليه. كما أن انتقادات المنحرفين ممن حوله له، وسخريتهم به قد تشكل عائقًا دون ثباته على ذلك السلوك. لذا كان واجبًا على الداعية أن يُبَصِّرَ من يدعوهم إلى خطورة هذه المرحلة وكيفية التغلب على مصاعبها. كما وعليه أن يكتنف من يعيش هذه المرحلة ويؤازره حتى يثبت على السلوك القويم، ولا يكتفي فقط بإلقاء المحاضرة أو الدرس ثم الخلود إلى الراحة.

إن آيات القرآن التي تُبَصِّرَ الرسول ﷺ وصحبه الكرام بما سيعرض لهم من مشاق وصعاب في مسيرة الدعوة كثيرة ولا تحصى، فما قصص الأنبياء في القرآن إلا من هذا القبيل حيث يقول جل من قائل في أواخر سورة هود بعد أن قص على نبيه ﷺ قصص الأمم السابقة وتكذيبهم لأنبيائهم وما نزل بهم من العذاب: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

ومن الأحاديث ذات الدلالة على تثبيت الرسول ﷺ لأصحابه حديث خباب بن الأرت في صحيح البخاري حيث قال: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ قَالَ: «**كَانَ الرَّجُلُ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ**

بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(١).

٥- تَبَنِّي السلوك القويم و الثبات عليه:

إن هذه المرحلة تعتمد اعتمادًا كبيرًا على المرحلة السابقة، فهي نتيجة متوقعة لتجاوز المرحلة السابقة.

ومع ذلك فإن الثبات على السلوك الصحيح يحتاج إلي مزيد من المتابعة والتعزيز من قِبَلِ الداعية؛ فإنه لا يؤمن على الإنسان من الكسل والفتور.

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن آيات الله لم تكف عن دعوة المؤمنين للإيمان وتحذيرهم من الشرك ومن المعاصي، وذلك بعد أن حققوا الإيمان في أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم، وبعد أن جادوا بأرواحهم رخيصة في سبيل الله.

ففي سورة الحديد يخاطب الله المؤمنين وهم في دار الهجرة بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة من البعثة وبعد أن خاضوا غزوة بدر الكبرى فيقول لهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وفي سورة الحشر يأمر الله المؤمنين بالتقوى فيقول جل من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٨، ١٩].

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٠٩، رقم ٢١٠٩٥)، والبخاري (٣/ ١٣٢٢، رقم ٣٤١٦)، وأبو داود (٣/ ٤٧، رقم ٢٦٤٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٠، رقم ٥٨٩٣).

وفي سورة النساء يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

كيف يكون إلقاؤك مُؤَثِّرًا؟

أولًا: أسس لابد منها:

١- الإخلاص لله تعالى، واتِّبَاع هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن تكون قدوةً، ووضوح اللغة، ولقد تكلمنا عن هذه الأربع بشيءٍ من التفصيل فيما مضى.

٢- التوقيت المناسب:

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»(١)، أي كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، كما نقله ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتح عن الخطّابي.

فهذا يتضمن اختيار الوقت المناسب للمحاضرة ابتداءً، كما يتضمن عدم الإكثار في عدد مرَّات الإلقاء ومراعاة الفارق الزمني بين كل محاضرة وأخرى.

أما بالنسبة لطول المحاضرة فهو أمر في منتهى الأهمية، حيث ينبغي مراعاة الحال سواء بالنسبة لنوعية الإلقاء أو نوعية المكان أو نوعية المستمعين.

وعلى كلِّ حال فإن الأصل هو عدم الإطالة، والالتزام بوقتٍ محدد مما يضمن عدم تَسَرُّبِ الملل إلى المستمعين؛ ولعل المتخصصين في مجالِ التربيةِ والتعليمِ يُحَبِّذُونَ أن لا تطول المحاضرة أو الدرس أكثر من (٤٥) دقيقة، هذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برقم (٦٨) (١/ ٣٨)، ومسلم في صحيحه باب الإقتصاد في الموعظة رقم (٧٣٠٥) (٨/ ١٤٢).

بالنسبة للمحاضرة والدرس فقط، أمَّا خطبة الجمعة فلابد أن تكون قصيرة اتباعًا لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣- الوسائل المناسبة:

«السبورة الشفافيات الشرائح الفيديو الكمبيوتر... إلخ»، مما يساعد على توضيح المعاني، ويؤدِّي إلى جذب انتباه المستمعين.

ولعل لاستخدام هذه الوسائل التعليمية أصلًا في الشريعة حيث ثبت في صحيح البخاري أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَطَّ خَطًّا مُرَبَّعًا وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: «**هَذَا الْإِنْسَانُ؛ وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**»[(١)].

٤- تنويع الأساليب:

كالتقرير والاستفهام والتعجب وكضرب الأمثال وقصِّ القصص وغيرها مما يكثر استعماله في القرآن والسنة المطهرة، كما أن من أعظم الأساليب المؤثرة في المستمعين هو الاستدلال على أقوالك بنصوص القرآن، وأحاديث المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

٥- مراعاة حاجة المستمعين للموضوع:

فهذا هو القرآن يتنزل في مكة ثلاث عشرة سنة لا يحدثهم في الأَعَمِّ الأغلب

(١) أخرجه البخاري (١٤/ ١١ و١٢) في الرقاق، باب في الأمل وطوله، والترمذي رقم (٢٤٥٦) في الزهد، باب أمل الإنسان وأجله، وأخرجه ابن ماجة رقم (٤٢٣١) في الزهد، باب النية.

إلا في موضوع العقيدة لحاجة المسلمين الجدد؛ لهذا الموضوع أكثر من سواه، كما أن القرآن كان يتنزل طيلة حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعالج المواقف والوقائع التي كانت تقع آنذاك، وهذا هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغل وقوع الحوادث والمناسبات ليحدثهم عنها، كما حدث عند كسوف الشمس في عهده وعند خوض نفر من المسلمين في حادثة الإفك، وغير ذلك كثير.

٦- مشاركة الجمهور:

وذلك عن طريق إلقاء الأسئلة عليهم واستقبالها منهم، ففي خطبة الوداع يسأل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «**أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**... إلخ الحديث»[(١)].

ويسألهم في حديث آخر يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**... إلخ الحديث»[(٢)].

كما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستقبل الأسئلة منهم حيث ورد في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَارِبُوا وَسَدِّدُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ**»، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْتَ قَالَ «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[(٣)].

وفي الحديث الآخر المتفق عليه يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ**

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى رقم (١٦٥٥) (٢/ ٦٢٠)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**» رقم (٦٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة الآداب، باب: تحريم الظلم (٦٥٢٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٨، رقم ٧٣٨٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٣، رقم ٢٥٧٤)، والترمذي (٥/ ٢٤٧، رقم ٣٠٣٨)

مِـنْ الْعَطَـشِ مِثْلُ الَّـذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْـرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَـكَهُ بِفِيهِ حَتَّـى رَقِي، فَسَـقَى الْكَلْبَ فَشَـكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَـرَ لَهُ»، قَالُوا يَا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(١).

٧- ابدأ بالمعلوم ثم انتقل للمجهول:

من ذلك ضرب الأمثلة، وهو كثير في القرآن والسنة، ففي القرآن يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

أمَّا من السنة ففي خطبة الوداع بدأ رسول الله ﷺ بتقرير حرمة اليوم والشهر والبلد، وهي أمور معلومة لأصحابه، ثم انتقل إلى ما قد يجهلونه، وهو أن دماءهم وأموالهم حرام عليهم كحرمة هذه الأمور(٢).

٨- تأكد من الإفهام:

بسؤالهم هل فهموا؟ قال الرسول ﷺ في آخر خطبة الوداع: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ (ثَلَاثًا) حَتَّى قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥ / ٣١) في المزارعة، باب فضل سقي الماء، وفي الوضوء، باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان، وفي المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ بها، وفي الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم رقم (٢٢٤٤) في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، والموطأ (٢/ ٩٢٩ و٩٣٠) في صفة النبي ﷺ، باب جامع ما جاء في الطعام والشراب، وأبو داود رقم (٢٥٥٠) في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم.

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى رقم (١٦٥٥) (٢/ ٦٢٠)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا**» رقم (٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى رقم ١٦٥٥ (٢/ ٦٢٠)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا» رقم (٦٦).

كما أن توجيه الأسئلة إليهم عن موضوع الإلقاء سواء شفويًّا أو تحريريًّا بعد نهاية الدرس أو المحاضرة واستقبال أجوبتهم ينبئك عن مدى فهمهم للموضوع.

٩- تعزيز الفهم والتحفيز:

بالتكرار، والأسئلة فيما سبق طرحه، والحوافز المادية والمعنوية، والتنويع في الوسيلة والأسلوب.

١٠- التعليم بالتطبيق العملي:

صَعِدَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبر لتعليم أصحابه الصلاة وقال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»(١)، وقال كذلك في الحج قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»، «**لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**... إلخ الحديث»(٢).

١١- مبدأ البذرة والأرض والساقي:

يُصَوِّرُ ذلك تصويرًا جميلًا قول المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٣١): كتاب الأذان: باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة، حديث (٦٣٠)، ومسلم (٢/ ٦١٢- أبي): كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب من أحق بالإمامة، حديث (٢٩٢ ، ٦٧٤)، والنسائي (٢/ ٩): كتاب الأذان: باب اجتزاء المرء بأذان غيره في الحضر، حديث (١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٨)، ومسلم (٢/ ٩٤٣)، كتاب الحج: باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، الحديث (٣١٠/ ١٢٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في العلم باب فضل من علم وعمل رقم ٧٩ (١/ ٤٢)، أخرجه مسلم في الفضائل باب بيان مثل ما بعث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدى والعلم رقم (٢٢٨٢).

وهذا يعني أنه لابد من اختيار الأرض الخصبة التي تتقبل البذرة وتنبت بإذن ربها، كما أنه لابد من المتابعة والسقي المستمر والصبر على ذلك مهما طال الزمن، وإلا قد تجدب الأرض وتموت البذرة ولا تثمر الجهود.

١٢- الرفق والرحمة والخلق الحسن:

يقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ويقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، ويقول سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَمَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(١).

وعندما بال الأعرابي في المسجد لم يزجره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يعنفه وإنما قال له: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»(٢)، وعندما عَطَسَ رجل في الصف والصحابة يُصَلُّونَ خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له معاوية بن الحَكَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يرحمك الله، بصوت عالٍ، فرماه الصحابة بأبصارهم فقال معاوية: واثكل أمياه، فأخذوا يضربون على أفخاذهم ليسكتوه، وعندما سلم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاته، لم ينهره ولم يعنفه وإنما قال له: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَحِلُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ**

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٥ رقم ١٢٧١٢) وعبد بن حميد (ص ٣٧٢، رقم ١٢٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٢١٠، رقم ٦٠١)، والترمذي (٤/ ٣٤٩، رقم ١٩٧٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠، رقم ٤١٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٣٩، رقم ٧٧٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٥ رقم ١٢٧١٢) وعبد بن حميد (ص ٣٧٢، رقم ١٢٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٢١٠، رقم ٦٠١)، والترمذي (٤/ ٣٤٩، رقم ١٩٧٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠، رقم ٤١٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ١٣٩، رقم ٧٧٢٣).

النَّاسِ هَذَا إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[(١)].

١٣ - كن قِيَادِيًّا:

أحسِن السيطرة على المستمعين لكيلا يفلت منك زمام المحاضرة؛ فقد يوجد بينهم من يثير الشغب، أو من يحب الضحك والمزاح، أو من يهوى إحراج المحاضرين.

ولعله يحضرني في هذا المقام قصة طريفة لأحد الدعاة عندما كان يحاضر في جمع من النساء عن تعدد الزوجات في الإسلام، وأفاض في الحديث بموضوعية وإتقان واستيعاب، واستعان بالأرقام والإحصاءات، وأورد الحجج العقلية والنقلية لإثبات فوائد تعدد الزوجات، إلا أن عددًا من الحاضرات لم يقتنعن وأخذن في اللجاج والجدل العقيم، فرأى المحاضر أن يسكتهن بطريقة أخرى.

فقال لهن: في الحقيقة أن المسئول الحقيقي عن تعدد الزوجات هو المرأة لا الرجل، فلما استغربن ذلك وأنكرن عليه قال لهن: لو أن كل امرأة رفضت أن تكون زوجة ثانية لرجل لما كان هناك تعدد زوجات.

ثانيًا: المواصفات الكلامية:

١ - معدل سرعة الكلام:

لا يكن كلامك سريعًا لا يُفْهَم ولا بطيئًا فَيُمَل، وإنما ابتغ بين ذلك سبيلا، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «مَا كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسرد كسردكم هَذَا وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ يَحْفَظُهُ من جلس إليه»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٧٠، رقم ٥٧٧٧)، والترمذي (١/ ٢٧٥، رقم ١٤٧)، وأبو داود (١/ ١٠٣، رقم ٣٨٠)، والنسائي (١/ ٤٨، رقم ٥٦).

(٢) مختصر الشمائل المحمدية للترمذي، والمختصر الألباني، رقم الحديث (١٩١) (ص١١٩)، وقال حسن صحيح.

وثبت عن أم سلمة أنها قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَطِّعُ قراءته يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم يقف، وكان يقرأ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾... إلخ الحديث»[(١)].

٢- التكرار للمعلومة المهمة:

عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعِيدُ الْكَلِمَةَ ثَلَاثًا لِتُعْقَلَ عَنْهُ»[(٢)].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**-مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا-»[(٣)].

ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ (ثَلَاثًا)؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ: قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «**وَشَهَادَةُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ[(٤)].

٣- السكتة الخفيفة قبل المعلومة المهمة:

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ

---

(١) أخرجه الحميدي (٢٤٧)، وأحمد (٦/ ١١٨). والبخاري (٤/ ٢٣١)، ومسلم (٧/ ١٦٧) وأبو داود (٣٦٥٤) قال: حدثنا محمد بن منصور الطوسي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، وفي (٣٦٥٥)، والترمذي (٣٦٣٩). وفي «الشمائل» (٢٢٣) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤١٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، والبخاري (١/ ٣٤، ٣٥)، والترمذي (٢٧٢٣) قال البخاري والترمذي: حدثنا إسحاق بن منصور.

(٣) أخرجه البخارى (١/ ٣٣، رقم ٦٠)، ومسلم (١/ ٢١٤، رقم ٢٤١)، وأبو داود (١/ ٢٤، رقم ٩٧)، والنسائى (١/ ٧٧، رقم ١١١)، وابن ماجه (١/ ١٥٥، رقم ٤٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦، رقم ٢٠٤٠١)، والبخارى (٥/ ٢٢٢٩، رقم ٥٦٣١)، ومسلم (١/ ٩١، رقم ٨٧)، والترمذى (٤/ ٣١٢، رقم ١٩٠١) وقال: حسن صحيح.

بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ... إلخ الحديث»[(١)].

٤- تكلم ببطء عند المعلومة المهمة:

فإن ذلك أدعى لجذب انتباه المستمعين، وأبلغ في إيصال المعلومة المهمة إليهم.

٥- تجنب السكتات الطويلة من غير حاجة:

كتلك التي تفعل عند تقليب الأوراق، أو البحث عن ورقة معينة، أو استذكار نص معين من القرآن أو الحديث أو غير ذلك.

٦- تجنب تكرار كلمة معينة بكثرة لغير حاجة:

نحو: (يعني، إيش، عرفت، تعرف، سمعت، أقول، شفت كيف، في الحقيقة، في الواقع، هاه... الخ)، وهي ما تسمى ب: «اللازمة»

٧- ارتفاع الصوت:

ينبغي أن ترفع صوتك بحيث تُسْمِعُ جميع المستمعين دون أن تزعجهم تأسِّيا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري، في الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم ١٦٥٥ (٢/ ٦٢٠)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا» رقم (٦٦).

٨- ارفع الصوت عند المعلومة المهمة:

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تخلف عنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنْ النَّارِ**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا[(١)].

وأخرج مسلم عَنْ جَابِرٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ وَعَلَا صَوْتُهُ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ صُبِّحْتُمْ مُسِّيتُمْ»[(٢)].

٩- لا يكن صوتك رتيبًا مُمِلًّا في الشدة والحدة:

فإن التنويع في شدة الصوت بين الارتفاع والانخفاض، وفي الحدة ترقيقًا وتفخيمًا، يمنع تسلُّل الملل والنعاس إلى المستمعين، وَيَشُدُّ انتباههم إليك شدًّا[(٣)].

ثالثًا: المؤثرات غير الكلامية:

١- المظهر العام:

لابد أن يوافق سنة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إعفاء اللحية، وجعل أسفل الثوب فوق الكعبين بالنسبة للرجال ونظافة الملبس وحسن الهندام، هذا بالإضافة إلى كونه مقبولًا لدى المستمعين من حيث العرف والتقاليد، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ردَّ على المشركين عندما اعترضوا على كون النبي المرسَل إليهم بشرًا وطلبوا أن يكون مَلَكًا بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩].

(١) أخرجه البخارى (١/ ٣٣، رقم ٦٠)، ومسلم (١/ ٢١٤، رقم ٢٤١)، وأبو داود (١/ ٢٤، رقم ٩٧)، والنسائى (١/ ٧٧، رقم ١١١)، وابن ماجه (١/ ١٥٥، رقم ٤٥٥).

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، والنسائي في العيدين باب كيف الخطبة (٣/ ١٨٨ ١٨٩)، وابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل (٤٥) وغيرهم.

(٣) وسوف نتكلم عن الصوت بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى في فصل أهمية الصوت.

٢- توزيع النظرات:

ينبغي الإقبال بالوجه والنظر إلى جميع المستمعين وعدم النظر فقط في الأوراق أو إلى أعلى أو إلى أسفل أو إلى جهة واحدة أو إلى شخصٍ معيَّنٍ، فإن ذلك أدعى لجذب انتباه المستمعين جميعهم إليك؛ فعَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً فَذَكَرَ نَحْوَهُ»(١).

وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ عَلَى أَشَرِّ الْقَوْمِ، يَتَأَلَّفُهُمْ بِذَلِكَ، فَكَانَ يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ وَحَدِيثِهِ عَلَيَّ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي خَيْرُ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ، أَوْ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالَ: «أَبُو بَكْرٍ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَمْ عُمَرُ؟ فَقَالَ: «عُمَرُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا خَيْرٌ أَمْ عُثْمَانُ؟ فَقَالَ: «عُثْمَانُ»، فَلَمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَصَدَقَنِي، فَلَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ(٢).

---

(١) أخرجه الدارمي (١/ ٤٤-٤٥)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٣٤٤)، والترمذي عقب الحديث (٢٦٧٦)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١١٨٦)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٦١٧)، والآجري في «الشريعة» (ص٤٧)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (ص٤٨٢، ٤٨٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٢) من طريق أبي عاصم الضحاك بن مخلد، بهذا الإسناد.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح ليس له علة، وقد احتج البخاري بعبد الرحمن بن عمرو وثور بن يزيد، وروى هذا الحديث في أول كتاب الاعتصام بالسنة، والذي عندي أنهما رَحِمَهُمَا اللَّهُ توهّما أنه ليس له راوٍ عن خالد بن معدان غير ثور بن يزيد، وقد رواه محمد بن إبراهيم بن الحارث المخرّج حديثه في «الصحيحين» عن خالد بن معدان، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه التِّرْمِذِي في «الشمائل»(٣٤٤) قال: حدَّثنا إِسْحَاق بن مُوسَى، حدَّثنا يُونُس بن بُكَيْر، عن مُحَمد بن إِسْحَاق، عن زِيَاد بن أَبي زِيَاد، عن مُحَمد بن كَعْب القُرَظِي، فذكره، وحسنه الألباني برقم (٢٩٥).

٣- تعبيرات الوجه:

ينبغي على المُلْقِي أن يتفاعل مع ما يقول، فإن كان حديثه عمَّا يُفرح تهلَّلَ وجهه فرحًا، وإن كان عمَّا يُحزن بان الحزن على وجه، وإن كان عَمَّا يُغْضِبُ احمرت وجنتاه من الغضب.

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»(١).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**». وَيَقُولُ «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»(٢).

وعن فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس أنها سَمِعَتْ مُنَادِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَادِي: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَخَرَجَتْ إِلَى المَسْجِدِ، قَالَتْ: فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «**لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ**» إلى آخر الحديث(٣).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٣، رقم ١٢٢٦٧)، والبخارى (٥/ ٢٣٨٥، رقم ٦١٣٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨، رقم ٢٩٥١)، والترمذى (٤/ ٤٩٦، رقم ٢٢١٤) وقال: حسن صحيح. وعبد بن حميد (ص ٣٥٣، رقم ١١٦٦)، وابن حبان (١٥/ ١١، رقم ٦٦٤٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة، باب رفع الصوت في الجمعة (٢/ ٥٩٢) رقم (٨٦٧).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الفتن باب قصة الجساس (٤/ ٢٢٦١، رقم ٢٩٤٢).

٤- تحريك اليد والجسم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**»(١).

«وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب يشير بإصبعه المسبحة»(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: «يَأْخُذُ الجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ وَقَبَضَ بِيَدِهِ فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الجَبَّارُ! أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ قَالَ: وَيَتَمَيَّلُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي أَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»(٣).

٥- وضع الوقوف أو الجلوس:

«كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب وهو واقف على المنبر ويتكئ أحيانًا على عصا أو سيف أو على رجل»(٤).

وكان يحدث أصحابه وهو جالس، و ربما جلس متكئًا أحيانًا.

وقد مر بنا حديث (وقول الزور) وكيف كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكئًا ثم جلس.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٢٣٨٥، رقم ٦١٣٩) مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب قرب الساعة (٢/ ٥٩٢) رقم (٢٩٥٠).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفتن باب قصة الجساس (٤/ ٢٢٦١، رقم ٢٩٤٢).

(٣) صحيح ابن ماجه في باب فيما أنكرت الجهمية سنن ابن ماجه (١/ ٧١ -١٦٤) الحديث وصححه الألباني.

(٤) مختصر صحيح مسلم رقم الحديث (٤١٤) (ص١١٤).

٦- الحركة والانتقال:

ذهابًا وإيابًا حسب ما يناسب الحال لأنه أدعى لجذب انتباه المستمعين.

كيف تتغلب على القلق؟

١- استحضر الإخلاص لله تعالى، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧].

٢- أكْثِر من إلقاء الكلمات والمواضيع.

٣- حَضِّر الموضوع بإتقان.

٤- جَرِّب الإلقاء منفردًا مرة أو أكثر قبل مقابلة الجمهور.

٥- أكثر من ذكر الله وأنت في طريقك إلى الإلقاء، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

٦- اسأل الله اطمئنان القلب والصبر والتثبيت، يقول تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا ﴾ [البقرة:٢٥٠].

٧- ابدأ الإلقاء بذكر الله وحمده؛ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبته، يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله... الحديث»(١).

٨- حافظ على تركيزك في موضوعك.

٩- كن إيجابيًّا في تفكيرك تجاه نفسك وتجاه المستمعين، فأنت قادرٌ على الإلقاء بإذن الله، وعملك من أحسن الأعمال وأشرفها، حيث يقول تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣]، وقد وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالتيسير لك إن أنت ذكَّرت الناس ودعوتهم، فقال جل من قائل: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨، ٩].

(١) صحيح سنن النسائي رقم الحديث: (١٤٨٧) المجلد الأول (ص٣٤٥).

كما أن المستمعين متفاعلون معك، فقد كلفك الله بالتذكير ووعد بتأثر من يخشى، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:٩، ١٠].

واعلم أن المستمعين لا يعلمون أنك قلق، ولو علموا بذلك لعذروك لأنهم يقدرون موقفك، ولو كان أحدهم مكانك لشعر بما تشعر.

١٠- إذا كنت تعلم بأن يديك ترتعشان عندما تكون متوترًا، فلا تحمل ورقة أثناء الإلقاء، لأن الورقة المرتعشة ستُظهر حركة يديك وتعطي إشارة للجمهور بتوترك.

١١- إذا كان صوتك على وشك الارتعاش عند البدء بالكلام، فخذ نفسًا عميقًا قبل بدء الكلام.

١٢- إذا كنت متوترًا قبل بدء الكلام، فجرِّب بعض تقنيات استرخاء العضلات: مثل أن تشد يديك وذراعيك وكتفيك، ثم تقوم بالاسترخاء ببطء.

١٣- وإذا كنت تعلم بأنك تعاني الارتباك قبل البدء بالتكلم، تأكد من وصولك في الوقت المناسب أو قبل الوقت المحدد بقليل ومن عدم تأخرك، حتى تستطيع أن تتآلف مع المكان بشكل أفضل مما يؤدي إلى تقليل توترك.

١٤- وإذا كان النظر إلى الجمهور يُرعبك، فتحدث إلى بعض الجمهور قبل دخولك القاعة، وعندما تبدأ كلامك، ابحث عن الوجوه اللطيفة بين الجمهور وانظر إليها.

١٥- استعن بالله والجأ إليه واطلب منه العون والثبات بالدعاء.

التغلب على الخوف والخجل:

خمس وعشرون وصية لغرس الثقة والتغلب على الخوف والخجل:

(١) استعن بالله تعالى، وأخلص عملك له، واسأله التوفيق والتيسير.

(٢) صَلِّ ركعتين ثم ارفع يديك بالدعاء، و اطلب من والديك ذلك.

(٣) تقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعمل صالح.

(٤) تَبَرَّأْ مِنْ حولك وقوتك، والجأ إلى حول الله وقوته سبحانه.

(٥) حَضِّر تحضيرًا جيدًا، واقرأ كثيرًا عن كل ما يَخُصُّ الموضوع.

(٦) تَفَهَّمْ فكرتك جيدًا قبل أن تتحدث بها.

(٧) احفظ ما تريد قوله جيدًا، واحرص على تكراره كثيرًا.

(٨) تمرن على ما تريد قوله، وجرب عرضك له في بيتك، ثم تعرف على أخطائك وحاول تلافيها (اعمل بروفة).

(٩) خاطب نفسك وأقنعها بالمقدرة والنجاح، ولسوف تنجح بإذن الله تعالى.

(١٠) حاول الإرتجال، وتجنب القراءة الكثيرة من ورقة أو مذكرة.

(١١) كن طبيعيًّا، واحذر التكلُّفَ والتنطُّعَ.

(١٢) حَسِّنْ مظهرك، وطيِّب نفسك، ورتِّب هِندامك.

(١٣) ضع أمامك رؤوس أقلام الموضوع.

(١٤) احرص على المبادرة والإقدام، وكن شجاعًا جريئًا فأنت أَهْلٌ لذلك.

(١٥) تحدَّ نفسك، وأرغمها على المجازفة، وأقنعها أن المراتب العالية لا تتأتَّى إلا بالمجازفة والإقدام والهمة العالية وخوض الصِّعَابِ.

(١٦) وافق على بعض الخوف على أساس أنه طبيعي وجيد، وتذكر قول الشاعر:

بداية المجهول قد يخيف تكراره يجعله أليف
تقبل للخوف في البداية سياسة الشجعان عن دراية

(١٧) اعتقد وتذكر أن الشباب في صَفِّكَ وهم معك فيما تقول.

(١٨) تصور نفسك متحدثًا، وخطيبًا مُفَوَّهًا فأنت أَهْلٌ لذلك.

(١٩) تدرج في الإلقاء والخطابة، وابدأ في تجمعات وفئات قليلة.

(٢٠) ذكر نفسك بأن كل خطيب مشهور كانت بدايته عرضة للخطأ.

(٢١) ابتسم ابتسامة خفيفة.

(٢٢) أمسك بجسم صلب غير متحرك إن تيسر لك ذلك.

(٢٣) ابدأ الكلام بحمد الله والثناء عليه.

(٢٤) لا تقارن نفسك بمتحدِّثٍ آخر.

(٢٥) تأكد من وجود أوراقك كاملة[١].

كيف تقيس مدى استجابة الجمهور؟

١- فهم المستمعين للموضوع بإجاباتهم على أسئلتك.

٢- سرورهم وارتياحهم للموضوع.

٣- تَبَنِّي وجهات النظر التي تدعو إليها.

٤- تحسن علاقاتهم بك ومحبتهم لك.

٥- تَبَنِّيهِم للسلوك الذي تدعو إليه.

٦- دعوتهم للآخرين إلى السلوك الذي تدعو إليه.

---

(١) كتاب ٥٥٥ طريقة ووصية لتصبح مدربًا ناجحًا وخطيبًا مؤثرًا ومتكلمًا بارعًا، د. علي الحمادي مع بعض الإضافات اليسيرة.

(ب) جهارة الصوت وحُسنه:

من دلائل تكريم الإنسان على سائر الحيوان: أن الله تعالى رزق الإنسان القدرة على الإبانة عمّا في نفسه باللسان أو بالإشارة أو بالكتابة.

وحاجة المرء إلى القدرة على البيان لا تقلُّ أهمية عن حاجته إلى عقله؛ لأنه إن لم يستطع الإبانة عمّا في نفسه قلّت فائدة عقله أو تلاشت؛ ولهذا فإن الله تعالى ما أرسل رسولًا إلا بِلُغَةِ قومه؛ ليتحقق المقصود من الرسالة، وهو: إبانة الطريق الموصلِّة إلى الله تعالى وتحذيرهم من سبل الشيطان. قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال النبي ﷺ: «لَمْ يَبْعَثْ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ»(١).

ولكل وسيلة من وسائل البيان أصولها وقواعدها وأسلوبها، تَعَارَفَ البشرُ على ذلك وتواضعوا؛ إذ لا سبيل إلى التفاهم فيما بينهم إلا بذلك.

والخطاب المباشر بـ(الخطابة) هو أشهر وسائل البيان والإقناع، وأكثرها استعمالا عند بني آدم؛ ولذا اعتنوا به من قديم الزمان، وبحثه المتقدمون منهم والمتأخرون، وأدخلوه ضمن علوم الفلسفة قديمًا، وأُنشئت له الأقسام في الجامعات، وخُصص له مناهج ومدرسون مختصون، وأُلِّفَتْ فيه الكثير من الكتب والرسائل العلمية كما هو مشاهد في عالم اليوم.

وهذه المقدمة المختصرة تُلقي الضَّوْءَ على جزء من الخطاب المباشر (الخطابة) يتعلق بصوت الخطيب الذي يلقي الخطبة؛ ذلك أن للصوت تأثيرًا ملحوظًا على السامع، وهو الوسيلة الموصلة للمعاني إلى آذان المستمعين.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٥/ ١٨٥)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٣٥٧) ثم الألباني في صحيح الجامع (٥١٩٧).

أهمية الصوت:

صوت الخطيب مُترجِمٌ عن مقاصده، وكاشفٌ عن أغراضه، ومصاحبته للألفاظ إذا كان الإلقاء جيدًا بمثابة بيان المعاني التي أرادها الخطيب، وهو المُعَوَّل عليه في إيصال الخطبة إلى السامعين، ومِنْ ثَمَّ إلى قلوبهم. وقد سمَّاه الأقدمون: نورًا؛ لأنه يحمل شعلة الضياء إلى الأذهان[١].

وكم من الخطباء الذين يُبهرون السامعين بِحُسْنِ أصواتهم وجودة إلقائهم أكثر من سحر بيانهم.

ومن دلائل تأثير الصوت في النفوس: أنه قد يقرأ القرآن حافظ متقن مجوِّد؛ لكنه لا يحسن الأداء في القراءة، فلا يؤثر في مستمعيه. وقد يقرأ القرآن من ليس بمجود ولا متقن؛ فيُبكي سامعيه بجودة أدائه، وحسن صوته.

يقول الأستاذ نذير مكتبي: وتُعتبر جهارة الصوت وجماله من أهمِّ صفات الخطيب الذاتيَّة أثناء الخطبة، ليتمكَّن بموجبها من الاستيلاء على نفوس السامعين وجلب إصغائهم إليه.

وقد استحقَّ الرجل الجهوريُّ الصوت المدحَ، لأنَّه اكتسب في حَنْجرته صفةً تمكِّنه من إيصال الكلام إلى سامعيه، ومن عرضه عليهم بصورة مفهمة، لهذا أجاب أعرابيٌّ لَمَّا سُئل عن الجمال، فقال: «طول القامة وضِخَم الهامة، ورحب الشَّدق وبُعد الصوت».

(١) انظر: الخطابة، د. نقولا فياض، طبعة دار الهلال بمصر، ١٩٣٠م، (ص٥٣)، وفن الخطابة للشيخ علي محفوظ، طبعة دار الاعتصام، (ص٦٥)، وفن الإلقاء، محمد عبد الرحيم عدس، دار الفكر، الأردن الطبعة الأولى، (ص٤١) الخطابة أصولها، تاريخها، في أزهر عصورها عند العرب، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، (ص١٤٨).

ولكن يجمُل بالخطيب أن يكتسب إضافة إلى جهارة الصوت حُسْنه وجمالَه، إذ إنَّ الصوت الجميل الذي يتمتَّع بنَبْرةٍ عذبةٍ تأنسُ به الأذن، ويرتاح إليه السمع، ويكون وقعه في النفس جميلًا ومؤثرًا.

وإذا كان حُسْن الصوت وجماله صفةً جِبلِيَّة لا سبيل إلى تحصيلها بالكسْب، فإنَّ جهارة الصوت وقوَّته يمكن أن تُنمَّى بواسطة تدريب الحَنْجرة وترويضها على الصوت المرتفع، ويحصل ذلك عندما يخلو الإنسان بنفسه، ثمَّ يحاول أن يصيح ويرفع صوته كأنَّه يخطب في جمع من الناس، أو يخرج إلى الأمكنة الفسيحة والفضاء الرَّحْب، ثمَّ يحاول رفع صوته بالصياح، ويكرِّر ذلك مرَّات عِدَّة حتى تكتسب حَنْجرته قُوَّةً ومرونة، وتكتسب رئتاه نفسًا عميقًا.

ويكون الخوف والخجل أحيانًا عَامِلَيْنِ مُؤَثِّرَيْنِ في ضعف الصوت وخُفُوته، فينبغي للخطيب حينئذٍ أن يحطِّم قيد الخجل، ويتخطَّى حاجز الخوف، ويتجمَّل بالشجاعة والجرأة.

وإذا لم يتَّصف صوت الخطيب بالجهارة والجمال، فكان ضعيفًا خافتًا أو قبيحًا صارخًا، أو مُتَهَدِّجًا[١]، فسوف تنبو عنه الأسماع، وتنفر منه النُّفوس، وتُعرض عنه العقول والقلوب؛ لأنَّ الإنسان يميل بطبعه إلى ما يأنس به، وينفر مما يستوحش منه.

ولكل وسيلة من وسائل البيان أصولها وقواعدها وأسلوبها، تعارف البشر على ذلك وتواضعوا؛ إذ لا سبيل إلى التفاهم فيما بينهم إلا بذلك[٢].

(١) **مُتَهَدِّجًا**: أي متقطِّعًا في ارتعاش.

(٢) خصائص الخطبة والخطيب نذير محمد مكتبي (ص٢٥٢، ٢٥٣).

والخطبة الجيِّدة إذا ألقاها من لا يحسن الأداء كانت كالسيف البتَّار في اليد الضعيفة، والخطيب المِصْقَع الذي يلقي خطبة رديئة كالبطل المغوار الذي يقاتل بسيف كالٍّ.

فإذا اجتمعت قوة السيف، وقوة اليد التي تحملها، وقوة قلب صاحبها عملت عملها، وهكذا الخطبة إن كانت جيدة في بلاغتها ولغتها وأسلوبها، وألقاها من يحسن الإلقاء عملت عملها في قلوب السامعين.

وكم من أشخاص سمعنا خطبهم، وتأثرنا بها! فلما قرأناها مكتوبةً لم تكن كما سمعناها، مع أنها لم تزد حرفًا ولم تنقص حرفًا؛ مما يدل على أن للإلقاء والصوت أثرًا كبيرًا على السامع.

هل جمال الصوت خِلقة أم اكتساب؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من فهم المقصود منه؛ إذ إن الحكم على جمال شيء أو قبحه أمر نسبي يختلف باختلاف الأذواق، ثم في الذي يُسخَّر له الصوت، وكيفية تسخيره؛ وهذا بلا شك له أثره في الحكم على جمال الصوت أو قبحه.

وكثير من الخطباء قد يحكم على صوته بأنه سَيِّئٌ مع أن السوء في أدائه لا في صوته، فيقعد عن تحسين أدائه بحجة أن هذا هو ما أعطاه الله تعالى.

والأصوات أنواع، ولكل صوت ما يناسبه من طرق الأداء والإلقاء؛ فما يحسن من الأداء في صوت قد يقبح في آخر؛ بدليل أننا نستمع إلى خطيبين يقلد أحدهما الآخر في طريقة الإلقاء، حتى يكاد أن يكون مثله لولا اختلاف نغمة

الصوت، ومع ذلك يُقيل الناس على أحدهما، ويستهجنون الآخر؛ والسبب: أن أحدهما ناسب صوته طريقة إلقائه، بعكس الآخر.

وعلى الخطيب أن يكتشف طريقة الإلقاء المناسبة لصوته ونَفَسه؛ وذلك يكون بتجربة طرق عدة، والنظر في مدى أثرها على السامعين، مع سؤال أهل الخبرة في ذلك، وسيكتشف بعد عدة محاولات طريقة الأداء التي تناسب صوته.

الهدي النبوي رفع الصوت في الخطبة:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»(١).

ويفهم من هذا الحديث أمور، منها:

١ - الاعتناء بشأن الخطبة؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يهتم لها وبها، دلَّ على ذلك الأحوال التي تعتريه أثناء خطبته؛ فلو لم يكن مهتما بها لما علا صوته، واحمرَّت عيناه، واشتدَّ غضبه.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُستدَلُّ به على أنه يستحب للخطيب أن يفخِّم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقًا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب وترهيب»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، والنسائي في العيدين باب كيف الخطبة (٣/ ١٨٨، ١٨٩)، وابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل (٤٥) وغيرهم.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٢٢٢).

٢- لا يُفْهَمُ من الحديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرفع صوته دائمًا، ويشتد غضبه باستمرار، وتحمرُّ عيناه في كل خطبته؛ بل كان ذلك منه في أحوال تستلزم ذلك كذكر القيامة، أو إذا خولف في أمر غضب لله تعالى، كما جاء في بعض روايات الحديث: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ وَعَلَا صَوْتُهُ..»(١).

فهذا مقيِّد للإطلاق المذكور سابقًا بذكر الساعة.

وهذا ما فهمه شُرَّاح الحديث. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحمرُّ عيناه، ويعلو صوته، ويشتدُّ غضبه في حال خطبته، كان هذا منه في أحوال. وهذا مُشْعِرٌ بأن الواعظ حقه أن يكون منه في وعظه بحسب الفصل الذي يتكلم فيه ما يطابقه؛ حتى لا يأتي بالشيء وضده ظاهر عليه. وأما اشتداد غضبه فيحتمل أن يكون عند نهيه عن أمْرٍ خُولِفَ فيه، أو يريد أن صفته صفة الغضبان»(٢).

٣- أن تغيُّر أحوال الخطيب وانفعالاته يكون بحسب المعاني التي يلقيها على السامعين؛ كما دل عليه الحديث، وأقوال العلماء الذين شرحوه؛ حتى لا يكون إلقاؤه مخالفًا للمعاني التي يلقيها.

فألفاظ الاستفهام والتعجب، والتوبيخ واللوم، والعتاب والزجر، والتفخيم والتهويل والتحزين والحيرة، والوعد والوعيد، ونحوها لها كيفيات صوتية في الإلقاء تدل على المعنى المراد.

(١) هذه الرواية صححها ابن خزيمة (١٧٨٥)، وابن حبان (٣٠٦٢).
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ٥٠٦)، وانظر أيضًا: شرحَي الأبي والسنوسي على صحيح مسلم (٣/ ٢٣٢ ٢٣٣)، وشرح الطيبي على المشكاة (٤/ ١٢٨٣).

وكذلك يقال في خفض الصوت ورفعه ولينه وشدته، وتكرار الكلمة وقطعها ومد الصوت بها لها مواضعها في الخطبة؛ حتى يستثير الخطيب السامعين، ويلفت انتباههم، مما يكون عونًا على الاستفادة من الخطبة؛ إذ هو المقصود من شرعيتها.

ولا شكَّ في أن الخطيب إذا لم يراعِ معاني الألفاظ في صوته فقدت معانيها، ولربما استعجمت على السامعين، وفي هذا المعنى يُذكر أن رجلًا اتُّهم بالسرقة، وليس ثَمَّةَ دليل يدينه، فوعده القاضي بأن يطلق سراحه بشرط أن يقوم أمام الناس ويعترف بأنه لص! فوافق، فلما صار أمامهم قال بصيغة السؤال والاستنكار: «أنا لص؟!» كأنه يستنكر ذلك؛ فتعاطف الناس معه، ولم يحقق القاضي ما أراده»[(١)].

ما ينبغي مراعاته في الصوت:

١- موافقته لظروف الخطبة؛ فإن الصوت يختلف باختلاف الحضور واختلاف المكان والزمان، وموضوع الخطبة.

فصوت الخطيب يختلف في مناسبة الفرح عنه في مناسبة الحزن، كما يختلف في المكان الضيق عنه في المكان الرحب الغاص بالمستمعين[(٢)].

فعلى الخطيب أن يراعي مثل هذه الظروف، ويكيِّف صوته بما يتناسب معها.

(١) فن الإلقاء (١٧)، وانظر أيضًا: الخطابة في صدر الإسلام، د. محمد طاهر درويش، طبعة دار المعارف، مصر (٤٦)، وفن الخطابة د. أحمد محمد الحوفي، دار النهضة، مصر، الطبعة الرابعة (٣١)، وقواعد الخطابة، د. أحمد غلوش، ١٣٩٩هـ (١٨٣، ١٨٤)، والخطابة، للشيخ أبو زهرة (١٤٧).

(٢) انظر: فن الخطابة، لأنطوان القوَّال، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى (٢٤).

ويرى بعض الباحثين أن المناسب في الخطبة أن يبدأ بها خافضًا صوته، ثم يعلو شيئًا فشيئًا؛ لأن العلو بعد الانخفاض سهل، ووقعه على السامعين مقبول. أما الخفض بعد الارتفاع فلا يحسن وقعه[١].

وعلى الخطيب أن يعرف قدراته الصوتية، فلا يتحمَّس حماسًا يرفع صوته عاليًا بحيث لا يستطيع إكمال خطبته على هذا النمط؛ لأنها طويلة، وقدرته الصوتية ضعيفة؛ فيقع في حرج بالغ، ويُفسد انجذاب السامعين إليه.

٢- ألا يجعل صوته نمطيًّا؛ بحيث يكون على وتيرة واحدة؛ فإن ذلك يلقي في السامعين سآمةً وملالًا، بل يُغَيِّرَ النبرة الصوتية بما يتناسب مع المعاني التي تحويها الألفاظ.

وقد كان كثير من الخطباء خاصة كبار السن يُرَتِّلُونُ الخطبة كترتيل القرآن، أو كقراءة المتون العلمية على المشايخ، وهذا لا يتناسب مع الخطبة، وإن وَجَدَ السامعون له لذة في مسامعهم؛ لكنها ليست لذة بالمعاني والألفاظ، وإنما هي بصوت الخطيب ولا سيما إن كان صوته حسنًا وذلك يشغلهم عن معانيها وفوائدها، ولربما أنهم لم يدركوا ما فيها من معانٍ وألفاظ رغم طربهم بها.

٣- أن يُفَرِّغ فكره أثناء الإلقاء للمعاني التي يلقيها، ويحرك بها قلبه، ويتفاعل معها قدر استطاعته.

وللإخلاص في إعداد الخطبة وإلقائها حظ كبير في تحرك القلب بها، ولا سيما إن كان في القلب حرقة لدين الله تعالى، ولنفع إخوانه المسلمين.

---

(١) الخطابة، لمحمد أبو زهرة (١٤٩)، وفن الخطابة، لمحفوظ (٦٨).

والشواغل الذهنية أثناء الإلقاء تؤثر كثيرًا على القلب، وتفقده الكثير من الخشوع والتدبر.

فانشغال الخطيب أثناء الإلقاء مثلًا بالنحو أي خوف اللحن يجعله يركِّز على الإعراب، وينصرف عن المعنى. وسبب ذلك في الغالب: أنه لا يراجع خطبته قبل إلقائها مراجعة تجعله يتقنها، ولا يخاف اللحن فيها.

ومن كان دائم الانشغال بذلك حتى لو راجعها كثيرًا فينبغي له أن يعربها أي يضبطها بالشكل لأن تفريغ ذهنه للمعاني أهم من انشغاله بأمور يستطيع إصلاحها قبل الإلقاء.

وقد يكون الخطيب مرتجِلًا يخطب بلا ورقة فينشغل بما سيقوله عن تدبر ما يقول، أي: أن فكره يسبق كلامه، فيهيئ في ذهنه الجملة التي سيقولها وهو لا زال في الجملة الأولى، وهذا بلا شك يجعله لا يتدبر، وربما دخلت الجملة الثانية قبل اكتمال الأولى، فيفسد المعنى كما هو ملاحظ على كثير ممن لا يحسنون الارتجال.

وبكل حال فإن الإعداد الجيد للخطبة مع الإخلاص كفيل بانفعال الخطيب في خطبته، ومن ثم انفعال المستمعين، وكلما ضعف الإعداد وقَلَّ الإخلاص كان الانفعال أقلَّ وتأثير الخطبة أضعف.

وفي هذا المعنى قال عامر بن عبد القيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان»[(١)]، ولَمَّا سأل معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صحار بن عياش العبدي عن سر بلاغتهم قال: «شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا»[(٢)].

(١) فن الخطابة، لمحفوظ (٦٨)، عن البيان والتبيين، للجاحظ (١/ ٨٤)، والحيوان (٤/ ٢١٠).
(٢) فن الخطابة، للحوفي (٢٦).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لواعظ لم تؤثر فيه موعظته: «يا هذا! إن بقلبك لشرًّا أو بقلبي»[(١)].

٤- عناية الخطيب بأجهزة الصوت التي توصل خطبته للسامعين؛ فهذه الأجهزة نعمة من الله تعالى خدمت الخطباء وأراحتهم من رفع أصواتهم رفعًا يَضُرُّ بهم.

ومعنى العناية بها: أن يكون الصوت فيها موزونًا بما لا يزعج المستمع ولا يشوِّش عليه.

وبعض الخطباء لا يرتاح حتى يرتد إليه صوته من شدة جلبة مكبرات الصوت، وبعضهم قد تكون أجهزته لا توصل الصوت من شدة خُفوتها، والموازنة مطلوبة، وأصوات الناس تختلف، والأجهزة أيضًا تختلف، فينبغي أن يضبط صوت الجهاز بما يتناسب مع صوت الخطيب ضعفًا وقوةً؛ فإن كان في صوت الخطيب ضَعْفٌ رفع صوت الجهاز حتى يسمع الناس، وإن كان الخطيب جهير الصوت خفض صوت الجهاز حتى لا يحصل الإزعاج؛ فالإزعاج وضعف الصوت مانعان من الاستفادة من الخطبة.

٥- الاعتدال في سرعة الصوت؛ فلا يتمهل تمهلًا يصيب السامعين بالملال، ولا يسرع سرعة تمنعهم التدبر وفهم المعاني. والسرعة تجهد الصوت لا سيما في الخطب الطويلة، وحدَّد بعضهم متوسط ذلك بما يقارب مائة وعشرين كلمة في الدقيقة[(٢)].

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، (١/ ٨٤)، طبعة دار الجيل بيروت.
(٢) فن الخطابة، أنطوان القوال (ص٢٥).

وفي ظني أن هذا يختلف باختلاف الأصوات وطريقة الإلقاء، ولكل خطيب ما يناسبه.

ولو أسرع في بعض الجمل ليتمهل في كلمة منها بقصد لفت الانتباه إلى أهميتها؛ فذلك أسلوب من أساليب شد الانتباه، وقد كان بعض مشاهير خطباء الإفرنج ينطق بعدة كلمات بسرعة كبيرة حتى يصل إلى الكلمة أو العبارة التي يريد تأكيدها، ثم يبطِّئ صوته عندها، ويضغط عليها[١].

٦- أن يجتنب الخطيب ما قد يضايقه ويضعف صوته كالضغط على الحنجرة بأزرار الثوب، وإن كان ممن يحتاج إلى ماء لتقوية صوته فلا بأس أن يشرب قبل الخطبة، أو في الجلسة بين الخطبتين، أو حتى في الخطبة إن لم يخش انقطاع الأفكار، وانصراف المستمعين عنه.

وعلى كل حال فإنه ينبغي للخطيب العناية بما يكمل خطبته، ويجعلها مؤثرة في قلوب المستمعين، محصلة لمقاصدها التي شرعت من أجلها، كذلك ينبغي العناية بالصوت، والبحث عن الطريقة الإلقائية الملائمة له.

وتمرينات الحلق واللسان على الأساليب الخطابية؛ مما يجب على الخطباء صرف الاهتمام له؛ فليس ذلك بأقلّ من الاهتمام بإعداد الخطبة موضوعًا ولغةً، وبلاغةً ومعنى؛ إذ الصوت ناقل لها، وبجمال الإلقاء تكون الخطبة جميلة، وبرداءة الإلقاء تكون الخطبة رديئة، ولو كان إعدادها جيدًا[٢].

---

(١) انظر: قواعد الخطابة، لغلوش (ص١٨٤).

(٢) إبراهيم بن محمد الحقيل، رئيس تحرير مجلة الجندي المسلم، مقال بعنوان الصوت في الخطابة أهميته وأثره في انتباه المستمعين.

(جـ) اتِّزان النَّبرات:

ونعني بذلك أن يجعل الخطيب صوته مناسبًا لمعاني الخطبة ولمكان إلقائها وللجمهور المستمع إليها، فيرسله إرسالًا متوازنًا بحيث يقوى في موطن القوَّة، ويرفق في موطن الرِّفق، ويُلبسه صورة المعاني التي يسوقها، ويعطيه إيقاع الأساليب التي ينطق بها، فيؤدِّي ذلك إلى تجديد انتباه المخاطبين بخطبته، وإيقاظ أذهانهم، وتحريك مشاعرهم، واستمرار نشاطهم في الإصغاء إلى كلماته ومتابعة حديثه إلى نهايته.

ومن المستحسن بالخطيب، ليحقِّق صفة اتِّزان النبرات في صوته أثناء خطبته، أن يبدأ حديثه بصوتٍ منخفض، ثُمَّ يتدرج في رفع صوته وخَفْضه بحسب المواطن والمواقف التي يمرُّ بها والمعاني التي يسوقها، فيتمشَّى بذلك مع نَفَس المستمع إليه، واستعداده لاستقبال كلماته وسماع عباراته.

وأمَّا إذا بدأ خطبته بصوت مرتفع، فسوف يؤدِّي إلى نُفْرةِ الأسماع منه وصمِّ الآذان عنه حتى يتمنَّى الجمهور سكوتَه طلبًا لراحة أسماعهم وسلامة آذانهم، فالصوت الصارخ العالي يتعب الأسماع، ويرهق الأذهان.

كَمَّا أنَّ من العيوب التي يقع فيها بعض الخطباء في هذا المجال أنَّك تجد أحدهم يُسرع في إلقاء الكلمات إسراعًا بحيث لا يتمكَّن السامع من ملاحقته بسمعه وذهنه، فيُضطرُّ إلى أن يتجاوز إدراك كثير من كلمات الخطيب وعباراته ليلحق به إلى نهاية خطبته، فيفوته سماع العديد من الألفاظ وفهم الكثير من الأفكار، فتفقد الخطبة بذلك فائدتها في نفسه ولا تصل بتمامها إلى سمعه.

فالإسراع صفة ذميمة وخصلة غير كريمة، ينبغي للخطباء تجنُّبها، لأنَّها تُفوِّت على السامع كثيرًا من المنافع.

وإنّ أَحْسَنَ الخطباء أداءً وأنفعهم خُطبة مَنْ تمهَّل في إلقائه، وأوضح نطقه، وأجاد في إسماعه. ولقد جاء في وصف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه كان إذا خطب استطاع أن يَعُدَّ كلماتِه ويحصيَها، وإذا كُنَّا قد ذممنا الإسراع، فلا يعني هذا أنَّنا نمدح الإبطاء، فإنَّ الإبطاء في إلقاء الكلام إذا خرج عن صورته الطبيعيَّة وأصبح ضربًا من التمطيط، ساءت عاقبته، وفسدت ثمرته حيث يؤدي إلى مَلَل أسماع السامعين وشرود أذهانهم وضجر نفوسهم وانصرافهم عن خطيبهم.

فالأمر إذًا عوان بين ذلك، فلا هو إسراع مضِلٌّ، ولا إبطاء مملٌّ.

ومن العيوب القبيحة في هذا المجال أيضًا:

أنَّك تجد بعض الخُطباء يسير في إلقاء خطبته بأن يرفع صوته ثمَّ يخفضه تدريجيًّا، ثُمّ يعود فيرفعه ثانية ليخفضه تدريجيًّا مرَّة أُخرى ويستمر دأبُه هكذا إلى نهاية خطبته.

أو أنَّه يبدأ خطبته هادئًا، ثمَّ يرفع صوته تدريجيًّا، ويستمرُّ في رفع صوته، ويزيد في حماسته وانفعاله إلى نهاية خطبته، فينشأ عن هذه الطريقة تهدُّج صوته وإرهاق حَنْجرته. وقد تجد بعض الخطباء ممن يسلك هذا المسلك، ويتَّبع هذا الأسلوب، ينقطع صوت أحدهم أثناء خطبته وقبل أن يصل إلى غايته، فيضطرُّه ذلك إلى أن يُتِمَّ خطبته في غاية الإرهاق والتعب وضعف الصوت والنصب، فيلتزم الاختصار، ويترك بعض الأفكار، ليخرج من لُجَّةِ عنائه، ويتخلَّص من تعبه وإرهاقه.

كما تجد فريقًا من الخطباء يجعل أحدُهم صوته ينطلق على وتيرةٍ واحدة، فيبدأ هادئًا من أوَّل خطبته إلى نهايتها، أو يبدأ خطبته بقوَّةٍ وحماسة ويستمرُّ هكذا إلى اختتامها، فينجم عن ذلك تطرُّق الملل إلى نفوس المستمعين إليه الذين يتطلَّب من الخطيب لبقاء نشاطهم واستمرار انتباههم أن يتَّزِن في نَبْرة صوته، ويُلوِّن في إيقاعها بما يتناسب مع مكان إلقائه، والجمهور المستمع إليه، ومعاني خطبته[١].

(د) النَّطق الجيّد:

النُّطق الحسن هو الدِّعامة الأولى للإلقاء الجَيِّد، وإذا اعترى النُّطق ما يفسده، ضاع الإلقاء، فضاعت معه الخطبة وأثَرُها، وفَقَدَ الخطيب ما يَسْمُو إليه من وراء البَيَانِ، ولا شيء يذهب بالمعنى الجيِّد أكثر من النطق الرديء، وكثيرًا ما يفهم المعنى على غير وجهه؛ لأن النُّطْقَ قَلَبَه، ولم يصوره تصويرًا صادقًا.

والنطق الجيد يحتاج إلى عناصر أربعة لا بُدَّ من توافرها، فإذا فُقِد أحَدُها ذهب أحد أركانه، فاخْتَلَّ بنيانه، وها هي ذي:

١ - تجويد النطق:

بأن يُخرج الحروف من مَخارجها الصحيحة، فلا ينطق الثاءَ سينًا، ولا بالذال زايًا، ولا بالجيم كما ينطق العامة، وهكذا كلُّ مخارج الحروف، فيجب أن يُعْنَى الخطيب بأن يكون الحرف خارجًا من ينبوعه، صادرًا من مَخرجه الذي عُرف عن العربي النُّطقُ به منه، وإنَّ العناية بنطق الحروف نطقًا صحيحًا، وإخراجها من مخارجها ليس معناها أنْ يَتَشادق الإنسان ذلك التشادق الذي يقع فيه بعض المتكلمين[٢] أو الخطباء فكَسَوُا النُّطق تكلفًا يثير سُخرية السامعين، أو

(١) خصائص الخطبة والخطيب نذير محمد مكتبي (ص٢٥٣، ٢٥٦).
(٢) كأولئك الذين يعلكون ألسنتهم بالقاف مفخمين النطق بها فيبدو التكلف واضحًا.

يثقل القول عليهم، بل معناه أن يَنطق بالحرف من مَخرجه من غير تكلُّف، ولا تشادق، ولا توَعُّر، بل في يُسر، ورفق وسهولة؛ لأن ذلك التشادق يوقع أولئك المتكلمين في نقيض ما يرغبون، فينطقون بالحروف من غير مَخارجها الصحيحة، كبعض الخطباء الذين يدفعهم غُلُوُّهم إلى النطق بالجيم بما يُقارب الشين؛ فرارًا من نطق العامة، فيدفعهم فرارُهم هذا من عَيْبِ العامِّيَّة إلى عَيْب آخر، لا يَقِلُّ عن الأول خروجًا عن جادَّة الفصحى، وقد قال بعض الأدباء: إن التشادق من غير أهل البادية عَيبٌ؛ لأنَّ أهل البادية في الزَّمن الأول كان نطقهم هو الصورة الصحيحة للنطق العربي القويم.

٢- مُجانبة اللحن وتحرِّي عدم الوقوع فيه:

يجب أن يُعنَى الخطيب بتصحيح الكلام الذي ينطِق به، وملاحظته في مفرداته وعباراته، فيلاحظ بِنْيَة الكلمات ملاحظةً تامَّةً، فلا ينطق مثلًا بكلمة «سُوقَة» بفتحتين كبعض الخطباء، فيذهب ذلك بروعة القول وبَهائه، ولا ينطق بغير ما توجبه قواعد النحو في آخر الكلمات؛ فإنَّ ذلك يفسد المعنى، وقد يقْلِبه، وليعتبر الخطيب بما روى من أن خارجًا من الخوارج قال في قصيدةٍ هذا البيت:

وَمِنَّا يَزِيدٌ وَالْبَطِينُ وَقَعْنَبٌ ... وَمِنَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَبِيبُ

برفع أمير المؤمنين، فَلَمَّا وصل البيت إلى علم عبد الملك بن مروان، طلب قائله وسأله: أنت القائل: ومِنَّا أميرُ المؤمنين شبيب؟ فقال: لم أقل هكذا، ولكني قلت: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ، وفتح أمير أي: منا شبيب يا أمير المؤمنين فأعجب عبد الملك بفطنته، وأخْلَى سبيله، فانظر: كيف كان اختلاف الحركة في آخر الكلمة قالِبًا للمعنى، مُغيِّرًا للمقصد، فالخطيب الذي يقع فيه قد يفسد المعْنَى، بل قد ينقلب المدلول اللفظي لكلامه إلى نقيض المطلوب وعكس المراد،

والنُّطْق والخطأ في آخر الكلمات فوق أنَّه قد يُفسد المعنى، يَذْهب برونق الخطبة، وحسن وقْعِها، وجمال تأثيرها، ولا يَظُنَّنَّ الخطيب أن جَوْدة المعنى وإحكامه قد يذهبان ببعض الأخطاء، فإن الهَنَّات الصغيرة إذا كثُرت أحدثت تأثيرًا سلبيًّا للخُطبة، وأفسدت تأثير المعنى المحكمة، وإن جمهرة النظارة الآن في مصر ممن لهم إلمام بقواعد النحو، ولهم قُدرة على ملاحظة الأخطاء، وإن لم تكن لبعضهم قدرة على مُجانبتها في خطبهم، بل في كتابتهم أحيانًا، فإن المستمع يلاحظ ما لا يلاحظه الخطيب، ونَظَرَاته إلى المتكلم وكلامِه نظراتٌ فاحصة كاشفة، وإذا أدركوا كثيرًا من الأخطاء ضاع أثرُ الخطبة في نفوسهم.

٣- تصوير النطق للمعاني تصويرًا صادقًا:

بأن يُعطي كلَّ كلمة وكل عبارة حقَّها، ويظهرها بشكل تتميز به عن سواها، فالجملة المؤكَّدَة ينطقها بشكل يَدُلُّ على التوكيد في النغم، والجمل الاستفهاميَّة ينطق بها بشكل يتبيَّن منه الاستفهام، والمراد منه في طريق النُّطق، كما دَلَّ عليه بالأداة الدالة على الاستفهام، وسنتكلم عن هذا بشكل وافٍ عند الكلام عن الصوت.

٤- التمهُّل في الإلقاء:

وهو ألزم الأمور للخطيب، وليس بصحيح ما يزعمُه بعض الناس من أن الخطيب اللبق هو من يتدفَّق بيانه تدفُّقًا، وتَتَحَدَّرُ عباراته في سرعة، من غير تمَهُّل؛ فإن ذلك فيما أرى عيبٌ يَجِبُ التخلِّي عنه والاحتراز منه:

(أ) إذ النطق السريع المتعجل حيث تجب الأناة ينتج منه تشويه المخارج، وخلط الحروف بعضها ببعض؛ لأن عَضَلات الفم واللسان لا تأخذ الوقت الكافي للانتقال من لفظ إلى لفظ.

(ب) والإسراع المُفْرِط يجعل الخطيب يُهمِل الوقوف عند المقاطع الحسنة، والمقاطع لها حسن الأثر كما علمت فيما مضى.

(جـ) والخطيب السريع في نطقه لا يعطي السامعَ الفرصة الكافية لفهم ما يسمع، وتَذَوُّق ما فيه من صقل اللفظ وجودة المعنى، وحسن الخيال، فإذا قرعت أذنَه عبارةٌ قبل أن يذَوقَ ما في الأول من جمال، يَعْرُوهُ[1] التعب، ويسكن قلبه السَّأم، وينصرف عن الإصغاء.

(د) والتمهل فوق ذلك يجعل الصوت يسري إلى السامعين جميعًا بأيسر مجهود مُتناسب مع المكان والعدد، بينما الإسراع يجعل الكلمات تَحتاجُ إلى مَجهود صوتِي أكبر؛ ليصل الكلام إلى الآذان.

وقد كان النُّقَّادُ الأقدمون يَعدُّون بحقٍّ من أمارات رباطة جأش الخطيب التَّمهُّل في النطق؛ فقد قال أبو هلال العسكري في الصناعتين: «وعلامة سكون الخطيب ورباطة جأشه هدوؤه في كلامه، وتَمَهُّلُهُ في منطقه، وقال ثُمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق؛ قد جمع الهدوء والتَّمهُّل، والجزالة والحلاوة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لكانه»؛ وقبل أن نترك الكلام في هذا المقام نشير إلى نقطتين:

إحداهما: أنَّ الكلام يَجبُ أن يسودَه التمهل في الجملة لِمَا بيَّنَّا، ولكن يصحُّ أن يتفاوت في الجمل بعضها عن بعض، فالجمل الدَّالة على الفرح والسرور يُسْتَحْسَنُ أن ينطق بها الخطيب بسرعة نسبيَّة، وكذلك الجمل الدالة على الغَضَب؛ ليكون النطق مُصَوِّرًا للمعنى الروحي لهاتين الحالتين تمام التصوير.

(١) **يَعْرُوهُ:** أي يعتريه ويغشاه.

ثانيتهما: ألَّا يظن ظانٌّ أنَّ التَّمهُّل معناه أنْ يكون النطق هادئًا هدوءًا تامًّا؛ فتعدم الخطبة الحياة والقوَّة، بل يَجب أن يكون في نغمات الصوت ورنَّاته، وملامح الخطيب ونظراته، والتغيير النسبي في التمهُّل والسرعة يعطي الخطبة الحرارة والقوَّة والحياة(١).

ومن خصائص النطق الجيِّد أن يتجنَّب الخطيب الأخطاء النَّحْويَّة والأغلاط اللُّغويَّة، إذْ من القبيح به أن يقع في خطأٍ نَحْويٍّ أثناء كلامه، كأن يرفع المخفوض، ويخفض المرفوع، ويزداد الأمر سوءًا وقُبحًا إذا كثُر ذلك الخطأُ، وشاع في العديد من ألفاظ الخطيب أثناء خُطبته.

وإنَّنا نجد كثيرًا من الخطباء في هذه الأيَّام قد ابتُلُوا بهذه الآفة، ولم ينج منها إلا أولئك الذين عُنوا بألسنتهم فصقلوها، وقوَّموها بكثرة تلاوتهم للقرآن الكريم وقراءتهم للحديث النبويِّ الشريف، والكلام العربيِّ الفصيح من شعر أو نثر، وحفظ نصوص كثيرة من ذلك كُلِّهِ.

فإنَّ من صقل القرآنُ لسانَه، وقوَّم بيانه، يصبح قليل الزلل نادر الخطأ، ينطق بالكلمة نُطْقًا صحيحًا، ويجريها على قواعد اللُّغة العربية نَحْوِها وصَرْفِها، ويُخرج كلّ حرف من حروفها من مخرجه الطبيعيِّ.

ولا بأس هنا أن نذكر جدولًا ببعض الكلمات والعبارات التي اعتاد أكثر المتُكَلِّمين والخُطباء النُّطْقَ بها على خلاف صورتها الصحيحة، أو استعمالِها في غير موضعها المناسب، ونذكر إلى جانب الخطأ ما يقابله من الصواب.

(١) كتاب الخطابة لمحمد أبو زهرة (ص١٢٧-١٣٠).

الخطأ	الصواب	الخطأ	الصواب
الغِواية	الغَواية	يغفَل	يغفُل
قَيْد أُنملة	قِيد أُنملة	مزَّقه إرْبًا أرَب	مزَّقه إرْبًا إرْبًا
عَرْض الحائط	عُرْض الحائط	الغِيرة	الغَيْرة
طِوال العام	طَوال العام	المَصْيَف	المَصِيف
عَيان	عِيَان	حَلَقَة علم	حَلْقَة علم
تمعَّن الأمر	أمعن في الأمر	الغير معقول	غير المعقول
في الجُعْبة	في الجَعْبة	الحُنْجُرة	الحَنجَرة
على وِفْق المصلحة	على وَفْق المصلحة	فلان مرتبِط بكذا	فلان مرتَبِط بكذا
الأمور الحياتيَّة	الأمور الحيويَّة	الفَقَرة	الفِقْرة

يجب علينا أن نستبدل الجهل بالعلم، يجب علينا أن نستبدل العلم بالجهل (فالمتروك هو المجرور بالباء)، وهذا مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١].

ونؤكِّد في نهاية هذه الفِقْرة ما تقدَّمت الإشارة إليه أنَّ من مظاهر النطق الجَيِّد إضافَةً إلى ما ذكرناه: أن يصوِّر الخطيب المعاني بنُطقه، وذلك بأن يلفظ الاستفهام بصورة تدلُّ على الاستفهام، والتعجُّب بطريقة تشعر بالتعجُّب.. ونحو ذلك.

عيوب النطق وعلاجها:

عيوب النطق تُعد مشكلة كبيرة عند قطاع عريض من المتكلمين، وتُصيبهم بالخجل واللجلجة والخوف من التفاعل مع الآخرين. فاعلم علَّمك الله الخير أن عيوب النطق ترجع إلى:

١- عيوب وراثية في جهاز النطق.

٢- أو حالات نفسية يتعرض لها المرء.

٣- أو نقص وإهمال شديد في التدريب على الأداء الجيد والنطق السليم للكلمات في وقت التعليم.

ونُحاول ههنا أن نتعرض للمشكلة والحل، وله طُرق طبية (إن استلزم الأمر)، وتدريبات لُغوية ومهارية، والحل الأخير هو اختيار الكلمات..!!، ونُفصِّلُ كل ذلك إن شاء الله.

أولًا: من عيوب النطق المشهورة:

١- **التهتهة:** نُطق الكلمات مُتقطعة.

٢- **اللجلجة:** التردد في الكلام.

٣- **التمتمة:** ردُّ الكلام على التاء والميم.

٤- **الفأفأة:** ترجيع الكلام كثيرًا.

٥- **التأتأة:** تكرار التاء عند التحدث.

٦- **التلعثم:** التوقف والتحير أثناء الكلام.

٧- **الهذي:** كثرة الخطأ.

٨- **العيّ:** وهو البطء المرضي في الكلام.

٩- **الحصر:** التوقف وضيق النفس أثناء الكلام.

١٠- النطق بانفعال مع سكتات طويلة بين كل كلمة وأخرى.

١١- الرتابة ونطق الكلمات على وتيرة واحدة بصوت خفيض دون الشعور بأي انفعال صوتي.

١٢- إخراج حرف من مخرج غير مخرجه؛ كما بين السين والتاء، وبين التاء والدال، وبين الطاء والضاد، وهكذا.

توجيهات عامة لبداية العلاج:

١- حسن الاستماع؛ فالاستماع الجيد يؤدي إلى القراءة الجيدة، ويكون السماع إلى متقنين ومجيدين، وإلى نماذج ممتازة، وأعلاها كتاب الله من مهرة القراء.

٢- التدريب على القراءة من الكتب المُشكلة، ثم التدرج إلى الكتب غير المشكلة، حتى تعتاد عدم التشكيل، مثال ذلك: (عَلِمَ، عَلَمٌ، عِلْمٌ، عَلَّمَ).

٣- القراءة تتم في جُمَلٍ تامة، مع الاستعانة بعلامات الترقيم، ولا تُقْرِأُ كلمة كلمة، بل عليك مُراعاة تمام المعنى.

٤- ضبط حروف الكلمة التي تحتاج نُطقًا خاصًا، أو الكلمات الغريبة، أو الكلمة الأجنبية التي كُتبتْ بحروف عربية، فتُشكلها كاملة.

٥- ضبط الأسماء التي لها نُطق معين، وخاصة إذا كان الاسم غير متداول أو نادر تداوله.

٦- ضبط الحرف الأول والحرف قبل الأخير من الأفعال المبنية للمجهول، حتى لا يلتبس بغيره فيلتبس المعنى (ضَرَبَ، ضُرِبَ)

٧- الإعداد النفسي (خاص بالتأتأة):

★ خذ نفسًا بهدوء وأخرجه بهدوء لتزيل حال التوتر.

★ لا تستعجل خروج الكلمات.

★ خذ نفسًا طويلًا قبل بدء الكلام.

★ تكلم ببطء و مد في الكلمة.

★ انطق كل حرف بشكل جيد.

ومن التدريبات العملية:

(كل تدريب تقوم به ثلاث مرات يوميًّا، من ١٠ إلى ٢٠ دقيقة؛ باستخدام مرآة مساعدة).

تدريبات اللسان: «تنبيه: يجب مراعاة عدم استخدام الفك لمساعدة اللسان في التدريبات».

تدريبات لكل اللسان:

(أ) أخرج اللسان ثم وجهه جهة اليمين لأقصى حد ممكن.

(ب) أخرج اللسان ثم وجهه جهة اليسار لأقصى حد ممكن.

(ت) حرك اللسان للخارج و للداخل لأقصى حد ممكن.

(ث) حرك اللسان يمينًا و يسارًا حتى يصل لجوانب الفم بسرعة كبيرة.

(جـ) تدريب خرطوم الفيل:

(١) حرك اللسان للخارج و للأعلى باتجاه الأنف.

(٢) حرك اللسان للخارج وللأسفل حتى يصل للذقن.

(حـ) تدريب اللعق:

(١) حرك اللسان فوق جوانب الشفاه العليا (مرة من اليمين إلى اليسار؛ والعكس).

(٢) حرك اللسان تحت جوانب الشفاه السفلى (مرة من اليمين إلى اليسار؛ والعكس).

(٣) حرك اللسان كأنه يلعق جميع ما حوله من جوانب في حركة دائرية.

(هـ) الوقوف عند الموطن المناسب:

الخطيب الناجح يعرف أين يتوقف أثناء خطبته، فإذا مر بفكرة عظيمة يرغب في ترسيخها في أذهان مستمعيه توجه إليهم، وأحدق بعيونهم مباشرة للحظة من دون أن يقول شيئًا.

هذا الصمت المفاجئ له نتيجة الضجة المفاجئة، وهو يجذب الانتباه، ويجعل كل إنسان منتبهًا ومتحفزًا لما سيتلو ذلك الصمت.

كذا يقال في التوقف بعد كل جملة يراد توكيدها، فهو يضيف إلى قوتها قوة أخرى من خلال الصمت، وذلك أن المعنى يغوص في هذه الأثناء في النفس ويؤدي رسالته.

لكن يجب أن يكون التوقف بشكل طبيعي، ومن دون تكلف.

وقد قيل: «من خلال صمتك تتكلم» فالصمت ليس ذهبيًّا أكثر مما يستخدم عندما تتكلم. وهو أداة قوية ومهمة لا ينبغي إغفالها.

ونعني بهذا: أن يراعيَ الخطيب أثناء إلقاء خطبته الوقوف في الموطن المناسب.

وهذه ناحية هامَّة جدير بالخطباء جميعًا العناية بها؛ لأنَّ إهمالها وعدم الاكتراث لها قد يوقعان المتكلِّم والسامع في إحراجات ومآزق وفهم خاطئ، كأن يَسْتَمِرَّ الخطيب في النطق بجمل عدّة متوالية دون أن يلتقط نَفَسه خلالها، فيُضطرَ إلى التوقُّف عن النطق بسبب ضيق نَفَسِه، فيأتي توقُّفه في وسط الجملة أو في نهايتها وقبل اكتمال معنى السياق، فيؤدِّي هذا التوقُّف المفاجئ إلى بتر الكلام وانقطاع المعنى، فتفقد الخطبة فائدتها في عقل السامع وتأثيرها في قلبه.

وقد يتوقَّف الخطيب أثناء خطبته توقُّفًا اختياريًّا، ولكنَّه يُوقعه في غير الموطن المناسب، فينشأ عن ذلك اضطراب المعنى في ذهن السامع وتمزُّق الفكرة وضياع فائدة السياق.

ومع ذلك فهي مهملة من قبل الخطيب المبتدئ.

مثال تطبيقي:

★عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟**» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «**أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟**» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «**أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟**» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ**»(١).

★عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»،

(١) رواه البخاري في الحج، باب الخطبة يوم منى رقم (١٦٥٥) (٢/ ٦٢٠).

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «**أَنْ لا يُعَذِّبَهُم**»(١).

ولقد ذَمَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الصِّنف من الخطباء كما جاء في كتاب «الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى»، للقاضي عياض، حيث ذكر: أن خطيبًا خطب عند النبي المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: من أطاع الله ورسوله، فقد رشد، ومن عصاهما.. فقد غوى. فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِئْسَ خَطِيبُ الْقَوْمِ أَنْتَ. قُمْ -أَوْ قَالَ:- اذهب**»(٢).

قال أبو سليمان: كَرِهَ منه الجمع بين الاسمين بحرف الكناية لما فيه من التسوية.

وقال أبو البقاء الكفويُّ في «كليَّاته»: فليس فيه دلالة على أنَّ الواو للترتيب، بل على أنَّ فيه ترك الأدب حيث لم يُفرِد اسم الله تعالى بالذكر، ولأنَّ كلَّ واحد من العصيانيين مستقلٌ باستلزام الغواية.

ويحتجُّ برواية: «**بِئْسَ خَطِيبُ الْقَوْمِ أَنْتَ، هَلَّا قُلْتَ: وَمَنْ عَصَى اللهَ وَرَسُولَهُ**».

وذهب آخرون إلى أنَّه إنَّما كره له الوقوف على يعصهما، وهو توقُّف غير سليم، لما يترتَّب عليه من فساد المعنى؛ إذ يقتضي الوقوف على (يعصهما) أنَّ الرشد يلحقه أيضًا، وهذا باطل(٣).

---

(١) أخرجه البخاري «٥٩٦٧» في اللباس: باب إرداف الرجل خلف الرجل، و(٦٢٦٧) في الاستئذان: باب من أجاب بلبيك وسعديك، و(٦٥٠٠) في الرقاق: باب من جاهد نفسه في طاعة الله، ومسلم (٣٠) في الإيمان: باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٨١) من طريق هدبة بن خالد بهذا الإسناد.

(٢) رواه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الخطبة والصلاة رقم (٨٧٠) (٢/ ٥٩٤).

(٣) رواه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الخطبة والصلاة رقم (٨٧٠) (٢/ ٥٩٤).

وفي نهاية الكلام عن الإلقاء نقول:

يتبين مما سبق طرحه، أن الإلقاء بات سلاحًا من أسلحة الدعوة إلى الله ينبغي الاهتمام به، والإلمام بفنونه لكي نضمن – بعون الله – وصول المعلومة الصحيحة إلى المَدْعُوِّينَ ومِنْ ثَمَّ يكون التغيير المراد في وجهات النظر وفي السلوك.

إن مما ينبغي التنبيه إليه في هذه الخاتمة لفن الإلقاء هو أن الدعوة إلى الله عبر الكلمة المسموعة لابد أن تستمر ولا تتوقف بحجة ضرورة استكمال الإلمام بفنون الإلقاء. بل لابد أن نَتَّقِي الله ما استطعنا فندعوا إلى الله بما عندنا من العلم، ومن مهارات الإلقاء مع مواصلة تَعَلُّمِ مهارات أخرى والتدرب عليها، فَرُبَّ كلمة خرجت من قلبٍ مخلصٍ يكون لها أكبر الأثر في قلوب المستمعين.

الصفة الثانية: سرعة البديهة:

سرعة البديهة: مظهر من مظاهر الذكاء وامتلاكها دليل المهارة، ولهذا يقال فلان سريع البديهة أو حاضر البديهة.

خصائص سرعة البديهة:

(١) التَّحَوُّلُ من التفكير البطيء إلى التفكير السريع.

حيث تكون الإجابة سريعة ودقيقة وتدل على عمق التفكير...

(٢) التمييز بين المواقف: أحيانًا قد يكون الصمت هو الجواب الشافي.

(٣) التعرف على نتائج الإجابة: فالشجاع يتحمل نتائج موقفه والطائش يتعثر في مسالك مظلمة.

(٤) تناسق البديهات بجملها: من خلال سبك الإجابات وتناسق العبارات.

(٥) الثبات: فيكون النشاط العقلي أكثر ثباتًا، ومن يحوزها يكون واثقًا من نفسه.

ثانيًا: شروط سرعة البديهة:

تتطلب سرعة البديهة شروطًا تساهم في سرعة البديهة، وهي:

(١) سرعة في التفكير.

(٢) الربط بين الموقف وما يجب قوله.

(٣) اختيار البديهة المناسبة.

وهذه الشروط تَقْوَى بالتمرين دون عناء كبير في التفكير والتحليل والربط والاختيار، وبالتالي يتبين بأن من يحوز هذه المهارة يتصف بحسن (التركيز العقلي، وشدة الانتباه، وتقارب الأفكار، والقدرة على استرجاع المعلومة المخزنة بسرعة) بينما نقيضه يتصف بشرود الذهن وتشوش الأفكار والبطء في الإجابة الصحيحة، أو ضعف القدرة على استرجاع المعلومات.

وعلى ضوء هذا التحليل يتضح لنا إن متطلبات البديهة هي:

أولًا: الاستعداد العقلي (ويتمثل في الذاكرة، أو التذكر).

ثانيًا: الاستعداد اللُّغوي (ويتمثل بالمعلومات المخزنة).

ثالثًا: الاستعداد النفسي: (ويتمثل في الثقة بالنفس، والتصميم على حيازة هذه المهارة وتنميتها).

واكتساب مهارات عقلية يتطلب إتقانها تمارين وتدريبات، وهي على قسمين رئيسين: نظري، وعملي

أولًا: التدريب النظري:

وهو يتطلب توافر أمرين جوهريين، هما:

(١) الرغبة الجَادَّةُ. **(٢)** والتعلم عن طريق القراءة الواعية.

والرغبة لكي تصبح خطوة أولى يتعين أن يعقبها التصميم والإرادة والبدء في الخطوات التنفيذية.

أما التعلم فهو وظيفة من وظائف الذكاء، وكلما كان الشخص ذكيًّا كانت قدراته للتعلم أوسع وأعمق وأسرع، فالاستعداد العقلي وراثي؛ ولكن يمكن تعميقه وتنميته عن طريق الخبرات الجديدة والتجارب؛ ولهذا فالتعلم يوسع القدرات العقلية من خلال قراءة الكتب الفكرية والعلمية والأدبية، وَالتَّمَعُّن في الحوارات الفكرية والعناية بالقواميس والمعاجم اللغوية والمعاني، وخصوصًا معاني القرآن الكريم والسنة النبوية، وبالتالي تتكوَّنُ لدى الشخص المفاهيم المتداولة والمعاني العميقة تنطلق منها سرعة البديهة بسولة ويسر...

خطوات التدريب العملي:

يقتضي التدريب العملي مراعاة ست خطوات متداخلة، ومنها:

الخطوة الأولى: ضرورة التفاؤل والمرح المنضبط...

الناجح هو من يجعل شعاره التفاؤل مستبشرًا بغدٍ مشرقٍ، أو بوضع حسن، أو بحالة معيشية أفضل؛ ولعل هناك سرٌّ في ذلك، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب الفأل ويكره التشاؤم، ولعل الأثر النفسي والعقلي لشعور التفاؤل كبير؛ إذ أنه يمد الإنسان ذاته بطاقة روحيه لا تنضب تدفعه لمباشرة العمل والإبداع وسرعة البديهة..

أما المَرَحُ المنضبط فهو كذلك ضروري لسرعة البديهة؛ لأنه يخلق مناخًا نفسيًّا مشحونًا بالسرور والغبطة والراحة النفسية، وبالتالي تنطلق الطاقات للتعلم بسهولة ويسر، وكلنا يدرك أثر التعزيز الإيجابي في ذلك.

فالانشراح يهيئ الطاقات العقلية للامتلاء الإثارة خلاف مناخ الحزن والكآبة الذي يعطل الفكر، ويقتل الإبداع، ويخرج الشخصية المنهزمة..

إن المرح لا يعني إطلاق الضحكات بصوت مرتفع، ولكنه شعور داخلي ممزوج بالراحة النفسية الصحية والنظرة المتفائلة والقوة لتصدي المشكلات وعدم الشعور بالهزيمة النفسية...

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان شعاره التبسم... قال جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رآني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا تبسم...

أما من اختفت ابتسامته فسيكون ذا شخصية مغلقة سُلوكِيًّا وجامدةً عقليًّا، وَمَنْبُوذَةً اجتماعيًّا...

فكيف تريده أن يتمتع بالبديهة والتطوير و...؟

إن المرح هو تخطي لمواقف السلبية لغرض شحن القدرة العقلية المعالجة بهدوء وحنكة...

وأخيرًا صفوة القول أن التفاؤل والابتسامة هما زاد العقل وغذاء الروح والصحة وطريق لإمداد العقل نحو آفاق رحب، ومن ثَمَّ يمده بسبب جوهري من أسباب سرعة البديهة..

الخطوة الثانية: توفير الظروف النفسية والبيئية لاكتساب هذه المهارة...

إن قيام الفرد بتدريب نفسه تدريبًا ذاتيًّا عملية أساسية لاكتساب هذه المهارة، ولكي يؤدي التدريب دوره الفعال ويحقق أهدافه فمن الأفضل أن تتوفر لدى الشخص هذه الظروف والتي تساعد على تعزيز هذه المهارة، وتتمحور في:

(١) وجود الرغبة الصادقة والجادة لتعلم هذه المهارة.

(٢) وجود الانضباط الذاتي (الصبر) للتعرف على مهارات الآخرين.

(٣) تطبيق الخطوات التنظيمية والعملية لهذه المهارة من خلال عدة طرق، وهي:

- تخصيص الوقت الكَافي للتعلم.
- تخصيص سِجِلٍّ لرصد الحالات التي تعد من قبيل السرعة لتوثيقها والأمل فيها والقياس عليها.
- الاطلاع الدقيق على الأشعار والحكم والأمثال والكلمات المعبرة؛ لتكون لدى الشخص حصيلة لغوية كافية للانطلاق في هذه المهارة.
- الثقة في النفس وأنك ستصل إلى ما وصل إليه الآخرون بالتصميم والإرادة.
- استيعاب البديهة واتقانها من خلال اصطفاء الإجابة المثلى من بين إجابات متعددة.. فالبديهة لا ينظر إليها كمهارة كلية إلا من بعد إتقانها، أما قبل ذلك فيتطلب اكتسابها: بالسير وفق خطوات متدرجة فلا تغادر جزئية إلا بعد إتقان التي قبلها.
- تقويم خطة التدريب لاكتساب هذه المهارة، وكلما كانت الخطة واقعية كان تنفيذها أسهل، وكلما نَفَّذّ المتدرب خطوة أو مرحلة حاول أن يقيم هذه الخطوة، وفي النهاية يسجل النجاحات التي أحرزها من كافة الخطوات المُنَفَّذَةّ...

الخطوة الثالثة: ضرورة الاستظهار والخزن...

الاستظهار هو القراءة الواعية الهادفة إلى حفظ المعلومات ومن ثم خزنها.

وهذا يقتضي اللجوء إلى عدة خطوات أبرزها:

إدراك البديهة، وهي الجواب السريع.

الربط بين الحدث والقول، فكلما تم الربط بسرعة دل على علو البديهة.

إثراء الخبرات القديمة بخبرات جديدة، وذلك بعدة طرق:

(١) إعادة التعليم والتثقيف.

(٢) تعدُّدِ الهوايات والتجديد فيها.

(٣) تنمية الخبرات ولاشك أن الأحداث والنشاط للعمل سبب في إثراء الخبرات.

(٤) إثراء الحِكَمِ والأمثال الشعبية التي تُعَبِّرُ عن الحالات التي يمُّر بها الفرد أو تواجهه.

أما الذاكرة المطلوبة فهي الذاكرة القوية والتي تأتي من خلال التمرينات العملية، فالكلمات التي نقرأها تختزن في الذهن، فالطفل يحفظ جدول الضرب والطرح والقسمة والجمع ثم يحفظ بعد ذلك أُشْعَارًا أخلاقية وحقائق علمية متعلقة بالصحة والنظافة، والنظام وكذلك حفظ الآيات القرآنية ثم تتكون لديه ذاكرة أقوى.

برنامج يساعد على تنشيط الذاكرة:

اكتب عبارات محمودة أو أَشْعَار أو حكم بليغة على ورقة ورددها.

حاول أن تتذكر الأشخاص الذين قابلتهم بالأمس.

تذكر ما جرى اليوم بالتفصيل.

اعمل تمرين الحفظ واطلب من شخص يكتب لك عشرين اسمًا وَاطَّلِعْ عليها مرة واحدة، حاول أن تتذكرها، ثم اقرأها بإمعان ورددها(هذا التمرين يقوي ذاكرتك...)

ويمكن أن تنجح عمليات الاستظهار والتذكر وفق الشروط التالية:

(١) الرغبة الجادة والصادقة مع العزيمة.

(٢) تطبيق التمرين التوصيات السابقة.

(٣) استثمار النتائج التي حققتها وتنميتها.

(٤) الانشراح للتمرين وتكراره وتنمية الذهن وتحريكه بالتمارين التي تنشط الدماغ.

الخطوة الرابعة: ضرورة الإصغاء، وملاحظة نماذج الأداء...

الإصغاء يعني استثمار حاسة السمع، فيصبح لدى الفرد ذاكرة سمعية يميز من خلالها الأصوات، ولعل الانتباه لحديث الآخرين وحواراتهم يجعلنا نرصد عباراتهم وكلماتهم المؤثرة.

ومن الأهمية بمكان الإصغاء لأقوال الذين عُرِفُوا بسرعة البديهة، فالربط بين القول والردِّ، أو السؤال والإجابة يجعل المتدرب يفكر في ماهية سرعة البديهة بالرد، مع تسجيل هذه الردود حتى يتقن المتدرب الإصغاء المنهجي.

ثم يتقن مرحلة القياس الذكي، ثم في النهاية يتحلى بالإبداع والابتكار الذي يجعله يحرص على أن يكون ذا شخصية فكرية متميزة وأقوال خاصة بديهية..وبالتالي تكون ردوده عفوية؛ لأنه نَمَّى خلايا المخ بالبديهة فنشطت وانطلقت من عقالها واثقة من قدراتها.

وأما ملاحظة نموذج الأداء العقلي فتكون بعد إدراك إجابات الآخرين، وتكون الخطوة التالية تقليد هذه النماذج المراد منها زرع الثقة بالنفس والتهيؤ

للإبداع عن طريق إطلاق البديهة من جهة أخرى، ومحاولة تسجيل هذه النماذج المثمرة في دفتر جيب، ومن خلال مرحلة التمرين المستمر يتحول ذلك لمرحلة الإبداع، فتكون البديهات مثيرة للإعجاب؛ لأنه:

- ينتبه للأقوال ويرصد الحوارات.

يرصد ما يلفت نظره.

- يسجل ذلك ويخزنه.
- يفكر في ضَوْءِ أسس تقليدية.
- يفكر في رسم شخصيته العقلية رسمًا إبْداعِيًّا وبالتالي تتكون لديه كفاءة عالية، يَقْدِرُ على استخدامها بنجاح.

الخطوة الخامسة: ضرورة التفكير عند الرغبة للتحدث..

- إن الكلام الذي نسمعه على ثلاثةِ أنواع:

(١) كلام معاد مكرر: وهي الطريقة التلقينية.

(٢) الكلام الذي يربط حادثًا بحدث: وهذا يتمثل بعملية التذكر.

(٣) الكلام الذي يكون بالطريقة التصويرية أو التأَمُّلية أو التحليلية.

وهنا يكون التصور والتأمل للكلام المعروض وتمثيل ما حدث في الماضي وما يتوقع حدوثه في المستقبل...

إن المرحلة الأولى من مراحل سرعة البديهة تتمثل بضرورة التفكير عند التحدث، وهذا التفكير يجعل الكلام مَنْهَجِيًّا يقوم على التفكير العلمي لا مبعثرًا.

وتأتي الضرورة الأخرى وهي توسيع رقعة الأهداف، والمراد منها: أن تطرح سؤالًا على نفسك وهو: ماذا كان عليَّ أن أقول في مثل هذا الموقف؟؟؟

أن التدرب على تلك المثالية ستنهي استعجالنا بالردود الخاطئة أحيانًا وتقودنا لسرعة البديهة والإجابة المثالية التي توحي بالذكاء والجواب الصائب الذي يدل على البديهة.

الخطوة الأخيرة: تنمية النضوج العقلي...

والمراد أن الخبرة والنمو العقلي لها دور في تعميق الفهم، بحيث يمتلك الفرد مهارات وقدرات واستعدادات للأنشطة العقلية أو الاجتماعية، فتراه يَحْلُمُ وقت الحِلْمِ، ويحزم في الوقت الذي يستوجب الحزم، وهذه تأتي من خلال الممارسة وتكرار المواقف.

وهو ما نعنيه بتنمية القدرة على سرعة البديهة، وهي خلق الاستعدادات والصفات الشخصية ذات الجانب العقلي، والتي تتجسد من خلال التمارين وتوظيف الخزينة العقلية.

مع الاستفادة من الأخطاء وتسجيلها وتسجيل الموقف الصائب، والذي كان من المفروض ممارسته في ذلك الموقف، وذلك من أجل النجاح في استخدام سرعة البديهة إذا تكرر نفس الموقف، والبعد عن تأنيب الضمير بسبب الخطأ؛ فالإحباط لا يؤدي إلا إلى الفشل...

ولا يخفى بأن تنمية الثقافة والأمثال والشِّعر مع التحلِّي بالذكاء والحكمة لهما دور في سرعة البديهة..

وقد يتعرَّض الخطيب أثناء خطبته لسؤال أو اعتراض أو موقفٍ محرجٍ من قِبَل الجمهور، فيتطلَّب ذلك منه أن يكون متيقِّظ الذِّهن، سريعَ البديهة، حَسَن التخلُّص، حاضر الجواب، ليتمكَّن من الخروج من حرج موقفه والاستمرار في خطبته دون أن يتلعثم أو يضطرب.

والخطيب الذي يتَّصف بحِدَّة الذكاء وشِدَّة الانتباه والقدرة الفائقة على السيطرة على الموقف بلا ضعف ولا اضطراب هو الذي يتمكَّن من اجتياز المواقف مهما بلغ إحراجها.

وإذا وجد الخطيب نفسه غير قادر على الإجابة عن السؤال الموجه إليه، فعليه أن يتماسك موقفه، وألَّا يمكِّن الارتباك والحرجَ من نفسه، بل يمتلك الموقف ويسيطر عليه بأن يقول للسائل: ذكِّرني بسؤالك بعد الخطبة.

وكذلك إذا وجد نفسه عاجزًا عن الرَّد على اعتراض أحد عليه أثناء خطبته، وخشي أن يفقد السيطرة على الموقفِ، فعليه أن يصُمَّ أُذنيه عن ذلك الاعتراض، ويستمرَّ في إلقاء موضوعه غير ملتفت إلى كلام المعترض لأنَّ في ردِّه عليه وهو غير قادر على إحكام موقفه وضبطه إيقاعًا له في الحرج وإلقاءً لخطبته في لُجَّة الاضطراب، فتضيع منه الأفكار، وتضطرب على لسانه الكلمات، وتغيب عنه العبارات، ويفقد زمام الموقف، فيحار في أمره ماذا يصنع؟؟ وكيف يُتِمُّ موضوعه، وينهي كلمته؟؟

ومن أمثلة الردَّ المناسب على اعتراض المعترض:

أنَّ خطيبًا كان يُلقي خُطبته في أحد المحافل فاعترض عليه أحد المستمعين قائلًا: هذا غير صحيح، فأجاب الخطيب بكلِّ بساطة: هذا رأيك، ثُمَّ

تابع خطبته دونما انقطاع أو اضطراب.

وخطيب آخر كان يتحدَّث عن الإسراء والمعراج، فرجَّح أثناء كلمته القول بعروج النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجسده ورؤيته الله تعالى بِعَيْنَيْ رأسه، فقام أحد الحاضرين معترضًا عليه خلال خطبته، وأعلن بطلان ما يقول، مؤكدًا أنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعرج بجسده ولم ير الله بعينَيْ رأسه، وأغلظ له في القول، فتابع الخطيب خطبته وكأنَّه لم يسمع ذلك المعترض، واستمرَّ في حديثه متجاهلًا ذلك الإنسان الذي هوى بعد اعتراضه قاعدًا مستخذيًا، لا ينبِس بِبِنْتِ شَفَةٍ.

ولقد ذَكَرَ لنا التاريخ كثيرًا من المواقف والظروف المحرجة التي تعرَّض لها الخطباء والمتكلِّمون، فاستطاعوا بفضل ذكائهم وسرعة بديهتهم الخروج من مآزقها دون أن يتلكَّلوا أو يضطربوا أثناء حديثهم، حيث كانوا يحسنون التخلُّص بالردِّ الحاسم المناسب والجواب السريع المحكم على ما يُوَجَّه إليهم من اعتراض أو سؤال.

ونذكر هنا شيئًا من تلك المواقف لاستكمال الفائدة:

خطب أبو جعفر المنصور يوم جمعة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيُّها الناس، اتَّقوا الله. فقام رجل، فقال: أُذكِّرك من ذكَّرتنا به يا أمير المؤمنين، قال أبو جعفر: سَمعًا سَمْعًا لمن فهم عن الله وذكَّر به، وأعوذ بالله أن أذكَّر به وأنساه، فتأخذني العزَّة بالإثم، لقد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين، وأمَّا أنت، والتفت إلى الرَّجل، فقال: والله، ما الله أردت بها، ولكن ليُقال: قام فقال، فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيُّها الناس أختها، فإنَّ الموعظة علينا نزلت، وفينا أُنبِتت، ثمَّ رجع إلى موضعه من الخطبة».

صعِد أحد الخلفاء المنبر ليخطب، فسقطت ذبابة على وجهه، فذبَّها عنه، فعادت فذبَّها الثانية، فعادت.. وتكرَّر ذلك، فضاقت نفسه، واضطرب تفكيره، فتخلَّص من حرج موقفه بأن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣]. ثم نزل، فاستحسن الناس منه هذا التخلُّص.

صعِد عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المنبر يخطُب في الناس، وبدأ خطبته بقوله: الحمد لله الذي يحكم بالحقِ قَطْعًا، ويجزي كلَّ نفسٍ بما تسعى وإليه المآب والرُّجعى. فسأله سائل عن مسألة فرضيَّة، فأجابه ارتجالًا من غير تأمّل:

صار ثُمُن المرأة تُسُعًا، ثمَّ مضى في خطبته، وسُمِّيت هذه المسألة الفرضية بالمسألة (المنبريّة)، لكون سيِّدنا عليّ أجاب عنها وهو يخطُب على المنبر.

الصفة الثالثة: الحماسة وتأجُّج العاطفة:

تغلب على الخُطبة دومًا صبغة إثارة العواطف وتحريك المشاعر، فهي تقوم على التأثُّر والتأثير. والخطيب الناجح هو الذي يشحن خطبته بالحماسة والعواطف، ويتمكَّن من الدخول إلى أعماق النفوس والتأثير في القلوب، ويُلهب مشاعر جمهوره، فيجعله ينجذب إلى خطبته، وينفعل بفكرته، ويتأثَّر بكلمته.

فالحماسة عنصر فعَّال في الخطبة، وهي لا تبلغ تأثيرها المطلوب إلَّا بتوفُّره، فإذا بردت عاطفة الخطيب، وفترت مشاعره، خبت جذوة التأثير في كلماته، وفقد قوَّة السيطرة على المستمعين إليه الذين انفصلوا عنه روحيًّا، وانعزلوا وجدانيًّا، فآل بهم ذلك إلى انصراف قلوبهم وعقولهم عن معاني خطبته وأفكارها.

وإنَّ من ثمرات الحماسة تجديد نشاط السامعين وتنبيه أذهانهم وانصراف قلوبهم وعقولهم إلى خطيبهم، فيتجلَّى أثر ذلك في هيئة جلوسهم وحالة إنصاتهم وشخوص أبصارهم إلى الخطيب وهو يلقي خطبته عليهم، فيتجنَّبون شرود عقولهم عن معانيه، وانصراف أسماعهم عن كلماته من بداية الخطبة إلى نهايتها.

إلَّا أنَّه يجب أن نعلم: أنَّ حماسة الخطيب في خُطبته ينبغي أن تتناسب مع أفكارها، وتتَّفق مع معانيها، وذلك بأن تقع في الموطن المناسب والمكان اللائق من الخطبة، لأنَّها كما أسلفنا وسيلة ناجحة من وسائل التعبير والتأثير، فإذا جاءت في غير موطنها المناسب، غدت ضربًا من الانفعال الممجوج، ولم تؤت ثمرتها في نفوس المستمعين، بل يترتَّب على ذلك ضعف قوَّة صوت الخطيب وإرهاق حَنْجرته وضجر المستمعين إليه إذا ما استطرقت الحماسة والانفعال الخطبةَ من بدايتها إلى ختامها.

فالحماسة التي ندعو إليها في الخطبة هي الحماسة المتوازنة التي يستدعيها المقام، ويطلبها واقع الحال، ويستحسنها السياق، وتتقوَّى بها المعاني.

فعند سَوْق القصة أو تقرير فكرة علميَّة أو قاعدة تربويَّة تستحسن برودة العاطفة وتجنُّب الانفعال والتزام الهدوء المناسب لرواية تلك القصة أو بيان تلك الفكرة العلميَّة والقاعدة التربويَّة.

وأمَّا في مقام الترغيب والترهيب وبعث الهمم على البرِّ والإحسان واستنهاض العزائم للذَّوْدِ عن الأوطان، والتوجيه إلى مكارم الأخلاق ومسالك النجاة من عذاب النار والفوز بالجنان فتُستحسن الحماسة، وينفع الانفعال، لتهييج المشاعر وإثارة العواطف نحو هذه المعاني.

ولنا تأييد قويٌّ لما ذهبنا إليه من اعتبار الحماسة وثوران العاطفة من عوامل نجاح الخطبة وسبيل تأثيرها ما ذكره ابن قيِّم الجوزيَّة في كتابه «زاد المعاد» في مقدِّمة بحث هديه ﷺ في خطبه حيث قال: «كَانَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»[(١)].

الصفة الرابعة: رباطة الجأش وقُوَّة الجَنان:

تُعتبر الجرأة ورباطة الجأش من العوامل المؤثِّرة في نجاح الخطيب، لأنَّهما تمكِّنانه من الهيمنة على الموقف والقدرة على إلقاء خطبته بقوَّة وثبات، بينما يكون الخوف سببًا في اضطرابه واهتزاز موقفه، فيفقد بذلك السيطرة على الموقف، والقدرة على الكلام، ورفع الصوت وشدَّة الحماسة، وتنحبس الكلمات في حلقه، وتنقطع بانقطاع نَفَسِه لخوفه واضطراب قلبه، وينهار أمام هيبة الموقف، فيسعى جهده في أن ينهي خطبته بأسرع وقت، ليتفادى خطر الوقوع فريسة الخوف والضعف، ويتخلَّص من أشواك الحَرَج التي ضربها على نفسه بسبب خوَره.

ويزيد في اضطراب الخطيب الفاقد لرباطة الجأش نظرُهُ إلى جمهوره ونظرُ الجمهور إليه، فتجد مثل هذا الضرب من الخطباء كلَّما وقع بصره على أحد يراه

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٠، رقم ١٤٣٧٣)، ومسلم (٢/ ٥٩٢، رقم ٨٦٧)، والنسائي (٣/ ١٨٨، رقم ١٥٧٨)، وابن ماجه (١/ ١٧، رقم ٤٥).

ازداد خوفه، واشتدَّ اضطرابه، لذلك تجده يحاول أثناء خطبته أن يصرف بصره عن رؤية الناظرين إليه ما استطاع.

فرباطة الجأش والجُرأة تمنح الخطيب قُوَّة نفسيَّة واطمئنانًا قلبيًّا، فتراه أثناء حديثه يجول بطرفه في وجوه المستمعين إليه دون أن يعتريه خوف، أو يصيبه ارتباك، بل ربَّما وجدته لرباطة جأشه وتماسك موقفه يحاول صياغة بعض أفكاره بصيغة سؤال يُوَجِّهه إلى الجمهور المستمع إليه، فنجده يطرح السؤال وكأنَّه ينتظر الجواب منهم:

كقوله: أليس كذلك أيُّها الإخوة؟..

وقوله: أخبروني بالله عليكم؟.. ونحو ذلك، ثم يجيب عن السؤال، ويستمرُّ في حديثه بكلِّ سهولة ويُسْرٍ.

ولا شكَّ في أنَّ مخاطبته لجمهوره بهذا الأسلوب تحتاج إلى جرأة وثبات واطمئنان، فلا يفلح بها إلَّا الخطيب الذي يتمتَّع برباطة الجأش وقوَّة الجَنَان.

ويجب أن نعلم أنَّ هذه الصفة من أهمِّ عوامل طلاقة اللِّسان وقوّة المنطق، وأمّا عيُّ اللِّسان وضعف المنطق فهما من بعض آثار الخوف والخجل اللَّذين ينتابان المتكلِّم.

وهذا العامل النفسيُّ نلاحظه بصورة واضحة عند الأطفال، فالطفل الجريء الشجاع طليق اللسان، يلفظ الكلمات بكلّ قوّة وثبات دون تلكُّؤ أو ضعف، بينما نجد الطفل الخجِل لا يقوى على التلفُّظ بالكلمات بطلاقة، وإنما تتعثَّر على لسانه، وتتلجلج في حلْقه، وتنحبس معها أنفاسُه، وتضيق بها نَفْسه، فيُؤْثر الصمت على الكلام، ويتحرَّج غاية الحرج حين يُدفع إلى الحديث.

الثقة بالنفس، والجرأة في مواجهة المشكلات:

١- كلما قويت شخصية الخطيب أمكن أن يملك زمام من يتحدث إليهم، وأن تتحقق على يديه الفائدة لمستمعيه، طالما استشعر الجمهور أنه جدير باعتلاء المنبر، وأنه كفء لهذه المهمة.

٢- ولن يرقى الخطيب إلى هذه الدرجة إلا إذا تمتع بقدر كبير من الثقة بالنفس، وتحلَّى بالطمأنينة ورباطة الجأش.

٣- وتبد أهمية هذه الصفة للخطيب من خلال ملاحظة ما يلي:

(أ) أن الثقة بالنفس تبعث الطمأنينة في قلب الخطيب فيتمكن من العطاء الكثير للمقبلين عليه.

(ب) أن الخطيب قد يتعرض لبعض المشكلات من الجمهور، كأن يوجد بين صفوفهم من يتسقط هفواته، أو تُسْتَتْبَعَ زلاته، وقد يقابله بالسخرية والاستهزاء بعض هؤلاء، فإذا كان الخطيب واثقًا من نفسه تمكن من السيطرة على مثل هذه المواقف دون أن يهتز أو يضعف.

٤- ومن المناسب في هذا المقام أن نذكر بعض المواقف التي تبين أهمية الثقة بالنفس في نجاح الخطيب وسيطرته على ما قد يعترضه من مشكلات.

(أ) يُرْوَىَ أن أحد الخلفاء خطب يومًا أُرْتِجَ عليه، فأسعفته ثقته بنفسه وسرعة بديهته فقال: «سيجعل الله بعد عسر يسرًا، وبعد شدة فرجًا، وأنتم إلى إمام فعَّد أحوج منكم إلي إمام قوَّال».

ثم أنشد يقول:

فإلا أكن فيكم خطيبًا فإنني بسيفي إذا جد الوغى لخطيب

فكانت عبارته أبلغ من خطبته، قال خالد بن صفوان: «والله ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه»(١).

(ب) وقف أحد الخطباء بين جمهوره ليقنعهم بشيء ما، «فوقف أحد معارضيه، وشرح فساد رأيه من وجهة نظره، فصفق الحاضرون جميعًا لهذا المعارض، وأرسلوا ضحكاتهم وسخرياتهم من الخطيب، وما إن انتهى الناس من التصفيق والضحك بدأ الخطيب في هدوء تام يقول للحاضرين: أيها السادة.. إلى هنا صفقتم وضحكتم لأن هذا الرجل خدعكم بكلام معسول، ولكن انظروا ها هنا ما يستحق أن تتأملوه، تم بدأ يشرح من جديد في هدوء وثبات كأن لم يعترضه أحد، أو يسخر منه أحد»(٢).

تُرَى، لو انفعل هذا الخطيب أو غضب أو بدت عليه سمات الضعف فآثر الانسحاب، ماذا سيكون مصيره؟ وكيف يرى الناس حديثه إليهم، وخطابته فيما بينهم؟

٥- وهكذا تبدو أهمية ثقة الخطيب بنفسه، وعدم انزعاجه أو خوفه من أي مُعارض، وهو ما أكد أهل هذا الفن على ضرورته وأهميته لنجاح الخطيب، ومن نصائح الأقدمين في هذا المقام قولهم: «إنك لا تتعلم الخطابةَ حتى تتعلم

(١) الدعوة والخطابة (ص٢٦) على عبد العظيم - طبعة أولى سنة ١٩٧٩ - دار الاعتصام بالقاهرة.
(٢) انظر: (الخطابة وإعداد الخطيب) - (١/ ٤٦) - د. عبد الجليل شلبي - طبعة وزارة الأوقاف - بدون تاريخ.

القحة».. والمراد بالقحة عدم المبالاة بأي شيء يكون معارضًا له، ومرجع ذلك إلى الجرأة والثقة بالنفس[١].

٦- صحيح أن موقف الخطيب بين الجمهور وبخاصة في أول عهده بالخطابة شديد وصعب، وقد تعرَّضْنا جميعًا لذلك في بداية ممارستنا لها، فالأيادي ترتعش، واللسان يتلعثم، والأرجل تضطرب، والأعين تزيغ، والكلمات تهرب من الذاكرة، ولكن الخطابة في هذا الشأن كأي أمر يعالجه الإنسان لأول مرة، ثم بكثرة الممارسة والمران يزول الخوف، وتأتي الثقة بالنفس.

٧- ويعين الخطيب على الوصول إلى هذه الثقة مباشرته للخطابة بحب وإقبال، تقديرًا لقيمتها، واعترافًا بأهميتها، ويُشَفِّعُ الخطيب هذا الحب بإعداد نفسه جيدًا لخطبته، بحفظ أدلتها وتنسيق معلوماتها، والتدرب على إلقائها، فإذا فعل ذلك وقف بين جمهوره واثقًا من نفسه، غير وَجِلٍ أو هيَّاب من أحد، فإذا انتقده أحد لم يضعف أو يضطرب، بل يقابل ذلك بمزيد الإصرار على النجاح، وصدق من قال: «إذا عصفت الريح بخيمتك، فقل شاء المُقَدِّرُ أن أبني مكانها قصرًا».

٨- وبهذه العزيمة التي لا تلين، وبالإعداد الجيد يومًا بعد يوم، تصبح أيها الخطيب رجلًا من رجالات الإسلام، الذين يدافعون عنه، ويجاهدون في سبيله، وهو الجهاد الذي أعز الله أهله، ورفع قدره، حين وصفه بالجهاد الكبير، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

---

(١) انظر: (الخطابة وإعداد الخطيب) - (١/ ٤٦) - د. عبد الجليل شلبي- طبعة وزارة الأوقاف- بدون تاريخ.

المطلب الثاني

الصفات المتعلقة بمظهر الخطيب وهيئته

نتناول في هذا الجانب من صفات الخطيب ثلاث صفات، هي:

- **الصفة الأولى:** وقار لبسه وجمال مظهره.
- **الصفة الثانية:** وقفته حال أداء الخطبة.
- **الصفة الثالثة:** حسن إشارته واتزان حركاته.

الصفة الأولى: وقار لبسه وجمال مظهره:

إنَّ حُسْن المظهر وجماله أمر حبَّذه الإسلام، وحضَّ عليه، وخاصَّةً في موطن العبادة، فقال سبحانه: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

ينبغي أن يكون الخطيب نظيفًا في جسمه، وأنيقًا في مظهره، يسر الناس برؤيته، وتنشرح صدورهم برائحة طيبة فواحة زكية (وإن لحسن مظهر الخطيب وجمال هِندامه وقعًا في نفوس السامعين، وتأثيرًا في ذواتهم، وتلك هي طبيعة النفس البشرية التي تميل إلى المألوف، وتأنس بالكمال والاعتدال.

ووقار اللبس وجمال الهندام شيء نادَى به الدين الحنيف؛ لأنه من مقتضى الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم، غير متفاخر بثيابه أو متباهٍ بلبسه وجماله، وينفق في سبيل ذلك وقته وماله حتى يصبح الملبس غاية لا وسيلة؛ لأن من ابتغى الشهرة والخيلاء لم تُحْمَد عقباه فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٠٣١) وفي سنن ابن ماجة (٣٦٠٦) وفي مسند أحمد (٥٦٦٤)، والسنن الكبرى للنسائي (٩٤٨٧)، قال في «كشف الخفاء» (٢/ ٣٦٢) إسناده حسن.

وغاية المقصود بحسن الهندام والنظافة أن يهتم المؤمن بهيئته، وتناسق لبسه، فلا يخالف مألوف الناس بملبوسه بحيث يستثير عجبهم، ولا يرتدي من الثياب ما يُزْرَي به ولا يكون قذر البدن والثوب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١] كما وجه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين إلى وقار المظهر في أحاديث ومواطن كثيرة؛ فلما رأى رجلًا ثائر الشعر قال: «**أَمَا وَجَدَ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى آخر يلبس ثوبًا وسخًا: «**أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ**»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحْسِنُوا لِبَاسَكُمْ وَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَأَصْلِحُوا حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ**»(٣)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»(٤).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ**»(٥)،

---

(١) إسناه صحيح على شرط البخاري، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الرحمن بن إبراهيم فمن رجال البخاري، وأخرجه أحمد (٣/ ٣٥٧)، وأبو داود (٤٠٦٢) في اللباس: باب في غسل الثوب وفي الخلقان، والنسائي (٨/ ١٨٣، ١٨٤) في الزينة: باب تسكين الشعر، وأبو يعلى (٢٠٢٦)، والحاكم (٤/ ١٨٦)، وأبو نعيم (٦/ ٧٨) من طرق عن الأوزاعي، بهذا الإسناد، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٦٤) والمستدرك للحاكم (٧٣٨٠) وصحيح ابن حبان (٢٧٧٧)، وصححوه.

(٣) سنن أبي داود (٤٠٩١) والمستدرك للحاكم (٧٣٧١) والمعجم الكبير للطبراني (٥٤٨٦)، وضعفه الألباني في السلسلة (٥/ ٩٩).

(٤) رواه مسلم رقم (٩١) في الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، وأبو داود رقم (٤٠٩١) في الأدب، باب ما جاء في الكبر، والترمذي رقم (١٩٩٩) في البر والصلة، باب ما جاء في الكبر.

(٥) سنن الترمذي (٢٨١٩)، وقال حديث حسن، والمستدرك للحاكم (٧١٨٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وقال الذهبي: صحيح.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا وهو على المنبر يوم الجمعة: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ**»(١).

ولقد ضرب لنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المثل العملي للاعتناء بمظهره، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَ ينظر فِي المرْآة وَهُوَ محرم»(٢)، «وكان للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُرْدَة جميلة يلبسها للجمعة والأعياد».

(وكان الإمام مالك إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس ثيابًا جددًا ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على مَنَصَّةٍ ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ، قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

رأى سيدنا معاوية بن أبي سيفان رجلًا يرتدى عباءة رَثَّة وهو بخطب، فأنكر مكانه وهيئته، فاضطر الخطيب إلى أن يقوله له. إن العباءة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها(٣).

وَيُضِيف العلماء بُعْدًا آخر لعناية الخطيب بلباسه وهيئته، وهو تأثير ذلك على الخطيب نفسه، حيث ينعكس اهتمام الخطيب بحسن هيئته في وقارة وعنايته بجودة مادته وامتلاكه لزمام نفسه.

ومما يُرْوَى في هذا أن عالمًا نفسيًّا أرسل إلى مجموعة كبيره من الناس وسألهم عن تأثير الملابس فيهم، فشهد جميعهم دون استثناء بأنهم حين يكونون

---

(١) سنن أبي داود (١٠٨٠) وسنن ابن ماجه (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (٢٧٧٧)، وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (٢/ ٧٨١).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٩٤١٢).
(٣) الخطابة (ص٤٧) محمد أبو زهرة.

في أبهى زينة وأجمل ملبس، ويعرفون ذلك ويحسونه، فإنهم يملكون زمام أنفسهم ولا يخطئون[١].

ومِنْ ثَمَّ وجب على الخطيب أن يعتني بلباسه وهيئته، وأن يبدو في مظهر يليق بدعوته التي تدعو إلى النظافة والجمال، والداعية هو أَوْلَى من غيره في التحلِّي بالزينة عند كل خطبة أو درس أو محاضرة، فيكون نظيف الثياب في غير خُيَلَاء، طيب الرائحة في غير إسراف، مهيب المنظر في غير تَكَلُّفٍ، ومهذب الرأس واللحية في غير تصنع، تظهر عليه أمارات الكمال والجلال[٢].

وليكن قدوته وأسوته في ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلف الأمة الصالح، الذين كانوا يحرصون على التجميل والتَّهَيُّؤِ للقاء الناس.

فقد جاء في تفسير القرطبي[٣] عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف:٣٢].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْتَظِرُونَهُ عَلَى الْبَابِ فَخَرَجَ يُرِيدُهُمْ، وَفِي الدَّارِ رَكْوَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ فِي الْمَاءِ وَيَسرِي شَعْرَهُ وَلِحْيَتَهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَلْيُهَيِّئْ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**» اهـ.

---

(١) علم الخطابة (ص١٥٧) د. أحمد غلوش.

(٢) مواقف الداعية التعبيرية (ص٤٠) عبد الله علوان – طبعة أولى سنة ١٩٨٥ – دار السلام.

(٣) تفسير القرطبي (ص٢٦٣٣) طبعة دار الشعب.

ومما أثر عن الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جديدًا، ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على منصَّة، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ، ويقول. أحب أن أعظم حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

ومن حسن المظهر أمور، منها: «تسريح لحيته وتمشيط شعره، فقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسرح لحيته بالمشط، وأن يستعمل من الطيب في بدنه وثوبه إن وجد.

فقد ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما ترويه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه كان يكره أن يخرج الرجل إلى أصحابه تفل الريح أي متغير الريح فكان يمس من آخر الليل طيبًا ثم يخرج إلى أصحابه.

ومن ذلك أيضًا أن يلبس البياض من الثياب لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحْسَنَ مَا زُرْتُمْ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فِي قُبُورِكُمْ وَمَسَاجِدِكُمْ الْبَيَاضُ**»[2].

وإذا اضطرب مظهر الخطيب وتبذلت ثيابه واختلط هندامه، كان ذلك سببًا في نفور نفوس الناس، وإدبارهم عن سماعه واستهانتهم به، كما حدث لإياس بن معاوية المزني، عندما أتى حلقة في مسجد دمشق فاستولى على المجلس ورأوه أحمر دميمًا رث الهيئة، قشيفًا، فاستهانوا به، فلما عرفوه اعتذروا إليه، وقالوا: الذنب مقسوم بيننا وبينك، أتيتنا في زي مسكين تكلمنا بكلام الملوك».

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص٣١) ابن جماعة الكناني.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٣/ ١١٨١) كتاب اللباس، باب البياض من الثياب، الحديث (٣٥٦٨). وهذا إسناد ضعيف شريح بن عبيد لم يسمع من أبي الدرداء قاله المزي في التهذيب كذا قال العلائي في المراسيل والمزي في التهذيب لم يذكر أن روايته عن أبي الدرداء مرسلة بل ذكرها ساكتًا عليها، وقال الألباني موضوع في ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ١٤).

ولكن ما نعنيه هو أن يهتمَّ المؤمن بهيئته وتناسق لُبسه، فلا يخالف مألوف الناس بملبوسه بحيث يستثير عجبهم، ولا يرتدي من الثياب ما يزري به، ولا يكون قذر البدن والثوب.

ولقد سأل رجل سيّدنا عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما ألبَسُ من الثياب؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء. قال: وما هو؟ قال: ما بين الخمسة دراهم إلى العشرين درهمًا[(١)].

وإذا كان هذا ما ينبغي أن تكون عليه عامّة الناس، فإنَّ من قام مقام الوعظ والإرشاد، ووقف موقف التوجيه والتعليم جدير به أن يكون أشدّ اهتمامًا بتناسق ثيابه ونظافته وحُسْن هندامه، لأنّه محطُّ أنظار الجماهير التي اجتمعت إليه تسمع كلامه، وتصغي إلى حديثه.

وإنَّ لِحُسن مظهر الخطيب وجمال هِندامه وقعًا في نفوس السامعين وتأثيرًا في ذواتهم، وتلك هي طبيعة النفس البشريَّة التي تميل إلى المألوف، وتأنس بالكمال والاعتدال.

فمن أراد أن يقف موقف الواعظ المرشد عليه أن يظهر بثوب الوقار اللائق به في أمل زمانه بحيث يظهر في لبسه وسَمْته أثرُ جلال مقام الإرشاد والدعوة إلى الله.

(١) وقال المنذري والهيثمي رواه الطبراني و رجاله رجال الصحيح.
وفي إسناده عثمان بن أبي شيبة وهو ثقة له أوهام، التقريب (١/ ٣٨٦)، ويونس بن أبي يعفور وقدان صدوق يخطئ كثيرًا كما في التقريب (١/ ٦١٤)، وهو إسناد حسن إن شاء الله.
وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٨٢)، من طريق الحسن بن سلام، عن أبي غسان، عن جعفر بن زياد الأحمر، عن العلاء بن المسيب قال: قال إبراهيم النخعي: «ألبس من الثياب ما لا يشتهرك الفقهاء ولا يزدريك السفهاء». وإسناده حسن فيه جعفر بن زياد الأحمر وهو صدوق يتشيع كما قال ابن حجر في التقريب (١/ ١٤٠)، والعلاء بن المسيب ثقة ربما وهم. كما في التقريب أيضًا (١/ ٤٣٦). وبقية رجاله ثقات.

المظهر اللائق:

مظهرك الذي تظهر به أمام المتلقي يشكل الانطباع الأول في نفسه؛ لأنه أول رسالة تصل إليه منك.. فعليك أن تكون دقيقًا في اختيار الرسالة الشكلية التي تَوَدُّ إيصالها للمتلقي استعداده لقبول أو رفض ما ستقوله، بل ستكون هي الرسالة التمهيدية لتهيئة المتلقي للتعامل مع المضمون وموضوع رسالتك أو محاضرتك التي تعبت في تحضيرها.

فالمظهر اللائق يرفع ويقوي من رصيدك الايجابي لمستمعيك..

لأن الناس يميلون إلى الشكل اللائق والمظهر الحسن والمتجانس والمتوافق مع طبائعهم ولا يخدش تقاليدهم وعاداتهم.

ولذلك ورد أن النبي الكريم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أستقبل وفدًا من الوفود يخرج إليهم بلباس لائق وخاص به.

وإن من أهم صفات المظهر اللائق هي:

(١) أن يكون نظيفًا.

(٢) أن يكون متوافقًا مع أمزجة المستمعين.

(٣) أن يكون متجانسًا حتى لا يشتت الانتباه.

(٤) أن لا يكون مُعَقَّدًا.

(٥) أن يبرز المظهر قوة الشخصية، والثقة العالية بالنفس.

(٦) أن يعطيك إمكانية للتحرك بسهولة ودون تقيد.

أما بخصوص خطبة الجمعة والعيدين والمناسبات الدينيَّة التي تُقام في بيوت الله تعالى، فمن المستحسن من الخطيب أن يلبس من الثياب ما يُنبِّه إلى مقامه، ويشير إلى منزلته كواعظ ومرشدٍ ومُعَلِّمٍ، ومن ذلك الجُبَّة والعِمَّة، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِالْعَمَائِمِ فَإِنَّهَا سِيمَا الْمَلَائِكَةِ وَأَرْخُوهَا خَلْفَ ظُهُورِكُمْ**»(١).

وفي حديث آخر عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الْعَمَائِمُ تِيجَانُ الْعَرَبِ، فَإِذَا وُضِعَت ذَهَبَ عِزُّهَا**»(٢).

وقد ذكر ابن قيِّم الجوزيَّة في «زاد المعاد» في ملابسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كانت له عمامة تُسمَّى: السحاب، كساها عليًّا، وكان يلبَسُها ويلبَسُ تحتها القَلَنْسُوة. وكان يلْبَسُ القلنسُوة بغير عمامة، ويلبَس العِمامة بغير قَلَنْسُوة. وكان إذا اعتمَّ، أرخى عمامته بين كتفيه، كما رواه مسلم في «صحيحه» عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرْخَى طَرَفَهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ»(٣)، وفي مسلم أيضًا عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ بِغَيْرِ إِحْرَامٍ»(٤).

(١) أخرجه الطبراني (١٢/ ٣٨٣، رقم ١٣٤١٨) قال الهيثمي (٥/ ١٢٠): فيه عيسى بن يونس، قال الدارقطني: مجهول وذكر الذهبي هذا الحديث في ترجمة يحيى بن عثمان بن صالح المصري شيخ الطبراني ومع ذلك فقد وثقه.

(٢) أخرجه أيضًا: الديلمي (٣/ ٨٨، رقم ٤٢٤٧) قال المناوي (٤/ ٣٩٢): فيه عتاب بن حرب، قال الذهبي: قال العلائي: ضعيف جدًّا، ومن ثم جزم السخاوي بضعف سنده. ورواه عنه أيضًا ابن السني قال الزين العراقي وفيه عبد الله بن حميد ضعيف.

(٣) رواه مسلم رقم (١٣٥٨) في الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام، والترمذي رقم (١٧٣٥) في اللباس، باب ما جاء في العمامة السوداء، وأبو داود رقم (٤٠٧٦) في اللباس، باب في العمائم، والنسائي (٨/ ٢١١) في الزينة، باب لبس العمائم السود.

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ٥٣٦- الفتح) كتاب جزاء الصيد: باب دخول الحرم ومكة بغير إحرام، حديث (١٨٤٦)، ومسلم (٥/ ١٤١- نووي) حديث (٤٥٠-١٣٥٧)، =

الصفة الثانية: وقفة الخطيب حال إلقاء الخُطبة:

إنّ لوقفة الخطيب حال إلقاء الخطبة أثرًا في نفوس السامعين، كما لها أثر في نفسه، لذلك ينبغي له الاهتمام بكيفيَّة وقفته وهيئته فيها عند إلقاء خطبته.

ولتوضيح هذه الناحية وتفصيل الحديث عنها نقول:

يجب على الخطيب عند إلقاء خطبته أن يقف على مكان مرتفع حتى يتمكَّن الجمهور المستمع إليه من رؤيته، ويتمكَّن هو بدوره من رؤية الناس، لأنّ تلك الرؤية المتبادلة المستمرَّة خلال الخُطبة بين الخطيب والمستمعين تُعتبر من عوامل التأثُّر والتأثير وأسباب التفاعل بين الفريقين، ذلك أنَّ المستمع عند رؤية خطيبه يكون قد أشرك تلقّيه الخُطبة حاسَتي السمع والبصر، وفي إشراكهما سبيل إلى دقَّة استقبال الأفكار وتثبيتها في العقل واستقرارها في أعماق القلب.

وإذا وقف الخطيب مستشرفًا جمهور الناس يجب أن تُصفي هيئة وقوفه عليه مهابة وجلالًا، وذلك بأن يعتدل في وقفته، ويبرز صدره إلى الأمام مع اتِّزان جسمه وارتياحه.

ولا شكَ في أنَّ الخطيب إذا ارتاح في وقوفه، ولم يحسّ بتعب أو ضيق، استطاع أن يؤدي خطبته على أتمّ وجه وأحسن حال.

وَيُضَافُ إلى ما ذكرناه أنَّه ينبغي على الخطيب أن يتلفت حال أدائه الخطبة إلى اليمين مرّةً وإلى اليسار أُخرى، ليتمكَّن من استقبال الجمهور بوجهه من

= وأخرجه أحمد (٣/ ١٠٩، ١٦٤)، والحميدي (٢/ ٥٠٩)، رقم (١٢١٢)، والترمذي (٤/ ٢٠٢)، كتاب الجهاد: باب ما جاء في (المختصر)، حديث (١٦٩٣)، والنسائي (٥/ ٢٠٠)، كتاب الحج: باب دخول مكة بغير إحرام، حديث (٢٨٦٧)، وابن حبان (٩/ ٣٤- الإحسان) رقم (٣٧١٩)، والبيهقي (٧/ ٥٩).

مختلف الجهات، فيستطيع الحاضرون جميعًا أن ينظروا إليه فيزيدهم ذلك إقبالًا عليه واستيعابًا لكلماته وفهمًا لخطابه.

ولا بأس في أن يعتمد الخطيب بإحدى يديه على طرف المنبر أو على كتف كرسيٍّ أو طرف منضدة ونحو ذلك؛ لأنَّ في استناده تحقيقًا لاتزان جسمه وارتياحه في وقفته.

وإذا صعد الخطيب المنبر أو منصَّة الخَطابة إن كان في حفل يحسُن به ألَّا يبدأ الكلام فورًا إلَّا بعد أن يستقرَّ في مكانه، وتَهْدَأَ نَفْسُه، وتسكن جوارحُه، ويسود المكان الهدوء، وتتهيأ أسماع الناس وأذهانهم للإنصات له.

وإذا لم يكترث الخطيب لهذه الملاحظات، ولم يعبأ بهيئة وقوفه، فرُبَّما فقد كثيرًا من دواعي التأثير في النفوس، وخاصَّةً إذا كان بعيدًا عن نظر المستمعين إليه الذين مهما حاولوا أن يعيشوا مع الخطيب بأسماعه وقلوبهم فإنَّهم يتعرَّضون من حين إلى آخر لانصراف أسماعهم عن كلماته وشرود أذهانهم عن معاني خطبته.

ومن الجدير أن نذكر في ختام هذه الفِقْرة أنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا خطب صَعِدَ إلى مرتفع حتى يرى الناس ويراه الناس، ذُكر ذلك عنه يوم فتح مكَّة وفي حجَّة الوداع يوم عرفة بل كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرتفع في مسجده على جذع نخلة وهو يخطب، ولمَّا أتي له سيّدنا تميم بن أوس الداريُّ بالمنبر ترك الوقوف على الجذع، فحنَّ الجذع إلى المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي ذلك قصَّة روتها كتُب السنن[(١)].

(١) رواه البخاري (٣٥٨٤ و ٣٥٨٥)، والدارمي (٢ / ٣٦٦ - ٣٦٧)، والنسائي (١ / ٢٠٧)، وابن ماجة (١٤١٧)، وأحمد (٣ / ٣٠٦، ٣٢٤). و آخر من حديث ابن عمر رواه البخاري (٣٥٨٣)، و أحمد (٢ / ٢٣ و ١٠٩)، و صححه الترمذي (رقم ٥٠٦).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتمد في وقوفه أثناء خطبته على شيء يستند إليه بيده، ونذكر هنا شاهدًا على ذلك أنّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب الناس في صبيحة عيد الفطر، ثُمَّ أتى النساء ومعه بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوعظهنَّ، وأمرهنَّ بالتصدُّق، وكان يقف متكئًا على كتف بلال، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإليك تلخيص ما سبق:

١- على الخطيب أن يتوجه لاعتلاء المنبر في تُؤَدَةٍ ووقار، وأن يقَّدم رجله اليمنى، ويلقي السلام بصوت مسموع على جموع الحاضرين، وألا يبدأ كلامه فورًا، بل يستجمع همته، وتطمئن جوارحه ويسرى الهدوء في جو الموعظة، ويتهيأ الجميع للإنصات والاستماع.

٢- وَلْيقف الخطيب على مكان مرتفع بحيث يشاهد المخاطبين ويشاهدونه، فان ذلك أدعى لمتابعة المستمع له واهتمامه بما يلقى عليه، وعليه أن يوزع نظراته على جموع الحاضرين، فيلتفت يمنة مرة ويسرة أخرى، فيزيد إقبالهم عليه ويتحقق الوصال والاتصال.

٣- وعلى الخطيب أن يكون في وقفته عالي الرأس، مستقيم الجسم، فلا انحناء ولا تقوس، وهذا دليل رباطة الجأش وثبات القلب.

٤- فإذا انتهى الخطيب من خطبته أو المتحدث من كلمته انصرف بهدوء ووقار على النحو الذي أقبل به، وأن يتجنب الرعونة والإسراع الزائد في الإقبال أو الانصراف.

وبهذا يحفظ الخطيب مكانته، ويصون حرمته وتعم الفائدة به زمانًا ومكانًا.

والله أعلم.

الصفة الثالثة: حسن إشارة الخطيب واتزان حركاته:

لا يستطيع المتكلِّم مهما كان هادئًا أن يستغني عن الإشارة، فهو إذا لم يحرِّك يده، حَرَّك رأسه، وإذا لم يحرَّك رأسه، حرِّك منكبه، وإذا لم يحرِّك منكبه، بدت الحركة في تغيُّر ملامح وجهه ونظرات عينيه، كأن يقطِّب جبينه، أو يُحَوِّل عينيه، أو تنفرج أساريره.

فالإشارة إذا جزء من بيان المتكلِّم، وأداة من أدوات تعبيره.

وهي ذات فاعليَّةٍ كبيرة وأثرٍ واضح في تنبيه السامع وإيضاح المعنى ونَقْله إلى الأذهان، لذلك قالوا: استخدام الإشارة يزيد في إيضاح العبارة.

وللإشارة أيضًا، أثر في تقوية حماسة الخطيب وتفاعله في خطبته ولكن يجب أن يُراعي في استخدام الإشارة أمورًا عدَّة، أهمُّها:

(١) أن تكون ملائمةً للمعنى المراد من العبارة حتى تتحقَّق مؤازرتها لها في الإيضاح والتبيين. فإذا لم توافق الإشارة المعنى المقصود، أصبحت ضرْبًا من العبث لا فائدة منه.

(٢) أن تسبق القول المقصودة به أو تواكبه، لأنَّها تُعَدُّ موطِّئةً له ومنبِّهةً إليه.

أمّا إذا جاءت الإشارة بعد القول، فلا فائدة منها، ولا يعود لها أيُّ معنًى، حيث تقدّمتها العبارة، وهي أبلغ في التوضيح والتعبير من الإشارة.

(٣) أن تكون متَّزنة متناسقة، تُعطي مدلولها بكلِّ وضوح ورشاقة بعيدةً عن العنف المُفرِط والمبالغة الشنيعة.

(٤) أن لا تتكرر، فإن في تكرارها ما يدعوا إلى السأم والملل، وما يوهن موقف الخطيب ويضعف تأثيره.

(٥) ومن أهم تلك الضوابط ألا تكثر الإشارة والحركة بصورة تلفت النظر، فإن ذلك يفقد الخطبة رواءها، ويذهب بسمت الخطيب ومهابته[١].

فإذا كثُرت، وزادت عن القدْر المطلوب، أصبحت نوعًا من الحركات المخرجة للخطيب عن حدِّ الوقار والإجلال، وربَّما أدَّت زيادة الحركات وكثرتها إلى سقوط هيبة الخطيب من نفوس المستمعين إليه واستثارة ضحكهم، وهذا ما لا يليق بجلال مقام الوعظ والإرشاد.

الحركات والإشارات:

للحركات والإشارات أثرها الهام في الخطابة، وهي نوعان:

(١) حركات لا إرادية: فالغاضب يقطب جبينه ويعبس وجهه، وذو الحماس تنتفخ أوداجه وتحمر عيناه، ومنهم من تنقبض أصابعه وتنبسط، ومنهم من يعلو صوته حماسًا وتفاعلًا، ومنهم من يبكي رِقَّةً وخشوعًا.

(٢) حركات إرادية: تعكس الانفعال والمشاعر وتعين على مزيد من المتابعة والتوضيح.

وينبغي أن تكون هذه الإشارات والحركات منضبطة بقدر معقول، وانفعال غير متكلف، ومتناسقة مع الشعور الحقيقي.

من الصعوبة إعطاء قواعد محددة في هذا الباب، لأنه يعتمد على مزاج الخطيب، وعلى تحضيره وحماسه وشخصيته وموضوعه، وعلى الجمهور والمناسبة.

وشأن الخطيب كشأن أي متحدث، يبدو عليه التأثر والانفعال، وينعكس ذلك على ملامح وجهه ونظرات عينيه وحركة يديه... الخ.

(١) انظر: (الخطابة) محمد أبو زهرة (ص١٢٢)، وانظر: (فن الخطابة) علي محفوظ (ص٦٧).

وإذا استخدمت الإيماءات والإشارات بمهارة، وبلا تكلُّفٍ، وكانت ملائمة لمعاني الكلمات المصاحبة لها فإنه من الممكن أن تكون يدا الخطيب أداة عجيبة لإيصال الأفكار وتحريك المشاعر.

وإذا لم يكن الخطيب على المستوى اللائق والمطلوب من التأثير والانفعال خرجت كلماته باردة وفقدت حيويتها وحماستها، وبذلك ينعدم تأثيره، وتقلَّ فائدته.

ومن هنا أكد العلماء على أهمية الإشارة والحركة في مجال الخطابة.

يقول الشيخ علي محفوظ: «الإشارة الخطابية حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذي يتفوه به، وحسنها من تمام حسن البيان باللسان... ولها في الخطابة شأن عظيم لأنها تشارك النطق في نقل الفكر متخذة البصر لها سبيلًا، فهي اللغة التي يفهمها كل إنسان، وما تُحْدِثُهُ من التأثير لا تأتي بمثله لغات العالم، ولا يكاد صاحب حديث يستغني عنها»[(١)].

أمثلة تطبيقية:

وقد حَفِظَتِ السُّنَّةُ النبوية كثيرًا من الأحاديث التي استخدم فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإشارة مع الموعظة، فكان لها أبلغ الأثر، ومن ذلك على سبيل المثل:

(أ) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى»[(٢)].

---

(١) فن الخطابة وإعداد الخطيب (ص٦٧) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٤ / ٥٢) كتاب الأدب - باب فضل من يعول يتيمًا / وأخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٧) كتاب الزهد والرقائق - باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم.

(ب) وقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»(١).

(جـ) ومما يدل على الانفعال أثناء الحديث إذا ورد ما يستوجبه ما ثبت أنه ﷺ كان إذا ذكر الساعة احمرَّت وجنتاه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه نذير جيش يقول: «**صَبَّحكم مَسَّاكُم**»(٢).

(حـ) وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ، وَمَسَّاكُمْ وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»... الحديث.

وفي رواية: يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ وَقَدْ عَلا صَوْتُهُ:... ثُمَّ سَاقَ الحَدِيثَ بِمِثْلِهِ(٣).

(د) عَنْ حُصَين بن عبد الرحمن أن عُمَارَةَ بْنَ رُؤَيْبَةَ رَأَى بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ عَلى الْمِنْبَرِ رَافِعًا يَدَيْهِ فَقَالَ: قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلى أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ(٤).

(و) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: صَلَّى لَنَا النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ رَقِيَ الْمِنْبَرَ

---

(١) أخرجه البخاري (١ / ٥٥) كتاب الأدب - باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا.
(٢) أخرجه النسائي (٣ / ١٥٤) كتاب صلاة العيدين - باب كيف الخطبة.
(٣) رواه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم (٨٦٧).
(٤) رواه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم (٨٧٤).

فَأَشَارَ بِيَدَيْهِ قِبَلَ قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ الآنَ مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمْ الصَّلاةَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مُمَثَّلَتَيْنِ فِي قِبْلَةِ هَذَا الْجِدَارِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ -ثَلاثًا-»[(١)].

(هـ) عن أَبِي هُرَيْرَةَ أنه قرأ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء:٥٨] قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ»[(٢)].

الاتصال البصري:

لابد من توزيع النظر على الجمهور، فعيناك هما الحبل الذي يربطك بهم، يعرفون من خلاله مدى اهتمامك بهم، وتعرف أنت من خلاله مدى اهتمامهم بما تقول.

وهذا يزيد ثقتك بنفسك ويخلصك من الارتباك والتوتر، كما أنه يفيدك في معرفة ردود فعل المستمعين وانطباعاتهم لتجري على موضوعك أو طريقة إلقائه التعديل المناسب.

ما هو دور الابتسامة المشرقة؟

الابتسامة من أبرز مظاهر الشخصية، فهي تُكْسِبُ الثِّقة في الحال، وتُظهر حسن نية المرء بسرعة.

---

(١) رواه البخاري في الصلاة، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة (١/ ٢٦١، رقم ٧١٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٧٧-٢٧٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٣١)، والحاكم (١/ ٢٤)، والبيهقي في «الأسماء» (ص١٧٨)، وابن منده أيضًا (٢/ ٨٢) وقال: «رواه أبو معشر عن المقبري عن أبي هريرة، ورواه ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير مرثد بن عبد الله عن عقبة ابن عامر. وروي عن الحسن بن ثوبان عن أبي الخير عن عقبة بن عامر نحوه»، وإسناد حديث أبي هريرة صحيح على شرط مسلم، وكذا قال الحاكم والذهبي والحافظ (١٣/ ٣١٨)، وقد أعله الكوثري في تعليقه على «الأسماء» بدون حجة كعادته في أحاديث الصفات.

إن تعبيرات الوجه تتكلم بصوت أعمق من صوت اللسان، وكانت صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقول أصحاب السير (كان بسَّام المحيّا).

وكيف لا يكون كذلك، وهو القائل: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ**»(١) وهذه صدقة لا تكلفك درهمًا ولا دينارًا وهي كنز لو عرف الخطيب والداعية كيفية استخدامه لأسرت القلوب ولفتحت النفوس.

واسمع عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي»(٢).

تقول حكمة صينية: «من لا يستطيع الابتسام يجب أن لا يفتح متجرًا» فالابتسامة المُرَحِّبَةُ مطلوبة أمام الجمهور كما هي مطلوبة وراء الآلة الحاسبة في المتجر.

هناك خطباء يتقدَّمون بأسلوب بارد مُتَكَلِّفٍ وكأن عليهم القيام بمهمة مزعجة، فيحمدون الله عند انتهائهم. ونحن أيضًا كمستمعين نشعر بمثل ذلك، لأن هذه الأساليب تنتقل بالعدوى.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٠٧، رقم ٨٩١)، والترمذي (٤/ ٣٣٩، رقم ١٩٥٦)، وقال: حسن غريب. وابن حبان (٢/ ٢٨٧، رقم ٥٢٩). وأخرجه أيضًا: البزار (٩/ ٤٥٧، رقم ٤٠٧٠) ومحمد بن نصر (٢/ ٨١٧، رقم ٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري في باب التبسم والضحك، ومسلم في باب من فضائل جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثاني

عُـدَّة الخطيب

إنَّ أيَّ إنسان يريد أداء عملٍ ما لا يُفلح فيه إذا كان فاقدًا عُدَّة القيام به.

هذه حقيقة قائمة في واقع حياة الناس جميعًا في مختلف المجالات، فالنجَّار بلا عُدَّة النِّجارة لا يستطيع عمل شيء، والبنَّاء بلا عُدَّة البناء لا يستطيع رفع الجدران ونصب السقوف، والصانع بدون عُدَّة التصنيع لا يتمكَّن من صنع شيء، وكذلك الخطابة فهي أشبه ببناء البنَّاء وصناعة الصانع، فالخطيب إذا كان لا يملك عُدَّة بناء الخُطبة وصنع أفكارها وصياغة ألفاظها وتراكيبها، فإنَّه لن يفلح في شيءٍ من القول لفقده آلة صنعه وأداة صياغته.

من خلال هذا التمهيد القصير نستطيع طرح السؤال التالي:

تُرى ما هي عُدَّة الخطيب؟

وبكلِّ وضوح نجيب: إنَّ عُدَّة الخطيب التي يجب أن تكون متوفِّرة لديه أشياءُ كثيرةٌ، من أهمِّها:

«العلم تنوُّع الثقافة وسعتها الاطلاع الدائم على كلِّ نبأ جديد أدب اللُّغة العربية وبيانها حفظ الكثير من القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة الشريفة علم المنطق علم النفس الاجتماعيّ».

وفيما يلي نبسط القول عن كلِّ واحدٍ منها:

(أ) العلم:

لا شكَّ في أنَّ أهمَّ ما يجب أنْ يعتدَّ به الخطيب هو العلم؛ لأنَّه في مقامه معلِّم

للمستمعين إليه، ومبيِّن لهم ما خفي عليهم من المسائل وما جهلوه من الأحكام، وناشر للحِكْمة والموعظة على أرض عقولهم وفي ساحة قلوبهم، فوجب على الخطيب أن يكون متفقِّها في الدين عارفًا بأحكام الشريعة معرفةً تمكِّنه من بذل ما يحتاج إليه الناس من أمور إسلامهم وتصوُّرات عقيدتهم.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخصلة الهامَّة في حياة الجماعة المسلمة، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

فإذا كان الخطيب غزير العلم كثير المعرفة، كان نفعه أكبر وعطاؤه أعظم، فيأتي كلامه وفير النفع جمَّ الفائدة، وأمَّا إذا نضَب مَعِينُ معرفته، وفرَغت جَعْبة علمه، فسيأتي كلامُه قليل الرّواء ضئيل الغذاء، لا يعدو أن يكون رصف كلمات قاحلة وتنميق ألفاظٍ خاوية لا تبلغ القلوب والعقول وإن أشرقت في الأسماع، وانجذبت إلى وقْعها الآذان.

والعلم يمُدُّ الخطيب بقُوَّة تمكِّنه من الاستمرار في كلامه ومتابعة حديثه إلى غايته دون أن يتلكَّأ أو يتحرَّج.

وأمَّا الخطيب الذي قلَّ علمه، وشحَّت معرفته، فإنَّ مقدرته على الاستمرار في حديثه منوطة بما في حوزته من العلم والأفكار، فإذا نفِذ زاده، اضطرب موقفه، واختلَّ توازن حديثه، وأصبحت سلامته في إنهاء خطبته وختم كلمته.

والخطيب الناجح هو الذي لا ينقطع عن الاستمداد وطلب العلم مهما غزُرت معارفه، وزادت علومه وعوارفه، لأنَّه في مقام الإمداد والإرشاد، فإذا انصرف عن موارد العلم، واكتفى بما في جَعْبته من الفوائد والعلوم، أَوْشَكَ بسبب استمرار إعطائه أن تفرغ محصِّلتُه، ويجفّ مخزونُه، فيضعف مردوده، وتقلُّ فائدتُهُ.

فهو بحاجة إلى التلقِّي والاكتساب دائما، مهما بلغت معرفته، واتسعت ثقافتُه.

ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

العلم بحرٌ ليس يُسْبَر غورُهُ ورحابُه لا يحتويها المُبصِرُ

مهما مضى الغوّاص في أعماقه وقضى الزمانَ بسَبْره لا يظفرُ

وقال أحد علماء هذا العصر، وكان قد امتلأ علمًا والمعارف كثيرة، أهمُّها سبيلان، هما:

(١) الجلوس في مجالس العلماء، والتَّلَقِّي منهم والأخذ عنهم.

(٢) المطالعة الفرديَّة في المؤلفات والمصنَّفات العظيمة حيث أودع فيها جهابذة العلم والمعرفة السابقون خالصَ علمهم، وصفوةَ أبحاثهم ونتائجَ قرائحهم، وخلاصةَ أفكارهم.

(ب) تنُّوع الثقافة واتساعها:

تُعتبر سَعة ثقافة الخطيب وتنوُّعها من أسباب نجاحه وقوَّته ومن مقوِّمات نفعه وتأثيره؛ لأنَّه يغدو بثقافته المتنوِّعة ومعارفه المتعدِّدة أشبه بالحديقة الغَنّاء التي

يضمُّ رَوْضُها المناظر الخلَّابة، والألوان المختلفة، والمياه الرقراقة، والأصوات النديَّة، والروائح الشذيَّة، فيأخذ كلُّ من يرتاد تلك الحديقة حاجته، وينال بُغيته حسب بواعث نفسه، ووقْدَة أحاسيسه، ووَفْق مستوى فَهمه وتدفُّق خواطره.

وإذا اتسعت ثقافة الخطيب، واختلفت ألوانها، كان تأثيره في النفوس عميقًا واستيلاؤه على القلوب والمشاعر كبيرًا؛ لأنَّ الحاضرين يشعرون بإفادتهم منه مهما تنوَّعت ثقافتهم، وتفاوتت مفاهيمهم، واختلفت طباعهم وتصوُّراتهم، والخطيب الناجح هو من صُبَّت في ذهنه وقلبه علوم جَمَّة وثقافات متنوِّعة ومعارف كثيرة، فإذا تكلَّم، خاض في مختلف مجالات العلم وطَرَق معظم ميادين الثقافة بكلِّ قوَّة وثقة بالنفس وطلاقة في الحديث.

فتجده فقيهًا يعرض الأحكام الفقهيَّة بلا خطأ إذا هو تكلَّم بالفقه، ومحدِّثًا لا يذكر إلَّا ما صحَّ عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجتنب المصنوع والمكذوب إذا هو تكلَّم بالحديث.

وحافظًا للقرآن لا يغلط في إيراد آية، ولا يُخطئ في قراءتها إذا تلا شيئًا من القرآن.

ومؤرِّخًا يأتيك بالخبر اليقين والرواية الصحيحة إذا هو تحدَّث بالتاريخ.

ولغويًّا يصُوغ أجمل العبارات، ويأتي بروائع الجمل وسحر البيان إذا هو خطب وتحدَّث.

وطبيبًا إذا بحث في مسألة طِبِّيَّة، فيعرضها عرض الخبير الحاذق والطبيب الماهر.

وعالمَ فلكٍ إذا حدَّث عن الأفلاك ومداراتها، والنجوم وطوفان أنوارها، والكواكب ومساراتها، وعن المجرَّات بأنواعها وعدد نجومها.

وعالمًا طبيعيًّا إذا تحدَّث عن الطبيعة.

وسياسيًّا إذا تناول في حديثه السياسة، قائدَ جيشٍ إذا ذكر القتال، وتحدَّث عن الحروب والفتوحات.

وإذا تنوَّعت ثقافة الخطيب، وازدادت معارفه، مكَّنه ذلك من خوض أصعب الأبحاث وأخطر المواضيع دون وَجَلٍ أو عناء، بل يكون في ذلك كالطود الشامخ، ينثر الكلام، ويفصِّل الحديث، فيعالج المسائل، ويكشف الأخطاء، ويقرِّر الأحكام، ويطرح الآراء بمنتهى البساطة وغاية السهولة.

ومن أهمِّ وسائل تنويع الثقافة وتوسيع نطاقها:

كثرة المطالعة في مختلف مجالات المعرفة وميادين الثقافة:

- ★ في علوم الشريعة الإسلاميَّة.
- ★ في التاريخ، والجغرافيا.
- ★ في الاجتماع، وعلم النفس.
- ★ في اللُّغة العربيَّة وعلومها.
- ★ وفي سائر علوم العصر ومعارفه.

ومصدر ذلك كلِّه المصنَّفات القديمة، والمؤلَّفات المعاصرة، والمجلَّات العلميَّة والثقافيَّة والأدبيَّة، والصحف والنشرات والوثائق المختلفة.

(جـ) الاطلاع الدائم على كلِّ نبأ جديد:

لا شكَّ في أنَّ تكرُّر لقاء الخطيب بالنَّاسَ بمختلف طبقاتهم وشتَّى مستوياتهم الثقافيَّة يفرض عليه أن يكون بثقافته ومفاهيمه منسجمًا مع واقع الناس المتجدِّد في أفكاره وأحداثه، وهذا الانسجام المطلوب يحدو به إلى أن يكون دائم الاطلاع على كلِّ جديد ينشأ في واقع الحياة المتطوِّرة العصريّة فكريًّا، وعلميًّا، واجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وتربويًّا، وإنتاجيًّا، ليتمكَّن من معالجة قضايا الناس المعاصرة وتقديم الحلول الناجعة لمشاكل حياتهم ومسائل عيشهم.

وهذا الاطلاع المستمرُّ على مختلف المتجدِّدات الحيويَّة يجعل الخطيب قريبًا من واقع الناس، عارفًا بأحوالهم، خبيرًا بمختلف شؤون حياتهم، متفهِّمًا لجميع الملابسات والظروف التي تطرأ على حركة نشاطهم الفكريِّ والسلوكيِّ.

فهو بذلك أشبه بالطبيب الذي يتوقَّف نجاحه في معالجة المرضى ومعرفة أدوائهم على ما يرفِد به معلوماته الطبيَّة بكلِّ ما هو جديد في باب الطبِّ.

وأمَّا إذا اكتفى الخطيب بمعارف الماضي، واقتصر على ما في جَعْبته من علوم التراث وفِكْر السابقين، ونأى بفكره وسلوكه ومشاعره عن متجدِّدات عصره ومعطيات زمانه، فسوف يصبح في وادٍ وواقع الناس في وادٍ آخر، وبذلك لا يفلح في صرف العلاجات المناسبةِ لمختلف المشاكل التي تنشأ في حياة الناس، ولا يتمكَّن من إيصال مفاهيمه وأفكاره إلى قلوبهم وعقولهم، ولا ينجح في التأثير في نفوسهم والهيمنة على مشاعرهم.

وهذا شأن بعض الخطباء المتزمِّتين الذين يعلنون حربهم شعواءَ على التطوُّر الفكريِّ والصناعيِّ، ويجعلونه ضرْبًا من الكفر يجب القضاء عليه، وربَّما نجد أحدهم يُوغل في تزمُّته، ويتشدَّد في إحجامه عن الواقع فيحرِّم ما لا يجوز تحريمه، ويعلن ذلك على الملأ بدافع المحافظة على الدِّين ومفاهيم الإسلام، بينما يكون الحقُّ خلاف ما يقول، ويكون تعنُّته وتشدُّده سببًا في نفور الناس منه وخاصَّةً الناشئين منهم، حتى يمهِّد الطريق أمام اتِّهام الإسلام بالتخلُّف والجمود.

ومن أمثال هؤلاء: خطيب أعلن رفضه لحقيقة الصعود إلى القمر، وقال: ليس صحيحًا ما يقال: إنَّهم صعدوا إلى القمر وإنَّ الدِّين يرفض مثل هذه الخزعبلات، وكذلك أعلن إنكاره لحقيقة كُرويَّة الأرض، واحتجَّ على ذلك بأنَّه لم يسمع من مشايخه مثل هذا الكلام، وما دام لم يسمع ذلك من أشياخه فهو باطل ومرفوض، ولا يجوز الاعتقاد بصحَّة وقوعه.

ونحن عندما نحضُّ الخطيب على مواكبة التطوُّر الفكريّ والعلميّ والحيويّ، ونرفض عزلته بسبب توغُّله في محيط الماضي لا نعني بذلك أن ينسخ الماضي من ذهنه، ويعيش في الواقع، بل عليه أن يربط الماضي المجيد بالحاضر الجديد، وأن يجعل الماضي الزاخر بتراثه الفكريِّ والروحيِّ والاجتماعيِّ قاعدةً يرتكز عليها بناء الحاضر، إذ لا غنى لنا عن الماضي الأثيل الذي ضمَّ بين جنباته حقائق التراث الإسلاميِّ الفكريِّ والعلميِّ والروحيِّ والاجتماعيِّ، ومقوّمات الحياة البشريَّة في ظلّ الشريعة السمحة.

فالخطيب المؤثر هو الذي يَعرِض على الناس عطاء الماضي بما يتناسب مع ظروف الحاضر وملابسته، ويستلهم من واقعه الأساليب التي يسكب فيها مفاهيم الدِّين الحنيف ومحاسنه الجليلة، ويجعلها تنساب رُخاء إلى قلوب الناس وعقولهم، فيُقبلون عليها بكلِّ شغفٍ وتقديرٍ واقتناعٍ.

وسبل الحصول على الأنباء الجديدة كثيرة، من أبرزها:

١- المؤلَّفات والرسائل الحديثة الفكريَّة والعلميَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة.

٢- الصحف والمجَلَّات.

٣- الندوات والبرامج والأنباء الإذاعيَّة والوثائق.

(د) أدب اللُّغة العربيَّة وبيانها:

تعدُّ اللُّغة العربيَّة بألفاظها وتراكيبها وبلاغتها المَعْبرةَ التي يعبرُ منها الخطيب إلى عقول الناس وقلوبهم، فهي القالَب الذي تُصَبُّ فيه الأفكار، والمعاني والوسيلة التي يتوسَّل بها الخطيب لمخاطبة الناس.

فإذا عرض المتكلِّم أفكاره ومفاهيمه بأُسلوب أدبيٍّ رفيع متألِّق يتمتَّع بسموِّ البلاغة وسحر البيان، عَذُب وَقْعُهُ في السمع، وهوى إليه القلب، وتأثَّرت به النفس، وبهذا تُؤتي خُطَبُهُ أُكلَها في نفوس المستمعين إليه وعقولهم حيث خضعوا لحسن بيانه وجمال تعبيره، وانساقوا راغبين إلى أفكاره ومعانيه المسبوكة في أروع الألفاظ وأبلغ العبارات.

فأدب اللغة العربيَّة وبيانها يمنح الخطيب قدرةً فعالةً على التأثير في القلوب والهيمنة على النفوس، ولو عرض في بيانه أبسط الأفكار وأيسر المعاني وأكثرها شيوعًا، فهي تصل إلى قلوب المستمعين إليه وعقولهم عظيمة جليلة عميقة الأثر وكأنَّها شيء جديد عليهم لم يسمعوا به من قبل، لأنَّها كُسيت بأجمل الألفاظ وأروع التراكيب.

ولقد ذُكر: أنَّ الإمام الزهريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ خرج ذات يوم من عند هشام بن عبد الملك، فقال: ما رأيت كاليوم، ولا سمعت كأربع كلمات تكلَّم بهنَّ رجل عند هشام، دخل عليه فقال: ما رأيت كاليوم أحفظ منِّي أربع كلمات فيهنَّ صلاح ملكك واستقامة رعيَّتك.قال: ما هُنَّ؟ قال: «لا تَعِدْ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرنَّك المرتقى وإن كان سهلًا إذا كان المنحدر وَعْرًا، واعلم أنَّ للأعمال جزاءً فاتَّقِ العواقب، وأنَّ للأمور بغتاتٍ فكن على حذَر».

يقول الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الحادثة: ومعاني هذه الموعظة لا تغيب فيما أحسب عن أمثال الزهريّ، وإنَّما جاء إعجابه ممّا كُسِيتْ به الإيجاز الساحر وسلامة الألفاظ وجمع الحِكَم الأربع في نسق جعلها كعِقد ملتئم الدُّرَر، مُحكَم التأليف. اهـ.

فإذا أهمل الخطيب هذه الوسيلة العظيمة، واستخفَّ بها، وألبس معانيه وأفكاره الأَسْمَالَ والرقاع من الكلام، واكتفى من الألفاظ والعبارات بما يدلُّ على المعنى فحسب دون أن يلتفت إلى روعة البيان وجمال التعبير وسموِّ البلاغة وبراعة الإيجاز، فسوف تفقد خطبته القدرة على تحريك المشاعر وتأجيج العواطف والتأثير في النفوس.

فالخطيب المؤثر الحاذق والمتحدِّث اللامع هو الذي لا يستهين بشأن اللغة وأدبها، بل يجعلها الركيزة الأساسية لبثِّ أفكاره ومعارفه.

كما أنَّ الخطيب الذي يمتاز بحسن بيانه ودقَّة تعبيره وسلامة لغته هو أقدر على إيضاح الحقِّ وكشف زيف الباطل من غيره.

بل نقول: كم من خطيب أو كاتب استطاع بقُوَّة لسانه وروعة بيانه ودقَّة تعبيره وجمال لُغته، أن يُخضع بسطاء الناس لفكره الخاسر ورأيه البائر وبضاعته الباطلة، حيث أقنعهم بضلالة وأباطيله بإقامة الحُجَّةِ التي ألبسها أجمل أثواب الكلام، وَحَلَّاهَا بأبدع قلائد البيان، فملك عليهم قلوبهم، واستولى على عقولهم وعواطفهم.

فجدير بالخطيب أن يتسلَّح بأدب العربيَّة ويتَّخذه عُدَّةً في سائر أحواله.

وإذا أردنا أن نعرف الوسائل التي تمكِّن الخطيب من تقويم لسانه وتسديد لغته وتجميل بيانه، نُجمل هنا ما فصَّلناه في بحث سُبُل تقوية الأُسلوب الخطابيّ فنقول: إنَّ أهم وسائل تمتين لغة الخطيب وضبط لسانه وتحسين بيانه أربعة، هي:

(١) كثرة تلاوة القرآن الكريم، وحفظ الكثير من نصوصه.

(٢) قراءة الحديث الشريف، وحفظ عدد جيِّد من الأحاديث.

(٣) قراءة خطب الصحابة والتابعين وبلغاء العرب المبدعين، وحفظ عدد من تلك الخطب.

(٤) مطالعة مؤلفات تراث اللُّغة العربيَّة النثريّ والشعريّ، وحفظ عدد لا بأس به من النصوص النثريَّة والشعريَّة.

(هـ) حفظ الكثير من القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف:

يُعتبر القرآن الكريم والحديث الشريف الموردين الأصليين اللَّذين يستمدُّ منهما الخطيب الأفكار والمعاني والمفاهيم والخواطر واللغة.

فهما أكبر حُجَة فكرَّية وروحيَّة وتشريعيَّة ولغويَّة، فإذا تسلَّح الخطيب بهما أكسباه قوَّة يندفع بها في حديثه إلى نهايته مقتحمًا كلَّ عقبة تعترضه ومتخلِّصًا من كلِّ مأزق يقع فيه.

وأمّا إذا ضعف اعتماد الخطيب على القرآن والحديث، وقلَّ محفوظُه منهما فسيفقد بذلك قوَّة فكريَّة وبيانيَّة تنجيه من أزمات القول واضطرابات الخطاب.

فالقرآن والحديث وزَرَان[1] يلجأ إليهما من أعيته الأدلَّة وأعجزته الحُجج، فيستمدُّ منهما أحوالًا علميَّة وفكريَّة وحُججًا لغويَّة وبيانيَّة تزيد من همَّة حديثه وقُوَّة خطابته، وتُجنِّبه مصاعب الخطاب، وتخلِّصه من مواطن الحرج، ونذكر دليلًا على ذلك أنَّ أحد الخلفاء صعِد المنبر ليخطب فسقط الذُّباب على وجهه، فذبّه عنه، فعاد إليه، فذبَّه الثانية فعاد إليه، وتكرَّر ذلك منه، فضاقت به نفسه، واضطرب تفكيره، فتخلَّص من موقفه بأن قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

ثم نزل، فاستحسن منه الناس هذا التخلُّص.

---

(١) **الوزر:** الملجأ.

فانظر كيف كان القرآن الكريم مسعِفًا له في هذا الموطن الحرج والظرف الصعب، فلولا محفوظه من القرآن وتلاوته هذه الآية المباركة لاستمرَّ حرجه، وزادت أزمة موقفه، واشتدَّت الأمور سوءًا عليه، ولكنَّه استطاع بفضل ما يحفظ من القرآن الكريم أن يخرُج من محنته بتلاوة نصٍّ من كلام الله، فأثار إعجاب الحاضرين بحسن تخلُّصه، وأثَّر في قلوبهم ببراعة حكمته حيث استنقذ نفسه بهذه الآية المباركة التي فاضت بالعبرة البليغة والعِظة الرشيدة. ونضيف إلى ذلك أنَّ استخدام الخطيب للآيات والأحاديث الشريفة يهب خُطبته قدرةً كبيرةً على التأثير في النفوس وإيقاظ المشاعر وتنبيه العقول.

وقد يحدث أن يصوغ الخطيب خطبته كُلها من آيات القرآن، فتكون أبلغ تعبيرًا وأعمق تأثيرًا، كخطبة مصعب بن الزبير التي ألقاها عندما قدم العراق، حيث صعد المنبر، ثمَّ قال: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص:١-٤] وأشار بيده نحو الشام.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥] وأشار بيده نحو الحجاز.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾ [القصص:٦] وأشار بيده نحو العراق. [العقد الفريد].

(و) علم المنطق والجدل:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

لمَّا كان الخطيب يَتَوَخّى من خطبته إيصال أفكاره وأحاسيسه إلى عقول الناس ومشاعرهم، وكان الإقناع والتأثير غرضَينِ أساسيَّيْن من إلقاء كلماتها، أصبح من المفروض على الخطيب أن يستعين بعلم المنطق، وأن يعرف قواعد الجدل والمناظرة وأساليب الإقناع، ليتمكَّن من طرح فِكَره وعرضها بطريقة تنقاد إليها العقول، وتميل نحوها القلوب.

فإذا أراد أن يقرِّر فكرة ما، يغرس معناها عميقًا في عقول الناس، وجب عليه ألَّا يفرضها فرضًا دون أن يمهِّد بمقدِّمات تستوجب الإقناع، بل عليه أن يقدِّمها إلى المستمعين مشفوعة بالأدلَّة العقليَّة مع مزيج من العاطفة المشبوبة والحماسة المؤثِّرة.

فإذا انقاد عقل السامع ومشاعره إلى الفكرة عبر درب المقدِّمات المنطقيَّة المزدان بألق الوجدان، أصبح إيمانه بتلك الفكرة مؤكدًا وإقباله على معاني الخطبة مضمونًا.

وإنَّ الإنسان ليتأبَّى بطبعه على الخضوع للفكرة المجرَّدة إذا لم يشفعها تمهيد منطقيٌّ عاطفيٌّ وتفسير عقليٌّ مقبول.

ونقول بصَدَد ذلك: لو أراد الخطيب أن يّرد على فكرة معيَّنة، ويبين بطلانها وزيفها، لا يكفيه أن يقرِّر رأيه في تلك الفكرة دون الاعتماد على تسلسُل منطقيّ عند مناقشتها، لأنَّ الجمهور المستمع لا يرضى أن يسلِّم بالنتائج، ويلتزم بالآراء

دون الارتكاز على اقتناع ذاتيٍّ، لذا وجب على الخطيب أن يعالج الفكرة معالجةً هادئة، ويبيِّن مآخذها بشكل واضح مع سطوع الحُجَّة وقوَّة البرهان وسلامة المنطق بحيث يسعى معه الجمهور إلى الاقتناع الكامل واليقين المطلق ببطلان تلك الفكرة المرفوضة وصحَّة حكمه عليها.

والإلمام بقواعد التفكير المنطقيِّ وأساليب الجدل والإقناع العقليِّ يحتاج إلى الرجوع إلى مصادر ذلك، نذكر من أهَمِّها:

(١) أسلوب المنطق القرآنيّ المُبين:

لقد تمكَّن القرآن الكريم من مخاطبة العقل البشريِّ بأسلوب حكيم مبين خضع به العقل للحقِّ، وأذعن للإيمان، حيث اتضحت له الحُجَّة، واستقام عنده الدليل بتنفيذ زعم الباطل، وانحسار غيهب الجهل.

ومن أمثلة أسلوب المنطق القرآنيّ في النِّقاش وإقامة الحُجَّة:

(أ) المعارضة:

قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١].

(ب) استدراج الخصم ثم الفلج عليه بالحُجَّة القاطعة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

(٢) أسلوب المنطق النبويّ:

لقد آتى الله تعالى رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحُجَّةِ والبرهان ما جعله يُخضع إليه أصلَبَ العقول، ويستجيب لحكمه أعتى النفوس، ويتَّضح ذلك في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ومواقف السيرة المحمَّدِيَّة العطرة.

ومن أمثلة ذلك:

ورد أنَّ حُصينا والد عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مُعَظَّمًا في قُريش، فسألوه أن يكلِّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليكفَّ عن سبِّ آلهتهم.

فلمَّا أتاه أوسع له في المجلس، فقال حُصَين: ما هذا الذي بلغنا عنك: أنَّك تشتم آلهتنا وتذكرهم؟

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟**». قَالَ: سَبْعًا سِتَّةً فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِذَا مَسَّكَ الضُرُّ مَنْ تَدْعُو؟**». قَالَ حُصَيْنُ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيستجيب لك وحده وتُشركهم معه؟ أرضيته في الشكر أم تخاف أن يُغلب عليك؟**». فَقَالَ حُصَيْن: لا واحدة من هاتين. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا حُصَيْن، أسلمْ تسلمْ**». فقال حُصَيْنُ: إنّ لي قومًا وعشيرةً، فماذا أقول؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل: اللَّهمَّ أستهديك لأرشد أمري، وزدني علمًا ينفعني**». فقالها حُصَين، فلم يقم حتى أسلم[(١)].

(١) أخرجه ابن خزيمة في كتاب التوحيد (ص ١٢٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥٣٤)، والذهبي في العلو (ص ٢٤)، وقال: (عمران) ضعيف. وقد عجبت للمغالطة المكشوفة التي سطرها الكوثري في تعليقه على هذا الحديث في هامش الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٥٣٤) حين زعم أن من عد هذا إقرارًا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحصين على كون الله في السماء، فإنه يلزم عليه أن يعده أقره على الستة في الأرض. وهذا الإلزام واضح الفساد، ولا يحتاج إلى أدنى =

إنَّه حوار حكيم هادئ دار بين سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين حُصَيْن، وتجلَّت لنا من خلال ذلك الحوار منهجيَّة النبيِّ الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النقاش والأسلوب المنطقيِّ الرائع الذي تزاحمت فيه الحُججُ القاطعة والبراهين الساطعة التي اطمئن العقل أُمامها، وأذعن لها مستجيبًا للحق الناصع الذي انبثقت أنواره من خلالها.

إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفرض سلطانَ الحقِّ على حُصَيْن فرضًا، وإنَّما عقد بينه وبينه حوارًا هادئًا حرَّر به فكره من أغلال الجمود، وأخرجه من ظُلمة الخُرافة، فانطلق إلى الحقيقة يعلن إيمانه الصادق بها بعد قناعةٍ كاملةٍ بما ظهر له من أدلَّة واضحة، وتبيَّن له من براهين ساطعة تعرَّفها من خلال منطقيَّة ذلك الحوار، حيث تدرَّج معه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طرح الأسئلة واستجوابه عنها، حتى وصل به إلى دائرة الحقِّ التي دخلها بعقل تجرَّد من لوثة الأهواء وضغوط الخُرافة وغواشي الجحود. فآمن بأنَّه لا معبود بحقٍّ في هذا الوجود إلا إله واحد، هو الله ربُّ العالمين.

(٣) أساليب علماء الإسلام في النِّقاش وطرائقهم في الجدل المثمر:

ويُعرف ذلك من خلال الاطلاع على طرقهم في الاستدلال والحصول على الأحكام وما كتبوه في مؤلَّفاتهم، وجاء في سيرهم حول هذا الموضوع، ومن أمثلة ذلك ذكر السبكيُّ في طبقاته:

= جهد لإبطاله، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حواره مع حصين ألزمه بالإيمان بالله وحده لا شريك له، والإقرار بأن الآلهة الأخرى التي كان يعبدها حين لا تملك له نفعًا ولا تدفع عنه ضرًا، بل الذي يملك له النفع ويدفع عنه الضر هو الله الذي أقر به في السماء وحده لا شريك له. ولا نستغرب هذه المغالطة من الكوثري لأنه وأمثاله من المعطلة يصدمون بصراحة الأدلة ووضوحها فلا يملكون إلا الكذب والافتراء، فيحرفون الكلم عن مواضعه، ويتشبثون بخيط العنكبوت، بل بما هو أوهى وأهن من الشبه العقلية الباطلة.

حُكي أنَّ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناظر الإمام الشافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تارك الصلاة، فقال له الشافعيُّ:

- يا أحمد، أتقول إنّه يكفُر؟

- قال: نعم.

- قال: إذا كفر كفرًا فَبِمَ يُسلِم؟

- قال: يقول: لا إله إلَّا الله محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- قال الشافعيّ: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركْهُ.

- قال: يُسلِم بأن يُصلِّي.

- قال: صلاة الكافر لا تصحُّ، ولا يُحكَم بالإسلام بها، فانقطع أحمد وسكت.

جاء في «وفيات الأعيان» لابن خَلِّكان: أنَّ إياس بن معاوية سمع يهوديًّا يقول: ما أحمق المسلمين، يزعمون أنَّ أهل الجنَّة يأكلون، ولا يحدِثون.

- فقال له إياس: أفكُلَّ ما تأكله تُحدِثه؟

- قال: لا؛ لأنَّ الله تعالى يجعله غذاءً.

- قال: فلِم تُنكر أنَّ الله تعالى يجعل كلَّ ما يأكله أهل الجنَّة عذاءً؟

وهكذا ردّ إياس على اليهوديِّ، وأقام الحُجَّة عليه بواسطة الاستجواب المفنِّد لمزاعمه.

(٤) الكتب التي تتحدَّث عن علم المنطق وقواعد الجدل وآداب المناظرة:

وهي كثيرة، منها: «الكافية في الجدل» لإمام الحرمين الجويني، ومنها في الحديث: «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» للدكتور عبد الرحمن حسن حبنّكه الميدانيِّ.

(ز) علم النَّفْس الاجتماعيُّ:

يواجه الخطيب في أغلب أحواله جمهورًا لا ينحصر في فئة معيَّنة من الناس مثَّقِفَة بواقعها الفكريَّ والسلوكيَّ والنفسيَّ، وإنّما يجد نفسه في معظم أحواله في مواجهة جمهور يضمُّ شرائح مختلفة من الناس قد تباينت مفاهيمهم وأفكارهم، وتنوَّعت ثقافاتهم، وتعدَّدت اتجاهاتهم، وتلوَّنت طباعهم، وتفاضلت طبقاتهم، ففيهم الصغير والكبير، والمثقَّف والعامِّيّ، والغنيّ والفقير، وسهل الطبع وجِلْفه، والمتحرِّر والمتزمِّت، والمتعصِّب، والمعتدل، والشريف والوضيع.

ولا ريب أنَّ جمهورًا يحوي مثل هذا الخليط من العقول والنفوس والطِّباع يحتاج وعْظُه ومخاطبته إلى غاية الدُّقَّة ومنتهى الحِكْمة، إذ كلٌ منهم يفتقر إلى أُسلوب معيَّن من الخطاب ونوع مناسب من المعارف والمواعظ. وهنا يتركَّز ثقل مهمَّة الخطيب حيث ينبغي عليه أن يختار من الأبحاث والكلام والأساليب ما يتناسب مع مختلف أنماط المستمعين إليه وطبقاتهم، ليتمكَّن من تحقيق الفائدة المرجوَّة من خطبته ونقل أفكاره وأحاسيسه إلى سائر جمهوره.

وأمَّا إذا توجَّه إلى طبقة معيَّنة من الجمهور، وأهمل سائر الطبقات، فسوف ينعزل في خطبته عن تلك الطبقات التي أهملها، لأنَّها انفصلت عنه فكريًّا ونفسيًّا وروحيًّا.

وإزاء هذه المهمَّة الثقيلة أصبح لِزامًا على الخطيب أن يكون عارفًا بأحوال النفس البشريَّة في تَقَلُّباتها واختلاف أطوارها، دارسًا دراسة واعية لظاهرة التفاوت النفسيِّ والسلوكيِّ في نطاق مجموعة من الناس وكيفيّة مخاطبتها وتوجيهها ووعُظها.

وبمعنى آخر: يجب على الخطيب أن يكون مُلِمًّا بعلم النَّفس الاجتماعيِّ عالمًا بقواعد منهج تربية النفس البشريَّة ووسائل تسليكها عبر الحياة الإنسانيّة في شتَّى علاقاتها ومختلف اتجاهاتها.

ويستطيع الخطيب اكتساب القُدرة على معالجة النَّفس الإنسانيَّة ومعرفة توجيهها بالرجوع إلى مصادر التربية النفسيِّة والتوجيه السلوكيِّ.

وفي مقدمة هذه المصادر التربويَّة:

(١) القرآن الكريم:

حيث يطَّلع على منهاجه الرائد في معالجة النفس البشريَّة وتوجيهها ونقلها من التخبُّط الخانق في لُجج الضلال وظلمات الجمود إلى الهدوء والاستقرار الآمن في دوحة الهداية ورياض الإيمان.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

وما أكثر النصوص القرآنية التي قدَّمت للإنسان مناهج التربية وأصول التسليك وقواعد المعالجات النفسيّة لأعقد الحالات وأحلك الظروف التي يمرُّ بها الإنسان.

ونضرب مثلًا على ذلك: قوله تعالى في خطابه للنبيّ ﷺ محدِّدًا له سلوكه مع قومه الذين كانوا قد أدبروا عن دعوته، وأساؤوا إليه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وقوله تعالى محدِّدًا لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طريقته في التعامل مع أصحابه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

(٢) سيرة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسنَّته الشريفة:

وذلك بالاطلاع على منهجه التربويَّ الرائع الذي تجلَّت آثاره في واقع الحياة حيث خرَّج إلى الوجود أعظم أمَّةٍ ظهرت على وجه الأرض، وإذا سألنا. مَنْ هم أولئك الذين ربَّاهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وصنع منهم تلك الأُمَّة الفريدة؟

فسوف نجد الجواب مدهشًا للعقول ومذهلًا للخواطر:

إنَّهم أولئك الجُفاة القُساة من بني البشر الذين كانوا يعيشون في وسط ركام من الفساد الخُلُقيِّ والفكريِّ، وفي لُجَّة تمزُّقٍ نفسيٍّ رهيبٍ، فاستطاع صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يصلح بناءهم الإنسانيّ، فقوَّم أفكارهم، وهذَّب نفوسهم ونقَّى طبائعهم، فأصبحوا خير أُمَّة أُخرجت للناس، نزل في وصفها قول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وإذا ابتغينا مثالًا لآثار هذا المنهج السلوكيّ الخالد نذكر الحادثة التالية: عن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال:جاء شابٌّ إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال له: يا رسول الله، ائذن لي في الزنا، فتصايح الناس، وأنكروا قوله، ولكنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أدناه منه، ودار بينهما هذا الحوار:

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل ترضاه لأمِّك؟**»، فقال: لَا.

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذلك الناس لا يرضونه لأمَّهاتهم**».

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل ترضاه لأختك؟**»، فقال: لَا.

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم**».

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل ترضاه لابنتك؟**»، فقال: لَا.

قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذلك الناس لا يرضونه لبناتهم**».

ثمَّ بعد هذا النقاش المنطقيّ الذي ينمُّ عن مدى عمق إدراك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطبيعة النَّفس البشريَّة وكيفيَّة علاجها من أدوائها وصرف الدواء المناسب لها، دعا للشابّ بدعوات مُوحية ذات مغزى عميق، فقال: «**اللَّهُمَّ كَفِّرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»[(١)].

قال الشابُّ: فو الله ما التفتُّ بعدها لشيء من ذلك أبدًا.

(٣) سِير السابقين واللاحقين وما كتبوه حول هذا الموضوع:

إنَّ من سبل اكتساب الخطيب معرفة قواعد التسليك والتوجيه وحسن مخاطبة النفوس على اختلاف صبغاتها اطلاعَه على ما كتبه العلماء السابقون واللاحقون في طُرُق التسليك ووسائل التأديب والتهذيب والاستفادة من مناهجهم التربويّة الصالحة التي أُثِرت عنهم فيما جاء في سِيرَ حياتهم، وما نقله الناس عنهم بالمشاهدة.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦، رقم ٢٢٢٦٥)، والطبراني (٨/ ١٦٢، رقم ٧٦٧٩). قال الهيثمي (١/ ١٢٩): رجاله رجال الصحيح. وأخرجه الطبراني في الشاميين أيضًا (٢/ ٣٧٣، رقم ١٥٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٦٢ رقم ٥٤١٥).

ونذكر فيما يلي أهمَّ الكتب المؤلفة في هذا الموضوع:

- «إحياء علوم الدِّين»، للإمام الغزالي.
- «أدب الدنيا والدِّين»، لأبي حسن الماوردي.
- «أدب الإملاء والاستملاء»، للسمعاني.
- «تذكرة السامع والمتكلِّم، في أدب العالم والمتعلِّم»، لابن جماعة الكناني.
- «المعيد في أدب المفيد والمستفيد»، لعبد الباسط بن موسى العَلْمَوي.
- «مختصر منهاج القاصدين»، لابن قدامة المقدسيّ.
- «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، للراغب الأصفهانيّ.

نضيف إلى ذلك الكتب والمؤلَّفاتِ الحديثة التي تناولت موضوع التأديب والتسليك وقواعد تربية النفس الإنسانيَّة ومعالجة أمراضها وآداب خطابها على اختلاف أطوارها وتنوُّع أمزجتها.

وهذه الكتب كثيرة الموارد غزيرة الفوائد للقارئين، يمكن الرجوع إليها في كلّ وقت.

المبحث الثالث

فهرسة مصادر الخطيب

فهرسة مواضيع الخُطَب ومصادرها:

ونعني بفَهْرَسة المواضيع والمصادر أن يقوم الخطيب بجمع معارفه وأفكاره التي اكتسبها من خلال مطالعاته الدائمة للكتب والمؤلفات والمجلَّات والصُّحُف والنشرات المختلفة التي تُعَدُّ المصادر الهامَّة لثقافته المتنوِّعة، ونظرًا لتعرُّض الخطيب بل القارئ والباحث مهما كان مستوى ثقافته وفهمه لنسيان جزء كثير أو قليل هام أو غير هام من الفِكَر والمعارف والأبحاث والأخبار التي يقرؤها في تلك المصادر المتنوِّعة المتجدِّدة، فلا بد من استخدام وسيلةٍ نافعةٍ لجمع تلك الفِكَر والمعارف المختلفة وتنظيمها حسب المواضيع، بحيث يتمكَّن الخطيب من الرجوع إلى تلك المعارف والأفكار بكلِّ سهولةٍ متى يشاء دون أن يفوته شيء مما يريد، ولا ريب في أنَّ هذه المسألة مُهِمَّة جدًّا لكلِّ عالمٍ أو متعلم أو باحث أو دارس أو مطلع، بل لكلِّ مثقَّفٍ حريص على المعرفة والعلم.

وفهرسة المواضيع والمصادر تتَّخذ طُرُقًا عديدة أبسطها استخدام البطاقات، وهي طريقة ناجحة ومُجدية، ولا تحتاج من الخطيب إلَّا إلى اليقظة والانتباه المستمرِّ خلال مطالعته الدائمة لكلِّ ما يصل إليه من مصادر الفِكَر والمعارف والأخبار، ثمَّ المبادرة إلى تسجيل اسم الكتاب واسم المؤلف وعنوان البحث ورقم الصفحة على البطاقة.

ونوضِّح هذه الطريقة بما يأتي:

نأخذ مجموعة من البطاقات الفارغة، ثمَّ نسجِّل فيها عنوان الموضوع الذي طالعناه في كتاب أو مجلَّة أو أي مصدر كتابيّ آخر، ثم نكتب في البطاقة نفسها اسم الكتاب واسم المؤلف وعنوان البحث ورقم الصفحة، ثمَّ إذا طالعنا الموضوع نفسه في كتاب آخر أو في أيِّ مصدر غيره، كتبنا على البطاقة نفسها اسم ذلك الكتاب أو المجلة أو الصحيفة، ثمَّ اسم المؤلف أو تاريخ عدد المجلّة أو الصحيفة ثمَّ عنوان الموضوع ورقم الصفحة على نحو ما قمنا به في المصدر الأوَّل، وهكذا نفعل في كلّ مصدر نطالع فيه الموضوع نفسه وعلى البطاقة نفسها إذا بقي فيها مكان فارغ ولتوضيح ذلك أكثر نضرب المثال الآتي:

قرأنا في كتاب «مختصر منهاج القاصدين»، فمررنا على موضوع (الصوم)، ثمَّ قرأنا في كتاب «حُجَّة الله البالغة» فمررنا فيه أيضًا موضوع (الصوم)، ثمَّ قرأنا في كتاب «البصائر في تذكير العشائر» فمررنا فيه أيضًا على موضوع (الصوم)، ثمّ طالعنا في كتاب «الطبّ النبويّ») للدكتور محمود ناظم النسيميّ، فقرأنا فيه موضوع (الصوم) أيضًا، وعندما قمنا بقراءة كتاب «معجزات في الطبِّ للنبيِّ العربيّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» للدكتور محمد سعيد البُوطي، مررنا فيه أيضًا على بحث «الصوم»، فأكسبتنا مطالعتنا لهذه الكتب الخمسة معرفةً لمجموعة من الأبحاث والمواضيع، منها بحث الصوم، وبذلك أصبح لدينا عن موضوع (الصوم) خمسة مصادر تفيدنا معرفةً به ودراسة جيِّدة حوله، فإذا حاولنا في المستقبل أن نكتب موضوعًا عن (الصوم)، أو نحضِّر خُطبة عنه، يمكننا جمع أفكاره وإعداد موضوعه بالرجوع إلى تلك المصادر الخمسة، ولكي تسهُل علينا

عمليَّة الرجوع إلى تلك المصادر، ولا يغيبَ عن أذهاننا بعضُها أو أحدها بسبب طول العهد، فإننا نُعِدُ البطاقة على الشكل الآتي:

- ص الصوم.
- المصدر المؤلف عنوان البحث الصفحة.

(١) مختصر منهاج القاصدين ابن قدامة.

(٢) حُجة الله البالغة ولي الله الدهلوي من أبواب الصوم (٢/ ٤٨).

(٣) البصائر في تذكير العشائر محمد عبد الحيِّ السورتيِّ البصيرة الثامنة عشرة في رمضان (ص ٢٩).

(٤) الطبّ النبويّ د. محمود ناظم النسيميّ الصِّيام والطِّبُّ (ص ٢٩٦).

(٥) معجزات في الطبِّ للنبي د. محمد سعيد السيوطي المعجزة السابعة العربي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوائد الصوم (ص٨١).

وكذلك نفعل في موضوع آخر مثل: (التقوى) أو (الإيمان)، ونفرد لكلِّ موضوع بطاقة مستقلّة.

وإذا لم تُكْفِ للموضوع الواحد بطاقة واحدة، استخدمنا أكثر من بطاقة لكي نثبت فيها أسماء كلّ المصادر التي قرأناها حول ذلك الموضوع، ثم نُصنِّف تلك البطاقات العِدّة مضمومًا بعضها إلى بعض.

وعندما نجمع عددًا من البطاقات لمواضيع مختلفة، نقوم بتنظيم تلك البطاقات وترتيبها حسب الأحرف الأبجديَّة، فإذا حصلنا مثلًا على بطاقات تحمل المواضيع الآتية: (الإيمان الجهاد التقوى الحبُّ في الله البِرِّ).

فإننا نقوم بترتيبها على حسب ترتيب أحرف الهجاء، فتأتي كما يلي:

(الإيمان) فـ(البر) فـ(التقوى) فـ(الجهاد) وآخرها (الحبُّ في الله)

ونحاول أن نُبرز من طرف البطاقة العلويّ جُزءًا نكتب عليه الحرف الذي يبتدئ به اسم الموضوع كما هو مبيّن في الأنموذج السابق.

وإذا ابتدأت عدَّة مواضيع بحرف واحد كالصاد مثلًا: صنفناها خلف بعضها بحسب الحرف الثاني أو الثالث إذا اتفقت بالحرف الثاني أيضًا ولبيان ذلك نقول: عندنا مثلًا بطاقات تحمل المواضيع التالية: «الصوم الصلاة الصِّدق الصبر). فعندما نُصَنِّفُهَا نراعي في ترتيبها الألفبائيّ بحسب الحرف الثاني، لأنَّها اتفقت جميعًا بالحرف الأول وهو الصاد، فيصبح تنظيمها مرتَّبًا بعضها خلف بعض كما يأتي: (الصَّبر فالصِّدق فالصلاة فالصوم).

ثمَّ نضع البطاقات بعد تصنيفها بوَضْع شاقوليّ[1] في دُرجٍ خاصٍّ بحيث يكون الجزء الذي سُجل عليه الحرف الهجائيُّ بارزًا إلى الأعلى، وبذلك تَسْهل علينا إعادة البطاقة إلى مكانها بعد سحبها عند الحاجة. وهذه الطريقة تتزامن كما أسلفنا مع مسيرة مطالعتنا وقراءتنا المستمرَّة، وهي طريقة كما أشرنا سابقًا تحتاج إلى وقت ودأب وانتباه، ولكنَّ التقنية الحديثة عوَّضتنا عن هذه الطريقة ونظائرها بجهاز (الكمبيوتر) الذي انماز بصلاحيته لكلِّ الاستعمالات في مختلف مجالات الحياة، واستطاع أن يغزو أجواء أعمالنا ومعايشنا وأوضاع علاقاتنا وبقية جوانب حياتنا.

---

(١) **شاقولي:** عصا يستعملها الزارع في قياس الأرض وضبط حدودها، والمقصودهنا عصا تعلق فيها هذه البطاقات في درج خاص بها.

ومن هذه المجالات التي أثبت فيها (الكمبيوتر) جدارته الفائقة وصلاحيته التامة تنظيمُ مواضيع الخطب بحسب مصادرها، وحفظها في (ديسكات).

ولكن نظرًا لعجز طائفة كبيرة من الدارسين والباحثين والقُراء والمطَّلعين عن الحصول على هذا الجهاز، بسبب قلَّة ذات اليد أحيانًا أو عدم توفُّر قطعة للجميع أحيانًا أخرى. ونظرًا لتعرُّض مثل هذا الجهاز للأعطال الفنِّيّة، وحاجته إلى الإصلاح وتوفُّر الخبراء والفنِّيِّن والأدوات الإصلاحيَّة، فإنَّ استعمال طريقة البطاقات أيسَر وأفضل وأقلُّ كُلْفَة وأكثر ذيوعًا وانتشارًا لدى الباحثين والقُرَّاء والمطَّلعين، ونخصُّ منهم الخُطباء، لأنَّهم بيت القصيد في هذا البحث.

المبحث الرابع
إلى كلّ خطيـب

خصائص الخطيب:

١- أن يكون خطابه شرعِيًّا ربَّانيًّا:

حيث يحرص في خطابه على دعوة الناس إلى توحيد الله وعبادته وحده وعدم الإشراك به؛ فالأصل في بعثة الأنبياء والرسل الدعوة إلى عبادة الله وحده، وتصحيح عقيدة الناس التي انحرفت؛ وخير مثال على ذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بعث مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ...**»(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**». قَالَ: مَا الإِسْلامُ؟ قَالَ: «**الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيئًا...**»(٢).

فالله سبحانه أخبر بأن المغفرة تشمل كل الخطايا والذنوب باستثناء الشرك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]. كما حذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه بقوله: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٣).

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الزكاة رقم (١٣٨٩) (٢/ ٥٢٩)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام رقم (١٩).
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقم (٥٠) (١/ ٢٧)، وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم (٩ و ١٠).
(٣) أخرجه مسلم في باب من أشرك مع الله (١٥/ ٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥، رقم ٤٢٠٢).

لهذا يبقى خطاب الدعوة العقدي أصل الخطاب الذي ينبغي أن لا يغيب، ولا بأس بتكراره، وتجديد الحديث فيه بطرق ووسائل تبليغية تواكب مستجدات الشرك ومستحدثاته، كما تبدع في وسائل الخطاب الذي يحاربه، وبلغة سهلة ميسرة تصل إلى القلوب قبل الأسماع.

٢- أن يكون الخطيب هاديًا لا جابيًا:

أي يحرص في خطابه على هَدْيِّ الناس إلى الْبِرِّ، مع تجنب الجباية أو طلبها بخطابه؛ فالهادي ضد الجابي، والله في عون كل من رغب في هداية الناس إلى الخير ويوفقه ويجازيه خير الجزاء، ويكفي في بيان أجر ذلك حديث النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ومن خلاله لكل الأمة: «**فَوَ اللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»(١).

فأحبُّ العباد إلى الله الذين يحببون الله إلى الناس، وهو ما بينه النبي ﷺ في حديثه: «**إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللهَ إِلَى النَّاسِ**»(٢).

والخطيب إن تَمَثَّلَ الحِكْمَةَ في خطابه كان من أفضل المحببين الله لعباده؛ وهذا بالتركيز على أن الهداية بيد الله، وأن مهمة الخطيب لا تتجاوز التذكير؛ لأن من هو أسمى من كلِّ خطيبٍ قد وُجِّهَ إليه هذا الخطاب في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٥٧ و ٥٨) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي الجهاد، ومسلم رقم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١١٦)، والبزار (٢٩٢)، البحر الزخار (٨/ ٢٨٣) [فيه] محمد بن الوليد لا نعلم أحدًا تابعه على روايته. أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٠٤)، والبزار (٣٣٥١).

٣- أن يكون خطابه اجتهاديًّا:

أي ليس توقيفيًّا؛ فالمطلوب من الخطيب الاجتهاد في خطابه، والإعداد الجيد لمواضيعه، والإبداع المستمر لما يقدِّمه للناس، مع تجاوز المكرر من الخطاب حتى لا يمل الناس فيملوه.

فالخطبة موعظة، والموعظة كلها توفيقية؛ فليس هناك نمط واحد لا يتغير في الأسلوب الذي يمكن مخاطبة الناس به، بل لا بد من التجديد والابتكار دون الخروج عن الأصول والثوابت؛ فألوان الخطاب كلها وسائل يستعان بها لحسن التبليغ، لكن الوسيلة في شرعنا غير مبررة بالغاية، بل لا بد من إخضاعهما معًا لشرع الله.

٤- أن يكون خطابه متدرجًا:

وهذا أمر بدأ به أمر الدين وخُتم؛ فكل ما حُرِّم على الأمة حرم تدريجيًّا وعلى مراحل، وما أمر الخمر والربا والإرث وغير ذلك في تنزيلات القرآن بخافٍ على المسلم.

فعلى الخطيب إن قصد بخطابه توجيه النصح أو الرغبة في تغيير ما يستحق التغيير أن يعرف كيف يعالج الأمر، وأن يستلهم منهجه ذلك من منهج رسول الإنسانية والرحمة المهداة للعالمين، ويكفي لبيان ذلك حديث المصطفى لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذ كان يرغب في تغيير معالم الكعبة، بل هدمها وتجديدها؛ حيث قال لها: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنْ الْحِجْرِ**». وفي رواية: «**لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ**:

بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنْ الْحِجْرِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حِيْنَ بَنَتْ الْكَعْبَةَ»[(١)].

إنـه التدرج والتـأني، ومراعاة أحوال الناس وقوة إيمانهم أو ضعفه لحسـن تقبُّـل الأمـر الصعـب الذي قـد لا يوافـق رغبتهـم وهواهم، أو قد لا يحسـنون فهمه.

٥- أن يكون خطابه متفاعِلًا مع الواقع:

أي يكون خطابًا يعترف بالواقع ومشكلاته، ويعرف كيف يُخرج الناس من مشاكل الحياة وصعوباتها، ويقدم لهم الحلول المناسبة التي تهدئ النفوس وتطمئن القلوب، وهذا يقتضي من الخطيب حسن التفقه في الدين وحسن التعرف على الواقع، وحسن التفقه في كيفية تنزيل النص الشرعي على الواقع.

كما يقتضي من الخطيب أن لا يتقوقع أو يدعو إلى القوقعة في مواضيعه التوجيهية فيما لا يعود بالنفع على المسلمين، بل لا بد أن يعيش واقع الناس ويوجههم للمشاركة الإيجابية في المجتمع، وعلى مخالطة الناس بالتي هي أحسن، ويعلِّمهم أن الأصل والأفضل هو المخالطة وليس الانعزال، لقول الرسول: **«الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥١٤)، كتاب الحج: باب فضل مكة وبنيانها، حديث (١٥٨٦)، ومسلم (٢/ ٩٦٩، ٩٧٠)، كتاب الحج: باب نقض الكعبة وبنائها وأبو يعلى (٨/ ٩٢)، رقم (٤٦٢٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥٠٢٢)، قال شعيب الأرنؤوط «إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين»، وفي سنن البيهقي الكبرى (١٩٩٦٢) باب فضل المؤمن القوي الذي يقوم بأمر الناس ويصبر على أذاهم، قال الألباني «صحيح»، صحيح الجامع (٦٦٥١)، الصحيحة (٩٣٩).

٦- أن يكون خطابه جامعًا لا مُفَرِّقًا:

فالخطيب للجميع ومعلم لهم، مثل شجرة الزيتون «لا شرقية ولا غربية» ينير ضوؤه طريق كل الناس، بمختلف ألوانهم وأشكالهم، يحترم الجميع ويسعى لهداية وتعليم الجميع دون تحيز أو ميل، يجمع ويوحد، يصلح ولا يفسد، مفتاح للخير، مغلاق للشر كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ؛ فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ**»(١).

ويبني عمله وخطابه هذا على قول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٣-١٠٥].

وهذا يقتضي استخدام الكلمة المسؤولة استخدامًا أمينًا، مع جمال التعبير والعرض، والتذرُّع بأخلاق أهل الإيمان، التي تنفِّر من الحقد والوقيعة وسوء الظن، كما تنفر من الجهر بالسوء، لتصل إلى الحوار المنصف، والخطاب الصحيح السليم، مع تجنب التعيين والوصف والتشنيع؛ لأنه لم يثبت عن سيد الخطباء أن

(١) أخرجه الطيالسي (ص٢٧٧، رقم ٢٠٨٢)، والحكيم (١/ ٤٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٥٥، رقم ٦٩٨). وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (١/ ٨٦، رقم ٢٣٧) قال البوصيري (١/ ٣٤): هذا إسناد ضعيف من أجل محمد بن أبي حميد فإنه متروك. وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢٧، رقم ٢٩٧).

عيّن يومًا في خطابه أو خطبه أحدًا باسمه، بل كان خطابه دائما عامًا، لا يعدو أن يقول فيه: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ» أو «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ». وهلمَّ جرًا، ومن أمثلة ذلك:

ما أخرجه البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ قَالَ عَمْرٌو وَابْنُ أَبِي عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا لِي أُهْدِيَ لِي. قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ عَلَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**مَا بَالُ عَامِلٍ أَبْعَثُهُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي؟ أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا...؟**»[(١)].

وعَنْ مَسْرُوقٍ: قَالَتْ عَائِشَةُ: صَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَرَخَّصَ فِيهِ فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَبَ، فَحَمِدَ اللهَ ثُمَّ، قَالَ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ؟ فَوَ اللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[(٢)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ المَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ فَيَتَنَخَّعَ أَمَامَهُ؛ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعُ فِي وَجْهِهِ؟ فَإِذَا تَنَخَّعَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَنَخَّعْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَقُلْ هَكَذَا...**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في (٨٣) كتاب الأيمان والنذور (٣) باب كيف كانت يمين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٦/ ٢٤٤٦)، وأخرجه مسلم في الإمارة باب تحريم هدايا العمال رقم (١٨٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٨١، رقم ٢٥٥٢١)، والبخارى (٥/ ٢٢٦٣، رقم ٥٧٥٠)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩، رقم ٢٣٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة باب النهي عن البصاق رقم (٥٥٠).

هذه بعضُ خصائص خطاب الجمعة، ما أحوجنا إلى فقهها واستيعابها، فهل من سبيل لتطبيق ذلك على الوجه الأحسن؟

وهناك ثمَّة أمور ينبغي لكلِّ خطيب الالتزام بها والحرص عليها؛ لأنَّها ذات أثر خطير في قوة خطابته وسلامة خطبته.

أولًا: يجب على الخطيب أن يتجنَّب التقريع وفظاظة القول.

فإنَّه سبيل العاجز الذي لا يحسن الإقناع، ولا يملك الحُجَة الدامغة والقول الصائب، وأن يجعل رَائِدَهُ قول الله سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

فكلام الواعظ لا يدخل إلى قلب السامع إلَّا إذا كان الواعظ نفسه قريبًا من قلب سامعه، فإذا نفرت القلوب من خطاب واعظها بسبب غِلْظَته وفظاظته، فَقَدَتَ موعظته تأثيرها، وصُمَّت الأذان دونها، ولقد كشف الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الحقيقة في قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فاللَّين بالموعظة والتلطُّف بالخطاب يجعلان الخطيب قريبًا من قلوب سامعيه، ويمنحه القُدرة على أن يَنْفُذَ خطابهُ إلى أعماقهم، ويؤثر في نفوسهم.

وهكذا كانت وصيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنبيائه ورسله عند تبليغهم رسالاته وإرشادهم الناس إلى هدى دينه.

فلمَّا أرسل الله تعالى سيّدنا موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وخاطبهما بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٣، ٤٤].

ثُمَّ علَّم الله سبحانه سيِّدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القول اللَّيِّن الذي يخاطب به فرعون الطاغية، فقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٨، ١٩].

ثانيًا: إذا استنكر الخطيب من الناس أمرًا، فليحذر توبيخهم بأسلوب يستفز مشاعرهم، ويُؤذي كرامتهم.

كأن يوجِّه إليهم التَّعْنيفَ فيقول:

- (كُفُّوا عن العصيان أيُّها المسلمون).
- (إلى متى وأنتم تأكلون الرِّبَا وترتكبون الموبقات).
- (هل استمرأتم أيها الناس حياة الفسق والفجور، وطاب لكم فضح الأعراض وارتكاب الفواحش ومحاربة الديَّان؟).

أو يصفهم بأوصاف ذميمةٍ تشمئزُّ منها النُّفوس، كأن يقول لهم:

- (ما لي أراكم أصبحتم مثل الخنازير، لا تهتزُّ ضمائركم أمام هذا الفجور الفاضح).
- (هل ماتت النخوة في رؤوسكم وتبلَّدت مشاعركم؟).
- (إنَّكم أصبحتم مثل الكلاب حيث تهالكتم على حبِّ الدنيا).

أو يناديهم بما يخالف أدب المخاطبة، كأن يقول:

- (أيها الجاهلون الغافلون).
- (يا أيُّها المُعَطِّلُونَ لشريعة الحِقِّ، والمعرضون عن درب الهداية).
- (انظروا أيُّها الغارقون في مستنقع الشهوات ماذا حلَّ بشبابكم وفتياتكم).

إنَّ مثل هذا النِّداء لا يتَّفق مع حسن الحديث وأدب الخِطاب، بل هو ضَرْب من الهجوم السافر، يتنافى مع طبيعة الوعظ وخِصال الإرشاد.

وإذا قرأنا القرآن الكريم في مجال خطابه للعباد وندائه إيَّاهم، وجدناه يناديهم بشريف الأسماء وجميل الألقاب، نحو قوله سبحانه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ [البقرة:٢١].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ [البقرة:١٠٤].
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ [آل عمران:٦٤].
- ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ...﴾ [الحشر:٢].
- ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ...﴾ [البقرة:١٧٩].

ونجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين وجَّه كتابًا إلى هرقل ملك الروم قال في مطلعه: «**مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ...**».

فوصف هرقِل بالعظيم وهو مشرك انطلاقًا من الحكمة والموعظة الحسنة التي أمره الله سبحانه بها، وتجلَّت حقيقةً سادت سائر توجيهاته وإرشاداته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثالثًا: يجب على الخطيب أن يتدرَّج في مطالبة الناس بتطبيق الشريعة وأحكام الدِّين الحنيف.

وليحذر مطالبتهم بالتنفيذ الشامل السريع لمبادئ الدِّين حتى لا يتركوه جملة.

وإنَّ في منهج القرآن الكريم لأسمى دليل وأعظم برهان على هذا الأُسلوب والنمط السلوكيِّ الحكيم.

فتحريم الخمر مثلًا لم ينزل حكمه جُملةً واحدة على الناس، وإنَّما تدرَّج نزول حكم التحريم في القرآن حتى تهيَّأت نفوس الناس، واستعدَّت لاستقبال الحكم القاطع الذي هو التحريم، فكان أوَّل ما نزل في الخمر أنَّها مفسدة، إذ قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢١٩].

ثـمَّ منع شربها عنـد إرادة الصلاة، إذ قال سـبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣].

ثمّ نزل حكم تحريمها القاطع في سائر الأحوال وعلى كلِّ الناس، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:٩٠].

وحُكـي عـن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنَّ ابنه عبـد الملك قال له: ما لك لا تُنفِّذَ الأُمور، فو الله لا أُبالي لو أنَّ القُدور غلت بي وبِكَ في الحقِّ.

فقال له عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تعجل يا بُنيَّ، فإنَّ الله ذمَّ الخمر مرَّتين، وحرَّمها في الثالثة وإنَّني أخاف أن أحمل الحقَّ على الناس جُملةً، فيدفعوه جملةً، وتكون في ذا فتنة.

رابعًا: يجب على الخطيب أن يكون أمينًا في خطبته مجافيًا للخيانة متجنبًا للغشِّ.

وإنَّ من أبرز مظاهر غشِّ الخطيب وخيانته ألَّا يُعِدَّ خُطبته إعدادًا مناسبًا يحقِّق فيه النفع والفائدة للناس المستمعين إليه الذين أقبلوا عليه لكي ينالوا منه ما يفيدهم به من أمر دينهم وآخرتهم. فإذا أهمل الخطيب إعداد خطبته، وارتجلها خاوية من المعاني فارغة من الفوائد، واكتفى منها بمجرَّد رفع العتب عليه من كونه أهمل أداء ركن من أركان الجمعة، فإنّ هذا الخطيب وأمثاله ليس إلَّا لِصًّا خائنًا، يبتزُّ الناس أوقاتهم، ويمنعهم حقوقهم.

فإنَّ الخطيب الذي يستهين بشأن جمهوره أشدُّ خيانةً وغِشًّا.

ولقد سمعتها نصيحةً من عالمٍ جليل:

اعلم أنَّ الله ائتمنك على هذا المنبر، فإيَّاك أن تُهمِلَ تحضير خُطبتك وإعدادها بما ينفع الناس، لأنَّهم إنَّما جاؤوك ليستفيدوا منك، فأنت مسؤول عنهم أمام الله يوم القيامة، فإنْ لم تهتمَّ بهم وتُعِدَّ لهم حاجتهم من النفع والفائدة، كنت خائنًا لهم مضيِّعًا للأمانة.

خامسًا: يجب على الخطيب أن يتجنّب التهجُّم على أقرانه الخُطباء، ويتحاشى من الاستخفاف بآراء العلماء.

ويحذر كلَّ الحذر ذكر اسم واحد منهم في معرض الذمِّ؛ لأنَّ ارتكاب مثل هذا التصرف الممقوت يكون سببًا في إفساد قلوب حديثي الإيمان وبذر الشِّقاق بين الناس، إضافة إلى أنَّه يحمل صاحب الرأي الباطل على التعصُّب لرأيه والتمسُّك بفكرته بسبب مناصبته العداء والتشهير به.

وإذا اضطُّرَّ الخطيب إلى الردِّ على رأي باطل صدر عن خطيب أو عالم أو مفكِّر، فالحِكْمة في مثل هذا الموقف أن يناقش الخطيب الرأي الباطل بكامل الهدوء والاتِّزان ومُطلَق الأدب والاحتشام، ويتجنَّب مختلف أساليب الهجوم والتهكُّم والتحقير.

سادسًا وأخيرًا: يجب على الخطيب أن يهجر الإطالة والإطناب في الكلام.

لأنَّ ثمرة الخطبة تتحقَّق في قِلَّة الكلام وقِصر المُدَّة، بحيث تتمكَّن أذهان عموم المستمعين إليه من إدراك ما قاله الخطيب وفهم معظم أفكار خُطبته.

وفي الإطالة إرهاق للخطيب وللسامع معًا، لذا وجدنا السابقين إذا قام أحدهم مقام الموعظة، جافى الإطالة، وتجنَّب الاسترسال، وأتى بالموجز من الكلام العميق في معناه مع بلاغة نسجه وحُسن أدائه. فكان معظم الناس يحفظون من كلام هؤلاء السابقين الكثير، ويتناقلونه فيما بينهم حتى وصلنا منه محصول طيِّب ورصيد محمود. ولكنَّنا نرجع لنؤكِّد ما ذكرناه في بحث سابق.

أنَّ الإطالة والإيجاز أمران نسبيَّان يتوقَّفان على نوع الموضوع والمناسبة والخطيب.

المبحث الخامس

مكتبة الخطيب

لا يمارس الخطيب وظيفته من فراغ، فلا بد من مصادر ثقافية تُحيي قلبه، وتمده بثروة من المعاني والحلول اللازمة لمشاكل الفرد والمجتمع.

وهي مناهل يغترف منها، ليقدِّمَهَا بِدَوْرِهِ شرابًا سائغًا للشاربين، فإذا لم يُجَدِّد الخطيب حياته بزادٍ متجدِّدٍ من المعرفة، يواكب الحياة ومتغيراتها فسوف يكرر نفسه دائمًا.

ولذلك يقولون: «النحلة تمتص مليونًا من الزهور من أجل أن تعطينا مائة جرام من العسل».

حكمة بليغة لا بد للداعية أن يجعلها نصب عينيه في إعداده للخطبة، وهذا أساس لابد منه حتى يجد الناس عند الخطيب إجابة التساؤلات، وحلول المشكلات إضافة إلى ذلك هو العدَّة التي بها يعلِّم الخطيب الداعية الناس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه يكون الخطيب قادرًا على الإقناع وتفنيد الشبهات أيضًا، ومتقنًا في العرض، ومبدعًا في التوعية والتوجيه.

وليكون الكلام مُقنعًا أن يشتمل على حجج وبراهين وأدلة يستطيع بها الخطيب أن يبرهن على صحة دعواه وصواب ما يريد، ولا يكون هذا إلا بالإطلاع وطلب العلم ومعايشة الواقع.

أخي الخطيب المؤثر:

إن جماهير الأمة المسلمة اليوم تتطلع إلى خطاب إسلامي أصيل وعصري، يقتبس من مشكاة الوحي، ويتابع خطوات الحياة، ويسلط أشعة الشريعة الغراء على قضايا العصر ومستجدات الأحداث، ومتغيرات الواقع التي يقف المسلم إزاءها في حيرة بين القبول والرد، ويعالج كل هذه القضايا بروح من وسطية الإسلام وشموليته، وتميز منهجه في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتفرد قواعده الأصولية وأحكامه الفقهية في القدرة على وصف واستنباط الحلول لمشكلات الحياة البشرية كلها، ولا شك أن هذا الخطاب لا يتأتى إلا لمن تعاهد نفسه بالتثقيف المستمر، واعتنى بالقراءة والمتابعة والاطلاع.

وإذا نال الخطيب حظًا وافيًا من العلم واندرج في سلك طلبة العلم فإنه يكون في مجتمعه نبراسًا يُهْتَدَي به كما قال ابن القيم عن الفقهاء وطلبة العلم:

«إنَّهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يُهتدى في الظلماء، حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء، ولو لم يكن في العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة لكفى به شرفًا وفضلًا، فكيف وَعِزُّ الدنيا والآخرة منوط به مشروط بحصوله».

أخي الخطيب المؤثر:

أضع بين يديك مكتبة تضم مراجع في كل فن،هي زادك للإبحار والغوص في بطون كتبها لتخرج للناس أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر، نفع الله بك الإسلام والمسلمين.

كتب التفسير:

١- تفسير السعدي.

٢- تفسير ابن كثير.

٣- أيسر التفاسير للجزائري.

٤- [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] لمحمد فؤاد عبد الباقي.

٥- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.

٦- تفسير ابن جرير.

٧- البيان في أقسام القرآن لابن القيم.

٨- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي.

٩- روح المعاني للألوسي.

١٠- أضواء البيان، الشنقيطي.

١١- في ظلال القرآن سيد قطب.

١٢- تفسير الشعراوي.

١٣- علوم القرآن لمناع القطَّان.

كتب العقيدة والإيمان:

١- أصول الإيمان لمجموعة علماء.

٢- فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد.

٣- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد سليمان بن عبد الله.

٤- منة الرحمن د / ياسر برهامي.

٥- معارج القبول للحافظ الحكمي.

٦- العقيدة الإسلامية د. أحمد فريد.

٧- سلسلة العقيدة عمر الأشقر؟

٨- الإيمان لمحمد نعيم ياسين.

٩- كتب شيخ الإسلام ابن تيمية.

١٠- كتب ابن القيم.

١١- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي.

١٢- عالَمَ السِّحْرِ والشَّعْوَذَةِ عمر الأشقر.

١٣- المهدي محمد إسماعيل المقدِّم.

١٤- فقه أشراط الساعة محمد إسماعيل المقدِّم.

١٥- العقيدة وأثرها في بناء الجيل عبد الله عزام.

١٦- وقاية الإنسان من الجن والشياطين وحيد بالي.

١٧- الولاء والبراء في الإسلام سعيد القحطاني.

١٨- شعب الإيمان، للبيهقي.

١٩- أصول مذهب الشيعة الاثنى عشرية د. عبد الله العماري.

كتب الحديث:

١- رياض الصالحين للنووي، وشروحه.

٢- صحيح الترغيب والترهيب للمنذري.

٣- جامع العلوم والحكم ابن رجب الحنبلي.

٤- صحيح البخاري.

٥- صحيح مسلم.

٦- سنن أبو داود.

٧- سنن الترمذي.

٨- سنن ابن ماجه.

٩- سنن النسائي.

١٠- فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

١١- شرح النووي لمسلم.

١٢- شرح الترمذي للمبارك فوري.

١٣- توجيهات نبوية سيد نوح.

١٤- كتب الشيخ الألباني في الحديث.

١٥- من وصايا الرسول طه العفيفي.

١٦- المعجزات الحسية في الأحاديث النبوية د. محمود الحفناوي الأنصاري.

كتب المصطلح:

١- اختصار علوم الحديث، لابن كثير.

٢- نُخْبة الفِكَر، لابن حجر.

٣- البيقونية مع شروحها.

٤- تيسير مصطلح الحديث للطحان.

٥- تدريب الراوي، للسيوطي.

٦- ألفية العراقي مع شرحها فتح المغيث، للسخاوي.

٧- النكت على كتاب ابن الصلاح، ابن حجر.

كتب الفقه:

١- الفقه الميسر مجموعة علماء.

٢- الملخص الفقهي صالح الفوزان.

٣- شرح كتاب عمدة الأحكام أحمد فريد.

٤- شرح عمدة الأحكام عبد الله البسام.

٥- الشرح الممتع على زاد المستقنع لابن عثيمين.

٦- كتب الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفقه.

٧- المغني لابن قدامة.

٨- المجموع، للنووي.

٩- السيل الجرار، للشوكاني.

١٠- الروضة الندية، صديق خان.

١١- المحلى، لابن حزم.

١٢- فقه السنة، للسيد سابق.

١٣- تمام المنة، للألباني.

١٤- نيل الأوطار، للشوكاني.

١٥- سبل السلام، للصنعاني.

١٦- مدار الدليل في شرح منار السبيل د. أحمد حطيبة.

١٧- الجامع لأحكام الصيام د. أحمد حطيبة.

١٨- الجامع لأحكام الحج د. أحمد حطيبة.

١٩- الشامل في فقه الخطبة والخطيب د. سعود الشريم، وهذا من أهم الكتب للخطيب.

كتب أصول الفقه:

١- الواضح في أصول الفقه للطحان.

٢- الوجيز في أصول الفقه عبد الكريم زيدان.

٣- المذكرة، للشنقيطي.

٤- شرح مراقي السعود، نشر البنود.

٥- البحر المحيط، للزركشي.

٦- شرح الكوكب المنير.

٧- إرشاد الفحول، للشوكاني.

٨- الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم

كتب الفكر والدعوة:

١- أساليب الغزو الفكري علي جريشة، محمد محمود زئبق.

٢- المستقبل لهذا الدين سيد قطب.

٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الندوي «أبو الحسن».

٤- إيجابية الداعية محمد أحمد الراشد.

٥- أصول الدعوة عبد الكريم زيدان.

٦- النظام السياسي في الإسلام محمد أبو فارس.

٧- العلمانية سفر الحوالي.

٨- الغزو الفكري وأثره في المجتمع عبد الحليم محمود.

١٠- عُلوُّ الهِمَّة محمد إسماعيل المقدَّم.

١١- تأملات في سورة يوسف ياسر برهامي.

١٢- مقدِّمات للنهوض بالعمل الدعوي عبد الكريم بكار.

١٣- فقه الدعوة إلى الله علي عبد الحليم محمود.

١٤- الابتلاء والمحن في الدعوات محمد أبو فارس.

١٥- أخلاقية الداعية عبد الله علوان.

١٦- آفات على الطريق سيد نوح.

١٧- تذكرة الدعاة البهي الخولي.

١٨- ثلاثون طريق لخدمة الدين رضا صمدي.

١٩- روحانية الداعية عبد الله علوان.

٢٠- فقه الدعوة في إنكار المنكر عبد الحميد البلالي.

٢١- المصَفَّى من صفات الدعاة عبد الحميد البلالي.

٢٢- معالم الدعوة في قصص القرآن عبد الوهاب الديلمي.

٢٣- صلاح الأمة في علو الهمة سيد العفاني.

٢٤- الهمة طريق إلى القمة محمد بن حسن بن عقيل.

٢٥- سلسلة رسائل العين في فقه الدعوة.

٢٦- الكلمة المقدسة د. محمد إسماعيل المقدم.

٢٧- رسائل الشيخ أبو بكر الجزائري.

كتب التاريخ والسير:

١- الرحيق المختوم للمباركفوري.

٢- هذا الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا محب للجزائري.

٣- السيرة النبوية، للإمام ابن هشام.

٤- تاريخ الإسلام، للذهبي.

٥- البداية والنهاية، لابن كثير.

٦- تاريخ الأمم، لابن جرير.

٧- سير أعلام النبلاء للذهبي ومختصره لمحمد بن عقيل بن موسى.

٨- البدر الطالع للشوكاني.

٩- حلية الأولياء لأبي نعيم.

١٠- عظماؤنا في التاريخ مصطفى السباعي.

١١- السيرة النبوية للصلَّابي.

١٢- سلسلة منير الغضبان في السيرة.

١٣- حياة الصحابة للكاندهلوي.

١٤- الرسول سعيد حوى.

١٥- زاد المعاد لابن القيم.

١٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر.

١٧- الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر.

١٨- التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر.

١٩- أصحاب الرسول محمود المصري.

٢٠- سيرة أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسن، ومعاوية، والتاريخ الإسلامي، وباقي السلسلة للصلَّابي.

٢١- فقه السيرة للغزالي.

٢٢- فقه السيرة للسباعي.

٢٣- صحيح السيرة النبوية إبراهيم العلي.

كتب المعاجم اللغوية:

١- لسان العرب لابن منظور.

٢- المصباح المنير.

٣- القاموس المحيط.

٤- مختار الصحاح.

٥- مقاييس اللغة لابن فارس.

٦- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

٧- العقد الفريد لابن عبد ربه.

كتب اللغة العربية والنحو:

١- التحفة السنية بشرح الآجِرُّوميَّة محمد محي الدين.

٢- قطر الندى وبل الصدى لابن هشام.

٣- الحوار بشرح الآجِرُّوميَّة السيد حسن الديب.

٤- النحو الواضح مصطفى أمين.

٥- التطبيقات النحوية عبده الراجحي.

٦- التطبيقات الصرفية عبده الراجحي.

٧- دلائل الإعجاز محمود أحمد شاكر.

كتب الأدب والشعر:

١- المعارف لابن قتيبة.

٢- أدب الكاتب لابن قتيبة.

٣- معجم الأدباء للحموي.

٤- عيون الأخبار لابن قتيبة.

٥- البيان والتبيين للجاحظ.

٦- جواهر الأدب للهاشمي.

٧- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان.

٨- الأصمعيات للأصمعي.

٨- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي.

٩- شرح القصائد السبع لابن الأنباري.

١١- الحماسة لأبي تمام.

كتب التزكية والأخلاق:

١- إحياء علوم الدين الغزالي.

٢- الأخلاق الإسلامية وأسسها عبد الرحمن الميداني.

٣- الآداب الشرعية ابن مفلح الأندلسي.

٤- أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب محمود الصواف.

٥- الأذكار للنووي.

٦- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم.

٧- الفوائد لابن القيم.

٨- البيان في مداخل الشيطان عبد الحميد البلالي.

٩- تزكية النفوس أحمد فريد.

١٠- تلبيس إبليس ابن الجوزي.

١١- تهذيب مدارج السالكين عبد المنعم العزي.

١٢- جند الله ثقافةً وأخلاقًا سعيد حوى.

١٣- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ابن القيم.

١٤- الخطايا في نظر الإسلام عفيف طبارة.

١٥- خلق المسلم محمد الغزالي.

١٦- ذم الهوى ابن الجوزي.

١٧- ذم الدنيا ابن أبي الدنيا.

١٨- الرعاية لحقوق الله الحارث المحاسبي.

١٩- الرقائق محمد الراشد.

٢٠- زاد على الطريق مصطفى مشهور.

٢١- الزواجر عن اقتراف الكبائر ابن حجر الهيثمي.

٢٢- شخصية المسلم محمد الهاشمي.

٢٣- الصبر في القرآن يوسف القرضاوي.

٢٤- الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا.

٢٥- عدة الصابرين ابن القيم.

٢٦- فن الذكر والدعاء محمد الغزالي.

٢٧- قطار المستغفرين إلى ديار التائبين جاسم المطوع.

٢٨- قيمة الوقت عند العلماء عبد الفتاح أبو غدة.

٢٩- مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي.

٣٠- المدهش ابن الجوزي.

٣١- الوقت عَمَارٌ أم دمارٌ جاسم المطوع.

٣٢- الوقت في حياة المسلم القرضاوي.

٣٣- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم.

٣٤- صيد الخاطر لابن الجوزي.

٣٥- نضرة النعيم في أخلاق الرسول الكريم (وهذا من أهم الكتب للخطيب والداعية وهو ١٢ مجلدًا) لمجموعة من العلماء.

٣٦- هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا محمود الخزندار.

٣٧- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

٣٨- البحر الرائق في الزهد والرقائق د. أحمد فريد.

٣٩- عنبر الحياة د. أحمد فريد.

٤٠- هذا عقل أبو بكر الصديق يا معشر العقلاء د. محمود الحفناوي الأنصاري.

٤١- هيا بنا نتوب د. محمود الحفناوي الأنصاري.

كتب الأسرة والمجتمع:

١- تربية الأولاد عبد الله ناصح علوان.

٢- الربا وأثره على المجتمع الإنساني عمر الأشقر.

٣- روح الدين الإسلامي عفيف طبارة.

٤- السلوك الاجتماعي في الإسلام حسن أيوب.

٥- المسؤولية في الإسلام عبد الله قادري.

٦- معالم الشخصية الإسلامية عمر الأشقر.

٧- مسؤلية الأب المسلم عدنان باحارث.

ولا ننسى المكتبة الشاملة على جهاز الحاسوب، ففيها أكثر من خمسة عشرة ألف كتاب.

وكذلك المكتبة الوقفية على النت يقوم الخطيب بتحميلها على حاسوبه.

وأيضًا لا تنسى المواقع المفيدة لكل خطيب على النت:

موقع المنبر، موقع صيد الفوائد، وموقع الألوكة، وموقع أنا السلفي، ومنتدى ملتقى الخطباء، وصفحة الخطيب المؤثر أسد المنابر على الفيس بوك.

مع خالص دعائي لكم بالتوفيق والسداد،

وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفصل الرابع

مباحث مهمة

المبحث الأول: الخطبة بين الإبداع والتقليد

المبحث الثاني: موضوع الخطبة بين التكرار والتجديد

المبحث الثالث: الخطبة بين التطويل والتقصير

المبحث الرابع: الارتجال

المبحث الخامس: الإعداد

الفصل الرابع

مباحث مهمة

المبحث الأول

الخطبة بين الإبداع والتقليد

يعمد بعض الخطباء إلى تقليد أسلافهم أو مشاهير خطباء عصرهم تقليدًا ينسلخون فيه عن ذواتهم ليتقمَّصوا شخصيَّة أولئك الخطباء الأسلاف أو المشاهير.

فتجد الواحد منهم حريصًا على الأتيان بكلِّ ما يعرفه عن الخطيب الذي يقلِده من أفكار وعبارات وأحوال وحركات وأوضاع، فينصرف بذلك عن ذاته انصرافًا كليًّا، وتصبح أفكاره ومشاعره وقريحته خاضعة في حركتها واتجاهها لمن يقلّده من الخطباء، فتأتي خطبته ضعيفة التأثير؛ لأنَّها لم تشع من مشكاة فكره، ولم تتدفق من معين عاطفته، ولم تخرج معانيها من أعماق نفسه، وإنَّما جاءت أفكارها وألفاظها وعواطفها من ساحة غيره، ولم يزد هو عن كونه مجرَّد بوق لسواه.

ولكن لا ينبغي أن يُفهم من كلامنا هذا أنَّنا نستنكر التقليد بصورة عامَّة، كَلَّا فنحن نستحسنه في الخطيب الناشء الذي ما زال يخطو خطواته الأولى في هذا الميدان، فهو بحاجة إلى التأسِّي بالخطباء الممارسين في عصره أو ما قبل عصره والاستعانة بخطبهم وكلامهم، حتى يتمكن من الوقوف على قدميه، وقوفًا يشعّ عزيمة وحيوية وتماسكًا وقدرةً.

وأمَّا الخطيب المتقن الممارس فإنَّه إذا اقتصر في اقتدائه بمشاهير خطباء عصره أو السابقين على الانتفاع بأفكارهم وآرائهم فهذا شيء حسن وجميل، بل لم ينهل من معين ألفاظهم وعباراتهم واكتسب من أساليبهم وحاكى طرائق نسج خطبهم لكان أمرًا محمودًا ما دام متمتعًا بِشَخْصِيَّةٍ المستقلة إذ يأخذ هذا الذي استفاد منهم فيؤلف بينه ويزيد عليه ليخرج منه شيئًا جديدًا يتجلى فيه إبداعه وابتكاره.

وأمَّا أن يكون مُقلِّدًا لهم تقليدًا كاملا بحيث يقول قولهم نفسه ويؤدِّي خطبته مثلما يؤدون لهجة ولفظا وهيئة فينسخ من نفسه نسخة عنهم في كلامه وحركاته ونبرة صوته فهذا ما تدعوا إلى هجره والتخلي عنه لأن يؤدِّي إلى قتل الإبداع عند ذلك الخطيب المقلِّد ويقضي على قدرته على العطاء والتجديد؛ إذ ينبغي للخطيب الممارس أن يكون مصدرًا تنبع منه أفكارًا وتصدر عنه آراء لم يسبق إليها، ويعطي من ذاته ما يتخلف الناس إليه ولا يجدون عند غيره، وَيُقّدِّم لهم ما يناسب واقعهم وظروفهم وقضاياهم، والخطيب الذي تنفجر معاني خطبته من قلبه وتنبع أفكارها من ذاته وتتأجج بعواطفه وانفعالاته يكون تأثيره في نفوس الناس أبلغ ممن يملي عليهم أفكار غيره ومشاعرهم وانفعالاتهم.

وأعود لأؤكد قائلًا: إنَّني لا أذم من التقليد إلا تلك الصورة المقيتة، التي يصبح الخطيب تبعًا لغيره ويتحرَّى تقليد سواه يذيب معها نفسه في شخصية من يقلده من الخطباء، فتجده يَعْمد إلى تقليد طريقة أدائه وشكل إلقائه ونبرة صوته ونوع لهجته وهيئة وقوفه وحركته، وربَّما يجعله اهتمامه بهذا الأمر ينصرف عن الاهتمام بموضوع خطبته وأفكارها، فتجده يعني برفع صوته أو يخفضه

ليحاكي بذلك صوت الخطيب الذي يقلده، وقد يعيد العبارة أكثر من مرة إلى أن يشابه إيقاع إلقائها ولهجة أدائها إيقاع صوت ذلك الخطيب ولهجته أثناء إلقاء خطبته.

وإذا ما أمعنت النظر في كلام الخطيب المقلِّد الذي صرف جلَّ اهتمامه، وبالغ عنايته إلى ذلك التقليد وجدته في أكثر الأحيان أشلاء ممزقة وقطعًا متناثرة لا يضبطها نظام ولا يؤلف بينها اتساق، فتفقد بذلك بهاءها ورونقها، ويقلَّ نفعها أثر وقعها، فللتقليد ضوابطه وحدوده وأهدافه وأغراضه يجب التزام مسارها والتقيد بها؛ ليثمر ذلك التقليد نفعًا ويحقق فائدة.

المبحث الثاني

موضوع الخطبة بين التكرار والتجديد

يُعَدُّ التجديد في موضوع الخطبة أمرًا ضروريًّا يقتضيه تطور الحياة المستمر والتجدد الذي يطرأ علي واقع الناس في أحوال معاشهم وظروف حياتهم واتجاه ثقافتهم ومظاهر منجزاتهم؛ ذلك لأن موقع الخطيب في الناس يقتضي التصاقه بمختلف ظروف حياتهم وأن يكون قريبًا من واقعهم الذي تجري فيه تلك التطورات وتكثر فيه المتغيرات فيفرض عليه ذلك أن يختار من مواضيع الخطب ما يناسب تلك الأمور المتجددة في حياة الناس، وهذا الاختيار الذي تبرز فيه ظاهرة التجديد المستمر في الخطب يتوقف علي تمتع الخطيب بدقة فكرية ويقظة ذهنية وثقافة متنوعة ومعرفة غزيرة ودراسة واعية شاملة لعوامل التطور ونواحي التجديد في حياة الناس، وأما تكرار مواضيع الخطب بإعادة الموضوع الواحد منها أكثر من مرة فهو خصلة لا تحمد إلا في ضرب معين من الخطب؛ لأنه يورث المستمعين السآمة من جهة، والشعور بعدم الاستزادة من النفع من جهة أخري، كما ينم عن ضيق أفق الخطيب العلمي والثقافي وعجزه عن إمداد جمهوره بحاجته المتجددة من الفائدة.

وقد نلمس هذا المسلك العاجز عند فريق من الخطباء حيث نجد أحدهم يلزم في جميع خطبه ضربًا من المواضيع لا يبرحه في مختلف المناسبات، وخاصَّة في أيام الجُمُعات حيث يُقَيِّدُ نفسه بعدد من المواضيع يعيدها ويكررها في كل عام غير عابئ بالمتجددات الفكريَّة والاجتماعية والعلميَّة التي يتمخض عنها استمرار الحياة البشرية.

ومن طريف ما سمعت: أنَّ خطيبًا كان قد حفظ عددًا من الخطب يخطبها أيَّام الجمع في إحدى القرى فكان في نهاية كلَّ خطبة يدعو بدعاء لا يبدله وكان يلتزم في دعائه بدعوة للسلطان العثماني عبد الحميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويسأل الله له فيها التأييد والحفظ والنصر على أعدائه في البر والبحر.

ومن طريف ما ذكر في مثل ذلك:

أنَّ رجلًا دخل مسجدًا لأداء صلاة الجمعة فصادف رجلا على بابه رجلًا بقي خارج المسجد إلى أن أقيمت الصلاة، فدخل عند ذلك وصلّى وَتَكَرَّرَ هذا الأمر من ذلك الرجل أكثر من مرَّة، فسأله الرجل الأول عن سبب تخلفه عن حضور الخطبة واكتفائه بشهود جماعة الصلاة فقط، فقال له الرجل: إنني أصلي في هذا المسجد منذ عشرين سنة، وأنَّ خطيبه التزم مجموعة من الخطب المكتوبة يكرِّر إلقاءها علينا في كلَّ عام، ولقد حفظتها جميعًا فلا أجد داعيًا لحضوري الخطبة ما دمت أعرف ماذا سيخطب الخطيب؛ لذلك اقتصرت على حضور الصلاة وحدها دون الخطبة.

ولا يعني كلامنا عن التكرار الغضّ من شأنه بشكل عام، فنحن نعترف بضرورته المُلِحَّة في خطب الوعظ والإرشاد التي تتناول مواضيع: الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام والتقوى والإخلاص وخشية الله والجنَّة والنار، ونحو ذلك من المواضيع التي بصدد تكرارها وقرع أسماع الناس بها بين الحين والآخر؛ لأنَّ النفس البشريَّة تركن بطبيعتها إلى الشهوات ويعتريها نوع من الفتور في ترك المخالفات وإنكار المنكر فتأتي الموعظة

مُجَدِّدَةً فيها النشاط، باعثة لها على الاستقامة وتجنُّب الانحراف، مُوقِظَةً إيَّاها من الغفلة وسكرة الدنيا.

ولكن يجب على الخطيب أن يُلَوِّن في أسلوب عرض الموضوع الواحد الذي ينبغي تكرره حتى يخرج في كلِّ مرَّةٍ بثوب جديد كأنه لم يطرح من قبل فلا تمله الأسماع ويبقى المستمعون في حالة تنبه وتشوق مستمر لما يلقى عليهم من الوعظ والإرشاد.

وهذا ما نلمسه واضحًا في مواعظ القرآن الكريم والتوجيهات النبويَّة الشريفة وإرشاد السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

فلو تتبعنا موعظة القرآن الكريم لوجدنا ظاهرة التكرار واضحة أصيلة في أكثر من موضوع.

فموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثلًا ورد في سورة آل عمران في قوله سبحان: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١١٠].

وورد في سورة التوبة في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة:٧١].

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١١٢].

وورد في سورة لقمان في قوله سبحانه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧].

وفي الموعظة النبويَّة نرى ظاهرة التكرار أوضح من الشمس في رابعة النهار حيث كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُ أصحابه بالموعظة فكلما أحسَّ منهم فتورًا جدد نشاطهم بالموعظة.

المبحث الثالث

الخطبة بين التطويل والتقصير

نودُّ هنا أن نبسط الحديث عن مسألة تطويل الخطبة وتقصيرها، ونناقش الآراء المطروحة حولها، ونبيِّن وجهة نظرنا مع تأييد كلامنا بالأدلَّة المناسبة. تُعتبَر مسألة تطويل الخُطبة، وتقصيرها مسألة نسبيَّة يخضع تقديرها للموضوع والمناسبة والجمهور.

فموضوع الخُطبة ومناسبتها وجمهور المستمعين، هذه الثلاثة هي التي تحدِّد مقدار الخطبة من حيث الطول والقِصَر فخطب الجهاد مثلًا حيث يكون الخطيب وسط الجند وفي حضرة العدو، وحين الاقتراب من بدء المعركة ليس من الحكمة تطويلها لأنها تُلْقَي في اللحظات الحاسمة التي تدعو الجند إلى أن يستغلوا وقتهم في تدبير استعدادهم للقاء عدوِّهم فيكفي الخطيب في مثل هذا الموقف أن يُذكِّر الجنود بالآخرة وفضيلة الجهاد في سبيل الله ومقام الشهادة والشهداء، ويحضهم على منازل العزَّة والشرف مؤيِّدًا خُطبته ببعض الآيات والأحاديث التي تحضُّ على الجهاد، وتُرغِّب في الشهادة في سبيل الله، ويحرص على أن يبعث بكلماته الحماسية في الجنود، ويؤجِّج فيهم القوَّة والعزيمة الصادقة، كلُّ هذا ينبغي للخطيب أن يحقِّقه بأوجز العبارات، وأشدِّ الكلمات اختصارًا وأوضحها بيانًا، وأبلغها تأثيرًا، ونذكر تأكيدًا لذلك وصيَّة سيِّدِنا أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أمَّره على جيش عظيم وجَّهه إلى الشام، ومنها قوله (وإذا وعظتَهم، فأوجز، فإنَّ كثير الكلام يُنسي بعضه بعضًا).

وكذلك ليس من الحكمة أن يطيل الخطيب خطبته إذا كان في مناسبة تضم لفيفا من الخطباء والمتكلمين الذين اقتضى برنامج الاحتفال بتلك المناسبة أن يتعاوروا الصعود إلى منصة الخطابة؛ وذلك ليتمكن هؤلاء الخطباء المكلفون من إلقاء كلماتهم كلها دون أن يجتاح أحدهم وقت غيره فيوقعه في الحرج، ولا يمكنه من أن يؤدي خطبته كاملة في الوقت المناسب، فوجب علي الخطيب في هذه الحال أن يتقيد بالزمن المخصص له حتى يفسح المجال لغيره، وهذا من أدب الخطباء، ونذكر أيضا أنه ينبغي للخطيب أن يتجنب إطالة الخطبة إذا كان يلقيها على جمهور من المستمعين قَلَّ فيهم المثقفون وكثر البسطاء والعوام؛ لأن مثل هذا الجمهور لا يستطيع متابعة الخطيب ذِهْنِيًّا أكثر من بضع دقائق، وأما إذا تناول الخطيب في خطبته مشكلة اجتماعية لها مساس قوي بحياة الناس ووجد من الضروري استقصاء هذه المشكلة من جميع جوانبها وإيضاحها وبيان حلولها وطرق معالجتها فلا تعد إطالته عيبًا؛ لأن جمهوره يحتاج إلى جميع ما يقوله لفرط اهتمامه بتلك المشكلة التي يعانيها الناس، وكذلك إذا قام الخطيب متكلما في جمهور يَضمُّ أهل العلم والثقافة ويقلّ فيه بسطاء الناس وعامتهم فلا تذمُّ إطالته وتوسُّعه في عرض موضوعه وتعمُّقه في معالجة أفكاره وآرائه، بل يُحمَد ذلك منه؛ لأنَّ جمهوره يملك الاستعداد الكامل للتَّلَقِّي الطويل والقدرة على استيعاب خطبته.

نستخلص من هذا كلّه تأكيد ما ذكرناه في بداية هذا الفصل، وهو أَنَّ التطويل مسألة نسبيَّة لا كما يدَّعي بعضهم، إذ يقولون: يجب أن تُحدَّد الخُطبة بوقت لا تزيد عليه مهما كان نوع موضوعها أو نوع الجمهور المستمع إليها،

ويؤكِّدون ذلك كثيرًا في خطبة الجمعة محتجِّين بخبر الإمام مسلم وأحمد في قوله: **«إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَاقْصُرُوا الخُطْبَةَ»**.

ويقولون: إنَّ الإنسان، مهما بلغ ذكاؤه ومستوى ثقافته، لا يتمكَّن من تركيز انتباهه على ما يُملى عليه أكثر من نصف ساعة، فالحدُّ الأعظمي لزمان الخطبة يجب ألَّا يتجاوز في الجمهور الأعلى فكرًا وثقافةً حدود ثلاثين دقيقة، وأما في حضرة بسطاء الناس فينبغي أن ينزل هذا الوقت إلى أقلّ من نصفه، ثُمَّ يقولون: وحيث كانت خطبة الجمعة تَضُمُّ خليطًا من مستويات البشر الفكريَّة والثقافيَّة فيوجد في المستمعين إليها الإنسان المثقف والإنسان العامي البسيط فقد وجب لذلك ألَّا تتجاوز مدة إلقائها عشر دقائق والدقائق العشرة كثيرة.

ثُمَّ يحتجون ببعض خطباء المساجد الذين لا يتجاوز أحدهم في مُدَّة إلقاء خطبته حدود خمس دقائق، ويقولون زيادة على ذلك: اقرؤوا خطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة الكرام والتابعين ومن جاء بعدهم فسوف تجدون أن أطول خطبة منها لا تحتاج لقراءاتها قراءة هادئة بطيئة إلى أكثر من عشرة دقائق أو أقلّ من ذلك.

نقول لهؤلاء وأمثالهم:

نحن لا نعارض الرأي في تقصير الخطبة، ولكن نعارض الرأي في تحديدها بمدَّةٍ معينَّة دون النظر إلى كون التطويل والتقصير أمرًا نسبيًّا كما ذكرنا من قبل؛ لأنّ مواضيع الخُطَب تتفاوت في حاجتها إلى مدَّة الإلقاء، فمنها ما يُستقصي بحثُه في عشرة دقائق، ومنها ما يحتاج إلى أكثر من ذلك، وأمَّا عن الاحتجاج بأنَّ بعض

خطباء المساجد يُؤدُّون في مدَّة خمس دقائق لا يتجاوزنها، فتقول: إذا علمنا أنَّ خطيب الجمعة يؤدِّي خطبتين قبل صلاة الجمعة، وأنَّ فيهما خمسةَ أركان يجب استيفاؤها، وأنَّ ثلاثة أركان منها تجب إعادتها في الخطبة الثانية فسوف نجد أنَّ هذه الدقائق الخمس لا تكاد تكفي استيفاء صعود الخطيب إلى المنبر وجلوسه عليه خلال فترة الأذان ووقوفه لإلقاء خطبته والأركان الواجبة في الخطبتين والجلوس عليه بينهما، وهنا نسأل: ماذا تبقى من الوقت للموضوع الذي سيبحث فيه الخطيب إذا لم تزد مدَّة الخطبة على خمس دقائق؟! فالمسألة فيها نظر ولا يمكن التسليم بها لمجرَّد أنَّ فلانًا من خطباء المساجد كان يُؤَدِّيَ خطبته في خمس دقائق.

وعن احتجاجهم بخبر مسلم في طول صلاة الرجل وقصر خطبته نجيب قائلين: لقد وجه الحديث الشريف إلى تقصير الخطبة فقط، ولم يحدِّد إلقاءها في مدَّة لا يجوز تجاوزها فلا حجة بالحديث إلى ما ذهبوا إليه.

وأما احتجاجهم بقصر خُطَب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخُطَب أصحابه ومن جاء بعدهم فيُوهنه أنَّ ما جاءنا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من قِصار الخطب وهو ما حفظه المسلمون الأوائل منها فربَّما تكون الخطبة القصيرة المرويَّة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزءًا من خطبة طويلة بدليل ورود الخطبة الواحدة من خطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طرق متعدِّدة متفاوتة المتن طولًا وقصرًا بزيادة جملة، أو فقرة كاملة أو نقص ذلك، فالمنقول إلينا من خطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ما حفظ منها في صدور أصحابه وبقي عالقًا في أذهانهم، وغالبًا ما تروى مجردَّة من المقدمة ودعاء الختام، فيقول الراوي من الصحابة: (فحمد الله وأثنى عليه...)

وهذا لا شك في أنَّه ليس لفظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحمد والثناء وإنّما هو إخبار عنه بلسان الصحابيّ الراوي للحديث.

فمقدِّمة الخطبة النبويّة لها جزء من الوقت وكذلك ختامها، ونزيد على ذلك أمورًا ترجح أن تكون الخطبة النبوية قد أخذ إلقاؤها من الوقت أكثر مما نحتاجه قراءة نَصِّهَا المنقول إلينا، لما يأتي:

(١) ثبت في الصحيح أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ في مقدمة خطبته سورة «ق» حتى إنّ بعض نساء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ حفظن هذه السورة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قالت: لَقَدْ كَانَ مَعَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بُيُوتِنَا وَإِنَّ تَنُّورَنَا وَتَنُّورَهُ وَاحِدٌ سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ أُخْرَى وَمَا أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ بِهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى النَّاسِ إِذَا خَطَبَهُمْ»[(١)].

ولا ريب في أن قراءة سورة «ق» التي تعد خمسًا وأربعين آية تحتاج سردًا، وإنّما كان يتكلم بحيث لو شاء العادّ أن يعد كلامه لأحصاه، وكان يعيد الكلمة أو الجملة ثلاثًا لتفهم عنه، وهذا ما لا يشك أحدٌ في أنه سيستغرق من الوقت مدّة غير يسيرة.

(٢) لم تكن خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميعها على نسق واحد من حيث طولها أو قصرها، وإنّما كان بعضها طويلًا وبعضها قصيرًا، فقد أخرج الإمام أحمد والترمذيّ والحاكم والبيهقيّ عن أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة صحيح مسلم (٣/ ١٣) رقم (٢٠٢٥).

«صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»(١).

ولو سلمنا جدلًا بكون التقصير صبغة خطابه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر السلف فإنّا نقول: إنّ اختلاف الأحوال والظروف بيننا وبين المسلمين الأوائل سبب في تحديد صبغة الخطبة من حيث الطول والقصر، وهذا يتّضح في الأمور الآتية:

(أ) إنّ ضعف المستوى الثقافي وانتشار الأُمية عند الأوائل لم يكن يستدعي تطويل الخطبة خلافًا لما أصبح عليه الناس اليوم، فقد اتسعت ثقافاتهم وتخلصوا من براثن الأمية فغدوا بذلك أهلًا لاستقبال الخطبة الطويلة بالترحيب.

(ب) إنّ صفاء أذهان السابقين وسلامة لغتهم وفهمهم الدقيق والسريع لمرامي الكلام ودلالات الألفاظ كان داعيًا إلى اكتفائهم بالخطبة القصيرة خلافًا لما أصبح عليه الناس في زماننا، فقد فسدت ألسنتهم، وضعفت عربيتهم، وتكدرت أذهانهم، فغدوا بحاجة إلى الخطبة الطويلة التي تعرض فيها الفكرة الواحدة في أكثر من أسلوب ليفهمها الناس، وتكثر فيها المترادفات لتتّضح الدلالات.

(٣) لم يكنَّ المسلون الأوائل يقتصرون على خطبة الجمعة وحدها للتفقه في أحكام الدين، وتعلم آداب الإسلام وتوجيهاته، وإنّما كان منبر العلم والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ مستمرًا في حياتهم طيلة أيّام الأسبوع، حيث كانوا يلتقون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوقات الصلاة وفي غيرها فيتعلمون منه دين الله وينتفعون

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢١٩٢) في الفتن، باب ما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة وفي سنده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، ومع ذلك فقد الترمذي: هذا حديث حسن، أقول: ولبعض فقراته شواهد.

بإرشاداته ومواعظه، وإذا حدث أمرٌ أو وقعت حادثة لم يكن رسول الله يؤجل معالجتها إلى خطبة الجمعة، وإنّما كان يبادر فورًا إلى جمع الناس ليعظهم ويذّكرهم بما ينفعهم، فكان المسلمون الأوائل على صلة مستمرة بمواعظ الإسلام في معظم أيّام حياتهم، ونؤيد كلامنا بمثلين من سيرة النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه:

الأول: جاء في الصحيحين: بلغ رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أصحابه شيء، فصَعِد المنبر وخطب فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَو تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»(١) فما أتى على أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أشد منه غطُّوا رؤوسهم ولهم خنين.

الثاني: جاء في الصحيحين:عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّاسُ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَإِلَى الصَّلَاةِ**»(٢).

لقد أسرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إنقاذ تصورات العقيدة الإسلامية وحمايتها من أي فكر أو شعور يُعَكِّرُ صفاءها، ويخل بموازنتها، فبيَّن للمسلمين أنَّه حدَثٌ كونيٌّ، الجدير بهم حياله أن يضرعوا إلى الله ويسألوه انكشافه عبر صلاتهم ودعائهم، ولا ريب أن هذا الأمر الخطير لا تؤجَّل معالجته إلى وقت آخر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٦٠، رقم ٦٨٦٤)، ومسلم (٤/ ١٨٣٢، رقم ٢٣٥٩).

(٢) أخرجه مالك (١/ ١٨٦، رقم ٤٤٤)، وأحمد (٦/ ١٦٤، رقم ٢٥٣٥١)، والبخارى (١/ ٣٥٤، رقم ٩٩٧)، ومسلم (٢/ ٦١٨، رقم ٩٠١)، وأبو داود (١/ ٣٠٧، رقم ١١٨٠).

وهكذا كان رسوله الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع واقع المسلمين في جميع أحواله، وكذلك أصحابه الكرام الذين ساروا على هديه وانتهجوا سبيله، فلقد كانوا يعيشون مع موعظة الإسلام وهي تقرع أسماعهم وتُغَذَّي عقولهم، وَتُوَجِّه قلوبهم يلقيها عليهم خلفاؤهم وقادتهم وعلماؤهم في مناسبات شتى. وأما اليوم فلقد اختلف وضع المسلمين عمّا كانوا عليه في الماضي، حيث أصبح عدد كبير منهم لا يتلقون الإسلام إلا يوم الجمعة، وفي خطبة الجمعة بالذات وأما في بقيَّة أيّام الأسبوع فينصرفون إلى معاشهم ودنياهم معرضين عن مجالس العلماء ومواضع تذكرة الإسلام إلَّا قليلًا منهم.

وأمام مشاكلهم الطارئة وقضاياهم المستمرة وافتقارهم إلى حلول الدِّينِ ومعالجته الحكيمة لتلك القضايا والمشاكل تشتد الداعية إلى تطويل خطبة الجمعة؛ ليتمكن خطيبها من استيفاء المعالجة المطلوبة وطرح الحلول المناسبة؛ إذ من المتعذر على خطيب الحيِّ إذا وقعت حادثة أن يجمع الناس في غير يوم الجمعة ليعظهم بها وَيُذَكِّرهم بها ويذكّرهم بأمرها.

وبعد هذا التفصيل والبيان نجد من المناسب أن نختم هذا الفصل بما جاء في «حاشية تحفة ابن حجر» نقلًا عن الإمام الأذرعي حيث قال:

وحسن أن يختلف ذلك باختلاف أحوال وأزمان وأسباب، وقد يقتضي الحال الإسهاب أي التطويل كالحث علاأى الجهاد إذا طرق العَدُوُّ والعياذ بالله تعالى البلاد، وغير ذلك من النهي عن الخمر والفواحش والزِّنا إذا تتابع الناس فيها. اهـ.

المبحث الرابع

الارتجال

إنّ الكلام الذي يُنزَع معناه من النَّفس حال إلقائه، ويصدر عن انفعالٍ نفسيٍّ يكون أبلغ تأثيرًا في نفس السامع وأسرع إلى مَلك عواطفه ومشاعره.

وهذه الصورة الخطابيّة تُعرَف بالارتجال.

فالارتجال يرتبط ارتباطًا وثيقًا بظاهرة الانفعال النفسيِّ والتَّوقُّدِ العاطفيِّ؛ لأنَّ المتكلِّم المرتجِل يستمدُّ أفكاره وكلماته من عطاء الظرف الذي هو فيه والمقام الذي يقومه، فتأتي خطبته منسجمةً مع واقع الجمهور المستمع إليه؛ لأنَّها وليدة آنها بألفاظها وأفكارها.

ولكن لا يُحسن هذا الضرْب من الخطب إلَّا من كانت له تجربة عميقة وخبرة دقيقة في مجال الخطابة، فكان جريء القلب، غزير الاطِّلاع، سريع البداهة، ثريَّ اللُّغة، واثق النَّفْس.

وأمّا من ضحلت معارفُه، وهزل بيانُه، وخار قلبُه، وضعفت جرأتُه، وأبطأت بديهته، فإنَّه لن يجرؤ على الارتجال؛ لأنّ رهبة المواقف وهيبة المقام يجعلان الأفكار تنأيعن ذهنه، والكلمات تعزُب عن لسانه، فيتلجلج في موقفه، ويخفق في حديثه.

والارتجال ضرب محمود في الخطابة، وخاصَّةً إذا كان الظرف يستدعيه والمناسبة تتطلَّبه، فإذا طُلب من الخطيب الكلام في حَفْل ما، ولم يكن مُعِدًّا نفسه

للخُطبة، فإنَّ مقدرته على الارتجال تُسعِفه في موقفه هذا، فيؤدي خطبته على أكمل وجهٍ دون حرج أو إرهاق.

ويحدث أحيانًا أن يُعِدَّ الخطيب نفسه لإلقاء خطبة تدور حول موضوع معيَّن، فتقع حادثة أو ينشأ ظرف يصرفه عن طرح الموضوع الذي أعدَّه، ويضطرُّه إلى إلقاء موضوع آخر يتناسب مع الظرف الطارئ والموقف الحادث، وهنا تظهر أهميَّة الارتجال وضرورته، حيث يستفيد الخطيب من مقدرته عليه، فيأتي من الخِطاب بما يناسب المقام، ويستدعيه الوضع الراهن.

ومن دواعي محامد الارتجال وحاجة الخطباء إليه ما يعرض للخطيب أثناء خطبته من أمور ومواقف تضطرُّه إلى أن يُغَيِّرَ من بعض الأفكار، والشواهد التي كان قد زوَّرها في نفسه وأعدَّها قبل إلقاء خطبته، ويأتي بما يتناسب مع الظرف الطارئ والموقف الذي استدعى هذا التعديل المفاجئ.

يُضاف إلى ذلك أنَّ ثمَّةَ نوعًا من الخُطب يفتقر إلى الارتجال ليكون أقوى تأثيرًا وأنفذ في نفس السامع، وهذا الضَّرْب من الخُطَب هو الذي يرتكز إلى العاطفة المتدفِّقة والحماسة الثائرة، فحيث وُجِدَ الظرف الذي يستثير المشاعر ويؤجج العواطف كان الارتجال أصلح وأبلغ؛ لأن العاطفة الثائرة ترتبط بشدَّة مع ظرف المناسبة والجمهور المستمع، وتخضع لأدنى تغيُّرٍ يطرأ على جوِّ المناسبة التي تُلقى فيها الخطبة، وهذا لا يتأتَّى إحكامه من نطاق الإعداد المسبق للكلام؛ لأنَّ الخطيب لم يكن يعيش حال إعداد خطبته هذه الطوارئ والتقلبات التي انتابت أجواء حديثه، بل لم يكن يتوقَّعها.

ومن الخُطَب التي يناسبها الارتجال: «خطبة الجهاد» وخاصَّةً إذا كان المستمعون هم الجنود الذين يقفون على أُهبة الاستعداد لقتال العدوِّ، وكان الخطيب قائد الجند، هنا لا خطابة أنسب من الارتجال؛ لأنَّ المجال مجال إثارة العواطف، وإيقاظ المشاعر، وبعث الحماسة في النفوس.

ومن الخطب التي ارتجلت في مثل هذا المقام، وسجَّلها التاريخ، فكانت إحدى روائع الخُطب خُطبةُ طارق بن زياد التي ألقاها في لحظة لقاء العدوِّ يوم فتح الأندلس.

المبحث الخامس

الإعـــداد

بعد أن تحدَّثنا عن الارتجال، وتبيَّنت لنا مزاياه، واتضحت فضائله، وأدركنا موطنه المناسب، آن لنا أن نتحدّث عن إعداد الخُطب لنتعرف مزاياه وخصائصه التي تبرز من خلالها أهميتَّه وضرورته.

لقد اتضح لنا في البحث السابق أنَّ الارتجال منوط بتأجيج العواطف وإثارة المشاعر، يعني هذا أنَّ التركيز العاطفي يكون فيه أظهر وأهم من التركيز الفِكْرِيِّ الذي يحتاج إلى رؤية وأناة وهدوء وتأمُّل، وإذا حصل في الخطبة المرتجلة تركيز فكريٌّ عميق، فإنَّه يأتي عفويًّا من وَحْي الظرف الطارئ والمناسبة الواقعة؛ لهذا وجدنا الخُطَب المرتجلة قصيرة النَّفَس قليلة الأفكار مفعمة بالعاطفة، يسيطر عليها بركان الحماسة وحرارة الموقف.

وأما الإعداد فهو الذي يُنتج الأفكار الناضجة، والمعاني المتناسقة، والألفاظ المناسبة المنمَّقة المُوحِيَة، والسبك الرائع المُعْجِب، والأداء القويّ المشرق، والنَّفس الطويل.

فلا يستطيع الخطيب أن يقدِّم موضوع خطبته كامل الأفكار متَّزن المعاني بديع الألفاظ رائع التعبير إلَّا بعد إعداد سابق، حيث يخلو بمعارفه ومطالعاته، فيختار منها ما يناسب موضوعه، وَيُرَتِّبه ويرصفه رصفًا محكمًا كَلَبِنَاتِ البناء الواحد، ويتخيّر العبارات المناسبة التي تمنح خطبته جمالًا وتأثيرًا.

وظاهرة الإعداد ليست دليلًا على ضعف الخطيب وضُمور قدرته الخطابيَّة، بل نجد في الإعداد دليلًا على مدى عناية الخطيب بموضوع خطبته واهتمامه بجمهوره الذي ينتظر منه النفع، ويبتغي تحصيل الفائدة، إذ لو ارتجل خطبته، ولم يعدَّ أفكارها ومعانيها الإعداد المناسب، لجاءت ضعيفة الغذاء، قليلة الماء، شاحبة الرُّواء، عاجزة عن معالجة الموضوع من جوانبه كافَّةً بصورة محكمة، وطريقة صحيحة، فينشأ عن ذلك أن يفقد الخطيب ثقة جمهوره به، بخلاف الإعداد فإنَّه يثمر ثقة الناس بخطيبهم؛ لأنَّهم لَمسوا آثار عنايته بهم، وحرصه على إفادتهم من خلال الأفكار الخصبة، والمعاني الناضجة المتناسقة، والألفاظ المعبِّرة، والجمل الموحية التي يزجيها إليهم عبر خطبته.

ولقد كان كبار الخطباء وأرباب الكلام قديمًا وحديثًا يجنحون إلى إعداد الخُطب، ولا يميلون إلى الارتجال إلَّا حينما يستدعيه الظَّرف ويتطلَّبه الموقف، ومن أدلَّة ذلك أنّ سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عن نفسه يوم مبايعة سيِّدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة في سقيفة بني ساعدة التي دار فيها أمر خطير بين المسلمين: «كنت زوَّرت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر».

وقال البعيث الشاعر، وكان من أخطب الناس: «إنِّي والله ما أُرسل الكلام قضيبًا خَشِيبًا[1]، وما أُريد أن أخطب يوم الحفل إلاَّ بالهائت المحكَّك[2]».

(١) **(الخشيب)** من كل شيء الغليظ الخشن واليابس ومن الرجال والجمال الطويل الجافي العاري العظام في صلابة وشدة وغلظ (ج) خشب وخشائب، (الخشيبة) النحيزة. المعجم الوسيط (١/ ٢٣٥)

(٢) **المُحَكِّكُ:** ما يجذب خلطا لذاعا حارا. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص١٧٩)، وقيل: المُحَكَّكُ الذي حكَّكَه الدَّهْرُ حتى أَحْكَمَه. كتاب العين للفراهيدي (٦/ ٩٥).

وكان ابن النوَّام الرّقاشيُّ يقول، إذا دُعي إلى الكلام ولم يكن مهيِّئًا نفسه: «ما اشتهى الخبز إلَّا بائتًا».

ولمّا صعِد سيدُّنا عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المنبر يوم خلافته وأراد الكلام أُرْتِجَ عليه، فقال وهو على المنبر: «أيُّها النَّاس إنَّ أوَّل كلِّ مركب صعب، وإنَّ أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقاله، وإن أعِشْ تأتكم الخُطَب على وجهها، وسيجعل الله بعدَ عُسرٍ يسرًا إن شاء الله».

وكما ذكرنا في الارتجال من حيث ضرورتُه في بعض الخُطَب نقول هنا: إنَّ الإعداد ضروريٌّ أيضًا في بعض آخر من الخُطب، ولا يصحُّ العُدول عنه إلى غيره، ومن هذه الخُطب: الخُطَب السياسيَّة التي تحتاج إلى دِقَّةٍ في إعداد الأفكار وتهيئ المعاني، وحسن في التعبير، وقوَّة في الإلقاء، وكذلك الخُطّب الاجتماعيَّة التي تتناول مشاكل المجتمع وأمراضه، وتبحث في وسائل علاجها وصرف الدواء الناجع لها.

وأيضًا الخُطَب الفكريَّة والعلميَّة التي تتناول قضايا الفكر الإنسانيِّ ومسائل العلم الشرعيِّ والكونيِّ، وتبحث فيها مرتكزةً على التحليل والاستنباط والاستدلال والتعليلات، وغير ذلك من مسالك المعرفة.

فهذه الأنواع الخطابيَّة لا يجدي فيها غير الإعداد، لأنّها تستند إلى الدقَّة والعُمق والإحكام.

وينقسم إعداد الخُطبة إلى قسمين هما:

(١) الإعداد الذهنيّ. (٢) الإعداد الكتابيِّ.

(١) الإعداد الذهنيِّ:

هو تَهْيِئُ أفكار الخطبة وألفاظها في الذهن قبل إلقائها، وهذا تناولناه في السطور السابقة.

(٢) الإعداد الكتابيِّ:

هو ألا يقتصر الخطيب على تَهْيِئِ معاني خطبته وكلماتها في ذهنه، وإنَّما يُثْبِت ذلك كتابةً في قِرْطاس.

والإعداد الكتابيِّ يكون على نوعين:

النوع الأول: الاقتصار على كتابة رؤوس أقلام الخطبة وعناصرها الرئيسية، وكتابة بعض النصوص المستشهد بها.

ونجد كبار الخُطباء من يسلك هذا النَّمط في الإعداد الخطابيِّ. وفائدته أن يحصر أفكار خطبته وعناصرها الرئيسية، فلا يشرد عن بعضها، ولا يشتطَّ في غيرها، وبذلك يُحكم بناء خطبته الفكريَّ ويضبط مسارها المعنويّ على النسق الذي أعدَّه في ذهنه قبل إلقائها.

النوع الثاني: كتابة الموضوع كاملًا بأفكاره وكلماته، وهذا النوع ضروريٌّ في موطنَيْن:

أولًا: إذا كان الموضوع يبحث في قضيَّة علميَّة تكثُر فيها القواعد والنظريات، ويمكن أن تزلَّ بها الألسنة، وألَّا تضبطها الأذهان بمختلف جوانبها وبدقائقها جميعها، ففي هذه الحال يَحْسُن بالخطيب أن يكتب موضوع خطبته بأفكاره وألفاظه حتى يؤدِّيها كاملةً بلا نقص أو خطأ.

ثانيًا: إذا كان الخطيب مبتدئًا في مجال الخطابة، ولم يكن له سابق دُرْبةٍ، وكان ضحل المعرفة قليل المَعِينِ اللُّغويِّ والزاد الفكريِّ، فهو أحوج ما يكون إلى كتابة خطبته على ورقةٍ تكون بين يديه بمنزلة الملجأ الذي يعتصم به والرُّكْن القويِّ الذي يستند إليه، إذ لو اقتصر على إعداد الخُطبة في ذهنه دون كتابتها، وهمَّ بإلقائها استظهارًا، فربَّما اضطرب في موقفه هيبةً من المستمعين الذين يشخصون إليه بأبصارهم، فإذا وقعت عيناه عليهم، والتقت نظراته نظراتهم، انشعبت أفكاره، واضطرب ذهنه، وتلعثم لسانه، واعترته رعدة الموقف وهيبة المقام، فتأتي خطبته بسبب ذلك ضعيفة البنيان مهتزَّة الأركان قليلة النفع سيِّئة الإلقاء، وربَّما ينعكس سوؤها على الخطيب نفسه، فيعزف عن التصدِّي للكلام في مثل هذا الموقف مرَّة أخرى، ويفقد الشجاعة على أن يقوم خطيبًا في قوم آخرين.

الخُطبة المكتوبة المعدة مسبقًا:

لابدَّ لنا حيث تحدثنا عن إعداد الخُطب من أن نتحدث عن الخُطبة المكتوبة، ونقف حيالها وقفةً نستجلي من خلالها بعض الملاحظات، والنقاط الهامَّة التي نستكمل بها حديثنا عن موضوع إعداد الخطبة.

وفي توضيح ذلك نقول: إنَّ الخطبة المكتوبة إما أن تكون من إعداد الخطيب نفسه فهي تشتمل بذلك على طائفة من نتاج فكره، ومخزون علمه ومعرفته، ورصيد عواطفه ومشاعره، أو تكون من إعداد غيره.

والخطبة المكتوبة التي لا تكون من صنع الخطيب نفسه لا تُحقق تأثيرها وفعاليتها في نفوس الناس المستمعين إليها إلَّا إذا عاشها الخطيب الذي يلقيها بعواطفه ومشاعره وأفكاره، وألقاها إلقاءً حسنًا، وأدَّاها أداءً كاملًا، فلم يخطئ

بقراءة كلمة منها، ولم يلتبس عليه شيء من تراكيبها ومعانيها. فإذا انسجم الخطيب مع تلك الخطبة المكتوبة المستوردة بفكره وعواطفه وأحاسيسه، حتى أحسَّ جمهور المستمعين إليه كأنَّها نابعة من ذاته عند ذلك تؤتي ثمارها الطيِّبَة في نفوس الناس ومشاعرهم وأفكارهم وتكون خطبةً ناجحةً نافعةً مؤثِّرة.

وأمَّا إذا لم تتحقق هذه الخصال في الخطبة المكتوبة المستوردة، ولم يزد واقع الخطيب على أكثر من كونه قارئًا لها وملقيًا لألفاظها وتراكيبها على الجمهور المستمع إليه، فإنَّ تأثيرها يكون ضعيفًا، ونفعها يكون محدودًا ومتوقِّفًا على مدى فهم الناس لمراد ألفاظها وتراكيبها وانسجامهم عَقْلًا وروحًا ووجدانًا مع معانيها، حيث يصبح حالهم معها كحالهم مع أيَّة مقالة يقرؤونها في كتاب أو صحيفة، أو يستمعون إليها عَبْر وسائل الإعلام المسموعة والمرئيَّة، هذا إذا أحسن الخطيب إلقاء الخطبة، وأصاب في قراءة ألفاظها وتراكيبها، وأمَّا إذا أخطأ، واضطرب لسانه في قراءة كلماتها، وأتى بها على غير وجهها الصحيح، فإنَّ نتائجها تكون سيئةً في نفوس الناس وآثارها الفكريَّة والوجدانيَّة تكون مُفسِدة هدَّامةً، ذلك لأنَّهم لَمْ يُبلَّغُوا الفكرة الصحيحة، ولم يتلقَّوا المعارف المقصودة والفوائد المنشودة تلقيًا سليمًا، وإنَّما صُبَّت الخطبة في أذهانهم مزيجًا من الأغاليط والغموضات والالتباسات والأفكار المضطربة والألفاظ المتضاربة التي تجعلهم تارةً في حيرة وأُخرى في بُعْدٍ ونفور من ذلك الخطيب الذي فقدوا معه أسباب الاتصال الفكريِّ والروحيِّ والوجدانيِّ.

ونذكر فيما يأتي أمثلة على مثالب الخطبة المستوردة إذا أساء الخطيب قراءتها، ولم يُحسن أداءها، ولم يتفاعل روحيًّا ووجدانيًّا معها:

حضر داعية الجمعة في أحد المساجد، وأصغيت إلى الخطبة التي كان يلقيها الخطيب علينا مكتوبة في كرَّاس أمسكه بيده، فكان ذلك الخطيب كلَّما أنهى قراءة ورقة من أوراق ذلك الكرَّاس قلبها ليقرأ ما بعدها، فحدث أن قلب ورقتين معًا دون انتباه فانتقل بنا إلى موضوع آخر لا علاقة له بموضوع الخطبة التي كان يقرؤها علينا، ثمَّ تابع حديثه دون توقُّف، فأصبحنا في متاهة فكريَّة وروحيَّة، وتمنينا انتهاء حديثه وتوقُّفه عن الكلام منتظرين إقامة الصلاة بفارغ الصبر لكي نحقِّق فيها حاجتنا من الاتصال الروحيِّ والقلبيِّ الذي فوَّت علينا ذلك الخطيبُ فرصتَه، وشتَّت أذهاننا وقلوبنا عن ثمرته.

وذكروا لنا أنَّ خطيبًا كان يلقي على الناس في أحد المحافل خطبةً مكتوبة، لم تكن من بنات فِكَره ولا من رصيد علمه ومعارفه، وإنَّما كانت خطبة مستوردة من صناعة غيره بألفاظها ومعانيها، فوصل أثناء قراءته إلى عبارات قرأها على الناس هكذا: «إن البلاطم والزناعم والرباعم واحد وخمسون من الدنيا، واحد وخمسون من الدنيا».

فتعجَّب الناس من كلامه ولم يفهموا مراده، ولمَّا أنهى خُطبته استفسروا منه عن معنى تلك العبارات وما المقصود منها، فرجع إلى ورقة الخُطبة ينظر فيها، فاتضح له أنَّه قد أخطأ بقراءتها، والصواب أن يقرأها هكذا: (إن البلا طمَّ، والزِّنا عَمَّ، والربا عمَّ، آه من الدنيا آه من الدنيا).

وذكروا أيضًا أنَّ خطيبًا كان يُلقي على الناس خطبةً مكتوبة من كتابٍ قديمٍ اشتمل على مجموعة من الخُطب عدد أسابيع السَّنة، فكان ذلك الخطيب لا يُنقص حرفًا واحدًا من تلك الخطب حتى الدعاء المكتوب في آخر الخطبة، فإنَّه

كان يأتي به بحذافيره دون نقص أو تغيير، فكان يذكر اسم الخليفة في معرض الدعاء له حسبما جاء في كتاب تلك الخُطب مع أنَّ الخليفة المذكور مات منذ سنين، وانصرمت خلافته منذ أمدٍ بعيدٍ، وأصبح مجرَّد ذكرى تاريخيَّة في نطاق ترجمة الشخصيَّات وسِيَر الملوك والخلفاء.

بعد هذا البيان وضَرْب تلك الأمثال نقول:

يجب على الخطيب أن يتنبَّه إلى خطر الخُطبة المستوردة، فإن كان لا بدَّ له منها فعليه أن يُراعي الأمور والملاحظات التي أشرنا إليها وملخَّصها: «أن يعيش مع تلك الخُطبة بفكره وروحه ووجدانه، وأن يتفاعل مع ألفاظها وتراكيبها ومعانيها كأنَّها من نتاج قريحته ومن عطاء فكره ومن فيوضات أعماقه ومشاعره».

الخَاتِمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

هذا جهد المُقِلِّ، وبحثٌ أردت منه أن نصل في يوم من الأيام إلى الخطيب المؤثِّر، الذي يَعبرُ بالناس إلى بَرِّ الأمان، ويكون سببًا في نقلهم -بفضلِ اللهِ- من الظلماتِ إلى النور، ومن الضلالةِ إلى الهُدَي، ومن الغي إلى الرشاد، ومن التخبطِ في ظلمات الجهل إلى نورِ العلم، ومن الشكِ إلى اليقين، ومن الاضرابِ إلى الإيمان.

هذا بحث أردت منه أن يقف الخطيبُ المؤثّرُ على قوانين الخطابة، والوقوف على مبادئها التي يستضيئ بها في طريقه، فيرفع بها من مستواه الخطابي، حتى يصلَ -بعون الله- إلى درجةِ الخطيبِ المؤثر.

وهي أيضًا ومضات في طريقِ طالبِ العلمِ الذي يريد أن يدخلَ هذا المعترك، قبل أن يصعدَ المنبر، ويُبلِّغَ للناس ما وصل إليه من علم، ويحُبَّ أن يكونَ من الهداة المهتدين بإذن الله تعالي.

وفي نهاية هذا البحث أقول هذا هو الخطيب الذي أبحث عنه، بل وتبحث عنه الأمة الإسلامية بأكملها، فيا هل ترى هل نستطيعُ أن نكونَ منهم؟، نرجو من الله ذلك.

أيها الخطيب المؤثر: هذا عمل إنساني لا يخلو من الخطأ والسهو والنسيان، فما وجدتَ فيه من خير فانشره، وما وجدتَ فيه غير ذلك فلا تبخل علينا بالنصيحة، والتوجيه والإرشاد، فلا خير فيك إن لم تَنصحني، ولا خير فيَّ إن لم أقبل نصيحتك.

جعلني الله وإياكم من المتحابين فيه والمتناصحين فيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

أ. د. محمود الحفناوي الأنصاري

أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية - بروكسل - غرب أفريقيا

عفا الله عنه، وعن والديه، ومشايخه،

وزوجاته، وأبنائه، وطلابه

alhefnawy200022@gmail.com

المراجع والمصادر

هذه هي أهم المصادر والمراجع من الكتب التي وقفت عليها في فن الخطابة وأصولها، وبعض الفنون الأخرى.

١- خصائص الخطبة والخطيب نذير محمد مكتي.

٢- فن الإلقاء الرائع د. طارق السويدان.

٣- الخطابة وإعداد الخطيب د. توفيق الواعي.

٤- دليلك إلى عروض قوية ومؤثرة أ. محمد أحمد عبدالجواد.

٥- ٣٣٣ تقنية للتدريب والإلقاء المؤثر د. علي الحمادي.

٦- دورة: الإلقاء الفعال أ. ماجد بن جعفر الغامدي.

٧- حتى لا تكون كَلًّا د. عوض القرني.

٨- مواقف الداعية التعبيرية عبدالله ناصح علوان.

٩- دورة في الخطابة د. عبدالرحمن واصل.

١٠- شريط فديو: الخطابة د. طارق السويدان.

١١- مجموعة أشرطة: الثقة بالنفس د. موسى المزيدي.

١٢- أصول الخطابة والإنشاء المراجع الشيخ / عطية محمد سالم.

١٣- وميض من الحرم ـ د. سعود الشريم.

١٤- مقالة سامي بن خالد المحمود.

١٥- مقالة - محمد أمير ناشر النعم.

١٦- أضواء على مواصفات خطبة الجمعة إسماعيل نواهضه.
١٧- صفات خطيب الجمعة الناجح علي مدني الخطيب.
١٨- الفوائد المجتمعة لخطيب الجمعة محمد صبحي الحلاق.
١٩- دراسات في الدعوة والدعاة محمد الغزالي.
٢١- كيف تكون خطيبًا ناجحًا محمد عمارة.
٢٢- مُقوِّمات الداعية الناجح ـ علي بن عمر بادحدح.
٢٣- ثلاثية النجاح خليل صقر.
٢٤- أفراح الروح سيد قطب.
٢٥- الشامل في الخطبة والخطيب د. سعود الشريم.
٢٦- إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي.
٢٧- البيان والتبيين الجاحظ.
٢٨- تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات.
٢٩- جواهر الأدب في أبيات وإنشاء لغة العرب السيد أحمد الهاشمي.
٣٠- الخطابة والخطيب د. محمد سمير الشاوي.
٣١- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.
٣٢- لسان العرب أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور.
٣٣- المبسوط، أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي (ت٧٠٧هـ).
٣٤- إعداد الخطيب بين الموهبة والتدريب أ. د طلعت محمد عفيفي سالم.
٣٥- مفتاح دار السعادة ـ ابن القيم.

الفهرس

إلى فارس المنبر..... ٥
مقدمة الطبعة الثانية ٦
مقـدمة..... ٨
عملي في الكتاب..... ١٣
تمهيد «ومضات البدء»..... ١٧
خطباءُ لامعين..... ١٩
كيف تخاطب الناس؟..... ٢١
الدعوة تحتاج إلى اللسان المعبر..... ٢٣
الباب الأول..... ٢٥
الفصل الأول: «مقدمة لغوية»..... ٢٧
المبحث الأول: التعريف اللغوي للخطابة..... ٢٧
وأمَّا دلالتها على المواجهة بالكلام..... ٢٧
المبحث الثاني: فوائدها..... ٢٩
المبحث الثالث: طرق تحصيل الخطابة..... ٣٠
المبحث الرابع: مقصود الخطيب من الخطبة..... ٣١
الفصل الثاني: «لمحة تاريخـية»..... ٣٣
المبحث الأول: الخطابة في العصر الجاهلي..... ٣٥

المطلب الأول: مكانة الخطيب عند العرب والجاهليين..... ٣٦
المطلب الثاني: أنواع الخطابة العربية قبل الإسلام..... ٣٧
(١) خطب القتال والحضّ على الأخذ بالثأر..... ٣٨
(٢) خُطب الصلاح..... ٣٨
(٣) خُطب الوعظ والإرشاد..... ٣٨
(٤) خُطب الوفـود..... ٤٠
(٥) خُطب النكاح..... ٤٢
المبحث الثاني: الخطابة في العصر الإسلامي..... ٤٤
المطلب الأول: أنواع الخُطب فِي هذا العصر..... ٤٦
(١) الخُطَب الدينيّة..... ٤٦
(٢) خُطب الجهاد والحضِّ على القتال في سبيل الله سبحانه..... ٤٩
(٣) خُطب المحافل والوفود..... ٤٩
(٤) خُطب المنافرات والمفاخرات..... ٥٠
(٥) الخُطَب السياسية..... ٥١
(٦) خطبة النكاح..... ٥٢
المطلب الثاني: أشهر خطباء الإسلام فِي الصدر الأول..... ٥٢
المطلب الثالث: الخطابة بعد عصر الخلافة الراشدة وإلى مشارف العصر الحديث..... ٥٤
المطلب الرابع: الخطابة في العصر الحديث..... ٥٨
الفصل الثالث: أهمية المنبر وفارسه..... ٦١

أهمية المنبر..... ٦٣
فارس المنبر القدير..... ٦٤
عِظَمْ المُهِمَّة..... ٦٥
الفصل الرابع: الخطبة..... ٧١
المبحث الأول: الخطبة وأشهرها خطبة الجمعة..... ٧٣
المبحث الثاني: أهمية خطبة الجمعة..... ٧٤
المبحث الثالث: خصائص خطبة الجمعة..... ٧٦
المبحث الرابع: بعض الأحكام الشرعية الخاصة بخطبة الجمعة..... ٧٨
الباب الثاني «أقسام الخطبة»..... ٨١
الفصل الأول: «الخطبة»..... ٨٣
المبحث الأول: المقدّمة..... ٨٥
المطلب الأول: تعريف المقدمة..... ٨٥
المطلب الثاني: أنواع المقدمة..... ٩١
المطلب الثالث: نماذج من مقدمات لخطب منبرية..... ٩١
(١) مقدمة خطبة بعنوان: «إعداد النشء ليكونوا رجالًا»..... ٩١
(٢) مقدمة خطبة بعنوان: «المحافظة على الصلاة والخشوع فيها»..... ٩٢
(٣) مقدمة خطبة بعنوان: «جنة الخلد»..... ٩٢
(٤) مقدمة خطبة بعنوان: «لبيك اللهم لبيك»..... ٩٣
المبحث الثاني: الموضوع..... ٩٤
المطلب الأول: تعريف الموضوع..... ٩٤

المطلب الثاني: عنوان الموضوع..... ٩٤
كيف أختار عنوانًا لِلْخُطْبَةِ؟..... ٩٤
العنوان الجذاب..... ٩٥
المطلب الثالث: الاختيار..... ٩٦
(١) المناسبة..... ٩٧
أولًا: مناسبات طارئة..... ٩٨
ثانيًا: مناسبات متكررة بتكرر الأعوام..... ٩٩
(٢) الجمهور المستمع..... ١٠٣
(٣) الوقت..... ١٠٤
وضع خطة لموضوعات الخطبة..... ١٠٥
تقسيم موضوعات الخطب..... ١٠٥
تتابع الخطب في موضوع واحد وأثره..... ١٠٨
خطأ الجمود على مواضيع معينة..... ١٠٩
المطلب الرابع: التحضير..... ١١٢
أولًا: الإيماني المعنوي..... ١١٢
ثانيًا: التحضير الكتابي المادي..... ١١٢
تحديد الهدف..... ١١٢
(١) أهداف قصيرة المدى..... ١١٤
(٢) أهداف متوسطة المدى..... ١١٤
(٣) أهداف بعيدة المدى..... ١٤٤

صياغة الهدف..... ١١٥
كيف تحضِّر خطبة الجمعة؟..... ١١٦
لكل خطيب طريقته في تحضير الخطبة..... ١٢٠
لكل كاتب أو خطيب طريقة..... ١٢١
كيف تعد وتحضر موضوعًا ناجحًا؟..... ١٢٣
مرحلة الإعداد..... ١٢٤
أشكال التحضير..... ١٢٧
أخيرًا العلمية..... ١٢٨
المطلب الخامس: التقسيم..... ١٢٩
(أ) شمول التقسيم..... ١٢٩
(ب) ترتيب فقرات التقسيم..... ١٢٩
(جـ) حسن الربط بين فقرات الموضوع..... ١٣٠
المطلب السادس: التوضيح..... ١٣١
المطلب السابع: الخاتمة..... ١٣٢
أهمية الخاتمة..... ١٣٢
فوائد حسن الختام في الخطب..... ١٣٣
أسلوب القرآن الكريم فِي خواتيم السور..... ١٣٤
أنواع الخاتمة..... ١٣٥
وختامه مسك..... ١٣٦
الفصل الثاني: «الأسلوب فِي الخطبة»..... ١٣٩

المبحث الأول: تعريفه، أثره وأهميته، خصائصه..... ١٤١
المطلب الأول: تعريفه..... ١٤١
المطلب الثاني: أثره وأهميَّته..... ١٤١
المطلب الثالث: خصائصه..... ١٤٢
المبحث الثاني: وسائل الأُسلوب..... ١٤٣
المطلب الأول: الألفاظ..... ١٤٣
المطلب الثاني: التراكيب..... ١٤٨
المبحث الثالث: أنواع الأسلوب..... ١٦٠
المبحث الرابع: سُبل تقوية الأسلوب الخطابي..... ١٦٤
المطلب الأول: أهمية اللغة العربية..... ١٦٤
المطلب الثاني: أهم مصادر العربيَّة الفُصحى..... ١٦٧
(١) القرآن الكريم..... ١٦٧
(٢) الحديث النبويُّ الشريف..... ١٦٨
(٣) كلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ١٦٩
(٤) كلام التابعين وتابعيهم..... ١٧٠
المبحث الخامس: الأساليب النبوية في الخطبة..... ١٧٣
المطلب الأول: الهدي الفعلي والقولي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة..... ١٧٣
أولًا: الهدي الفعلي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة..... ١٧٣
ثانيًا: الهدي القولي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبه..... ١٧٥
المطلب الثاني: أنواع الخطب في هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخطبة..... ١٧٦

الفصل الثالث: «الاستشهاد في الخطبة».....١٨١
المبحث الأول: تعريفه.....١٨٣
المبحث الثاني: أهميَّته ومكانته.....١٨٣
المبحث الثالث: شروط الشاهد.....١٨٥
الأول: أن يكون مناسبًا للفكرة المستشهد عليها به.....١٨٥
الثاني: ألّا يكون الشاهد طويلا حتى لا يصرف السامعين عن الموضوع الأصليّ.....١٨٧
الثالث: أن يكون الشاهد صحيح الوقوع، قويَّ الورود عن أصحابه.....١٨٨
الرابع: أن يكون الخطيب متين الحفظ للشاهد دقيقًا في نقله وإلقائه.....١٨٨
المبحث الرابع: أنواع الشاهد.....١٨٩
(أ) القرآن الكريم.....١٨٩
شروط الاستشهاد بالقرآن الكريم.....١٩٤
(ب) الحديث النبويّ الشريف.....١٩٦
شروط الاستشهاد بالحديث الشريف.....١٩٧
(جـ) الأقوال المأثورة.....٢٠٠
أولًا: أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.....٢٠٠
ثانيًا: أقوال السلف الصالح.....٢٠١
ثالثًا: أقوال علماء الإسلام.....٢٠٢
شروط الاستشهاد بالأقوال المأثورة.....٢٠٤
(د) أقوال أهل الفكر وعلماء الكون.....٢٠٤

شروط الاستشهاد بأقوال أهل الفكر وعلماء الكون..... ٢٠٥
(هـ) المثل..... ٢٠٥
أهميَّته وضرورته..... ٢٠٥
نظرة القرآن الكريم إلى ضَرْب الأمثال..... ٢٠٦
أقسام المثل..... ٢٠٦
أنواع المثل..... ٢٠٧
(و) القصَّـة..... ٢٠٨
نظرة القرآن الكريم إلى القصَّة..... ٢٠٩
موارد الاستشهاد بالقِصَّة..... ٢١٠
(١) القرآن الكريم..... ٢١٠
(٢) الحديث النبويّ الشريف..... ٢١٢
(٣) التاريخ..... ٢٣٧
(٤) وقائع الحياة المعاصرة..... ٢٣٨
شروط الاستشهاد بالقصّة..... ٢٣٨
(ز) الأنباء والحوادث والمعاصرة والإحصائيّات..... ٢٣٩
مصادرها..... ٢٤٠
أمثلة على الاستشهاد بها..... ٢٤٠
شروط الاستشهاد بالأنباء المعاصرة والإحصائيَّات..... ٢٤٠
عيوب فِي الخطبة..... ٢٤١
الباب الثالث «الخطيب»..... ٢٤٩

الفصل الأول: تعريف الخطيب ومكانته..... ٢٥١
المبحث الأول: تعريف الخطيب..... ٢٥١
المبحث الثاني: مكانة الخطيب ومنزلته..... ٢٥١
الفصل الثاني: المقومات العقلية للخطيب..... ٢٥٧
المبحث الأول: حبه لأداء رسالته وإقباله عليها بشغف..... ٢٥٩
أولًا: عنايته بالثقافة والمعرفة فِي جميع فروعها..... ٢٦٢
(أ) القرآن الكريم..... ٢٦٣
(ب) السنة النبوية..... ٢٦٤
(جـ) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي..... ٢٦٦
(د) الثقافة اللغوية والأدبية..... ٢٦٦
(هـ) علوم أخرى..... ٢٦٧
ثانيًا: معرفة قواعد وأصول الخطابة..... ٢٦٩
الفصل الثالث: صفات الخطيب..... ٢٧١
المبحث الأول: صفات الخطيب..... ٢٧٣
المطلب الأول: صفات تتعلَّق بذات الخطيب..... ٢٧٣
القسم الأول: الصفات المتعلقة بذات الخطيب قبل الخطبة..... ٢٧٤
الصفة الأولى: الاستعداد الفِطْري..... ٢٧٤
الصفة الثانية: الدربة والمران أو الارتياض والممارسة..... ٢٧٥
الصفة الثالثة: قوة البيان وفصاحة اللسان..... ٢٧٨
الصفة الرابعة: الزاد العلمي..... ٢٧٩

العلوم الضرورية اللازمة للخطيب..... ٢٨٠
(١) علوم القرآن والسنة..... ٢٨٠
(٢) علم العقيدة..... ٢٨١
(٣) العلم بالأحكام الشرعية المتعلقة بالإمامة والصلاة..... ٢٨٢
العلوم التكميلية..... ٢٨٢
(١) علم الرقاق والأخلاق..... ٢٨٢
(٢) علم التاريخ..... ٢٨٣
(٣) العلم باللغة والأدب..... ٢٨٥
(٤) العلوم الإنسانية..... ٢٨٥
(أ) علم النفس..... ٢٨٦
(ب) علم الاجتماع..... ٢٨٦
(٥) الإلمام بأصول الثقافة المعاصرة..... ٢٨٧
(أ) واقع العالم الإسلامي..... ٢٨٨
(ب) واقع القوى العالمية المعادية للإسلام..... ٢٨٨
(جـ) واقع الأديان المعاصرة..... ٢٨٩
(د) واقع المذاهب السياسية المعاصرة..... ٢٩٠
(هـ) واقع الحركات الإسلامية المعاصرة..... ٢٩٠
الصفة الخامسة: الربانية..... ٢٩٠
أول صفة من صفات الربانية: «أن يتعلق قلبك بالله»..... ٢٩٦
الصفة الثانية من صفات الربَّانيين: «أنهم أهل العلم»..... ٢٩٨

الصفة الثالثة من صفات الربانية: «صابر»..... ٣٠٠
الصفة الرابعة من الربانية: «التأله والتنسك»..... ٣٠١
الصفة الخامسة للربانية: «العبد الرباني غيورٌ لله»..... ٣٠١
الصفة السادسة من صفات الربانية: «الربانيون يحكمون بما أنزل الله ويقيمون شرع الله»..... ٣٠٤
الصفة السابعة من صفات الربانية: «أنهم حفظة شهداء»..... ٣٠٥
وسائل تساعدك على تحقيق الربانية..... ٣٠٧
صور مشرقة من الربانيين..... ٣٠٩
الصفة السادسة من صفات الخطيب: «قوة الشخصية»..... ٣١٢
الصفة السابعة من صفات الخطيب: «حُسن الأخلاق»..... ٣١٣
الصفة الثامنة من صفات الخطيب: «الإخلاص»..... ٣١٧
الصفة التاسعة: «الحلم وسعة الصدر»..... ٣١٩
الصفة العاشرة: «التواضع»..... ٣١٩
الصفة الحادية عشر: «ضبط النفس واحتمال المكاره»..... ٣٢٠
الصفة الثانية عشر: «القناعة والعفة واليأس من الناس»..... ٣٢٠
الصفة الثالثة عشر: «الورع واتقاء الشبهات والبعد عن مواضع الريبة ومسالك التهمة»..... ٣٢١
الصفة الرابعة عشر: «علو الهمة»..... ٣٢٣
القسم الثاني: الصفات المتعلِّقة بذات الخطيب أثناء الخطبة..... ٣٢٤
الصفة الأولى: فن الإلقاء..... ٣٢٤

(أ) حسن الإلقاء..... ٣٢٤
كيف يكون إلقاؤك مؤثرًا؟..... ٣٣٩
كيف تتغلب على القلق؟..... ٣٥٢
التغلب على الخوف والخجل..... ٣٥٤
كيف تقيس مدى استجابة الجمهور؟..... ٣٥٥
(ب) جهارة الصوت وحُسنه..... ٣٥٦
أهمية الصوت..... ٣٥٧
هل جمال الصوت خِلقة أم اكتساب؟..... ٣٥٩
الهدي النبوي رفع الصوت فِي الخطبة..... ٣٦٠
ما ينبغي مراعاته فِي الصوت..... ٣٦٢
(جـ) اتّزان النَّبرات..... ٣٦٧
(د) النُّطق الجيّد..... ٣٦٩
عيوب النطق وعلاجها..... ٣٧٤
(هـ) الوقوف عند الموطن المناسب..... ٣٧٨
الصفة الثانية: سرعة البديهة..... ٣٨١
خصائص سرعة البديهة..... ٣٨١
شروط سرعة البديهة..... ٣٨٢
الصفة الثالثة: الحماسة وتأجُّج العاطفة..... ٣٩٢
الصفة الرابعة: رباطة الجأش وقُوَّة الجَنان..... ٣٩٤
الثقة بالنفس، والجرأة في مواجهة المشكلات..... ٣٩٦

المطلب الثاني: الصفات المتعلقة بمظهر الخطيب وهيئته..... ٣٩٩
الصفة الأولى: وقار لبسه وجمال مظهره..... ٣٩٩
المظهر اللائق..... ٤٠٥
الصفة الثانية: وقفة الخطيب حال إلقاء الخُطبة..... ٤٠٧
الصفة الثالثة: حسن إشارة الخطيب واتزان حركاته..... ٤١٠
الحركات والإشارات..... ٤١١
الاتصال البصري..... ٤١٤
ما هو دور الابتسامة المشرقة؟..... ٤١٤
المبحث الثاني: عُـدَّة الخطيب..... ٤١٦
(أ) العـلم..... ٤١٦
(ب) تَنَوُّع الثقافة واتساعها..... ٤١٨
(جـ) الاطلاع الدائم على كلِّ نبأ جديد..... ٤٢١
(د) أدب اللُّغة العربيَّة وبيانها..... ٤٢٣
(هـ) حفظ الكثير من القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف..... ٤٢٦
(و) علم المنطق والجدل..... ٤٢٨
(ز) علم النَّفْس الاجتماعيُّ..... ٤٣٣
المصادر التربويَّة..... ٤٣٤
(١) القرآن الكريم..... ٤٣٤
(٢) سيرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنَّته الشريفة..... ٤٣٥
(٣) سِيَر السابقين واللاحقين وما كتبوه حول هذا الموضوع..... ٤٣٦

المبحث الثالث: فهرسة مصادر الخطيب..... ٤٣٨
المبحث الرابع: إلى كلّ خطيب..... ٤٤٣
خصائص الخطيب..... ٤٤٣
١- أن يكون خطابه شَرْعِيًّا ربانيًّا..... ٤٤٣
٢- أن يكون الخطيب هاديًا لا جابيًا..... ٤٤٤
٣- أن يكون خطابه اجتهاديًّا..... ٤٤٥
٤- أن يكون خطابه متدرجًا..... ٤٤٥
٥- أن يكون خطابه متفاعلًا مع الواقع..... ٤٤٦
٦- أن يكون خطابه جامعًا لا مفرقًا..... ٤٤٧
أولًا: يجب على الخطيب أن يتجنَّب التقريع وفظاظة القول..... ٤٤٩
ثانيًا: إذا استنكر الخطيب من الناس أمرًا، فليحذر توبيخهم بأسلوب يستفز مشاعرهم، ويُؤذي كرامتهم..... ٤٥٠
ثالثًا: يجب على الخطيب أن يتدرَّج في مطالبة الناس بتطبيق الشريعة وأحكام الدِّين الحنيف..... ٤٥٢
رابعًا: يجب على الخطيب أن يكون أمينًا فِي خطبته مجافيًا للخيانة متجنبًا للغشِّ..... ٤٥٣
خامسًا: يجب على الخطيب أن يتجنّب التهجُّم على أقرانه الخُطباء، ويتحاشى من الاستخفاف بآراء العلماء..... ٤٥٣
سادسًا وأخيرًا: يجب على الخطيب أن يهجر الإطالة والإطناب في الكلام..... ٤٥٤
المبحث الخامس: مكتبة الخطيب..... ٤٥٥

كتب التفسير..... ٤٥٧
فِي العقيدة والإيمان..... ٤٥٧
فِي الحديث..... ٤٥٨
وفِي كتب المصطلح..... ٤٥٩
في الفقه..... ٤٦٠
في أصول الفقه..... ٤٦١
الفكر والدعوة..... ٤٦١
وفِي التاريخ والسير..... ٤٦٢
وفِي المعاجم اللغوية..... ٤٦٤
وفِي اللغة العربية والنحو..... ٤٦٤
وفِي الأدب والشعر..... ٤٦٤
التزكية والأخلاق..... ٤٦٥
الأسرة والمجتمع..... ٤٦٧
الفصل الرابع: مباحث مهمة..... ٤٦٨
المبحث الأول: الخطبة بين الإبداع والتقليد..... ٤٧١
المبحث الثاني: موضوع الخطبة بين التكرار والتجديد..... ٤٧٤
المبحث الثالث: الخطبة بين التطويل والتقصير..... ٤٧٨
المبحث الرابع: الارتجال..... ٤٨٦
المبحث الخامس: الإعداد..... ٤٨٩
ينقسم إعداد الخُطبة إلى قسمين..... ٤٩١

(١) الإعداد الذهنيِّ..... ٤٩٢
(٢) الإعداد الكتابيِّ..... ٤٩٢
الخاتمة..... ٤٩٧
المراجع والمصادر..... ٤٩٩
الفهرس..... ٥٠١